«تجربة أدبية فريدة من نوعها
لا ينبغي تفويتها»
حنان عشراوي

بينما ينام العالم

سوزان أبو الهوى

سـوزان أبو الهوى

بينما يتام العالم

ترجمة

سامية شنان تميمي





بينما ينام العالم

شارك في تحرير هذا الكتاب:
محمد خير، شوقي قسيس، أسامة الصاوي، سُهيل زكي سليمان.

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٢
عن دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Mornings in Jenin
First published in English by Bloomsbury Publishing Plc, 2010

الترقيم الدولي: 9789992142592



Printed in Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc

إلى نَتالي وسيف



المحتويات

مفتتح ١٣

النَّكبة

١ ـ القطاف ١٧

٢ ـ «آري بيرلشتاين» ٢٥

٣ ـ بدوية بلا طائل ٣٢

٤ ـ عندما غادروا ٤٥

٥ ـ ابني! ابني! ٦٥

٦ ـ عودة يحيى ٧١

٧ ـ آمال ٨٦

النَّكسة

٨ ـ أدِّ البحر وكُلِّ سمكاته ٩١

٩ ـ حزيران في حفرة المطبخ ١٠٠

١٠ ـ بعد أربعين يومًا ١٢١

نَدبة داود

١١ ـ سرٌّ، كالفراشة ١٤٣

١٢ ـ يوسف، الابن ١٤٧

١٣ ـ شيطان «موشيه» الجميل ١٥٠
١٤ ـ يوسف، الرجل ١٥٥
١٥ ـ يوسف، السجين ١٥٧
١٦ ـ الأَخَوان يلتقيان مجدَّدًا ١٦١
١٧ ـ يوسف المُقاتِل ١٦٤
١٨ ـ ما وراء الصف الأول من الأشجار ١٦٥
١٩ ـ يوسف يرحل ١٧٩
٢٠ ـ أبطال ١٨٦
٢١ ـ نهايات متهاوية ١٩١
٢٢ ـ الرحيل عن جنين ٢٠٨
٢٣ ـ دار الأيتام ٢٢٢

الغُربـة

٢٤ ـ أمريكـــا ٢٥١
٢٥ ـ مكالمة هاتفية من يوسف ٢٦٥

قلبي في بيـروت

٢٦ ـ ماجد ٢٧٣
٢٧ ـ الرسالـــة ٢٩٥
٢٨ ـ نعـــم ٣٠٢
٢٩ ـ الحُـب ٣٠٥
٣٠ ـ حكاية أبدية ٣٠٨
٣١ ـ «فيلادلفيا»، مرة أُخرى ٣١٧
٣٢ ـ حكاية أبدية، لم تُروَ قطُّ ٣٢٦
٣٣ ـ رِثاء الأُمَّة ٣٣١

٣٤ ـ عاجــزة ٣٤٠
٣٥ ـ شهر الزهور ٣٤٥
٣٦ ـ يوسف، المنتقِم ٣٥٦

الذي بَينَنـا

٣٧ ـ امرأة من جُدران ٣٦١
٣٨ ـ هُنا، هُناكَ، وأبْعَد ٣٦٧
٣٩ ـ مكالمة «دافيد» ٣٧٨
٤٠ ـ أنا و«دافيد» ٣٨٥
٤١ ـ هدية «دافيد» ٣٩٨
٤٢ ـ أخي، «دافيد» ٤٠٦

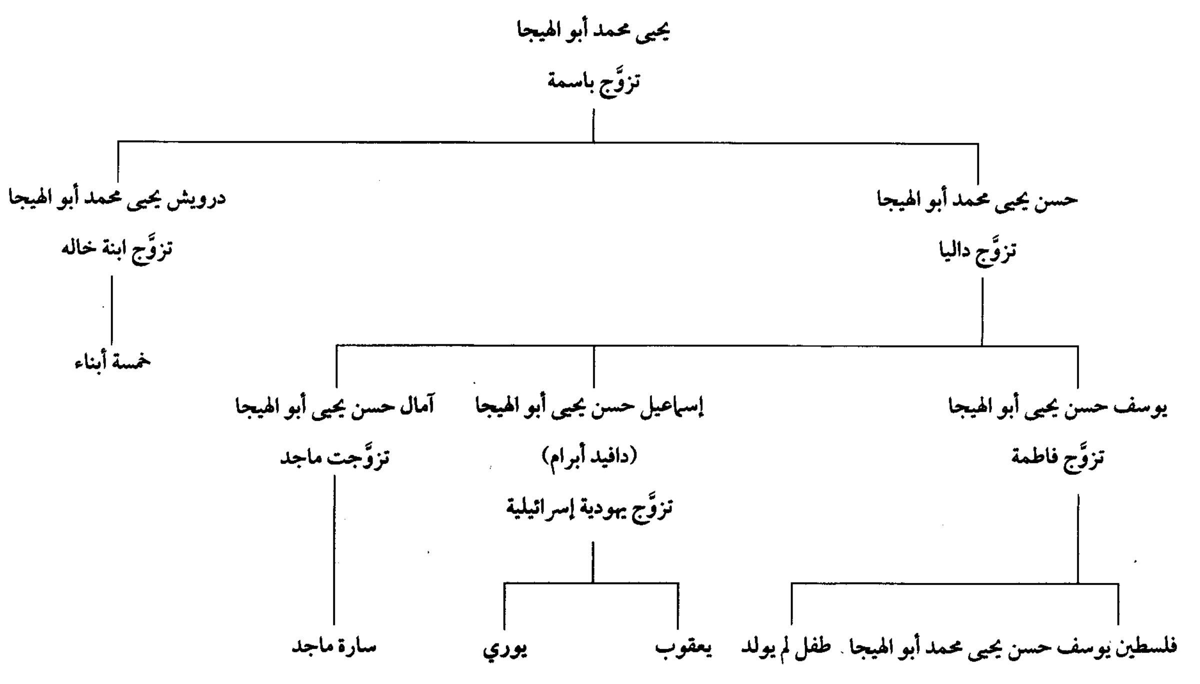
بِــلادي

٤٣ ـ دكتور «آري بيرلشتاين» ٤١٣
٤٤ ـ اُحضُنيني يا جِنين ٤٢٨

نهايــة وبدايــة

٤٥ ـ فداء ابنتي ٤٥٥
٤٦ ـ ما تَبقَّى على تِلال الله ٤٦٤
٤٧ ـ يوسُف، في سبيل فِلَسطين ٤٦٩
ملحوظة للمؤلفة ٤٧٣
المراجع ٤٧٧




شجرة العائلة
يحيى محمد أبو الهيجا
تزوَّج باسمة
حسن يحيى محمد أبو الهيجا
تزوَّج داليا
درويش يحيى محمد أبو الهيجا
تزوَّج ابنة خاله
خمسة أبناء
يوسف حسن يحيى أبو الهيجا
تزوَّج فاطمة
إسماعيل حسن يحيى أبو الهيجا
(دافيد أبرام)
تزوَّج يهودية إسرائيلية
آمال حسن يحيى أبو الهيجا
تزوَّجت ماجد
فلسطين يوسف حسن يحيى محمد أبو الهيجا
طفل لم يولد
يعقوب
يوري
سارة ماجد



مفتتح

جنيـــن

٢٠٠٢

أرادت آمال أن تحدِّق في عينَي الجندي عن كثب، ولكن فوهة بندقيته الآلية التي ضغطت على جبينها لم تكن لتسمح بذلك. ومع ذلك، فقد كانت قريبة بما فيه الكفاية لترى أنه يرتدي عدسات لاصقة. تخيلت الجندي يميل نحو المرآة لوضع العدسات في عينيه قبل أن يرتدي ملابس الخروج استعدادًا للقتل. حدَّثت نفسها: «ما أعجب الأشياء التي نفكر فيها في تلك المساحة بين الحياة والموت».

تساءلت عما إذا كان المسؤولون سيعربون عن الأسف لمقتلها «العرضي» كونها مواطنة أمريكية. أو ما إذا كانت حياتها سوف تضيع في غبار «الأضرار الجانبية».

تسللت نقطة وحيدة من العرق منتقلة من حاجب الجندي إلى أسفل جانب وجهه. رمش بشدة. وأشعره تحديقها بعدم الارتياح. لقد قتل من قبل، ولكنه لم يقتل وعيناه في عينَي ضحيته قطُّ. أبصرت آمال ذلك، وشعرت بروحه المضطربة وسط المذبحة المحيطة بهم.

قالت في نفسها مرة أخرى: «غريب أنني لست أهاب الموت».
ربما لأنها عرفت من رمشة الجندي، أنها ستعيش.

أغلقت عينيها، وقد ولدت من جديد، والفولاذ البارد لا يزال يضغط على جبينها. جذبتها نداءات الذاكرة إلى الوراء أكثر فأكثر، فأعادتها إلى وطنٍ لم تكن قد عرفته قطُّ.

النّكْبة

(١)

القطاف

١٩٤١

في قديم الزمان، قبل أن يخطو التاريخ فوق التلال مبعثرًا الحاضر والمستقبل، قبل أن تمسك الريح بالأرض وتهزَّها نازعة اسمها وطابعها، قبل أن تولد آمال، وُجدت قرية صغيرة شرقِي حيفا، عاشت بهدوء على التين والزيتون، على الحدود المفتوحة وأشعة الشمس.

كان الظلام لا يزال مخيمًا، والأطفال وحدهم النائمين، بينما استعد القرويون في «عين حوض» لأداء صلاة الفجر. تدلَّى القمر كإبزيم يشبك الأرض بالسماء، مجرد شذرة من وعد خجول بأن يصبح يومًا ما بدرًا. تمطَّت الأذرع وهي تستيقظ. أزاح الماء النُّعاس بعيدًا، واتسعت العيون المُفعمة بالأمل. أطلق الوضوء همهمات الشهادتين في ضباب الصباح، مئات الهمسات تُعلن وحدانية الله والتصديق برسالة نبيه المصطفى. اليوم صلوا في الهواء الطلق بخشوع خاص يليق ببداية موسم قطف الزيتون. في مناسبة بهذه الأهمية لا ينبغي تسلق التلال الصخرية إلا بضمير وسريرة نقيين وطاهرين.

ومع انبعاث أوركسترا ما قبل الفجر؛ أصوات جداجد الحقول والطيور المُفعمة بالحياة، ثم صياح الدِّيكة، عكس القرويون ظلال القمر على سجادات صلاتهم. معظمهم اكتفى بأدعية الاستغفار، بينما صلى البعض ركعتين. كلٌّ قال بطريقته: «اللَّهم توكَّلنا عليك في هذا اليوم، لك الحمد ولك الشكر»، قبل أن ينطلقوا غربًا في اتجاه البساتين، واثبين ليتجنبوا أشواك الصبَّار الحادة.

* * *

مع حلول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من كل عام، يجلب أسبوع القطاف نشاطًا متجددًا لعين حوض، فيُصبح بإمكان يحيى، أبي حسن، أن يشعر بهذه الروح في عظامه. غادر المنزل في وقت مبكر مع ولديه، مشجعًا إياهما بأمله السنوي على أن يسبقوا الجيران في البدء بالعمل، لكنْ للجيران أفكار مماثلة حول القطاف الذي يبدأ في حوالي الخامسة صباحًا.

استدار يحيى بخجل نحو زوجته باسمة، التي حملت على رأسها سلة من قطع الأقمشة والبطانيات، وهمس: «أُم حسن، في العام المُقبل سننهض من النوم قبلهم. أريد فقط أن أبدأ قبل سالم بساعة، ذلك العجوز الأدرد، ساعة واحدة فقط».

قلَّبت باسمة عينيها؛ فزوجها يعيد إحياء تلك الفكرة الرائعة في كل عام!

* * *

عندما أفسحت السماء المظلمة الطريق لضوء الفجر، ارتفعت أصوات جنْي تلك الثمار النبيلة من تلال فلسطين التي صبغتها الشمس. أصوات ضربات عصي المزارعين على الأغصان، وارتجاف الأوراق، ثم صوت سقوط الثمار بقوة على الأقمشة القديمة والبطانيات التي وُضعت تحت

الأشجار. وفي أثناء كدحهن في العمل، غنَّت النساء أغنيات من التراث، موبِّخات أطفالهن اللاهين كلما اعترضوا طريقهن.

* * *

توقَّف يحيى لحظات لتدليك تشنُّج يؤلم رقبته، همس لنفسه: «أشرفت الظهيرة». تصبَّب عرقًا وهو يراقب اقتراب الشمس من كبد السماء. انتصبت قامته القوية فوق أرضه وقد عصب رأسه بكوفية سوداء وبيضاء، وشمَّر طرف ثوبه وثبَّته في حزام خصره كعادة الفلاحين في خلال العمل. أنعم النظر في الروعة المحيطة به: العشب الأخضر ينحدر بانتظام من التلال، يلتف حول الصخور، ويتسلق الأشجار. السناسل التي تفصل مدرجات الأرض المزروعة ـ وقد ساعد جدَّه في إصلاح بعضها ـ تتصعَّد لولبية على التلال. استدار يحيى لمراقبة حسن ودرويش، وعضلات صدريهما تنتفخ تحت ثوبيهما مع كل ضربة ينهالان بها على الزيتون لتحريره من الأغصان. امتلأ قلب يحيى بالفخر وهو يراقب ولديه، فحمد الله لأن حسنًا ينمو ويشتد عوده على الرغم من ضعف رئتيه.

* * *

عمل الابنان على جانبين متقابلين من كل شجرة، بينما والدتهما تتبعهما، تسحب بعيدًا البطانيات الممتلئة بحَب الزيتون الطازج؛ ليتم عصره لاحقًا ذلك النهار. كان بإمكان يحيى رؤية سالم يقطف محصوله في البستان المجاور. «العجوز الأدرد»، حدَّث يحيى نفسه مبتسمًا، ناظرًا نحو سالم الذي يصغره سنًّا. في الحقيقة أن جاره تحلَّى دومًا بسِمة الحكمة وصبر الشيوخ، وكلاهما ينبعث من وجه تشكَّلت ملامحه، على مَر السنين، من نحت خشب الزيتون في الهواء الطلق. كان قد أصبح «الحاج سالم» بعد رحلة حجِّه إلى مكة،

وأضفى عليه اللقب الجديد تقدمًا في السِّن على يحيى. بحلول المساء، يجلس الصديقان معًا يدخِّنان النارجيلة، يتجادلان حول أيِّهما عمل بجهد أكبر، ومَن منهما أبناؤه أقوى. يقول يحيى وهو يضع طرفَ أنبوب النارجيلة بين شفتيه:

ـ ستذهب إلى النار أيها العجوز بسبب كذِبك هذا.

فيردُّ سالم:

ـ أنا عجوز؟ إنت أكبر مني يا مُخرِّف!

ـ على الأقل ما زلت أحتفظ بأسناني.

ـ حسنًا. هاتِ الطاولة لأُريك ـ مرة أخرى ـ أنني الأفضل.

ـ هيا نلعب، يا كذاب، يا عديم الأسنان، يا خيبة أبيك.

كانت مباريات الطاولة التي تُصاحبها أنفاس النارجيلة تُسوِّي هذا الجدال السنوي، وكانا يلعبان بعناد إلى أن ترسل زوجتاهما في طلبهما عِدة مرات.

* * *

راضيًا عن وتيرة الصباح، أدى يحيى صلاة الظهر، وجلس على البطانية؛ حيث أعدَّت باسمة العدس والمقلوبة مع لحم الضأن وسلطة الزبادي. وعلى مقربة منهم، جهَّزت وجبة أخرى للعمال المَوسِميين من أبناء البدو والقرى المجاورة، والذين قبلوا ما قدَّمته لهم شاكرين.

نادت باسمة حسنًا ودرويشًا اللذين كانا قد انتهيا توًّا من أداء الصلاة:

ـ الغداء!

اجتمعت العائلة حول صينية أرز ينبعث منها البخار، وأطباق من السلطات والمخللات، في انتظار يحيى ليَقسِم الخبز باسم الله. «بسم الله الرحمن الرحيم»، بدأ يحيى، وتبعه الولدان الجائعان، مادَّين أيديهما إلى الأرز يُدوِّرانه في كُريات تؤكل مع اللبن.

ـ يُمَّا، ما في أشطر منِّك في الطبخ!

درويش حلو اللسان، كان يعرف كيف يضمن تفضيل باسمة له.

ـ بارك الله فيك يا بُني.

ابتسمت ابتسامة عريضة، وأزاحت قطعة طرية من اللحم باتجاهه على صينية الأرز. احتجَّ حسن:

ـ وشو معي أنا؟

مال درويش نحو أذن شقيقه الأكبر، مغيظًا إياه:

ـ ما بتعرف تعامل السيدات مثلي.

قسمت باسمة قطعة أخرى من اللحم الطيب لحسن:

ـ خذ يا حبيبي.

انقضت الوجبة بسرعة من دون التريث المعتاد لتناول الحلوى واحتساء القهوة. كان هناك مزيد من العمل ينتظر الجميع. عكفت باسمة على ملء سلالها الكبيرة التي سوف يحملها المساعدون إلى معصرة الزيتون. وكان يجب على كلٍّ من ولديها عصر حصَّته من الزيتون في يوم قطافه، وإلا فسد مذاق الزيت.

قبل شروعهم في العودة، طلب إليهم يحيى الانتظار:

ـ أولًا، لنشكر الله على فضله.

أصدر يحيى أمره، ساحبًا من جيب دشداشته مُصحفًا قديمًا ورثه عن جدِّه الذي كان قد اعتنى بهذه البساتين قبله. ومع أن يحيى لا يعرف القراءة، فقد كان يحب أن ينظر إلى الخط الجميل، بينما يتلو الآيات القرآنية من الذاكرة. وقف الولدان في خشوع، يستمعان بنفاد صبر لأبيهما يتلو الآيات الكريمة، ثم تسابقا هابطين التل عندما حصلا على إذن والدهما في التوجُّه إلى المعصرة.

رفعت باسمة سلة الزيتون على رأسها، وحملت بكلِّ يدٍ كيسًا مملوءًا بالأطباق وبقايا الطعام، ونزلت عن التل مع النساء الأخريات اللاتي حملن الجِرار والأمتعة على رؤوسهن في استقامة عمودية تامة. قال يحيى:

ـ الله معكِ يا أُم حسن!

ردَّت عليه:

ـ ومعكَ يا أبا حسن، لا تتأخر!

الآن وقد بقي يحيى بمفرده، مال مع النسيم، ثم نفخ برفق في الناي، وأحسَّ بالموسيقى المنبعثة من الفتحات الصغيرة تحت أطراف أصابعه. علَّمه جده العزف على ذلك الناي القديم، وأثارت ألحانه في يحيى شعورًا بأسلافه، وبمواسم القطاف التي لا تُعد ولا تُحصى، وبالأرض والشمس والزمن والحُب، وبكل ما كان جميلًا. كما الحال دائمًا، مع النغمة الأولى، رفع يحيى حاجبيه فوق جفنين مغلقين، كما لو أنه يفاجأ كل مرة بالعظَمة التي يمكن لنايه البسيط المنحوت يدويًّا أن يصنعها من أنفاسه.

* * *

بعد القطاف بعِدة أسابيع، كانت شاحنة يحيى القديمة محمَّلة عن آخرها. كانت تحمل بعض الزيت وحب الزيتون الجاهز للكبيس، واللوز والتين والعنب وتشكيلة من الحمضيات والخَضراوات. وضع حسن عناقيد العنب وأكواز التين في الجزء العلوي لكي لا تُسحَق.

قال يحيى لحسن:

ـ أنت تعرف أنني أُفضِّل ألا تسافر في هذه الطريق الطويلة إلى القدس؛ فأسعار البنزين مرتفعة، «طولكرم» على بُعد بضعة كيلو مترات فقط، حتى حيفا أقرب، وأسواقها تضاهي في جودتها الأسواق الأخرى، ثم إنك لا تعرف أبدًا هل هناك صهيوني ابن كلب يتربص بين الأشجار، أو نذل بريطاني قد يطالبك التوقف. لماذا تقوم بهذه الرحلة؟

كان الأب، في الواقع، يعرف إجابة سؤاله:

ـ أترتحل هذه المسافة الطويلة لكي تلتقي فقط «آري»؟

أجاب حسن والده بلهجة فيها شيء من التضرع:

ـ يابا، أعطيته كلمتي بأنني قادم.

ردَّ يحيى:

ـ يا حسن، أنت رجل الآن. انتبه لنفسك على الطريق. تثبَّتْ من إعطاء همَّتك كل ما تحتاجه من حمولتك، وقل لها إننا نريدها أن تزورنا قريبًا.

ثم خاطب السائق، الذي كان الجميع يعرفونه جيدًا، وفي ملامحه ما يشير إلى نَسبِهم المشترك:

ـ سر بحماية الله يا بُني.

ـ الله يطوِّل عمرك عمُّو يحيى.

قبَّل حسن يد والده، ثم جبهته؛ تلك الإيماءات التبجيلية أفعمت نفس يحيى بالحب والاعتزاز. قال وحسن يتسلق الجزء الخلفي من الشاحنة:

ـ الله يفتحها في وجهك ويحميك دائمًا يا بُني.

حين انطلقا مبتعدَين، امتطى درويش صهوة غنُّوش، جواده العربي الحبيب، وعدا به إلى جانب الشاحنة، وهو يتحدى حسنًا.

ـ يَلَّا نتسابق. سأمنحك ساعة لتتقدَّمني لأن الشاحنة مثقلة بحملها.

ـ روح وسابق الريح يا درويش، لأنها بتناسب سرعتك أكثر من هاي السيارة الخربانة. امشِ لحالك وبالاقيك في القدس في بيت عمتو سلمى!

راقب حسن شقيقه الأصغر يطير مبتعدًا على فرس غير مُسرَجَة، والكوفية معصوبة حول رأسه، وطرفاها الطليقان يتلاعبان بالريح خلفه. كان درويش أفضل فارس في المنطقة، بل ربما الأفضل في البلاد، وكان غنوش أسرع حصان رآه حسن في حياته.

* * *

على امتداد الطريق الترابية، ارتفعت الأرض يلفها سكون الغيطان الفوَّاحة بعطر زهور الحمضيات والحناء البرية. فتح حسن الكيس الذي اعتادت والدته أن تملأه كل يوم، أخرج بيده كرة من المزيج اللزج الذي أعدَّته، رفعها إلى أنفه، ثم سحب نفَسًا عميقًا إلى الداخل بالقدر الذي تسمح به رئتاه المصابتان بالربو. سرى الأكسجين في أورِدته، إذ فتح واحدًا من الكتب السرية التي طلبت إليه السيدة «بيرلشتاين»، والدة «آري»، أن يدرسها.

(٢)

«آري بيرلشتاين»

١٩٤١

جلس «آري» ينتظر بجوار باب العمود (بوابة دمشق)، حيث التقى الشابَّان أول مرة قبل أربع سنوات. و«آري» هو ابن بروفيسور ألماني فرَّ من النازية قبل سنوات، واستقر في القدس، حيث استأجرت أسرته بيتًا صغيرًا من وجيه فلسطيني.

تكوَّنت صداقة بين الفتيَين سنة ١٩٣٧ خلف عربات الفَواكه والخُضر الطازجة، وأوعية الزيت المكدَّسة في سوق باب العمود، حيث جلس حسن يقرأ كتابًا من الشعر العربي. اقترب الصبي اليهودي الصغير، ذو العينين الواسعتين والابتسامة المتردِّدة من حسن. دنا منه وهو يعرج نتيجة كسر في ساقه سبَّبه له جندي نازي، وزاد الأمر سوءًا علاجٌ رديء. كان «آري» قد اشترى حبة بندورة حمراء كبيرة، فأخرج سكين جيب وقسمها نصفين؛ محتفظًا بنصفٍ، وقدَّم النصف الآخر لحسن.

قال الصبي:

ـ اسمي «آري».. «آري بيرلشتاين».

أثار الفتى اهتمام حسن، فأخذ نصف حبة البندورة وقال:

ـ طاب يومك! سا... شالوم!

مجرِّبًا الكلمة غير العربية الوحيدة التي يعرفها، وأشار على الصبي بالجلوس.

على الرغم من أنَّ «آري» استطاع ارتجال بعض الكلمات العربية، لم يتقنْ أيٌّ منهما لغة الآخر، لكنهما سرعان ما وجدا قاسمًا مشتركًا في شعور كلٍّ منهما بالنقص.

ـ أنا اسمي حسن. حسن يحيى أبو الهيجا.

ردَّ «آري» بالعربية:

ـ سلام عليكم.

ثم أشار إلى الكتاب الذي في يد حسن وسأله بالألمانية:

ـ ما هذا الكتاب الذي تقرأ فيه؟

ـ بوك.. ذيس بوك.

ـ ييس...

ردَّ حسن بالإنجليزية، ثم كرَّرها بالعربية:

ـ نعم، كتاب.

ضحكا وأكلا مزيدًا من البندورة.

وهكذا ولِدت صداقة في ظل النازية في أوروبا، والفجوة المتنامية بين العرب واليهود في الوطن، وتعزَّزت هذه الصداقة بفضل براءة الاثني عشر

هامًا من عمريهما، والخلوة الشاعرية التي أتاحتها الكتب، وعدمِ اكتراثهما بالسياسة.

بعد عقود من الحرب التي فرَّقت بين الصديقين، أخبر حسن أصغر أطفاله، واسمها آمال، عن صديق صباه. «كان مثل أخ»، قال لها حسن مغلقًا كتابًا كان «آري» قد أهداه إياه في خريف صباهما.

* * *

على الرغم من أن حسنًا سينمو ليكون له جسم ضخم، فقد كان، وهو في الثانية عشرة من عمره، صبيًّا معتل الصحة، تُطلق رئتاه صفيرًا مع كل نفس، ودفعته صعوبة تنفُّسه إلى هامش التحالفات الصارمة للأولاد في ألعابهم الخشنة. وعلى نحو مماثلٍ، سبَّب عرجُ «آري» سخرية قاسية من زملائه في المدرسة. هكذا، تعرَّف كلٌّ منهما في الآخر إلى العزلة نفسها التي عانى منها هو، ووجد كلٌّ منهما، في سنه الصغيرة وفي عالمه ولغته الخاصة، ملاذًا بين الشعراء والكُتاب والفلاسفة على صفحات الكتب.

وتحوَّلت الرحلة العارضة المزعجة إلى القدس إلى رحلة أسبوعية سارَّة؛ لأن حسنًا كان يجد «آري» في انتظاره، وكانا يمضيان الساعات يُعلِّم أحدهما الآخر مفردات وعبارات في اللغات العربية والألمانية والإنجليزية، مثل: تفاح، برتقال، زيتون، رطل البصل بقرش واحد سيدتي. كانا يتدربان من خلف صفوف عربات الفواكه والخضراوات، يهزآن سرًّا من صِبية المدينة العرب؛ من طريقة كلامهم المتكلفة، وثيابهم الفاخرة التي كانت تشير إلى إعجابهم الذليل بالبريطانيين.

حتى إن «آري» بدأ يرتدي الزي العربي التقليدي في أثناء عُطَل نهاية الأسبوع، وكثيرًا ما عاد إلى عين حوض مع حسن، منغمسًا في ألحان

اللغة والأغاني العربية، وفي نكهات الأطعمة والمشروبات العربية. تمكَّن «آري» من لغة صديقه وثقافته تمكُّنًا يؤهله للإسهام بقدر لا يستهان به في وصوله بعد عقود إلى درجة أستاذ متفرِّغ في الجامعة العبرية. وعلى نحو مماثل، تعلَّم حسن أن يتحدَّث الألمانية، وأن يقرأ بصعوبة بعض المجلدات بالإنجليزية في مكتبة دكتور «بيرلشتاين»، وأن يقدر التقاليد اليهودية.

أحبَّت السيدة «بيرلشتاين» حسنًا، وكانت مغتبطة لصداقته مع ابنها، كما استقبلت باسمة «آري» بحماسة أُمومية مماثلة. وعلى الرغم من أنَّهما لم تلتقيا قطُّ وجهًا لوجه، فقد صارت الواحدة منهما تعرف الأخرى من خلال ابنيهما، وكانت كلٌّ منهما ترسل ابن الأخرى إلى بيته مُحمَّلًا بالطعام والضيافات الخاصة، عملًا بتقليدٍ تحمَّله حسن و«آري» على مضض.

في سن الثالثة عشرة، قبل عام واحد من نهاية التعليم الإلزامي، طلب حسن من والده إذنًا للدراسة مع «آري» في القدس، لكنَّ يحيى رفض ذلك؛ خوفًا من أن يستحوذ طلبُ المزيد من العلم على ابنه، فيأخذه بعيدًا عن الأرض التي كان مقدَّرًا له أن يرثها ويزرعها:

ـ لن تُجدي الكتب نفعًا سوى أن تحول بينك وبين الأرض. لن تذهب إلى المدرسة مع «آري»، وهذا هو كل ما سأقوله في هذا الشأن!

كان يحيى على يقين أنه اتَّخذ القرار الصحيح، ولكن بعد سنوات سيلوم يحيى نفسه، مع شعور بذعر وأسف عميقين لحرمان حسن أمرًا شُغِفَ بتحقيقه. وبسبب هذا القرار سيتوسَّل يحيى ذات يوم الصفح من ابنه، حين كان عليهم جميعًا أن يناموا في العراء تحت وطأة طقس متقلبٍ لا يرحم، ليس بعيدًا عن البيت الذي لم يتمكَّنوا من العودة إليه قطُّ. سيكون على

يحيى، وهو لاجئ واهن في حضرة المنفى المجهول، أن يبكي على كتف حسن الصفوح:

ـ سامِحني يا بُني، فأنا لا أستطيع أن أُسامح نفسي!

وبسبب القرار نفسه، والندم والحسرة اللذين ترتَّبا عليه، كان أن اتَّخذ حسن قرارًا، من خلال عمل شاقٍّ وبأجر زهيد، أنَّ أولاده سوف يتلقون العلم. بسبب هذا القرار سيقول حسن لِفتاته الصغيرة، آمال، بعد عِدة سنوات:

ـ حبيبتي! لا نملك أي شيء الآن سوى العلم. عِديني بأنكِ سوف تُقبلين عليه بكل ما أوتيتِ من إرادة!

الفتاة الصغيرة ستمنح أباها الحبيب وعدَها!

ومع أن حسنًا حُرم التعليم الرسمي بعد الصف الثامن، فقد حصل على التعليم الخاص الراقي على يد السيدة «بيرلشتاين»، التي اعتادت أن ترسل تلميذها الشاب المتعطِّش إلى العلم والمعرفة إلى بيته كل أسبوع مُحمَّلًا بكتب ودروس وواجبات منزلية. بدأت الدروس الخصوصية كمشروع بين باسمة والسيدة «بيرلشتاين»؛ لمساعدة حسن على الخروج من الاكتئاب الذّي أصابه في الشهور التي تلت إصدار يحيى قراره النهائي بشأن موضوع التعليم.

* * *

«هيه يا أخي!» قال كلٌّ منهما للآخر، وتعانق الشابان وتصافحا، وقبَّل واحدهما خدَّ الآخر على الطريقة العربية. أفرغا الشاحنة، وساعدا السائق على الانضمام إلى الباعة المتجوِّلين في الشارع. شقَّ الصديقان طريقهما في مسار متعرِّج عبر الممرات الضيقة المرصوفة بالحجارة الكبيرة في المدينة القديمة، وتوجَّها إلى متعتهما المعتادة قبل السير إلى منزل «آري». سارا

من باب العمود في اتجاه كنيسة القيامة. فاح عبير الجِرار الفَخارية والدبس والزيوت المتنوعة من الدكاكين، بينما الباعة على الرصيف ينادون المارة أن يتوقفوا، ويجرِّبوا عيِّنة من بضاعتهم. انعطف الصديقان ودخلا خان الزيت، ورأساهما يمسَّان برفق الجلود والأقمشة الحريرية المُعلَّقة إلى جدران المحلات. وبعد خطوات قليلة أخرى دخلا مقهى «المحفوظ».

نادى حسن النادل:

ـ نارجيلتان مع معسِّل تفاح.

حذَّره «آري»:

ـ هذا سيِّئ لرئتيك يا حسن! هل يعرف عمِّي يحيى أنك تُدخن؟

ـ بالطبع لا!

في منزل عائلة «بيرلشتاين»، سلَّم حسن صينيَّتَي الحلاوة والكنافة لأُم «آري».

قال بالألمانية:

ـ المعتاد من أمي.

ردَّت السيدة «بيرلشتاين»، آخذة الحلويات:

ـ شكرًا لك.

كانت السيدة «بيرلشتاين» امرأة مُحافِظة ذات أطراف طويلة. ورأى حسن أن مظهرها لا يُفصِح عن لُطفها. كان حسن يميل بغريزته، كلما رآها، إلى النظر إلى حلية ورثتها عن عائلتها، وكانت تضعها دائمًا على صدرها. «واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... ثماني عشرة»، هكذا اعتاد حسن أن يحصي

اللآلئ الصغيرة التي ترصِّع دبوس الزينة الذي ترتديه، بينما السيدة «بيرلشتاين» تُراجع واجباته المنزلية.

* * *

أثبت حسن على مَر السنين أنه تلميذ مجتهد وسريع الفهم. استمر تعليمه الخاص مع السيدة «بيرلشتاين» إلى أن تخرَّج مع «آري» عام ١٩٤٣، وهي السنة التي انجرف فيها الشابان بعيدًا مفترقَين فترة من الوقت، حيث كوَّن «آري» مجموعة صغيرة من الأصدقاء في مدرسته، بينما أصبح حسن مفتونًا بفتاة بدوية شابة اسمها داليا، كانت قد سرقت غنوشًا، حصان أخيه درويش.

(٣)

بدوية بلا طائل

١٩٤٠ - ١٩٤٨

كان حبًّا محرَّمًا ذاك الذي أثمر زواج حسن وداليا، معاكسًا لتقاليد عين حوض، حيث تُرتَّب الزيجات منذ الميلاد، فلا تخرج من العشيرة. كان حسن حفيدًا لأحد الأجداد المؤسِّسين لقرية عين حوض، ووريثًا لقطع كبيرة من الأراضي المزروعة، والبساتين، وخمس كروم من الزيتون تسرُّ الأنظار. أما داليا، فليست سوى ابنة بدوي اعتاد أفراد قبيلته المجيء للعمل في القرية كل عام في مَوسِم القطاف، ثم استقرت في القرية آخر المطاف.

داليا، العنيدة اللامبالية، آخر عنقود طابور من الأخوات بلغ اثنتي عشرة فتاة. عاشت مثلهن تحت تسلُّط والدها وقسوته. ومع ذلك لم تكن تتذكر دائمًا وضع الحجاب، فتمنح الرياح فرصتها لتداعب شعرها. وعلى عكس الفتيات المهذَّبات، لم يكن لديها مانع من رفع قُفطانها لمطاردة سِحلية، وترك التصاميم المشرقة لثوبها البدوي تتلطخ ببقع الطين وشوك الصبَّار. وفي كثير من الأحيان، كانت تنسى تفريغ كيسها الممتلئ بالحشرات والخنافس الغريبة التي تجمَّعت فيه طوال اليوم، فتضربها أمها، ولكنها كانت تعود دائمًا إلى

فطرتها الغريبة، مستمتعة بأسرارها الصغيرة: تلك الكائنات ذوات الأرجل الستِّ والأرجل الثماني، إلى أن أصبح لديها ما يدبُّ على أربع، حصان اسمه غنُّوش.

كان صاحب الحصان شابًّا، عرفت داليا أن اسمه درويش يحيى أبو الهيجا. رآها يومًا ماشية بين التلال، فعرض أن يقلَّها على حصانه، لكنها ـ وقد تذكَّرت أباها ـ رفضت على الفور:

ـ لا!

قالتها بكل الحزم الذي يمكن أن تملكه طفلة في الحادية عشرة من عمرها، ولكن فور إجابتها، ارتسمت على وجهها الكلمة «ربما». تحدَّث درويش بلطف وقال:

ـ يُسعدني مجردُ المشي أمامكِ، وأُقسم بشرفي إنني لن أنظر إلى الوراء وأنتِ على الحصان.

بدا لها جديرًا بالثقة، ولم يكن أحد حولهما ولا على امتداد أميال كثيرة في التلال المحيطة بهما. نظرت حولها إلى المساحات الهادئة الشاسعة من الأرض، وكان قلبها طاهرًا نقيًّا:

ـ كيف يُمكنني امتطاؤه؟

ـ راقبيني أولًا، ثم حاولي مثلي عندما أُدير ظهري.

سمح غنُّوش للجسد الصغير بالركوب على ظهره، وبدأ يسير ببطء. فجأة انتابها الخوف من أن تُضبط بصحبة فتًى وحصانه، طالبته بالتوقف، وما إن ترجَّلت حتى ولَّت هاربة.

بعد عِدة أسابيع عادت إلى المكان عينه، لانتظار سرِّها الرائع ذي القوائم

الأربع. وصل مع درويش، وعاشت سحر تلك التجربة مرة أخرى. عاش السِّر أكثر من عامين، تعلَّمت داليا في خلالهما الركوب وحدها. كان درويش طوعًا لإشارتها، لكنهما طوال ذلك الوقت لم يتبادلا كلمة واحدة، إلا في ذلك اليوم الأول. كان درويش، حين يراها قادمة، يحيد بنظره عنها، حتى لا يشي بأي شبهة قد تُفهَم أنها عدم احترام، ويدير لها ظهره، ويثبِّت غنُّوشًا، بينما هي ترفع ثوبها الذي تحته السروال، ثم تمتطي ظهر الجواد، وتقوده بعيدًا. كان درويش ينتظرها حتى تعود، ويؤدي الشعائر ذاتها المعبِّرة عن حيائه، ولكن في الاتجاه المعاكس.

بالنسبة إلى القرويين، بدت داليا كغجرية جامحة، جسدها ليس من لحم ودم، بل من شِعرٍ بدوي وألوان. بعضهم ظن أن بها مسًّا شيطانيًّا، فنصحوا أباها بإحضار شيخ يتلو عليها الآيات الكريمة والعزائم. أما الغالبية فرأوا أن الفتاة مآلها إلى النضج عاجلًا أو آجلًا، لكنهم أجمعوا على أن داليا ـ وقد ناهزت الرابعة عشرة ـ تستحق التأديب:

ـ أدِّبيها، اضربيها، لقِّنيها درسًا.

وقالت امرأة بدوية أخرى لوالدتها:

ـ راقبيها كيف تأكل البرتقالة! إنها عارٌ على أُسرتها؛ كل الصِّبية يحدِّقون إليها!

هكذا كان ازدراء أهل القرية لداليا. كانت جَلجلةُ خَلخالها تُزعج النساء، ولكن أشد ما كان يثير غيظهنَّ حصانةُ داليا من عدائهن وقسوتهن. كانت القوة الساطعة التي تشرق من بَشرتها وتطوف فوق شعرها، تُذكرهن بالبهجة الماضية التي تنازلن عنها عن طيب خاطر. كانت لامبالاة داليا الخشنة تشفُّ عن جاذبية جنسية، وخصوصًا أنها لم تكن تُدرك ذلك.

اعتبرت باسمة، أُم حسن، داليا لَصة كافرة عديمة الحياء، بعد أن سرقت

حصان ابنها درويش؛ لتختلس فترة راحة وعزلة تكسر رتابة مَوسِم قطف الزيتون الذي كان يقصم الظهر. كان من الممكن ألا يعلم أحد بذلك لو لم تسقط داليا وتكسر كاحلها، فثارت فضيحة شغلت القرية ولفتت انتباه حسن. فكَّر درويش في وسائل تُمكنه من الدفاع عن داليا، لكنه كان يعلم أن تورُّطه سيُضاعف حتمًا عقوبتها.

انطلاقًا من شعوره بالعار، تعهَّد والد داليا سحْق
الأبد. ولاستعادة شرفه، قام بربط داليا إلى كرسي
حديد ساخنة كوى يدها، التي أُجبرت على الاعتر
الحصان.

قال الأب، وهو يفور من الغضب، بينما مدَّت صغيرته يدها اليمنى:

ـ هذه؟ ضعيها هنا لأحرقها!

وأضاف وهو يلتفت إلى حشد المتفرجين لينال رضاهم:

ـ وإذا صرختِ، فسأحرق اليد الأخرى.

كان المعدن الملتهب يحرق راحة يدها اليمنى، لكن داليا لم تُصدر أي صوت، تأوَّه الحشد، وقالت امرأة: «يا لقسوة البدو!». ناشد بعض الحاضرين الأب أن يرحم ابنته، ذكَّروه برحمة الله، لكن الرجل أراد أن يُثبِت أنه سيد أهل بيته:

ـ تراجَعوا! إنه شرفي.

في أثناء عقابها، كتمت داليا الألم في داخلها، بينما رائحة اللحم المحروق تُدمي الحياة في أعماقها. تواطؤها مع الطبيعة، والعلاقة الحميمة بين شعرها والريح، وجلجلة الخلخال في كاحلها، ورائحة عرقها الحلوة وهي تعمل،

وألوانها الغجرية، كل هذا أصبح كومة من الرماد المكدَّس في وسط البلدة، تحت السماء الزرقاء الصافية. لو صرخت، ربما لم تصل النار إلى أعماقها بهذا القدر، لكنها لم تفعل. لمحت أرنبًا فثبَّتت عينيها الدامعتين عليه بنظرة مستحيلة. حاصرت العذاب في كف يدها وأبقته هناك بقية حياتها. ظلَّت ـ بلا وعي ـ تفرك أطراف أصابع يدها اليمنى ذهابًا وإيابًا على كف اليد الأخرى، بينما تَصِرُّ أسنانُها، كأنها تمسك بشيء حي في قبضة يدها ويحاول الإفلات والخلاص.

* * *

قوة تحمُّل الفتاة البدوية أخافت باسمة، فقررت منذ تلك اللحظة أنها لا تريد لهذه الفتاة أن ترتبط بأي صورة «بهذه العائلة»، وبخاصة أنها كانت متنبِّهة تمامًا لعينَي ابنها الآخر، حسن، اللتين كانتا تتعقبان داليا وتتابعانها، وهي تقوم بأعمالها التقليدية اليومية في القرية والحقول.

بالنسبة إلى باسمة، كانت داليا بدوية لا طائل تحتها إلا جلب جميع أشكال المتاعب إلى قريتهم الهادئة. وقد تحققت أسوأ مخاوفها عندما لم يتمكن ولدها الشاب، حسن يحيى أبو الهيجا، من مقاومة جمال داليا الأخَّاذ وروحها المجنونة، فعقد العزم على الزواج بها.

مع الإصرار الذي امتاز به حسن طوال حياته، وبعد حصوله على مباركة والده المتردد، صارح والدتَه بقراره، وكلَّمها بلهجة تصالحية:

ـ يُمَّا، الزواج ليس خطيئة!

ردَّت باسمة بغضب جامح:

ـ لا! لا! لا! لا!

وراحت تلوح بذراعيها، وشدت ثوبها وهي تناشد ربها، وضربت على صدرها، ولطمت وجهها، ولعنت اليوم الذي وطئت فيه قدما تلك البدوية قرية عين حوض. تخيلت ما سيلحق بها من خزي وعار، عندما يكون لزامًا عليها أن تعلن خبر تمرُّد ابنها ورفضه لخطيبته، ابنة خاله. ناشدت زوجها:

ـ يا أبا حسن، ماذا سيقول الناس عنا؟

حاول يحيى أن يبدو متعقلًا:

ـ يا أُم حسن، فليكن؛ إنه رجل الآن، لا يمكننا أن نمنعه بالقوة.

كأنها لم تسمعه، واصلت:

ـ يعني... ألا نحترم الكلمة التي أعطيناها؟ ما ذنب ابنة أخي البريئة حتى نرفض من أجل بدوية لَصة وقذرة؟!

ـ هذه إرادة الله يا امرأة، فلتكن مشيئته. البلد مقلوب من أعمال الصهاينة، وأنت منزعجة لأن ابنك يريد الزواج بفتاة لا تحبينها! ألا تسمعين الأخبار؟ الصهاينة يقتلون البريطانيين والفلسطينيين كل يوم. إنهم يتخلصون من البريطانيين لكي يتمكنوا من التخلص منا، والجميع أغبياء إلى درجة أنهم لا يرون، والذين يرون غير قادرين على فعل أي شيء حيال ذلك.

أمسك يحيى عصاه بيد والناي بالأخرى، وخرج مشمئزًّا من مخاوفه التي تنامت وتزايدت مع التقارير شبه اليومية التي تبثها إذاعة لندن عن إرهاب العصابات الصهيونية، الذي يتخذ صبغة عسكرية بشكل متصاعد.

جلس يحيى على درجات بيته الرخامية، ونفخ في نايه الجميل... رقصت أصابعه فوق ثقوب الناي، ورفع حاجبيه مع أول صوت أصدره منه. عزف لحنًا لأشجاره... للبساطة والسلام.

ـ توقَّفْ عن ذلك!

قالتها باسمة وهي في ذروة الغضب، وسارت في اتجاه الرواق الذي صمَّمه يحيى وسقفه بنفسه.

ـ يومًا ما سأُحطِّم هذا الشيء.

تمتمت باسمة بصوت منخفض لكي لا يسمعها الجيران، وابتعدت خشية أن تكون قد تجاوزت الحد المقبول. كانت لا تزال تتمتم باستياء وهي تخطو فوق السجاد الفارسي المفروش في البهو، تحت الأقواس الضخمة المزركشة بالبلاط، متجهة إلى غرفة العائلة، حيث أجبرت ركبتيها على الانثناء لتتمكن من الجلوس فترة وجيزة على مِسند على الأرض. قبل سنين، أراد يحيى أن يشتري أرائك على غرار البريطانيين، لكنَّ باسمة رفضت. أما الآن فقد اعتقدت أن الأرائك ربما كانت أفضل. مع القلق الذي سكنها، افترشت سجادة الصلاة لتخشع وتدعو الله. بعد أن صلَّت ركعتين، قامت وتمشَّت فوق السجاد الفارسي المتناثر على الأرض الرخامية في اتجاه المطبخ، تأملت حولها تصاميم يحيى من البلاط الأزرق والأخضر. اعترفت لنفسها: «إنه عنيد، ولكنه فنان بالتأكيد». وعادت إلى غضبها:

ـ يا يحيى، كيف يمكنك أن توافق على هذا الزواج؟

لم ينجح توسُّلها، ولا شتائمها نجحت في ثني ابنها عن قراره. وحده درويش الذي كتم حبه لداليا، تفهَّم العزم الذي تحدى به حسن والدتهما. وعندما توجَّهت العائلة لطلب يد البدوية، بكى درويش وهو برفقة غنُّوش وفرسه فطُّومة، العربية الأصيلة الأخرى، رفيقة غنُّوش، ذات البقعة البيضاء على جبهتها وبين عينيها، والتي كانت علامة أصالتها.

وافق والد داليا مرتاحًا من عبء ابنته الصغرى. وبعد يومين، كما جرت

العادة، قبض مَهرها. وشاهدت داليا، من خلال الثقوب الصغيرة في الشبك الذي يغطِّي نافذة منزلها، مرور قافلة الرجال الذين حضروا لتقديم المال والذهب لأبيها. لقد أثَّرت فيها رؤية درويش يسير بين هؤلاء الرجال، أكثر من ذلك المَهر الهائل.

لم يكن لها رأي في المسألة، لكن أعجبتها فكرة أن تصبح عروسًا، وإن تمنّت لو كان ذلك من أجل درويش، لا حسن.

* * *

في يوم زفافها قامت قريباتها - الأم والخالات والعمّات والأخوات وبنات العمومة المتزوجات - بفركٍ وتلميعٍ لكل سنتيمتر مُربع من جسدها؛ وضعن والتزعن السُّكر الساخن واللزج مرارًا على ساقيها وفخذيها وذراعيها وبطنها وأردافها. كانت داليا تمد عنقها لترى الأدغال الصغيرة من الشعر الأسود الذي يُنتزع كل مرة يتم فيها نزع لصاقات السُّكر عن جلدها، والتي ترسل تيارات كهربائية مؤلمة في جلدها.

كانت داليا كالمتفرجة المطيعة تشاهد تحوُّلَها. كانت تنظر في المرآة، كيف شكَّلت خطوط الكحل عينيها بشكل مغرٍ، ورسمت على وجهها البلوغ والنضج اللذين كانا ينقصانها. كانت هي «العروسة» المركز موضع اهتمام محيطها، وكانت جميع الفتيات الصغيرات يشاهدنها، كما شاهدت هي من قبل العرائس اللاتي يجري إعدادهن للزواج.

مثقَلة ومتوهجة بالهدايا المُعلَّقة حول عنقها وعلى جبينها، والتي تتدلى من معصميها وكاحليها وأذنيها. تزوَّجت داليا ابنة الأربعة عشر ربيعًا حسن يحيى أبو الهيجا، في حفل مَهيب. كان احتفالًا يليق بردِّ اعتبار والد داليا، وضراوة مرارة باسمة، وكآبة قلب درويش الحزين.

مزيَّنة بنصف وزنها من الذهب، عاشت العروس الصغيرة زفافها بهدوء، وهي تفرك يدها من دون توقُّف، وفكَّاها مطبَقان بلا حراك حتى عندما قبَّلها المهنئون وتمنَّوا لها حياة سعيدة.

قبل أن ينضموا إلى النساء، احتفل الرجال على حدة؛ نحروا حَمَلًا، ورقصوا على إيقاع الموسيقى والأغاني. قاد درويش، ذو القلب المجروح، الدبكة من أجل أخيه، وشرب نخب العريس بحبٍّ وحزن دفين، وبالخضوع لإرادة الله.

قال حسن بصدق وهو يُعانق درويشًا:

ـ عقبال عندك يا أخي، إن شاء الله.

ردَّ درويش:

ـ إن شاء الله.

* * *

حازت داليا رضا القرية في غضون عشرة أشهر من حفل الزفاف، عندما أنجبت صبيًّا سمَّته يوسف. ومنذ ذلك الحين، وهي بعدُ في الخامسة عشرة من عُمرها، أصبحت داليا تُسمَّى بكل احترام «أُم يوسف» بينما أصبح حسن «أبا يوسف».

حتى قبل ولادة يوسف، كانت باسمة قد بدأت تلين نحو داليا؛ لم يكن في وسعها ألا تُعجب بالمثابرة التي كانت تتناول بها داليا أعمالها المعتادة، والمهارة التي تُبديها وهي تساعد أمها على توليد نساء القرية، أو بهجة زوجها وهو برفقتها. عِلاوة على ذلك، اتَّفقت الأُسرتان على أن يتزوج درويش ابنة خاله، التي كان حسن قد تخلَّى عنها، وهو الأمر الذي أنقذ كبرياء باسمة.

أثار عدم خبرة داليا غرائز الأمومة لدى حماتها، فشرعت في تقديم كَنَّتها الهدوية إلى عالم الأمومة، وتعليمها إيقاعات الرضاعة الطبيعية، وعلاج مغص الأطفال، كما علَّمتها أسرارًا لاستعادة تماسُك جسمها، والحيل المتَّبعة للحفاظ على اهتمام زوجها بها بعد الولادة.

قالت باسمة:

- في نهاية المطاف كل شيء يترهل، الثديان والفخذان، ولكن زيت الزيتون هو السِّر.

ضاقت عينا باسمة، وتلألأت بمظهر المتآمرة وهي تقترب أكثر من داليا، وبدأت تصف لها تدابير الجمال التي اكتشفتها بنفسها:

- هذه أسرار للنساء، وسوف أبوح بها لكِ فقط، ولزَوجة درويش إن شاء الله؛ فلم يُقدِّر لي الله أن أُنجب البنات.

قادت باسمة داليا إلى حديقة الأعشاب الخاصة بها، وكشفت لها عن استعمال النباتات المختلفة. كانت فرِحة ومتحمسة؛ لأن لها وريثة أنثى تتولى إمبراطوريتها من الأعشاب السحرية بعدها. كانت قد علَّمت داليا كيف تُعِدُّ الأدوية الخاصة لصدر حسن. همست باسمة:

- ومع ذلك، من أجل الجمال، فإن زيت الزيتون هو المكوِّن الرئيس. اهرُسي النعناع والريحان بالزيت، وافرُكي كل أنحاء جسمك للحفاظ على تماسك الجلد، وضعي الخليط على فروة رأسك للحفاظ على تألُّق شعرك ولمعانه.

عبر هذه الأوقات، تعلمت باسمة وداليا أن تتحابا، وشيئًا فشيئًا أصبح بينهما رابط أمومي من الولاء والمودة، لم تعرفه أي منهما قبلًا.

* * *

بعد عشرة أشهر من ولادة يوسف، ولدت داليا طفلًا ميتًا. عانت حزنًا محمومًا، وانغلقت على نفسها في عزلة مطبِقة. استغلَّت تلك المأساة امرأة خسيسة من القرية ترغب في كسب ودٍّ باسمة، وانتهزت الفرصة لتروِّج أن البلية التي تمر بها داليا، دليل على عدم جدارتها. كانت تقول:

ـ لم أستغرب! معروف أن البدو يمارسون السحر الأسود. فكيف يمكن فتاة مثل داليا أن تتزوَّج رجلًا مثل حسن؟

ـ اخرجي من بيتي!

ألقت باسمة المرأة على الأرض، ثم توجَّهت إلى داليا، وقالت:

ـ يكفي حدادًا يا حبيبتي داليا. دعينا نزرع الورود الجديدة، من أجل بداية جديدة.

قالت باسمة هذا الكلام وهي تحايل زوجة ابنها، لكي تُرخي إطباقها على فكِّها، منهية بذلك تلك الفترة من الحزن.

* * *

بعد ثلاث سنوات، عندما كانت أشجار الزيتون تجدِّد ألوانها الخضر، انفجرت قنبلة على مسافة قريبة.

ـ لعنة الله على الصهاينة! ماذا يريد أبناءُ الشياطين؟

قالتها باسمة وهي تصرخ في اتجاه الدخان المتصاعد، وقد أصبحت مخاوف زوجها هي مخاوفها الآن. تجمَّع قلق باسمة في صدرها، واستقر في قلبها، وجعل رأسها يدور. وَهَنت ساقاها، فسقطت وسط نبات الورد الجوري في الحديقة، وهي تمسك كتفها اليمنى. كانت لا تزال على قيد

الحياة عندما ركضت داليا إليها، لسماع كلماتها الأخيرة فقط: «بنتي! بنتي!».

بعد مصرع باسمة أصبحت داليا حارسة الورود التي أحبَّتها باسمة. قامت بتهجين نباتات الورد على أساس العطر واللون كما علَّمتها حماتها الراحلة. وسَّعت الحديقة، وجعلت على القبر في مقبرة القرية حوضًا ملأته بالورود البلدية ذات الزهور الحمراء المقلَّمة بالأبيض، وهي المفضَّلة لدى باسمة. كانت تأخذ يوسف معها كل أسبوع إلى المقبرة للاعتناء بالورود. وبعد أشهر قليلة، عندما ولدت داليا ابنها الثاني، إسماعيل، صارت تأخذه هو أيضًا محمولًا على ظهرها في «بُقْجَتها» الخاصة، ولكن عندما اشتد خطر الغارات الصهيونية، بدأت تذهب إلى المقبرة بمفردها، تاركة أطفالها، فترة وجيزة كل أسبوع، في رعاية الأقارب في القرية.

وفي خلال أحد مشاويرها إلى المقبرة، وقع حادث ترك علامة على وجه إسماعيل إلى الأبد. وقد كان لكل فرد في الأُسرة روايته الخاصة الغريبة عن هذه الإصابة. أما يوسف، وهو الشاهد الوحيد على ما حدث، فلم يتحدث منه قطُّ، حتى عندما طُلب منه ذلك.

في ذلك الوقت لم تولد دولة اليهود بعد، وكان يوسف في الرابعة من عمره، بينما إسماعيل كان يحبو نحو شهره السادس. خلال ذلك النهار كان إسماعيل ملقًى في السرير نفسه الذي احتضن طفولة والده. وعلى الرغم من قدم السرير وسوء حاله، كانت باسمة قد أصرَّت أن تستعمله داليا لأطفالها؛ لأنه المهد الذي باركه شيخ سوري ذو كرامات. وعندما حملت داليا بإسماعيل أخذت باسمة على عاتقها تدعيم قضبان السرير بخشب السنديان، وقامت بتثبيت المسامير بنفسها، ثم اشترت البطانة والحشو

وسمَّرتهما أيضًا، واشترت بطانيات بيضاء وبدأت بتطريزها، لكنها لم تكملها قبل وفاتها.

كان إسماعيل كثير الحركة والبكاء في ذلك النهار وهو ملقى في السرير. وكانت داليا عائدة إلى منزلها من زيارة قبر باسمة، حين سحب يوسف الطفلَ الباكي من بين البطانيات البيضاء المطرَّزة، ولأن الطفل كان يرفس ويبكي، وبسبب ثقل وزنه، سقط من يدَي يوسف، فارتطم وجهه بأحد المسامير البارزة في السرير، فتمزَّق جلده على شكل خط امتد من وسط خده إلى محيط عينه اليمنى.

أسفر ذلك اليوم عن علامة بدنية تمثَّلت في نَدَبٍ مميَّز، كان من شأنه أن يبقى في وجه إسماعيل إلى الأبد، لكي يقوده في النهاية إلى حقيقته!

(٤)

عندما غادروا

١٩٤٧ - ١٩٤٨

غادر «آري بيرلشتاين»، من أجل بدء دراسته للطب، بعد وقت قصير من حضوره زفاف حسن وداليا. وعلى الرغم من أن كلًّا منهما ذهب في طريقه، فإن الاتصال بينهما لم ينقطع تمامًا. وعندما تُوفيت باسمة حصل «آري» على إجازة من الكلية؛ ليشارك حسنًا الحزن على وفاتها في عين حوض.

كان الطقس صافيًا ومنعشًا بعد الظهر، عندما ترك حسن و«آري» شكليَّات الحداد التي ستتواصل أربعين يومًا. علا الصوت المنوِّم لتلاوة القرآن من بيت يحيى أبي الهيجا، وأخذ يخفت بينما مشى حسن و«آري» مبتعدَين أكثر في اتجاه بساتين الزيتون.

قال «آري»:

ـ الوضع سيِّئ جدًّا يا حسن! لدى الصهاينة كميات كبيرة من الأسلحة! لقد جنَّدوا جيشًا هائلًا من اليهود الذين يصلون على متن السفن كل يوم. أنت لا تعرف كل شيء يا حسن. لديهم عربات مدرَّعة، بل طائرات!

تفحَّص حسن الأرض الزراعية من حوله، والتي من المفترض أن يرثها ذات يوم، وقال لنفسه: «يبدو أن المحصول سيكون جيدًا هذا العام». تسلل صوت ناي عبر الأشجار فاستدار حسن غريزيًّا في اتجاه المقبرة، محدِّقًا ليعرف هل كان والده هناك. لا أحد. مجرد لحن باكٍ اقتطع قلبه ومُلئ بالصمت.

ـ حسن، سوف يستولون على أراضٍ. لقد شنوا في جميع أنحاء العالم حملة تدعو فلسطين «أرضًا بلا شعب». سوف يجعلونها وطنًا قوميًّا لليهود!

قال حسن:

ـ يقول أبي منذ سنوات إن هذا سوف يحدث، ولكن بدا هذا احتمالًا بعيدًا.

ـ إنها حقيقة يا حسن! الأمم المتحدة سوف تجتمع في تشرين الثاني (نوفمبر)، ويعتقد الجميع أنهم سوف يُقسِّمون الأرض. إنهم منظمون بشكل جيد جدًّا، وأنت تعرف أن البريطانيين جرَّدوكم من السلاح بعد ثورة ٣٦. اليهود المتشددون في المدينة نظَّموا حملة معادية للصهيونية. يقولون إن إقامة دولة إسرائيل انتهاك للمقدَّسات، ولكن النافذين في أمريكا شنوا حملة لا هوادة فيها؛ لإقناع «ترومان» بالاعتراف بدولة يهودية هنا ودعمها.

كان «آري» يرتجف بشكل ظاهر للعِيان.

ـ كيف تشعر حيال ذلك؟ أعني، إقامة دولة يهودية هنا؟

سأله حسن، وهو يعتصر حبة زيتون بين أصابعه؛ ليقدِّر كمية المحصول الذي قد يحصلون عليه في تشرين الثاني (نوفمبر). وقال لنفسه: «الغلَّة سوف تخفف اكتئاب والدي».

ـ لا أعرف يا حسن!

خفض «آري» بصره، وجلس على حجر، وبدأ يلعب بأصابعه في التراب:

ـ أنا يهودي. أقصد، أعتقد أنه خطأ. ولكن أنت لا تعرف كيف كانت الأمور من قبل.

بدأ صوت «آري» يرتعش:

ـ لقد قتَلنا ما حدث، على الرغم من أننا لُذنا بالفرار.

ثم أضاف:

ـ هل لاحظت، ولو مرةً، ذلك الفراغ العظيم في عينَي أمي؟ إنها ميتة في داخلها. وأبي، كذلك. حسن، أنت لا تعرف كيف كان الأمر. والآن لسنا على يقين أننا سنكون آمنين. أبي يشدِّد على أن ما يفعلونه خطأ، وهو لا يريد أن يكون له أي دور فيه، لكن الوضع ليس آمنًا بالنسبة إلينا بعد الآن. هناك حديث عن أن البريطانيين سوف ينسحبون؛ لذلك فالأمر لا مفر منه. إنهم مصمِّمون على أن تصبح هذه الأرض دولة يهودية، ولكنني أعتقد أن العرب إذا قبلوا ذلك ببساطة، فستكون كل الأمور جيدة، ويمكننا العيش معًا.

جلس حسن على الأرض بجانب «آري»:

ـ لكنك قلت من هُنيهةٍ إنهم يريدون دولة يهودية!

خرجت الكلمات قبل أن يتمكن «آري» من إيقافها:

ـ نعم، ولكنني أعتقد أنهم سوف يسمحون للعرب بالبقاء.

ارتفع صوت حسن:

ـ إذًا، هؤلاء المهاجرون سيسمحون لي بالبقاء على أرضي أنا؟

ـ حسن، ليس هذا ما قصدتُه. أنت مثل أخ لي. أنا مُستعد لفعل كل شيء من أجلك، أو من أجل عائلتك، لكن ما حدث في أوروبا...

تلاشت كلمات «آري» في صور معسكرات الموت المروِّعة التي كان كلاهما قد شاهدها.

عصَر حسن حبة زيتون أخرى، كما لو كان يحاول عصر كلمات «آري» المتعلِّقة في الهواء والأشبه بالخيانة، وقال:

ـ بالضبط «آري». ما فعلته أوروبا، لا العرب! لقد عاش اليهود هنا دائمًا. هذا هو سبب التزايد الكبير جدًّا في أعداد الموجودين منهم هنا الآن، أليس كذلك؟ وبينما اعتقدنا أنهم يسعون فقط إلى الحصول على ملاذ... أشخاص مساكين يريدون فقط أن يعيشوا، كانوا يكدِّسون الأسلحة لطرْدنا من بيوتنا!

قال حسن ذلك بهدوء لا بغضب، على الرغم مما بدا على وجهه من استياء، فهو قد فهم ألم «آري». كان قد قرأ عن غرف الغاز، ومعسكرات الاعتقال، وكل تلك الأهوال. ثم تذكَّر ما قاله «آري» قبل لحظات عن أمه، وقال في نفسه: «كان ذلك صحيحًا: عينا السيدة «بيرلشتاين» بدتا كما لو أن الحياة قد حزمت أمتعتها ورحلت عنهما منذ فترة طويلة. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... ثماني عشرة لؤلؤة جميلة».

متحسِّبًا للصراع المنتظر في الفترة القادمة، قال حسن:

ـ إذا كانت الغلبة للعرب في البلدة القديمة، فاذهبوا إلى منزل عمتي سلمى. أنت تعرف مكانه. لديها منزل كبير ويمكنكم الاختباء هناك.

* * *

عصابات «الإرغون» و«الهاغانا» و«شتيرن»، سمَّاهم البريطانيون إرهابيين. وسمَّاهم العرب يهودًا، صهاينة، كلابًا، أولاد زنا، قذارة. ودعاهم السكان اليهود الحديثون مقاتلين من أجل الحرية، جُند الرب، المنقذين، الآباء، الإخوة. ولكن أيًّا كان الاسم الذي حملوه، فقد كانوا مدجَّجين بالسلاح، ومنظَّمين ومدرَّبين جيدًا. بدأوا بالتخلص من السكان غير اليهود ـ البريطانيين أولًا ـ من خلال التفجيرات والإعدامات بلا محاكمة، ثم جاء دور العرب، من خلال المجازر والإرهاب والطرد. أعدادهم لم تكن كبيرة، ولكن الذُّعر الذي أثاروه جعل عام ١٩٤٧ يزلزل بالوعيد، وقَرَعَ جرس الإنذار بالأحداث التي ستأتي. هاجموا عين حوض أربع مرات على الأقل خلال عامَي ١٩٤٧ و١٩٤٨، حين كانت فلسطين لا تزال تحت الانتداب البريطاني.

وقع الهجوم الأول في عطلة عيد الأنوار (الحانوكاة) اليهودي، ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧. زلزل الانفجار الذي حدث الجوَّ، وركضت داليا خارجةً من المقبرة وهي تولول وتصرخ. سارع حسن إلى البيت عندما سمع دوي الانفجار، وحين لم يجد زوجته، أخذ يعدو في اتجاه المقبرة، فالتقى داليا في منتصف الطريق. ألقت نفسها بين ذراعيه وهي تصيح باكية:

ـ اليهود قادمون! اليهود قادمون!

أخذ حسن داليا في اتجاه المنزل، بينما ارتفعت أعمدة الدخان من قرية «الطيرة» المجاورة. تجمَّع سكان عين حوض الفضوليون والمذعورون في الساحة لمشاهدة ما يجري. شق حسن طريقه إلى المنزل، وبحذر شديد مدد زوجته على سريرهما، وأخذ يمسح الدم عن قدميها، وسألها فاحصًا سائلها النازفة:

ـ ماذا أصابك؟

قالت داليا لاهثة:

ـ كنت أعتني بالورود على قبر باسمة، ثم سمعت صوت الانفجار واشتعلت ساقي ألمًا، لكنني واصلت الركض.

وأردفت:

ـ لقد ذهبوا.

دخل يحيى، ويوسف الصغير المذعور بين ذراعيه:

ـ هل الجميع هنا؟

ـ ذهب درويش للاطمئنان إلى الخيول، وإسماعيل باقٍ مع زوجته.

ـ ما هذا الدم؟

أشياء قليلة فقط كانت تُخيف يوسف الصغير أكثر من الدم. صاح: «ماما! ماما!» وأجهش بالبكاء.

أخذت داليا ابنها بين ذراعيها وقبّلت رأسه:

ـ إنه مجرد جرح صغير يا بطلي!

قال يحيى، صائحًا بأعلى صوته، في طريقه خارجًا:

ـ أنا ذاهب لأعرف ما حدث.

صاح يوسف بأمه:

ـ خلخالك غير موجود!

ـ نعم، لقد فقدته.

ـ لن تجلجلي بعد الآن! كيف سأعرف بمجيئك فيما بعد؟

هزَّت داليا ساقها:

ـ لا يزال لديَّ الآخر.. أترى؟

اندفع يحيى عائدًا إلى الداخل:

ـ الله يلعن اليهود! ألقت عصابة منهم قنبلة حارقة على منزل في الطيرة، وهربوا إلى شاحنة كانت تنتظرهم في بساتين الزيتون فوق المقابر. من المؤكَّد أنهم رأوا داليا عند القبر. نحن محظوظون لأنهم لم يصلوا إليها. يعلم الله ما كان يمكن أن يفعلوا بها.

تنامى غضب يحيى وإحباطه، ويداه اللتان تومِئان تتحدثان بصوت عالٍ كصوته، بينما كان يجوب الغرفة جيئة وذهابًا:

ـ نحن بحاجة إلى السلاح! أين الجيوش العربية وهذه الكلابُ تُبيد بلدة بعد الأخرى؟ ما الذي فعلناه في حق أولاد الزانية أولئك؟ ماذا يريدون منا؟

رفع يديه بسرعة، ثم دفع نفسه إلى مقعد، جلس في هزيمة الانتظار، مستندًا إلى الوراء، وعيناه مرفوعتان إلى الله.

«حكْمتك يا رب»، قال يحيى ونهض ليغادر. «حسْبيَ الله ونِعم الوكيل»، همس لنفسه مرارًا؛ ليدفع الأذى بعيدًا في أثناء ذهابه.

لكنه لم يذهب لمساعدة أهل الطيرة. «حسبي الله ونعم الوكيل». مثْل الدول العربية التي لعنها، لم يذهب يحيى لمساعدة إخوته الذين سقطوا. اعتقد في سرِّه أن عين حوض ستكون بمنأى عن الأذى، إذا لم يشارك القرويون

في الأحداث. وظن أن عرض السلام الصادق مع اليهود، كفيلٌ بأن يضمن استمرارية حياتهم.

سأل يوسف والده سؤالًا اخترق قلبه:

ـ بابا، هل سيلقي اليهود القنابل علينا أيضًا؟

ـ الله سيحمينا يا بُني! وسأحميك ووالدتك وأخاك بشكل خاص!

طمأن حسن ابنه، ناظرًا إلى داليا وهو يتحدث. أحاطتها عيناه بالمحبة، في ذلك اليوم، بعد خمس سنوات من زواجهما، وبينما حسن يُمسك قدميها بيَديه، ويقدِّم وعدًا لابنهما، أدركت داليا مدى عمق حبها لزوجها.

* * *

بعد أقل من أسبوعين على انفجار الطيرة، تم ذبح الفلسطينيين في قرية «بلد الشيخ» القريبة، فهبَّت رياح الخطر على عين حوض، مع نذير لا لَبس فيه. ومع توارد أخبار الفظاعات إلى عين حوض، سيطر الفزع على القرويين، خوفًا من المزيد من الهجمات. قطفت نساء عين حوض التين والعنب قبل الأوان، جفَّفنه لعمل القطين والزبيب، وقمن بتخليل الخضراوات لإطعام أُسرهن ترقُّبًا لحصار طويل من جانب قناصة مختبئين.

في أيار (مايو) ١٩٤٨، خرج البريطانيون من فلسطين، وأعلن اللاجئون اليهود ـ الذين كانوا يتدفقون إلى البلاد ـ عن أنفسهم دولة يهودية، مبدلين اسم الأرض من فلسطين إلى إسرائيل. ولكن عين حوض كانت ملاصقة لثلاث قرًى شكَّلت مُثلثًا لم يُقهر داخل الدولة الجديدة؛ لذلك ارتبط مصير أهالي عين حوض بمصير عشرين ألف فلسطيني آخرين، ما زالوا يتشبَّثون بديارهم. لقد صدُّوا هجمات ودعوا إلى هدنة، راغبين فقط في العيش على

أرضهم كما كانوا دائمًا؛ فهم تحمَّلوا الكثير من السادة ـ الرومان والبيزنطيين والصليبيين والعثمانيين والبريطانيين ـ حتى القومية كانت غير ذات أهمية مقارنة بالتعلق بالله والأرض والعائلة. كان هذا جوهر وجودهم، وهذا ما دافعوا عنه وسعوا إلى الاحتفاظ به.

وأخيرًا أُعلنت الهدنة، وتنفَّست عين حوض الصعَداء.

ـ سوف نُعدُّ وليمة كإيماءة للصداقة ولعزمنا على العيش جنبًا إلى جنب معهم.

هكذا صدر قرار يحيى للقرويين نيابة عن مجلس شيوخ القرية. أمسك يد الحاج سالم مع هذا القرار الواعد والنكد، في توسُّل مفهوم بين صديقَين قديمَين.

جاء ضباط الدولة الجديدة في زيِّهم العسكري الموحَّد بلَونه البُني الضارب إلى الصفرة، وهو تناقض بارد غير مفهوم في مواجهة حرارة تموز (يوليو). خشخشت الرياح اللافحة الفلفل المعلق للتجفيف، بينما أحدثت القدور المتدلِّية رنينًا، والجنود الإسرائيليون حاملو البنادق يتجولون داخل القرية وهم مفعمون بالنشاط الذي بثَّه فيهم النصر. أنشبت الشمس حرارتها الحارقة في كل ما لمست، في حين كانت الرائحة النفَّاذة للَحم الضأن والكمون تصارع لتتسرب من خلال القلق.

تشبَّث يوسف، الذي قارب الآن الخامسة من عمره، بثوب والدته، مختلسًا النظر من وراء وزْكَي داليا إلى الغرباء ذوي البشرة الفاتحة، الذين يتناولون طعام الوليمة معتمرين الخُوَذ. كان بين الجنود رجل يُدعَى «موشيه»، يَعتقد أنه يؤدي مُهمة كلَّفه الله بها. أكل وهو يراقب داليا تتحرك وتُقدِّم الطعام. إسماعيل على صدرها ويوسف عند رجليها. ظلَّت عيناه ترجعان

إليها، في حين أقصت أفكاره كلَّ صوت دخيل على جلجلة الخلخال المتبقي لها.

بعد الوليمة، غادر الجنود في الصمت البارد نفسِه الذي أكلوا فيه، تاركين وراءهم أثرًا من الازدراء، مرتعشين خوفًا من هذا النذير بالنحس، صلَّى أهالي عين حوض، فُرادى وفي جماعات، بقية اليوم، واضعين مصيرهم بين يدَي الله، قبل الاستلقاء فريسةً للأرق.

في صباح اليوم التالي، ٢٤ تموز (يوليو)، شنَّت إسرائيل قصفًا مدفعيًّا وجويًّا واسع النطاق على عين حوض والقرى المجاورة. ذكرت وكالة «الأسوشييتد برس» أن طائرات إسرائيلية وجنودًا من المشاة قد انتهكوا الهدنة بالهجوم غير المبرَّر، وسقطت القنابل كالمطر، بينما داليا تركض من ملجأ إلى ملجأ مع يوسف المرتعب، وإسماعيل الصارخ.

* * *

سُوِّيت القرية بالأرض، وفقدت داليا أهلها ما عدا اثنتين من أخواتها. تمدَّد والدها جثة هامدة في ساحة البلدة نفسها التي أحرق فيها يد داليا قبل سنوات. لم يتطلَّب الأمر سوى بضع ساعات كي ينقلب العالم رأسًا على عقِب، ويسقط إسماعيل مجهشًا بالبكاء. استمرَّت داليا في حمله على صدرها، خائفة أن تضعه من يدها على الرغم من وزنه الثقيل. هام ناجون آخرون، مثلهم مثل داليا، على وجوههم في صمت كالمغشي عليهم. كان الهدوء بغيضًا، مجرَّدًا من الغضب أو الحب أو اليأس، حتى من الخوف. ألقت داليا نظرة على الأرض المحروقة التي انتُزعت منها الحياة. شعرت بحكة خلف ركبتها اليسرى، لكنها لم تتمكن من الانحناء للوصول إليها.

كان حسن في الإسطبلات عندما بدأ القصف، وركض لجمع عائلته

بأسرع ما يمكن. وجد داليا متجمِّدة في الصمت المرعب الذي أعقب الحدث. أخافته وقفتها المتصلِّبة وعيناها اللتان لا تَطْرِفان، وذراعاها الملفوفتان حول إسماعيل بإحكام، فناداها وهو يركض إليها:

ـ داليا!

لكنها لم تتحرك، فاقترب منها والهلع ينهش قلبه، ورأى ساقَي يوسف الصغيرتين ترتجفان بعنف، ويديه الصغيرتين تقبضان بإحكام على ثوب داليا.

ـ بابا!

صرخ يوسف مرتاحًا إلى رؤية والده. جعل صوتُه الخارج من الصمت المطبق عينَي داليا تطرفان.

ـ تعالَ هنا يا حبيبي!

رفع حسن ابنه، ناهضًا في خوف لأن داليا لم تتحرك بعد. وتحسَّست قبضةُ يوسف اليائسة طريقها حول عنق والده، رأى حسن أن سروال ابنه قد اتسخ من الغائط والبول.

ـ درويش.. يابا!

نادى حسن شقيقه ويحيى ليساعداه، لكنَّ الحاج سالمًا وصل أولًا:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل! لعنة الله عليهم! لعن الله اليهود وأذهبهم إلى الجحيم!

هذا ما تمكَّن الحاج سالم من النطق به هامسًا عندما رأى داليا في تلك الحالة.

ـ سوف تكسر أسنانها وهي تطْبق عليها بهذه الطريقة. حسن، أعطني الصبي واحمل زوجتك.

ولكن يوسف لم يكن ليُفلت والده. لم يفتح عينيه. ذراعاه وساقاه وخوفه وسرواله المتسخ كانت مثبَّتة بإحكام على حسن، ملاذه. وصل درويش توًّا وناداه حسن:

ـ أخي احمل داليا. الجناح الشرقي من المنزل لا يزال سليمًا.

رفع درويش داليا، وإسماعيل لا يزال على صدرها. هي تطْرِف بعَينيها الآن، محاوِلة استيعاب مشهد السماء الزرقاء الصافية، ومحدِّثة نفسها: «كم هو جميل وصافٍ!». إلى أن حملها درويش إلى الداخل، فكان كل ما أمكنها رؤيته ذاك السقف المجصص في بيتها. وجال بفكرها هاتف: «إسماعيلي آمَن بين ذراعيَّ. وهناك يوسف آمن بين ذراعَي والده. إنه حلم مزعج، هل كان كذلك؟».

* * *

لم يكد يمر شطرٌ من النهار حتى عاود الجنود الإسرائيليون دخول القرية. الرجال أنفسهم الذين تلقَّوا ولائم الطعام يسيرون الآن في القرية، شاهرين بنادقهم على الناس الذين أطعموهم! تلقَّى حسن ودرويش ورجال آخرون أمرًا بحفر قبر جماعي لثلاثين جثة جديدة. استطاع رجال القرية التعرُّف إلى الجميع باستثناء اثنين منهم. كتب حسن بحزن على كُم دشداشته أسماء أصدقائه وأبناء بلده الذين سقطوا. كان يحفر الأرض وقد جعلته الصدمة عاجزًا حتى عن الحزن. «الفاتحة... من التراب أُخذْتَ وإلى التراب تعود...».

القرويون في حالة ذهول! يتساءلون: «هل هذا كابوس؟». أعصابهم منهارة، والأطفال يبكون. تصرَّفَ الجميع بانصياع تام.

ـ اجمعوا الأشياء الثمينة! تجمَّعوا عند البئر الشرقية! تحرَّكوا! هذا ظرف موَقَّت فقط. اذهبوا عند البئر!

صدر أمر مُنطلقٌ من مكبر للصوت، وكأنه إلهٌ خفي يوزِّع المصائر. السماء لا تزال غير متناهية. الشمس لا ترحم. وضعت داليا الذهب في جيب الصدر من ثوبها، وجمعت الأشياء الثمينة كما طُلب منها، واضعة إسماعيل على وركها اليسرى، وممسكة يوسف بيدها اليمنى.

ناشدها يوسف:

ـ ماما، أريد أن يحملني بابا!

ـ اذهب يا حبيبي. الله معنا جميعًا!

أطلقت داليا يده الصغيرة، فقفز الصبي على والده.

تعجُّ المنطقة حول البئر بالوجوه، كلها متغضنة ينغِّصها الذعر. وأحس يحيى أنه لولا الذعر لبَدا تجمعهم كأنه من أجل القطاف. «القطاف!» ألحَّت هذه الفكرة على خاطره.

تساءل الحاج سالم:

ـ ما الذي سيحدث الآن؟

كان درويش وزوجته الحامل آخر من وصل. اقترب محدَودبًا، يجرجر ساقَيه، ويقود فرسه فطُّومة التي انفطر قلبها حزنًا على غنُّوش؛ كان غنُّوش قُرة عين درويش ورفيق فطُّومة طوال حياتها. هذا الحصان الذي كسر ذات مرة كاحل داليا، كان قد قُتل في الهجوم، وقد تطلَّب الأمر كثيرًا من الإقناع لسحب فطُّومة بعيدًا عن الجثَّة الضخمة لرفيقها.

ما الذي سيحدث الآن؟

عند البئر، استل الجنود هراواتهم، يسوقون الحشد المذعور أسفل التل. كانت هناك عربة مثقلة بمتاع عِدة عائلات. تمايلت العربة مثيرة التراب الذي تصاعد غباره بعنف إلى الأعلى. وقعت امرأة عجوز على الأرض، فحملها أحد القرويين. «تحرَّك، تحرَّك!» صاح الإله المتحدِّث من مكبر الصوت. فاض الرعب من قلوب الناس، وحلَّق إلى الأعلى كالطيور. زقزق. زقزق.

حملت داليا إسماعيل على صدرها، وحمل حسن يوسف بإحدى ذراعيه، وحمل بالذراع الأخرى كيسًا حشَواه على عجل بأمتعة مختلفة. أما يحيى فقد حاول بصعوبة حملَ سلة طعام على ظهره. من دون ماء، مشى القرويون متعثِّرين نحو التلال تحت سماء حارقة. قال إلهُ مكبر الصوت:

ـ توقفوا هنا! الحقائب هنا. غدًا تأتون وتأخذونها. اتركوا كل شيء، المجوهرات والمال. سأطلق النار. أتفهمون؟

«اذهبْ! توقفْ! أتفهم؟ ستعودون. غدًا. أمان.»

كان بإمكان يحيى التمسك ببعض هذه الكلمات. تمسَّكَ يوسف بوالده، وداليا بإسماعيل الذي ما زالت ندبته حمراء ولكنها تتعافى. ربما كان هناك أمل، لذا ألقوا على الأرض أمتعتهم بحسب أوامر الإله من مكبر الصوت: المجوهرات الذهبية التي أثقلت داليا يوم زفافها، والطعام، والثياب، والبطانيات، والمقص الذي كانت باسمة تشذب به الأشجار. «لماذا أحضرت هذا؟» تساءلت داليا.

جرَّد درويش فطُّومة من الأكياس المُسرَجة على ظهرها، ووضع محتوياتها بجانب الذهب وغيره من الأشياء الثمينة.

أمر جندي؛ ليس الإلهَ من مكبر الصوت، لكن المؤكَّد أنه أحد حَوارييه:

ـ الحصان، اترك الحصان!

تخلّى درويش عما بقي له من كبرياء:

ـ أرجوك!

كانت فطُّومة تستحق أن يتوسَّل من أجلها، لكنَّ التوسل أغضب الجندي:

ـ اخرسْ!

ـ أرجوك!

ـ اخرسْ!

ـ أرجوك!

أطلق الجندي النار من مسدسه مرتين. طلقة واحدة بين عينَي فطُّومة، على غرَّتها البيضاء، فسقطت ميتة على الفور، أما الأخرى فاخترقت صدر درويش. زوجته الحامل، ابنة أخي باسمة، خطيبة حسن السابقة، صاحت صارخة بجانب زوجها النازف، بينما تجمَّع الناس لحمل درويش وإبعاده. أخرج رجل جرَّة عسل لوقاية الجرح من التلوث، وضمَّدوه بقطع من ثيابه. استقرت الرصاصة في عمود درويش الفقري، وحكمت عليه بالعجز عن الحركة، وبتقرُّحات الفِراش البشعة مدى الحياة، حياة يعذِّبها عبء مصير زوجته الكئيب، المقيدة إلى زوج يحيا من الصدر فأعلى فقط؛ وحتى في تلك الحياة، عاش على ذكريات الخيول والريح لا غير!

* * *

علا الذعر بسبب الطلقات النارية، وحلَّت محل طيور الرعب سُحبٌ

جعلت يحيى يأمل أن تمطر. لما يكن هذا مَوسِمَ المطر بعد، لكن أشجاره بحاجة إلى الماء. أحيانًا كان المطر كل شيء في عين حوض، وأحيانًا أخرى كان مجرد ضيف عزيز. ثم نظر إلى ابنه درويش فلم يجد لأي شيء معنى. اللعنة على المطر! أسقط يحيى السلة عن ظهره، وبدأ يبكي لأجل ابنِه... صبيِّه القوي... الفارس الذي طالما أثار الإعجاب!

لم تكن داليا قد لحقت بهم بعد؛ فصلتها الحشود المذعورة عن حسن، لكنها ما زالت تستطيع رؤية كوفيته أمامها. كان أطول من معظم الرجال، لطالما أحبَّت ذلك. «يا الله، ما الذي يحدث؟» عبرت الغيوم فجأة كما أتت. الشمس تلسع مثل العقرب. الغبار كان عاليًا، الصبَّار كان منخفضًا، وفكَّرت داليا في الماء.

في لحظة...

في لحظة واحدة، كان إسماعيل ابن الأشهُر الستة على صدرها، بين ذراعيها الحانيَتين. في اللحظة التالية اختفى إسماعيل.

إن لحظة واحدة لَيُمكنها أن تسحق دماغًا وتُغير مجرى الحياة، مسار التاريخ. لقد كان وميضًا متناهي الصغر من الزمن سوف تستعيده داليا في ذاكرتها، مرات ومرات سنوات جمَّة، باحثة عن مفتاحٍ لمعرفة ما جرى، تلميحٍ ما لما يمكن أن يكون قد جرى لابنها. وحتىً بعد أن أصبحت ضائعةً في واقع مكسوف، كانت تفتش الحشد المهاجر في مخيِّلتها بحثًا عن إسماعيل:

- ابني! ابني!

صرخت داليا وعيناها جاحظتان بحثًا عن ابنها. الغبار على وجهها، والصبَّار على قدميها. «ابني! ابني!» تفحَّصت الأرض، نظرت إلى أعلى،

وقامة حسن الفارعة لم تكن هناك. «ابني! ابني!» حاول بعض الناس مساعدتها، لكن طلقات نارية دوَّت، ودفعت داليا إلى الأمام. «هل هذا كابوس؟» لا شيء بدا حقيقيًّا. الوضع غير معقول. نظرت إلى ذراعيها مرة أخرى للتحقُّق. «ربما زحف داخل ثوبي». تحسَّست صدرها. «إسماعيل غير موجود». ابنها اختفى.

توقَّفت داليا وكذلك فَعَلَ الزمن. صرخت كما لم تفعل عندما أحرق أبوها يدها في ذلك النهار البعيد. صرختها كانت عالية، نافذة، مفنية، روحية، من أعمق لوعة يمكن أن تشعر بها أُم، من أشد رغبة عمقًا في عودة الزمن، بضع دقائق فقط. لو كان هناك مَن يسمع نحيب داليا. ركض حسن إليها، وفتَّش الحشد باليأس نفسه كما فعلت داليا. خائفًا على طفله البكر، أبقى حسنٌ يوسفَ قريبًا منه وهو يبحث عن إسماعيل. اشتد التصاق يوسف بوالده، خائفًا أن يتكلم. نجح ثلاثتهم في آخر الأمر في الوصول إلى بر الأمان، بفضل قوة حسن وعزيمته، لكن من دون إسماعيل!

* * *

جلس القرويون على الأرض في الوادي. كانت الأرض جميلة ومسالمة كما كانت دائمًا. الأشجار والسماء والتلال والأحجار لم تتغير، والقرويون مصابون بالدوار وهادئون، إلا داليا؛ كانت تدور في أسًى هائج، تستجوب الناس، وترفع الأغطية عن الأطفال الرضَّع للنساء الأخريات، آملة العثور على صبي له ندبة أسفل خده الأيمن قرب عينه. فتَّشت وصدرُها يتوجَّس الشر، لم تقلِّل من جزعها محاولات يحيى لطمأنتها إلى أن شخصًا ما بالتأكيد التقط الطفل، وأن شملهم لا بُد أن يلتئم. «بالتأكيد!» كرَّر يحيى، ولكنه كان يعرف أنه لا يمكن التشبُّث بالكلمات.

استنفذت داليا آخر ما لديها من طاقة على الدموع، تعيد استذكار أحداث تلك اللحظة، مرات ومرات ومرات. الصغير يوسف، غير المدرك للجحيم المفاجئ الذي هبط على القرية بأكملها، وافق على التخلي عن والده، وجلس بين ذراعَي جده يحيى، يعاني وإياه الدوار والدموع.

تنقَّل حسن مرارًا بقلق بين شقيقه المصاب، درويش، وزوجته التي لا يمكن تعزيتها، وابنه المرتعب، ووالده المذهول، حتى استسلم في النهاية للإرهاق، ونام على الأرض بين بعوض لا يرحم. أسند رأسه إلى حجر، ولكنْ حتى النوم لم يستطع أن يخفِّف من شعور الخيبة. لقد فشل في حماية عائلته. لم يفشل في استعادة إسماعيل فحسب، بل فشل حتى في طمأنة عائلته!

سأل يوسف جدَّه:

ـ جِدُّو، هل نستطيع أن نذهب إلى البيت الآن؟

لم يكن باستطاعة يحيى أن يكذب، ولا أن يقول الحقيقة! قبَّل حفيده، جذبه ليقرِّبه بإحكام من صدره، وقال:

ـ استرح قليلًا يا بُني، استرح قليلًا الآن، يا حبيبي.. يا ابني.. يا حبيبي!

حاولوا العودة في اليوم التالي، لكن البنادق من خلفهم حظرت العودة إلى الديار. وطوال ثلاثة أيام وليلتين، شقُّوا طريقهم صعودًا ونزولًا إلى التلال التي لا ترحم، تحت وهج الشمس، ومراقبة خفية ولكنها مؤكَّدة من جانب القنَّاصين. سقط صبي مُصاب بالسكَّري وسقطت جدَّته، وماتا. أجهضت امرأة، وتلوَّى رضيعان مصابان بالجفاف بين أذرع والدتيهما. كانت مدينة جنين أقصى ما استطاعوا الوصول إليه، فاستراحوا حيثما توافرت مساحة فضاء بين سيل اللاجئين الآخذ في التجمع من قرى أخرى. سكان تلك البلدات ساعدوهم على قدر ما استطاعوا، تخلُّوا لهم

من طعامهم، وبطانياتهم، وما لديهم من مياه، واستوعبوا أكبر عدد ممكن منهم في بيوتهم. قدَّمت شرق الأردن والعراق وسوريا بعض الخيام بشكل عاجل، وبرز إلى الوجود مخيم للَّاجئين في جنين، حيث أمكن القرويين من عين حوض الوقوف على التلال والنظر إلى الوراء، إلى البيوت التي لن يعودوا إليها أبدًا.

* * *

وهكذا كان ـ بعد ثمانية قرون من إنشائها على يد أحد قادة جيش صلاح الدين عام ١١٨٩ م ـ إخلاء عين حوض من أبنائها الفلسطينيين! حاول يحيى أن يحصي عدد الأجيال التي عاشت وماتت في تلك القرية. تتبَّع سلسلة الأسماء والأنساب، فأحصى أربعين جيلًا: أربعين جيلًا من الحياة التي سُلبت الآن! أربعين جيلًا من إنجاب الأطفال والجنازات، من الأعراس والرقص، من الصلوات والركَب المكشوطة! أربعين جيلًا من الخطيئة والإحسان، من الطبخ، من الكدح، من الكسل، من الصداقات والعداوات والمواثيق، من المطر وممارسة الحب! أربعين جيلًا بذكرياتها وأسرارها وفضائحها التي لا تُمحى! وكل ما أطاحته عقيدةٌ منحت شعبًا آخر ـ سيستقر في المكان ويدَّعي حقَّه فيه ـ كل ما تبقَّى من عمارة وبساتين وآبار وزهور وسحر، بوصفه ميراثًا للغرباء اليهود القادمين من أوروبا وروسيا والولايات المتحدة وأنحاء أخرى من العالم.

في محنة تاريخ دُفن حيًّا، سقط العام ١٩٤٨ في فلسطين من الرزنامة إلى المنفى، متوقِّفًا عن حساب العد السائر للأيام والشهور والسنوات، ليصبح بدلًا من ذلك ضبابًا لا نهاية له! الشهور الاثنا عشر لتلك السنة أعادت ترتيب نفسها، والتفَّت كالدوَّامة بلا هدف في قلب فلسطين! أهل

عين حوض الكبار في السِّن سوف يموتون لاجئين في المخيم، مُسلِّمين ورثتَهم المفاتيح الحديدية الكبيرة لمنازل أجدادهم، وعقود تسجيل الأراضي المتهالكة الصادرة عن العثمانيين، والصكوك العقارية من الانتداب البريطاني، وذكرياتهم، وحبهم للأرض، والعزيمة الباسلة على رفض ترك روح الأربعين جيلًا، عالقة تحت الدمار الذي أحدثه اللصوص!

(٥)

ابني! ابني!

١٩٤٨

في الأيام التي سبقت الهجوم الصهيوني المُركَّز على وسط فلسطين وشمالها، في أواخر تموز (يوليو) ١٩٤٨، اجتاحت عين حوض رياحٌ شرقية ساخنة وجافة. لكن حين دخل الجنود القرية بحُجة تعزيز الهدنة، كان شهر أيلول (سبتمبر) قد أصبح على الأبواب، وتهب دائمًا في خلاله رياح غربية تُبشِّر الفلاحين بقدوم المطر الأول، أو الموسمي الذي يروي ظمأ أشجار الزيتون ويُفرح قلب ثمارها. مجرد اقتراب المطر كان بشارة أمل، عزَّزها القرويون بالوليمة التي ظنوا أنها ستدفع الهدنة خطوة إضافية نحو السلام.

بينما كان جنود ـ هذه التي سمَّوها إسرائيل ـ يأكلون، كان أحدهم، ويُدعى «موشيه»، يراقب امرأة عربية يتشبَّث بقُفطانها صبي صغير، وتضم رضيعًا إلى صدرها بإحدى ذراعيها، وتُقدِّم بالأخرى لحم الضأن له ولرفاقه. كان «موشيه» ذو الزي العسكري الداكن يُفكر في ظلم القدر الذي منح العربية نعمة الأطفال، وحرم «يولانتا» إياها؛ هي زوجته المسكينة التي عانت ويلات

الإبادة الجماعية، ونجت منها بجسد لا يمكنه أن يحمل بطفل. وكان ذلك يبعث في داخله أسًى لا مواساة معه.

أراد «موشيه» أن تكون «يولانتا» سعيدة. «يولانتا» أرادت طفلًا، لكنَّ جسدها أتلفه النازيون، ولا أمل في تطبيبه؛ فقد أجبروها سنوات، وهي بعدُ مراهِقة، على إشباع الشهوات الجنسية لقوَّات الأمن الخاصة في ألمانيا النازية. كان ذلك كابوسًا أنقذ حياتها من هلاك محتَّم، لكنه تركها عاقرًا كصحراء قاحلة. وبعد أن فقدت جميع أفراد أُسرتها في معسكرات الموت، أبحرت «يولانتا» وحيدة إلى فلسطين في نهاية الحرب العالمية الثانية. لم تكن تعرف شيئًا عن فلسطين أو الفلسطينيين، اتَّبعت الإغراءات الصهيونية فقط والوعود الخصبة بأرض الحليب والعسل. أرادت ملجأ. أرادت الهروب من رائحة عرق الرجال الألمان التي لوَّثت جسدها، ومن ذكريات الحرمان والجوع. أرادت الهروب من صيحات الموت التي نغَّصت أحلامها، من أغاني أبويها وأخيها وأخواتها التي انطفأت، ومن صرخات موت اليهود التي لا نهاية لها.

كان «موشيه» يتفهَّم آلامها. لقد رأى الآلام نفسها في عيون اليتامى والأرامل اليهود المدمَّرين القادمين بالمئات، والذين يصِلون كل يوم إلى شواطئ فلسطين. لكن «يولانتا» كانت استثنائية ومميَّزة، وتشع رقة وجمالًا. وقع في حبها من أول نظرة، وفي غضون أشهُر أصبحا زوجين.

واسى «موشيه» زوجته في ليلتهما الأولى:

ـ «يولانتا»، أنتِ الآن في أمان.

قالت وهي تبكي بين ذراعيه:

ـ كيف يمكنك أن تؤكِّد هذا؟

ضمَّها إلى صدره بقوة، وقال:

ـ سوف نعيش لنرى الأراضي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن خالية إلا من اليهود.. ستكون فلسطين لنا. ستَرَين ذلك. سننشئ عائلتنا ونبدأ حياتنا الجديدة. نامي الآن، واحلمي بأطفالنا يا حبيبتي.

وضمَّها مرة أخرى.

البريطانيون أولًا، ثم العرب.

لم تخِب آماله. نجح الصهاينة في التخلص من البريطانيين، ومن معظم العرب. ورأى مع «يولانتا» ولادة إسرائيل. أسهَم بنفسه وبقوة في ولادة الدولة الجديدة، دولة يهودية تبزغ من ثنايا رماد أوروبا، لكنهما وقفا عاجزَين أمام حلمهما الخاص، إنجاب طفل.

* * *

غادر «موشيه» عين حوض مع رفاقه، وبقيت صورة المرأة العربية وطفليها عالقة في ذهنه. كيف يمكن أن يحرم الله «يولانتا» المعذَّبة نعمة الأمومة، ويمنح، في المقابل، العربَ الذين لا يعانون قلة العدد جميعَ هؤلاء الأطفال الأصحَّاء؟! لم يجد في ذلك سوى ظلم مجحفٍ أمدَّه بالعزم على منح «يولانتا» سعادتها المستحَقَّة، مهما كلَّف الأمر.

بعد قصف القرية في اليوم التالي، رأى «موشيه» المرأة العربية نفسها بين حشد القرويين الهاربين، على صدرها رضيعُها المتشبِّث بها، وحَول كاحلها خَلخال جريء يضاهيها جمالًا.

شقَّ «موشيه» طريقه بين الكتل البشرية متقدِّمًا نحو المرأة. وحين صار على بُعد خطوات قليلة منها، وفي تلك اللحظة المصيرية، تسبَّبت الحشود

المتلاطمة في إسقاط الطفل من ذراعيها. وفي لمح البصر، هجم «موشيه» على الطفل واختطفه ودسَّه في كيسه العسكري، وواصل السير من دون أن ينظر إلى الوراء. سمع المرأة وهي تصيح «ابني! ابني!»، فاعتقد أنها رأته يسرق طفلها، لكنها لم تره. سُمع أزيز المزيد من الطلقات النارية، وازداد اندفاع الحشود إلى الأمام، فدَفعت معها المرأة على طول الطريق.

بكى الطفل، وأحس «موشيه» برَكلات صغيرة داخل كيسه، وهو يتَّجه نحو سيارة الجيب العسكرية، بعيدًا عن أعيُن رفاقه. كان العرب قد ابتعدوا عن وسط البلدة. وخطَر له أن يهدِّئ الطفل بواسطة الكحول الذي أخفاه الجنود للاحتفال بانتصارهم الوشيك ذلك المساء في عين حوض. وبينما كان يقطِّر الجِنَّ في فم الطفل، لاحظ «موشيه» الندبة على وجهه؛ كانت لا تزال حمراء، وعَينُه لا تزال متورِّمة.

صاح أحد الجنود:

ـ ذهب العرب!

تمَّت العملية وأُبعد سكان عين حوض عن أرضهم. حان الآن وقت الاحتفال. كانت تلك فرصة «موشيه» لإبعاد الطفل عن الأنظار، وصاح:

ـ لم أُحضر الخمور. سأعود حالًا.

ثبَّت الطفل السكران المخبَّأ داخل الكيس على المقعد الخلفي في سيارة الجيب، وانطلق بها نحو «الكيبوتس»، حيث «يولانتا» النائمة، على الأرجح. عهِدها «موشيه» تنام كثيرًا، وتأكل قليلًا، ونادرًا ما تبتسم.

رعاية هذا الصغير ستعيدها إلى الحياة.

لم يكن «موشيه» يعرف ـ ولن يعرف مع زوجته أبدًا ـ أن الصغير اسمُه

إسماعيل، وأنه نجْل داليا وحسن الفلاحَين من قرية عين حوض الفلسطينية. لم يعرف أيضًا أن صورة المرأة العربية وهي تصرخ «ابني! ابني!» سوف تطارده طوال حياته، وستحرمه الطمأنينة حتى النهاية! لكنه الآن، لم يشعر إلا بأنه فعل ما فعل بدافع الحب. أما طرْد أهل عين حوض، فهو مسئولية المرسوم القاطع: «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض». لقد ردَّد هذه المقولة حتى كاد أن يؤمن بها، لولا تلك المرأة العربية.

لولا داليا!

* * *

تفتَّح وجه «يولانتا» كبُرعم لمسه نسيم الربيع، وتفتَّحت فيها غريزة الأمومة لتطرد كآبتها وبؤسها، ولتبعد عنها الأشباح التي تلاحقها. حملت الطفل المخدَّر والمتَّسخ والمشوَّه، وأحاطته بلهفتها. وتعلَّمت في ذلك اليوم أول معلومة عن العرب: إنهم يختنون صبيانهم.

وقعت «يولانتا» في الحب، وسرَت في جسدها رعشة الفرح:

ـ إنه جميل يا «موشيه».

ـ هو... هذا الطفل... والداه...

لم يكن «موشيه» واثقًا بما يريد قوله، وشعر بالامتنان عندما قاطعته «يولانتا»:

ـ كفى! لا أريد أن أعرف شيئًا. قل لي فقط، هل هو ابننا يا «موشيه»؟

ـ نعم يا حبيبتي، وهو بحاجة إلى أُم.

ـ إذًا، سيكون اسمه «دافيد»؛ إحياءً لذكرى أبي.

هكذا قرَّرت «يو لانتا». وعاد «موشيه» إلى عين حوض وبحَوزته الخمور، كان سعيدًا ومتكاملًا.

البريطانيون أولًا، ثم العرب.

أما «يو لانتا»، فقد حظيَت بطفل.

* * *

بينما سار أهالي عين حوض نازحِين مستلَبين، سَيطر «موشيه» ورفاقه على القرية ونهبوا البيوت المهجورة. وبينما كانت داليا تَهذي بقلب كسير، كانت «يو لانتا» تهدهد «دافيد» لكي ينام. وبينما كان حسن ساهرًا لإبقاء أسرته على قيد الحياة، كان «موشيه» يغني سكران مع سائر الجنود. وبينما كان يحيى والآخرون يمشون بخُطى الحزن بعيدًا عن أرضهم، أنشد المغتصبون: «هاتِكْفا»، وهتفوا: «تحيا إسرائيل!».

(٦)

عودة يحيى

١٩٤٨ - ١٩٥٣

بينما شرعت أقلية أجنبية في بناء دولة جديدة عام ١٩٤٨، طاردةً الفلسطينيين، وناهبة منازلهم ومصارفهم، عيَّنت القوى الخمس العظمى ـ الاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا العظمى والصين والولايات المتحدة ـ وسيطًا دوليًّا من قِبَل الأمم المتحدة لكي يقترح حلًّا للصراع.

قال يحيى للرجال الذين تجمَّعوا كل صباح قرب خيمته لمعرفة الأخبار الجديدة:

ـ إنه سويدي.

سأل أحد المارَّة:

ـ مَن هو السويدي؟

ردَّ شخص ما بحدة:

ـ اصمُت. دع حسنًا يقرأ لنا الصحيفة.

أومأ يحيى إلى حسن:

ـ أكمل يا بُني!

قرأ حسن:

> مؤدِّيًا مهمَّته وفق التفويض الممنوح له، صرَّح وسيط الأمم المتحدة السويدي، الكونت «فولك برنادوت»: ستكون جريمة ضد مبادئ العدالة الأساسية، إن حُرم هؤلاء الضحايا الأبرياء للصراع حقَّ العودة إلى ديارهم، في حين أن اليهود المهاجرين يتدفَّقون إلى فلسطين بالفعل، هم على الأقل يشكِّلون تهديدًا بخطر إحلالهم الدائم مكان اللاجئين العرب، الذين كانوا يضربون بجذورهم في الأرض منذ قرون.

سادت لحظة صمت ملأها الأمل المتواصل بالعودة. ثم تحدَّث بعض الرجال:

ـ أخيرًا نطق شخص بالحق!

ـ آمل فقط ألا يكون اليهود قد خرَّبوا بيتي تمامًا.

ـ لا يهمُّ. سأصلح منزلي. المهم أن أعود إليه.

ـ سأذهب لأُخبر عائلتي. أُم خليل ستفرح جدًّا. لقد أمضَّها القلق على أشجار الليمون واللوز التي زرعتها.

لكنهم ما إن بدأوا بالتفرُّق، حتى أوقفهم صوت طفل في الخامسة من عمره. نظر يوسف الصغير إلى يحيى، وسأل:

ـ جِدُّو، منِقدر هالكيت نروح عَ البيت؟

كان هذا هو الافتراض الذي تبنَّوه جميعًا، ولكنهم عندما واجهوا السؤال

بدوا فجأة غير واثقين بالإجابة، فالتفتوا إلى يحيى والحاج سالم الجالس إلى جانبه. نظر يحيى إلى حسن، ثم التفت إلى حفيده، وقال:

ـ الحقيقة هي يا يوسف، نحن ببساطة لا نعرف! علينا أن ننتظر يا حبيبي!

* * *

أصبح التجمُّع من أجل سماع الأخبار تقليدًا صباحيًّا في مخيم اللاجئين. وكانت للنساء مجموعاتهن الخاصة، وكذلك للأطفال، لكن بالنسبة إلى الرجال، كان ذلك أهم حدث في اليوم. كان التقليدَ الذي يجدِّد الأمل كل صباح في العودة إلى الديار. حتى عندما حُطِّمت هذه الآمال إلى الأبد، وحتى حين بدأ كبار السِّن يموتون، وحتى عندما خفتت آمالهم، استمرَّت عادةُ تجمُّعهم الصباحي من أجل الحلم بحق العودة بلا نهاية.

بعد أيام قليلة من سماعهم نبأ الوسيط السويدي، أصغوا إلى خبر آخر. قرأ حسن:

> تم اغتيال وسيط الأمم المتحدة السويدي، الكونت «فولك برنادوت»، على أيدي إرهابيين يهود.

لا حاجة لتفسير الخبر: إسرائيل لن تسمح بالعودة! وانتظرت العائلة أسيرة تلك السنة غير المتناهية، تمدَّد المصير الموقَّت وتجدَّد كل صباح مع الأخبار التي رسمت للعائلة مسارها وقدرها السوريالي.

امتدَّت الشهور المضطربة إلى سنوات، وزحفت الشيخوخة على يحيى بسرعة تسابق الزمن. وفي صباح يوم من أيام عام ١٩٥٣، أدرك أن تراب خيمته البائسة في جنين قد تحوَّل إلى طين راسخ. كان الدوام الرمزي لمأواه أكثر بكثير مما يمكن تحمُّله؛ إذ طالما طمأنه إلى أنَّ بقاءه في خيمة من الشعر

أو مسكن من الصفيح، بسقفه المسرِّب للماء وأرضيته الموحلة، يعني أن المنفى موقَّت لا أكثر.

في سنوات الانتظار في مدينة الخيام، كان يحيى يستيقظ كل صباح مع الأذان وينفق وقته بلا عمل في أثناء النهار، يعزف موسيقى نايهِ بين وجبات الطعام المقنَّنة والصلوات الخمس. وجد بعض العزاء في حُب عائلته، وفي مباريات الطاولة اليومية مع الحاج سالم و«جاك أومالي» مدير عمليات وكالة الأمم المتحدة في جنين. كان الرجال الثلاثة لا يفترقون من منتصف الأصيل حتى الثامنة مساءً، أو حسبما تسير المباراة، أو بحسب جودة إعداد النارجيلة في ذلك اليوم.

ولكن، طوال حياته التي امتدَّت إلى أكثر من ستين سنة، اعتاد يحيى العلاقة المتينة والمتبادلة التي تنشأ بين الفلاح وأرضه؛ لذا كان لسنوات التيه في أسر الطرد من الأرض أن تغير طباعه ومزاجه، وأن تحني قامته. سلسلة الوعود وقرارات الأمم المتحدة، التي لا تساوي الورق الذي دوَّنوا عليه المطالبات بالعودة، أنهكت روحه وجعلته قليل الكلام، وصار يتنقَّل هنا وهناك بطباع رجل هزمه الانتظار؛ مهزومٍ حتى من يديه المتذمرتين بصمْت من البطالة القسرية.

لكنَّ شيئًا ما في طين مأواه الجديد، الشيءَ نفسه الذي جعل الطين متحجِّرًا، نفض عن يحيى استسلامه. في صباح أحد الأيام من أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، قام وناول داليا بعض الثياب، وقال:

ـ يا بنتي، هل تجعلين هذه بيضًا على قدر ما يمكنها أن تكون؟

أخذت داليا الملابس، وحشرتها في دلو الغسيل ثم غمرتها بالماء والصابون. انحنت على الدلو لتفرك قطع الثياب، ثم رفعت رأسها لتبعد

خصلات الشعر القليلة التي تدلَّت من تحت وشاحها، وراقبت حماها يسير مبتعدًا. شعرت أن معنوياته أفضل، فحمدت الله.

على حجر خارج مأواه الطيني، جلس يحيى بسرواله الداخلي الأبيض الطويل، وقميص داخلي أبيض، واتَّكأ على الريح. أخذ نفَسًا متأنِّيًا، أغمض عينيه، وضع نايه بين شفتيه، ونفخ فيه عازفًا لحنًا جديدًا؛ لحنًا لم تكن فيه موسيقى الانتظار الحزينة، ولم يكن لحنًا مألوفًا من تراثه الموسيقي. كان نداءً إلى الأرض، إلى الله، إلى البلاد التي تسكن في أعماقه. كان عزفًا جذب انتباه المارَّة، لمس قلوبهم، وجعلهم يحْنون رؤوسهم من دون أن يدركوا السبب. وعزف يحيى على نايه طوال ذلك الصباح، مغمض العينين معظم الوقت، ومرفوع الجبين. عندما انتهى ذهب إلى مسكنه، وعاد بموسى الحلاقة ومِسَنٍّ من الجلد وقطعة من مرآة مكسورة. جلس منتصبًا، مثبِّتًا قدميه ذَواتَي الجلد المتصلِّب في التراب، متنفِّسًا بعمق.

حان موعد القطاف... أشجار الزيتون جاهزة.

حلق ذقنه، فتل طرفَي شاربه فتْلتين مضبوطتين، لوى طرفيهما إلى الأعلى وثبَّتهما في مكانهما بعصارة شجرة الصمغ العربي.

لا بُد أن العنب والتين قد تساقطا الآن، ويتعفَّنان على الأرض.

بوَقاره المعهود، لبس ثيابه على مهل، مرتديًا أفضل دشداشة يملكها، سترة كانت كبيرة بالنسبة إلى جسده. عقد الكوفية ذات المربعات الحُمر على رأسه بعقال بسيط.

لا بُد أن أمطار تشرين الثاني (نوفمبر) قد ليَّنت الأرض.

وخرج من مسكنه فخورًا بقراره الغامض.

ويحيى مدرِكٌ ما ينوي عملَه، توسَّل إليه الحاج سالم أن يحذر العواقب. ناشده:

ـ يا أبا حسن، أعرف ما تريد. إنه تشرين الثاني (نوفمبر) ونحن جميعًا نشعر مثلك، ولكنَّ الوضع خطير للغاية. لا تكن أحمق يا صديقي. وحِّد الله!

ـ لا إله إلا الله.

أجاب يحيى، لكنه لم يكن ليصغي أكثر من ذلك. أما «جاك أومالي» فهو يعرف جيدًا أن لا فائدة من التفكير في ثنْي يحيى عما عزم عليه. وضع يده البيضاء القصيرة والسمينة على كتف يحيى، وبلهجته الأيرلندية قال:

ـ كُن حذرًا أخي. سوف يظل كرسيُّك ونارجيلتك في انتظارك في مقهى بيت جواد، فلا تغب طويلًا.

عندما حاول حسن منعه ـ «يابا، أرجوك! سوف يقتلونك!» ـ حدَّق يحيى في ابنه بنظرة لا تقبل المراجعة، ثم استدار ومشى، كما كان يمشي قبل سنوات، بعزم وتصميم واعتداد بالنفس ـ وإن كان الآن بمساعدة عكَّاز ـ صاعدًا الزقاق المنحدر إلى حافة المخيم، عابرًا حدوده، ومتَّجهًا إلى الشمال الغربي خارج قيد ذلك العام الأبدي ١٩٤٨، إلى ما وراء حدود ما أصبح يُدعَى «إسرائيل» ـ إلى منظر طبيعي ريفي عرفه أكثر مما عرف خطوط كفَّيه ـ حتى وصل أخيرًا إلى وجهته.

* * *

عاد يحيى بعد ستة عشر يومًا، رثَّ الملابس متَّسخًا وبلِحية مشعَّثة، وبروح مشرقة ومشعة. الكوفية التي كانت غطاءً لرأسه شكَّلت الآن حزمة ملقاة على كتفه، فيها ما تيسَّر جمعه من حَب الزيتون ومن التين الشتوي الذي لا ينضج

إلا بحلول شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بينما سار هو مع حدبة رشيقة تحت ظلها. لقد شق يحيى طريقه عائدًا إلى عين حوض، وقضى هناك ستة عشر يومًا من دون أن يكتشفه الجنود، وقال معلنًا: «تضاريس تلك المنطقة في دمي! أعرف كل شجرة وكل طير. الجنود لا يعرفون».

تجوّل يحيى في حقوله أيامًا، محيّيًا أشجار الخرُّوب والتين. نام قانعًا في ظلها، كقيلولة بعد الظهر في الأيام الخوالي. البئر القديمة، حيث أطلق الجندي النار على درويش وفطُّومة، ما زالت في مكانها، ودلو البئر المربوطة بغصون من شجيرة الأريج ما زالت كما تركها. زار قبر زوجته، حيث الورد الجوري الأحمر المقلم بالأبيض عاد يتفتَّح على الرغم من الدمار الذي أصاب المنطقة. قرأ الفاتحة لروح باسمة، وأقسم إنه تحدَّث مع روحها.

بعد ثلاثين عامًا تقريبًا، وبالشارب المفتول نفسه كشارب جده، سيتذكَّر يوسف الطين الأصفر الذي لوَّث أسنان يحيى عندما عاد من أيامه الستة عشر في جنة الحنين. يحيى الذي غادر المخيم في وقاره العنيد وثيابه البهية، عاد أشبه بشحاذ مَرِح معه كثير من الفاكهة والزيتون، على قدر ما استطاع حمله في كوفيَّته وجيوبه ويديه. على الرغم من مظهره المُزري، جاء مكسوًّا بالنشوة، واحتفل به الناس بما يليق بالرجل الوحيد بينهم الذي استطاع مراوغة قوة عسكرية لا ترحم، ما لم تستطعه خمس دول كبرى. لقد عاد، ومهما كانت عودته موجزة وغامضة، فقد فعلها.

حقنت جرأة يحيى الحياة في اللاجئين الذين أرهقتهم وعود الأمم المتحدة، وتبلَّدوا بإذلال عام ١٩٤٨ الذي لا نهاية له. بالنسبة إلى يوسف، الذي لم يبلغ العاشرة بعد، كان العمل البطولي الذي أنجزه «جِدُّو» بذرة زرعت نفسها في ذكرياته عن التهجير الفظيع، وسوف تُنبت في أعماقه

التحدي. في أسعد أيام حياته، بعد نحوِ ثلاثين عامًا من قيام يحيى برحلته الجريئة، سيحكي يوسف لشقيقته آمال عن جدِّهما، الذي لم تعرفه قطُّ. يقول لها:

ـ كان مشهدًا رائعًا. كان سعيدًا جدًّا. هكذا بسط صرَّة من التين والليمون والعنب والخرُّوب والزيتون في وسط البلدة، كما لو أنه جلب مليون دينار من الذهب. لم يستطع أن يتخلَّص من تلك الابتسامة. كان جدُّنا رجلًا عظيمًا!

أضافت آمال:

ـ مثل بابا؟

ـ نعم، مثل أبينا.

* * *

أمضى كبار السِّن في المخيم، من آباء وأمهات وأجداد وجدَّات، سهرة احتفالية في ليلة «عودة» يحيى من مغامرته. قسموا الأطعمة وأكلوها في تذوُّق شعائري، تاركين حبَّات الزيتون تتدحرج راقصة مع ألسنتهم قبل تناول السِّر المقدَّس. ثمار أربعين جيلًا من الكدح، تذوَّقوا فيها رحيق القرون الخالية.

ـ تذوَّقْ أرضي يا «جاك»! تذوَّقها! هذه الكومة خصيصًا لأجلك وللحاج خصوصًا!

عكست كلمات يحيى وصوته عاطفتَه الجياشة، ومزجت «العودة» سخاءه بحيوية هائلة.

أكل القرويون، وضحكوا، وبكوا، ورقصوا، وغنُّوا أغنيات الماضي الحزينة والسعيدة، مقارنين ذكرياتهم بما وصفه يحيى عن الوضع الجديد:

البيوت في الحي الشرقي والحي الغربي من عين حوض لا تزال قائمة، لكنها مهجورة. جِرار المخللات والمربّى التي كانت هناك منذ غادر القرويون قبل خمس سنوات، لا زال ممكنًا العثور عليها في المخازن. كان يحيى قد أكل منها. «خسارتها في اليهود»، نعم! نعم! رأى ثيابًا في البيوت، وبعض الألعاب والدمى هنا وهناك. أخبرهم أنّهم حوّلوا مسجد القرية، القائم في مركز البلدة بالضبط، إلى بيت للدعارة، فتمتمت النساء بلعنات مختلفة، وبأدعية لا تنتهي لعقاب المحتلّين، وهزَّ الرجال رؤوسهم مشمئزّين. ولا ننسَ الحاجّة ماجدة، رحمة الله عليها، التي عُرفت باشمئزازها من النمل إلى درجة الهوس، لقد احتلَّ النمل منزلها «آه لو رأت طوابير النمل!» ضحكوا جميعًا. «الله يرحمها!» نعم، رحمة الله عليها.

لا أحد يستعمل معصرة الزيتون إلا لتعليق اللوحات الفنية. لقد أصبحت معرضًا فنيًّا للمحتلّين. وشجرة البلُّوط الكبيرة التي نمت ـ كسائر الأشجار البرّية في فلسطين ـ من تلقاء نفسها في أواخر القرن التاسع عشر لا تزال هناك. «إنها بالطبع في مكانها، وهم غير قادرين على اقتلاعها». كل أشجار الزيتون ما زالت هناك أيضًا، لكنها بحاجة إلى عناية من أصحابها... من الناس الذين يعرفون كيف يعتنون بها.

ـ هؤلاء الناس لا يعرفون أي شيء عن الزيتون. إنهم غرباء، بشرتهم بيضاء بلون الزنبق، ولا رابط يربطهم بالأرض. لو كان لديهم شعور ما نحو الأرض لغرست فيهم حُبَّ الزيتون.

قالها يحيى، محدِّقًا إلى يديه اللتين لاطفتا وداعبتا تلك الأشجار المهيبة الحبيبة قبل ساعات فقط، يداه الخشنتان اللتان نشر الزمن عليهما بقعًا كثيرة بُنِّية اللون... يدا المزارع اللتان طالما انغرستا في حقائق تلك التلال وفي

حقائق كروم زيتونها: حقيقة أنَّ غصن الزيتون يزهر في السَّنة مرة واحدة فقط، لذا يتم تقليم الأشجار فور الانتهاء من جمع الموسم في أوائل الشتاء، للتخلص من الأغصان الجافة والضعيفة، وإفساح المجال للأغصان الندية كي تزهر في الربيع. وحقيقة أنَّ أسوأ عدوٍّ للزيتون هو ذُبابة صغيرة مخرَّمة الجناحين. وحقيقة أنَّه من الأفضل رعي الأغنام بين شجرات الزيتون، لأنَّ زبلها يزوِّد التربة بالنيتروجين اللازم. والحقيقة الكبرى هي الفائدة التي يجنيها المُزارع من كل ما يخرج من شجرة الزيتون المبارَكة: الثمر وزَيته، خشب الزيتون وحطبه، الجِفت الناتج بعد استخراج الزيت، وهو خير ما يضاف إلى الحطب للحصول على نار حامية وقوية، ورق الزيتون ذو الفوائد الطبية، وحتى الماء الناتج بعد استخراج الزيت ـ ويسمَّى عَكرًا ـ يصلح لتنظيف ما يعجز الصابون عن تنظيفه. لقد عرفَت يدا يحيى تلك الحقائق من عمر طويل كرَّسه للأشجار ولأرضها.

صاحت امرأة في الحشد:

ـ الله يلعنهم! لم يكونوا بحاجة إلى طردنا من بيوتنا! لقد تركنا كثيرًا منهم يستوطنون أرضنا، وأعطيناهم زيتًا وزيتونًا من محصولنا!

تنهَّد الجميع، وتمتمت النساء بلعنات خارجة من قلوب جريحة، وهزَّ الرجال رؤوسهم باشمئزاز وحسرة، لكنَّهم استمرُّوا يأكلون التين بشهوة، وبتلذُّذ العارف كيف يُؤكل التين! بعد لحظات أخرج يحيى نايه وبدأ بعزف ألحان من ذلك الزمن الرغيد. وتمايلت النساء، وغنَّين أغنيات حزينة، وفيها كثير من الحنين، إلى أن صاح أحدهم:

ـ كفى! اعزف لنا «دلعونا»!

عزف يحيى أنغام «دلعونا» الراقصة، فرفع الإيقاع الحيوي أجسادهم

المصابة بالتهاب المفاصل على أقدامها، ورقصوا دبكة خرقاء، لا جبلية ولا شمالية، لكنها دبكة، حول نار مضرمة في الهواء الطلق. ارتجل أحدهم طبلة من قِدر نحاسية وجدها بجانبه، مضيفًا إيقاعها إلى صوت الناي.

كان يوسف واحدًا من بضعة أطفال تغلَّبوا على نُعاسهم وبقوا مستيقظين، لتنشَّط فجأة بفعل الاحتفالات التي امتدَّت حتى ساعة متأخرة من الليل. بعد عقود، وفي بيروت مع أخته آمال، سيتذكَّر يوسف تلك الابتسامات المنبعثة من أفواه بلا أسنان في تلك الأمسية، الضحك الذي هزَّ الأجساد المُسِنة المتعَبة، والقهقهات التي بدت كتلك التي تصدر عن أطفال عابثين لا عن أجداد، والدخان المتصاعد من تبغ التفاح المعسل من النارجيل، ومن غليون حسن.

امتلأ الجو بصخب الاحتفال، وثمل الناس بثمار الأشجار التي عبرت الزمن واخترقت سحابة المنفى. انضم آخرون بينما تمايل المرح مع الليل. تجلَّت بعض النساء في غناء أجمل ما يحفظن. أما الأطفال المنتَشون بمشهد السهر إلى وقت متأخر من الليل، فقد تجمَّعوا حول يوسف وأقاموا احتفالهم الخاص قرب الوهج المبهم للنار.

في الأيام التالية، تراجعت العفوية المبهِجة لتلك الأمسية، وعادوا إلى الانتظار الثقيل، وإلى لعنة الحياة الموقَّتة. ولكن بالنسبة إلى يحيى كان ذلك تراجعًا لا يطاق. وهكذا، بعد أسبوعين، طلب إلى داليا مرة أخرى أن تجعل ثيابه البيض تتلألأ.

حلق يحيى ذقنه. ارتدى ثيابه، مارًّا بالشعائر الهادئة نفسها التي خاضها قبل أسابيع. ولكن في هذه المرَّة، أدى شعيرة «العودة» المحرَّمة بخبرة المرَّة الماضية. جلس يوسف إلى جانبه في ضوء الشمس، مراقبًا الحركات البطيئة

لموسى الحلاقة على طول خطِّ فكِّ جدِّه، مبهورًا من تراقص الشمس على النصل، ولاحظ الرغوة البيضاء المتَّسخة في كأس الشطف، والبقع على يدَي يحيى، والأوساخ تحت أظافره. وحفظ عن ظهر قلب الدقَّةَ التي هذَّب بها يحيى شاربيه الأسودين، وشمَّع طرفيهما ورفعهما إلى الأعلى ليشكِّلا قوسين هندسيين متماثلين وتامَّين. إنَّه مظهر ناصع لشيخ جليل.

* * *

لا أحد يعرف بالضبط متى تُوفِّي يحيى، ولكن في الوقت الذي تمكَّن فيه الهلال الأحمر من استرداد جثَّته من السلطات الإسرائيلية، كانت داليا قد أجهضت حملًا آخر، وكانوا يدركون جميعًا في المخيم أن يحيى، عندما وضع قدمًا خارج حدود ذلك العام الأبدي ١٩٤٨، كان يعرف أنه خروج من غير رجعة. كان الحاج سالم على يقين أنَّ يحيى قد عاد لكي يموت حيث كان عليه أن يموت: على أرضه! وعندما تحدَّث الناس عن رحيل يحيى، قالوا إنَّه مات بسبب قلبه المكسور.

لكن السبب الفِعلي للوفاة كان جرحًا من طلق ناري. لقد استوطن عين حوض يهود فرنسيون يعتقدون أنهم فنَّانون، فاصطنعوا للبلدة سُمعة باعتبارها جنة منعزلة. وقد رصد أحد المستوطنين يحيى في رحلته الأولى إلى عين حوض، وعندما عاد، أطلق الجنود المتربِّصون النار عليه، لتَعدِّيه على «أملاك الآخرين».

عندما غسلت العائلة جثمانه قبل الدفن، وجدوا في كفِّه المطبقة ثلاث حبَّات زيتون، ووجدوا بعض أكواز التين في جيوبه. وكست وجهَه الميت ابتسامة هادئة وادعة، وكان ذلك دليلًا أكد للجميع أنَّه رحل سعيدًا إلى الجنة. لذلك نعى الناس في مخيم الصفيح في جنين يحيى ممجِّدين شجاعته وحبه

للأرض بأقوالهم ومن خلال الدموع التي ذرفوها عليه. أعطى «جاك أومالي» موظَّفيه إجازة في ذلك اليوم، وانضمُّوا جميعًا لحضور مراسم الجنازة.

بدت جنازة يحيى كاحتفال بجرأته، وبتمكُّنه من العودة ولو مرة واحدة إلى عين حوض. كان احتفالًا بمعانقة جسد يحيى لتراب وطنه، ولو أيامًا قليلة. إنَّه احتفال من نوع خاص، لا فرح فيه، بل إنه مليء بالكآبة والغضب.

سار حسن في صمت، حاملًا مع الآخرين جثمان والده المكفَّن، وكان صديقه درويش بجانبه يدفع بعضلات ذراعيه عجلتَي كرسي المُعوَّقين الذي تولَّى مهمة ساقَيه المشلولتين. أما يوسف الصغير، فلم يلحظ أحد الصدمة على وجهه في خلال الجنازة. لم يتمكَّن أحد من النوم في تلك الليلة؛ فقد أماطت وفاةَ يحيى اللثام عن حقيقة استولت على الليل، فتنهَّد بقلق وغرس الأرق في مَن حاول أن ينام! كيف يمكن ألا يستطيع الإنسان أن يسير إلى مُلكه الخاص؟ أن يزور قبر زوجته؟ أن يأكل ثمار أربعين جيلًا من كدح أسلافه من دون أن يعاقَب بالموت رميًا بالرصاص؟ على نحو ما، لم يكن هذا السؤال الفجُّ والقاسي قد نفذ سابقًا إلى وعي اللاجئين الذين شوَّشتهم أبدية الانتظار، معلِّقين آمالهم على قرارات دولية نظرية، ولكنَّ الأسئلة التي طرحها موت يحيى ملأتهم حين أنزلوا جسده في الأرض، ولم يُغمض لهم جفن طوال الليل!

في الصباح التالي، نهض اللاجئون مدركين معًا أنه يجري محوهم من العالم ببطء! من تاريخه! ومن مستقبله! عقد الرجال والنساء مجالس منفصلة، وبدت الحاجة إلى قيادة واضحة. في كل مسألة تقريبًا، كانوا يقصدون حسنًا؛ لأنه كان أعلاهم ثقافة وأكثرهم علمًا، وأوكلت إلى قدراته الكتابية

مهام كتابة الرسائل والتفاوض مع مسؤولي الأمم المتحدة للحصول على الضروريات الأساسية.

الأنكى من ذلك أنَّ إخوانهم من أهالي بلدات الضفة الغربية التي لم تكن محتلَّة بعد، قد نظروا إليهم بازدراء وعاملوهم بازدراء، لا لذنب اقترفوه سوى كونهم «لاجئين»!

«إذا فُرض علينا أن نكون لاجئين، فلن نعيش كالكلاب!» أعلَنوها جميعًا.

بشكل ما، فإن موت يحيى قد شدَّ ساعِد أهل المُخيم، وشكَّل العمود الفقري لمشاريعهم وجهودهم. لقد أضفى موته حلة من الكبرياء عليهم، وتم تنظيم حملة لإضفاء طابعٍ مؤسَّسيٍّ على التعليم، وخصوصًا في مدرسة البنات. في غضون سنة واحدة، بنى مجتمع اللاجئين مسجدًا آخر وثلاث مدارس، ولعب حسن دورًا مركزيًّا، ولكن غير تطفُّلي في كل ذلك، ملتزمًا بمحيط الحياة اليومية، ومنشغلًا كذلك بصياغة الرسائل والوثائق. كان ينهض قبل شروق الشمس، يصلِّي الفجر، ويقرأ، ويده الطليقة تتناوب على فنجان قهوته وغليونه المحشو بتبغ التفاح المعسل، ثم يغادر متوجِّهًا إلى وظيفته قبل أن تستيقظ عائلته، ومن هناك، يذهب إلى التلال مع كتبه، عائدًا بعد أن تكون أسرته قد نامت. كان مُحرَجًا من المبلغ الزهيد الذي يجلبه إلى البيت! وكان مُحرَجًا من العودة يوميًّا من دون إسماعيل! في بعض الأيام كان يترك كتبه جانبًا، ليعمل على إصلاح السيارات، وهو اهتمام انتقل إليه من «آري بيرلشتاين»، وهواية تحوَّلت إلى عمل تجاري من خلال مرآب لتصليح السيارات، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى كسب ما يكفي من المال لإرسال يوسف إلى الجامعة.

بالنسبة إلى يوسف، جعل الرحيلُ الأبدي الفجائي لجدِّه، قلبَه حزينًا

للغاية، فانكفأ على نفسه في غلالة الحزن. كان يشاهد من بعيد مباريات طاولة النرد الخافتة بين الحاج سالم و«جاك أومالي»، وكرسي «جِدُّو» شاغرٌ بينهما.

ـ ماما، بدِّي جِدُّو يرجع!

قالها يوسف محاولًا كبح الدموع، لأن داليا كانت تلحُّ على إظهار القوة. كان يجلس عند قدميها، يلهو بخَلخال كاحلها المتبقِّي.

ماما تُجلجل عندما تمشي.

بدِّي جِدُّو يرجع!

لم يكن يعرف ما سيقوله إلى أن قاله. وضعت داليا يدها على رأس ابنها. كانت لا تكاد تصدِّق كم قد كبر! قالها وهو يَعدُّ القطع المعدنية على خلخالها، أحبَّ يوسف الطريقة التي تتنقل بها القطع بين أصابعه. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... ثماني عشرة قطعة معدنية ذهبية. كانت داليا تعرف أنها أهملت يوسف منذ اختفى إسماعيل. أبذُل أقصى جهدي، أنا أحاول يا رب، أنا أفعل ذلك. سيكون عمر إسماعيل خمس سنوات الآن. ترى كيف تكون هيئته الآن؟

بينما كانت داليا تداعب شعر يوسف مُبعِدة خصلاته عن جبينه، تساءل هل كانت سوف تتكلَّم؟ أو هل كان قد خيَّب أملها بسخافة طلبِه رجوعَ أحد من عالم الأموات؟

سوف أتعلَّم العزف على الناي، قرَّر يوسف، وغادر من دون أن ينطق بكلمة.

(٧)

آمـال

١٩٥٥

عاش حسن وأُسرته في كوخ من الطين بناه حسن بنفسه، وموَّلت بناءه الأمم المتحدة. وبعد أربع سنوات من بناء الكوخ عادت الهيئة الدولية لتؤسِّس مدرسة للبنين في مدينة جنين. عرض «جاك أومالي» على حسن وظيفة للتدريس، لكنه رفض، وعلَّل رفضه بقوله: «هناك آخرون يحملون شهادات رسمية تؤهِّلهم للتدريس. إنهم أَولى مني بالوظيفة». بدلًا من ذلك، عمل حسن حارسًا في المدرسة.

في مناسبة راتبِه الأول، قدَّم حسن لداليا الهدايا التي تقبَّلتها بسرور جديد، كاسرةً جمود حدادها. وبعد تسعة أشهر، ولدت طفلتهما الثالثة، آمال، وسط حَر تموز (يوليو) ١٩٥٥.

قبل ولادة آمال، أمضت داليا سنواتها في ثياب الحداد على إسماعيل، مغلَّفة بحزن أسود حتى المعصمين والكاحلين. مع تخلُّصها من بؤس الخيمة الرطبة، ومع وظيفة زوجها الجديدة، والحمَّام والمطبخ الذي كان يجري بناؤهما ليحلا محل الدلو وحوض الاغتسال. أصبح الانتظار ـ حتى تعود

الأمور إلى مسارها الطبيعي ـ بالنسبة إلى داليا قدرًا انتقاليًّا يمكن تحمُّله. وبدلت وشاحها الأسود البالي بآخر أبيض جديد مصنوع من الحرير الطبيعي، فأضفى عليها مسحةً من الحيوية؛ حتى قيل إن ولادة طفل جديد أعاد إليها لمحة ـ ولو وجيزة ـ من الغجرية المفعمة بالحيوية التي كانت عليها في الأيام الخوالي. ومع أنَّ روح داليا كانت قد أُخمدت منذ سنوات، فقد كان ممكنًا أن ترى هذه الروح وقد انبعثت في آمال الصغيرة، كأن زوبعة من الحياة تجسدت في ابنتها.

سرعان ما أدركت داليا الفضول الذي نشأ بسرعة لدى ابنتها الناشئة ذات العينين السوداوين العميقتين وكأنه لا قعر لهما. بدت الطفلة ساحرة كوَّنتها مفاتن الكيمياء والشعر البدوي. كانت تتصرَّف وكأنها ملكة. ذات مرة رأت داليا ابنتها المشاغبة وهي تدفع أطفالًا صغارًا آخرين إلى زقاق مُعتم، وهي تصرخ فيهم: «ابتعِدوا من هنا، هذه شمس أبي!».

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تُجبِر هذه الطفلة نفسَها على اختلاق أصدقاء وهميِّين يكون بإمكانهم تحمُّل طبيعتها البرِّية، إلى أن عثرت على روح أخرى وحيدة اسمها هدى.

كانت هدى ليِّنة ومطيعة، حتى إنها أيقظت غريزة الرحمة في الصغيرة آمال. لقد شكَّلتا ثنائيًّا غريبًا، لكنَّ الصداقة ربطت بينهما، وقلما شوهدت إحداهما في المخيم من دون الأخرى.

بعدما دخلت آمال المدرسة الابتدائية، ظلت عنيدة ومتقلِّبة إلا مع والدها الذي كانت نادرًا ما تراه، بسبب الساعات الطويلة التي يقضيها في العمل. كانت ترى والدها كمثل أعلى. وحين تقترب منه، كان في نظراتها إليه مسحة من العبادة، فتصِل إلى أعماق قلب والدها وتستقر فيه. عندها يحتضن حسن

فتاته الصغيرة بحنان عميق. غالبًا، وقبل أن تستولي الطفلة على أبيها، كانت دائمًا ترمق داليا بنظرة شيطانية، لم تستطع إخفاء الغيرة من تلك المرأة، من أُمها التي تنافسها على حبِّ حسن.

لم تجد داليا في نفسها الإرادة الكافية لتأديب هذه الطفلة، كما كانت تفعل مع يوسف، فتركتها حُرةً لأهوائها. كانت تراقب ابنتها كما لو أنها تبحث عن أحاسيس مشتعلة تخلَّت عنها منذ سنين، وانبعثت أضعافًا مضاعَفة في طفلتها. لقد كان القدر شرِّيرًا بما فعله لداليا، ولم يترك لديها قدرات دفاعية لمواجهة تلك الحيوية الخام في ابنتها.

تعلَّمت داليا كيف تكتم عواطفها كأم، فمارست أمومتها بحالات من الصمت. وقد قابلت الطفلة ذلك التجرُّد الهادئ بنوبات من الغضب والمشاكسة، يخالطها سيل من القبلات، مع حاجة محمومة لإثارة أُمها. كان حُب داليا يجد طريقه للتعبير في أثناء نوم الطفلة. حينها كانت تداعب شعر ابنتها، وتملِّسه بكِلتا يديها من دون توقُّف، وتحبها بلا حدود حين تمنحها القبلات التي كانت تضن بها عليها في أوقات يقظتها.

النَّكْسة



(٨)

أدّ البحر وكُلّ سمكاته

١٩٦٠ - ١٩٦٣

أمضيت كثيرًا من الوقت في شبابي وأنا أحاول أن أتخيَّل ماما على أنها داليا، تلك البدوية التي سرقت حصانًا ذات مرة، والتي غرست ورعت الورود، والتي كان لخطواتها صوت جَلجلة. الأم التي عرفتها كانت امرأة متينة، مَهيبة وصارمة، تثابر طوال اليوم على التنظيف والطبخ والخَبز وتطريز الأثواب. كانت تُستدعى عِدة مرات كل أسبوع لتوليد النساء. وكما هي الحال مع كل شيء فعلته، مارسَت مهنتها كقابلة بكفاءة وبرودة أعصاب، وبجرأة لا مثيل لها.

كنت في الثامنة من عُمري، عندما سمحت لي ماما أول مرة أن أساعدها في توليد إحدى النساء. قالت لي:

ـ هذا عمل مهم جدًّا، وعليكِ أن تكوني جِدِّية للغاية يا آمال.

ثم اختتمت عملها بطقوس التعقيم والتطهير. بعدها أعطتني تعليماتها:

ـ الوضوء، ثم الصلاة. افعلي ذلك معي.

تبادلنا الصابون المنزلي الصُّنع. راقبتها، وقمت بتقليدها في كل جزئية، وكل حركة: رش الوجه بالماء، شطف اليدين والمرفقين والقدمين، والتسبيح لله. تحرَّكت كأنني انعكاس لصورتها في المرآة. توضَّأنا وصلَّينا، ثم جدلتْ لي شعري. وقبل أن نغادر، وضعت مقصَّها الخاص فوق اللهب المكشوف للبابور كي تُعقِّمه، ثم قامت بلفِّه بقطعة قماش، «بسم الله الرحمن الرحيم».

في بيت المرأة الحامل، كنت كما كانت ماما، متأنية ورزينة. ناولتها المناشف، وقفت بقربها ومعي المقص، وحافظت على هدوء أعصابي، وكذلك على الطعام في معدتي؛ لأنها كانت قد حذَّرتني:

ـ لا تكوني ضعيفة ولا تستجيبي للغَثيان! كوني قوية كالفولاذ! أيًّا كان شعورك، اكْبتيه في داخلك!

أتذكَّر ذلك اليوم جيدًا. الحركات المتكررة البطيئة للمشط في يد ماما، متنقِّلًا من أعلى رأسي إلى أطراف شعري الأسود الطويل. بدا الرضا على وجهها عندما توقَّعتُ حاجتنا إلى مزيد من المناشف قبل أن تُلمح إليَّ بذلك. كان استيعاب المهارات والقدرة على هزيمة الضعف من السلوكيات التي أحبَّتها داليا. كل شيء آخر، العناق والقبلات التي كنت أتوق جدًّا إليها، احتجزَتها بإطباق فكِّها، وبالقبضة التي تفرك بها راحة يدها اليمنى. أيًّا كان شعورك، اكْبتيه في داخلك!

في ذلك المساء سمحَت لي ولصديقتي المقرَّبة، هدى، بالنوم على سطح الشقَّة.

قالت كلٌّ منا بإثارة وحماسة:

ـ شكرًا ماما. شكرًا خالتي أُم يوسف.

لم تُجبْنا. بكل بساطة أسدلت الستار على قلبها، ومضت في أعمال التنظيف المسائية المعتادة. في تلك الليلة راقبنا، أنا وهدى، ماما من السطح وهي تنتظر عودة بابا من المرآب. كانت تجوب المكان ومِكنستها بيدها، وصوت أُم كلثوم يصدح من المذياع. لقد كنسَت كلَّ ما كان من غبار على المدخل، ولم يبقَ بالعتبة سوى ضوء القمر لتكنسه.

لم يحدث قطُّ أن رقصت ماما في الأعراس، ونادرًا ما كانت تزور الأصدقاء. ذات مرة، استيقظتُ في جوف الليل فوجدتها تُمسِّد شعري بحنان. قبَّلَتني حينها، إحدى القبلات القليلة الغالية التي بقيت عالقة في ذهني، وقالت:

ـ عودي إلى النوم يا بِنتي.

كنت في سنوات طفولتي المبكِّرة في مخيم جنين للَّاجئين أتلصص على الآخرين من قبيل حب الاستطلاع، فلما عرف أخي ضربني بشدة. وقد وافق كل مَن كان موجودًا وسمع صراخي الهستيري، على أنَّ يوسف قد فعل عينَ الصواب، باستثناء ماما. يومها قالت إحدى الجارات لماما:

ـ يا داليا، لا يجوز لبنت أن تفعل ذلك، حتى لو كانت في الرابعة من عُمرها. ومن الأفضل إبعادها عن وساوس الشيطان في سنٍّ مبكرة.

أضافت:

ـ أدِّبيها، اضربيها، لقِّنيها درسًا.

قالت أخرى:

ـ يمكنك الرهان على أنها لن تفعل ذلك مرة أخرى.

وأضافت ثالثة:

ـ إنه شقيقها الأكبر، وله كل الحق في ضرب شقيقته إن أساءت التصرُّف.

كل هذه النصائح غير المطلوبة كانت ترنُّ في أذنَي داليا. لكنَّ ماما وقفت إلى جانبي مؤنِّبة يوسف بشدَّة:

ـ إيَّاكَ أن تضرب أختك مرة أخرى!... أبدًا!

ابتهجتُ بالنصر، وتجهَّزتُ لتستقبلني أمي بذراعيها، لكنها لم تفعل، بل أمرتني:

ـ توقَّفي عن البكاء يا آمال!

قالتها بلا غضب ولا انزعاج، حتى بلا حزم، بل بنبرة عادية، صارمة، وذات وقعٍ فعَّال.

* * *

في نيسان (إبريل)، شهر الزهور، اكتشفتُ ذات صباح جانبًا من والدي لم يسبق لي أن عرفته. كان يعمل طويلًا وبلا انقطاع، ونادرًا ما كنت أراه، إلى درجة أني عشقته عن بُعد فقط. إلى أن جاء ذلك اليوم، وكنت في الخامسة من عُمري. استيقظتُ قبل الفجر في حالة من الذعر لأنني بلَّلت ملابسي، وأسرعت لإصلاح الورطة في الغرفة الوحيدة التي توفِّر الخصوصية. وقد أثار فزعي وخجلي أنني وجدت بابا ينتظرني حين خرجت من الحمَّام. لقد خشيت خيبة أمله أكثر من خوفي من العقاب.

كان ذلك اليوم هو أحد أوضح ذكرياتي عن مرحلة الطفولة. من دون كلام، ساعدني بابا على ارتداء ثياب النوم النظيفة، وقفزت عن الأرض بخفَّة لأرتمي بين ذراعيه الكبيرتين. حملني بضع خطوات، ورأسي الصغير مدفون في عنقه، ثم أجلسني في حضنه على الشرفة ـ وهي رقعة مساحتها أربعة أمتار

في ثلاثة أمتار من الحجر والبلاط، ومغطَّاة بدالية العنب ـ في محاولة عنيدة من ماما لتكرار بهاء حدائقها في عين حوض. ما زال الظلام مخيِّمًا، لكنني أذكر أنني رأيت ظلال أشجار الفاكهة المُزهرة، من خوخ ورمَّان وزيتون. عندها، وفي ضوء شمعة، قرأ والدي لي أول مرة.

بقيَت حواسي، فترة طويلة بعدها، قادرة على استحضار روائح الربيع العذبة التي سحرت الهواء. كما أن مشهد غليون أبي ـ المصنوع من خشب الزيتون ـ بارزًا من جانب فمه، ودخانَ تبغ التفاح المعسل، قد وسَما ذلك الصباح المميَّز. قال لي:

ـ استمعي إلى الكلمات التي أقرأها. إنها سحرية.

حاولتُ جهدي أن أفهم النصوص العربية الأصيلة، لكنها بدت بالنسبة إلى عقلي الصغير كأنها لغة أخرى. ومع ذلك، كان إيقاعه آسرًا، وصوت بابا كان هدهدة لي، فغفوت بين ذراعيه.

لم أخبر أحدًا بالحادث، وأمضيت اليوم مستعجلة قدوم الليل، والظلام الذي يسبق الفجر، وأنا آمل أن أحصل مرة أخرى على مكان خاص في صباح بابا.

كان حضن بابا مطابقًا تمامًا لحجمي. التفَّت ذراعاه وأمسكتا بي، بينما رأسي مستريحٌ في تجويف كتفه. قرأ لي مرة أخرى:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ
فَتوضِحَ فَالْمِقراةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها ... لِمَا نَسَجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِها ... وَقيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنّي غَداةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلوا ... لَدى سَمُراتِ الْحَيِّ ناقِفُ حَنْظَلِ

أمكنني سماع الاضطراب داخل صدر بابا، احتجاجات رئتيه ضد كل نفَس يستنشقه من تبغ التفاح المعسل.

- بابا، مين بتحب أكثر، أنا ولّا يوسف؟

قال:

- حبيبتي...

لم أستطع إلا أن أبتسم حين خاطبني بهذه الكلمة «حبيبتي». ثم أكمل:

- باحِبّكم مثل بعض.

- أدّيش بتحبني؟

- باحِبّك أدّ البحر وسمكاته. أدّ السما وطيورها. أدّ الأرض وشجراتها.

- وشو مع الكون ونجماته؟ نسيت هذا الجزء؟

- اصبري يا حبيبتي! ما خلّصت كلامي.

قالها وهو يأخذ نفسًا من غليونه، ثم أطلق الدخان خارجًا. أضاف بابتسامة حنونة:

- وباحِبّك أكثر من الكون ونجماته.

- بتحب يوسف هَالأدَّه كمان؟

- نعم، بِكُبْرِ البحر... بس من دون سمكاته.

فكرةُ أن بابا أحبَّني، ولو أكثر بقليل، ملأت قلبي بفرحة كُبر البحر وسمكاته.

- وشو مع السما والأرض؟ بتحب يوسف أدّهم، بس من دون العصافير والشجر؟

- نعم، بَس هذا سر بيني وبينك، ما تقولي لحَد.

- والله يا بابا مش رايحة أقول لحد.

اتّسع قلبي مع الطيور الآن.

- وشو مع الكون ونجماته؟

- لا تكوني طمَّاعة!

ثم غمز بعَينه لي:

- لازم أروح الشغل بكره الصبح، حبيبتي.

حبيبتي. غدًا.

* * *

كان صعبًا أن أبقى مستيقظة في ذلك الوقت المبكِّر، وكنت أحني رأسي نعاسًا وأغفو بين ذراعَي بابا. ولكن، مع ذلك، صرت معتادةً النهوض قبل أن تشرق الشمس، وهي عادة لازمتني طويلًا. في كلِّ فجر، وبينما كان بابا يقرأ على شرفة منزلنا الصغير المبني من الطوب اللبِن، كنا، أنا وهو، نشاهد الشمس وهي تسكب أشعَّتها على الأرض، وتُشبع بالحياة كلَّ شيء تلمسه:

ولَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَـهُ	عَلَيَّ بِأَنْـوَاعِ الهُـمُوْمِ لِيَبْتَلِـي
فَقُلْـتُ لَهُ لَمـَّا تَمَطَّـى بصُلْبِـهِ	وأَرْدَفَ أَعْجَـازًا وَنَـاءَ بِكَلْكَـلِ
ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِـي	بِصُبْحٍ وَمَـا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَـلِ
فَيَـا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُـومَـهُ	بِكُـلِّ مُـغـارِ الْفَتْلِ شُـدَّتْ بِيَذْبُـلِ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ مِنْ مَصامِّهـا بِـأَمْرَاسِ كَتَّـانٍ إِلَى صُمِّ جَنْـدَلِ
وقِـرْبَةِ أَقْـوَامٍ جَعَلْتُ عِصَامَهَـا عَلَى كَاهِـلٍ مِنِّي ذَلُولٍ مُـرَحَّـلِ
وَوَادٍ كَجَـوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُـهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كَالخَلِيعِ المُعَيَّـلِ

قال بابا:

ـ الأرض، وكل ما عليها، يمكن أن تُسلب، ولكن لا أحد يمكنه أن يأخذ منكِ معرفتك أو الشهادات التي تحصلين عليها!

كنت في السادسة من عمري، وأصبحت علاماتي العالية في المدرسة هي العملة التي أقدِّمها لأحصل على إطراء بابا، الذي أصبحت أتوق إليه الآن أكثر مما في أي وقت مضى. أصبحت متفوِّقة على جميع الطلاب والطالبات في جنين، وحفظت عن ظهر قلب القصائد التي أحبَّها والدي كثيرًا. وحتى عندما نما جسدي وصار أكبر من أن يتَّسع لي حضنُه، كانت الشمس دائمًا تجدنا متعانقَين معًا ومعنا كتاب.

الآن تعود إليَّ حياتي قبل الحرب في ذكريات محصورة بين ذراعَي بابا، ومعطَّرة بتبغ غليونه المصنوع من خشب الزيتون. كانت لدينا ممتلكات محدودة، واحتياجات قليلة. لم أعرف قطُّ ملعبًا، ولم أسبح قطُّ في البحر؛ لكن طفولتي كانت ساحرة، مفتونة بالشِّعر والفجر. لم أعرف في حياتي كلِّها مكانًا أكثر أمانًا من حضنه، ورأسي مستكين داخل تقوُّس رقبته القوية وكتفيه العريضتين. لم أعرف قطُّ وقتًا أكثر حنانًا من الفجر الذي يأتي مع رائحة تبغ التفاح المعسل، ومع العبارات المتألِّقة لأبي الطيِّب المتنبي، وامرئ القيس، وجبران خليل جبران، والمعرِّي، وابن الرومي. لم أفهم دائمًا ما كتبوه، لكن أبيات الشعر كانت تُطربني وتخدِّرني. من خلالها، أحسستُ بعواطف أبي،

بخسائره، بأحزانه، وبقصص حبِّه. لقد أعطاني كل ذلك. هذه الهدية العظيمة من بابا كانت شيئًا لا يمكن أحدًا أن يسلبني إياه. وبعد عقود من الزمن، في الساعات المبكرة الكئيبة من شباط (فبراير) ولاية «بنسلفانيا» في الولايات المتحدة، ستبقى إيقاعات جبران الشعرية، وذكرى صوت بابا الجهوري الحسَّاس، شعاعَ سُلواني الوحيد في غربتي!

(٩)

حزيران (يونيو) في حضرة المطبخ
١٩٦٧

وجاء حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧. الشهر الحار، المليء بالأشياء المفرحة والمسلِّية، والخالي من الدراسة. كنت أتسكَّع منغمسة في مرحلة الطفولة، شهرًا واحدًا قبل عيد ميلادي الثاني عشر.

كي لا تتفوَّق علينا لمياء، صديقتنا التي تقفز وتتدحرج كالقرود، صمَّمنا، أنا وهدى، أن نتقن الشقلبة المثالية، فأخذنا نتمرَّن على ذلك في أرض طرية خالية من الشجر قرب بستان الخوخ إلى الغرب من جنين.

ـ بِتعتبري هاي دحرجة؟

ـ طَيِّب، أشوفك تعمليها يا شاطرة!

فعلْتُ وهبطت منبطحة على ظهري. ضحكت هدى ضحكة نصف مكبوتة:

ـ يا هبلة!

ـ يا ربِّي! هدى! باظن إنِّي انكسرتْ! اِجري!

ـ قومي يا كذَّابة!

ثم عَلا صوت هدى بقلق:

ـ آمال! آمال! يا إلهي!

انفجرْتُ بالضحك وانقلب ذُعر هدى إلى سُخط، فصاحت:

ـ هذا ما بِيضحِّك يا آمال! بعدِك ما بتقدري عَ الدحرجة، وبلا ما نحكي عن الشقلبة في الهوا!

لقد عرفَتْ كيف تجعلني أتوقَّف عن الضحك.

ـ ولا إنتِ بتقدري عليها.

ـ مش أنا اللي بِدِّها تغلب لمياء؟

كان هذا صحيحًا؛ فهُدى أرادت أن تلعب فقط، ولكن بالنسبة إليَّ، كان كل شيء يعني منافسة. سألْتُ:

ـ بِدِّك نِتمرَّن كمان مرة بعدين؟

ـ نعم، خلِّينا نروح ونتعربش على «العجوزة».

و«العجوزة» هي شجرة زيتون لها من العُمر ألف وخمسمائة عام، فروعها ملتوية في الهواء كالأفاعي، وتظهر من بعيد، وسط المرعى المعشوشب، كأنها جبَّار مقاوم وعنيد. تتدلَّى منها الثمار على مئات الأغصان الصغيرة المليئة بالعُقَد، والخارجة من جذع مشوَّه وضخم. وقد شكَّل المكان أيضًا بقعة يستريح فيها الرعاة المحلِّيون ويتفيؤون بظلِّ هذه الشجرة.

قال لي بابا ذات مرة:

ـ إنَّ «السيدة العجوز» ليست ملكًا لأحد، كانت هنا قبل كلٍّ منَّا، وسوف تبقى هنا زمنًا طويلًا بعد أن نرحل. كيف يمكنك أن تملكيها يا حبيبتي؟

كم أحببت أن يدعوني والدي يا حبيبتي!

وتابع كلامه:

ـ لا أحد يمكنه امتلاك شجرة. يمكنها أن تنتمي إليكِ، كما يمكنك أن تنتمي إليها. نحن نأتي من أمِّنا الأرض، نمنحها حبَّنا وجهدنا، وهي، في المقابل، تُغذِّينا. وعندما نموت، نعود إلى الأرض. بطريقة ما، الأرض تمتلكنا... فلسطين تمتلكنا ونحن ننتمي إليها!

سألتُ هدى ما الذي كان يعنيه بابا في اعتقادها؟ فقالت:

ـ أبوك يقول دائمًا أشياء غريبة. الحاج سالم يقول إنَّ أباك يقرأ أكثر من اللزوم. أمس سمعت الحاج يطلب إلى أخيك أن يذهب ويسحب والدك، على الرغم من أنفه، خارج كتبِه، ويجرَّه إلى مقهى بيت جواد ليدخِّن النارجيلة معه ومع عمُّو «جاك أومالي».

كان عمُّو «جاك» رجلًا ممتلئ الجسم، صاحب ضحكة متحشرجة، بدت كأنها تهدر من أوتار جهورية غير مضبوطة النغمة في قلبه الكبير. كان رأسه مغطًّى تمامًا بالشعر الأبيض الذي يكون عادةً مجعَّدًا غير محلوق. شعرُ وجهه الكثيف بدا أيضًا مشوبًا بالأصفر نتيجةَ صلة طويلة الأمد بسجائر «لاكي سترايك»، ومن تدخين النارجيلة من حين إلى آخر. كانت وظيفته مع وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين هي إدارة المدارس والعيادات، لكنه نادرًا ما كان يزور مكتبه؛ إذ كان يفضِّل قضاء الوقت في مقهى بيت جواد يدخِّن النارجيلة برفقة الحاج سالم.

* * *

تسلَّقنا ظهر «العجوزة»، تأرجحنا وتدلَّينا من أطرافها، توازنَّا على عنقها، وفي النهاية استرخينا على بطنها، حيث ينفصل جذعها إلى ثلاثة أفرع رئيسة.

سألَتْ هدى وهي تتفحص الطلاء الأحمر المتشقِّق على أظافرها:

ـ ظلْ في شي من المناكير؟

كان أحدهم قد أهدى ماما الطلاء قبل أسبوع، ولأنَّها لم تعد تهتم بهذه الأمور، كانت قد أعطتني إياه. تجمَّعنا، عشر فتيات على الأقل، لنتشارك في عملية طلاء الأظافر، وكانت الواحدة منا تدهن أظافر الأخرى، فنتخيَّل أننا نبدو كالممثِّلات المصريات في المجلات. قلتُ:

ـ بقي منه شوَية.

قامت مبتهجة، وقالت:

ـ تعالي نحط مناكير على أظافرنا كمان مرة، بس من دون باقي البنات.

ـ طَيِّب، بس خلِّينا في الأول نتسابق في البصق.

ـ ما تسابقنا كفاي اليوم؟

تذمَّرت هدى، لكنها لانَت بسرعة.

مسابقة بصق. هذا ما كنا نفعله عندما تم استدعاؤنا.

ـ بِتقدري توصلي بصقتك أبعد إذا طلَّعتِ كل المخاط من رأسك وجمعتِ في حلقك.

فعلت ذلك لأوضح لها، محدثة أصواتًا مبتذَلة.

ـ البصِقة العادية بتتقطَّع، وعشان هيك دايمًا بتخسري في هاي اللعبة.

تذمَّرَت هدى:

ـ قَرَف قَرَف!

هدر صوت بابا ينادينا للعودة إلى البيت في المخيم، حيث كنا نعيش جميعًا في ظل المعونة الدولية:

ـ آمااااااااااال!... عووووودي!

ـ أبوك بِينادي.

أعلنت هدى ما هو واضح، كما كانت عادتها المزعجة. وتساءلت:

ـ ليه ما راحش عَ الشغل؟

ـ ما باعرف. خلِّينا نروّح.

ركضنا. وحوَّلتُ الأمر إلى سباق، لكنني توقَّفت قبل أن نصل إلى الصف الأول من الأكواخ الأسمنتية في المخيم.

شيء ما كان يحدث. عدد كبير جدًّا من الناس كانوا في الشوارع.

بشكل غريزي، أمسكنا، أنا وهدى، كلٌّ بيد الأخرى، وسرنا ببطء نحو الضجَّة. كانت حشود متحمِّسة تهتف في الشوارع والأزقَّة. أسرعت النساء في أثوابهن الفلسطينية المطرزة إلى المكان، وهن يوازنَّ فوق رؤوسهن سلالًا مليئة بالمؤَن. كانت أجواء من عدم اليقين تسود الموقف. بعض الناس كانوا يبكون. البعض عبَّروا عن فرحتهم بإطلاق الزغاريد. «لقد قامت إسرائيل توًّا بمهاجمة مصرَ». أعلن مذياع عالي الصوت: «الجيوش العربية تحتشد لصدِّ العدوان الصهيوني».

جاء بابا نحونا وضمَّنا، أنا وهدى، بذراعيه الممدودتين:

ـ حبيبتي، لقد حدث شيء ما. يجب أن تذهبا كلتاكما مباشرة إلى المنزل.

كان هادئًا وجادًّا.

ـ الآن، اذهبن يا بنات!

وذهبنا...

كان الرجال في منزلنا في انتظار والدي الذي ذهب ليُهاتف يوسف أخي في بيت لحم، حيث كان يعمل.

سارعَت ماما نحونا عندما رأتنا، أنا وهدى، نقترب. فاجأتني باحتضان شديد وتمتمت في الهواء: «الحمد والشكر لك يا الله لأنك حميت طفلتي». قبّلتني ماما، وقلّما فعلَت ذلك. لو كان بإمكاني لما تركتها تذهب. لقد جعلني إظهارها المفاجئ للعاطفة شاكرة لهجوم إسرائيل. صرخ شخصٌ ما:

ـ الله أكبر! قريبًا سنعود إلى بيوتنا في فلسطين!

بسبب الدفء الجديد الذي أظهرته ماما، أصبحْتُ مفعمة بالأمل. سرحت بمخيِّلتي واستعدت كلَّ ما بنَيته في ذهني الصغير عن بيتنا هناك وعن كل الأماكن المتعلِّقة به: شجرة، نبتة، وردة، حكاية تلو أخرى. فكَّرت في المياه والشواطئ الرملية للبحر الأبيض المتوسط: «عروس فلسطين»، كما اعتاد بابا أن يسمِّي البحر الذي لم أزره إلا في أحلامي. حمل الترقُّب اللذيذ رؤًى للحياة القديمة، تلك التي لم أعرفها قطُّ؛ حياتي الأصلية، حرموني إياها، لكنني سوف أسترجعها أخيرًا...! سوف أسترجعها على الشرفة الخلفية لقصر جِدُّو يحيى وتيتا باسمة: العنب النضر يتدلَّى من الدوالي، حديقة الورد الخاصة بماما، الخيول العربية التي ربَّاها عمِّي درويش، مكتبة بابا، ومزرعة عائلتنا التي كانت توفِّر الغذاء لنصف أهل القرية.

طمأنتُ هدى التي بدت خائفة، وذكَّرتها بأنه ستكون لنا غرفتنا الخاصة في حال عودتنا، وسيكون لدينا ما يكفي من المال لنشتري الدُّمى. بِثقتي الساذجة، أشرت إلى الرجال المشوَّشين وغير المدرَّبين، وقلت لها: «انظري فقط إليهم!». كم كنت معجَبة بهم... بأولئك الذين سيصبحون مقاتلين، والذين كانوا يسيرون بيننا! «فقط انظري...».

منذ فترة طويلة وبابا يخبِّئ البنادق في جُحر كان قد حفره في أرضية المطبخ تحت المغسلة. لقد عاد الآن يتحدَّث إلى الرجال. عرفت أنه آن الأوان لاستعمال تلك الأسلحة.

طوال سنوات، سمعت بابا يشكو أن ملك الأردن، حسين بن طلال، نزع سلاح الفلسطينيين، وتركهم عزَّلًا أمام الصهاينة الذين كانوا يكدِّسون مزيدًا ومزيدًا من الأسلحة بمساعدة الغرب؛ لذا، كلما تمكَّن بابا من الحصول على قطعة سلاح، كان يخبِّئها في الحفرة بأرضية المطبخ. كان قد غطَّى الحفرة بطبقة من البلاط، وأعلن أنها منطقة محظورة بالنسبة إلى الأطفال. لم أجرؤ على مخالفة أوامره.

في ذلك اليوم شاهدت بابا يفتح المخبأ السِّري ويفرغه، مُخرِجًا أكثر من عشرين بندقية. وزَّع الأسلحة على المقاتلين الذين كنت، حتى ذلك الحين، قد عرفتهم فقط كآباء وأشقَّاء وأعمام وأزواج فقط.

ابتعدت عِدة خطوات، وراقبت من بعيد ذلك الشخص الرقيق الذي هو أبي، بينما شيء جبَّار في داخله كان يجعله يشق طريقه عَنوة إلى السطح. أصبح وجهه جادًّا ومصمِّمًا، واختفت الابتسامة التي عاشت زمنًا في عينيه. تحدَّث إلى الرجال بصوت لم أعهده من قبل، وليس له صلة بالرجل المُفكِّر المنعزل عن الناس، والذي يقضي وقته مع الكتب، أو في التواصل مع

الأرض. لم أكن حينها أملك الجَلَد ولا القدرة على إدراك التغيير السريع الذي طرأ على والدي، أو على غيره من الكبار الذين كانوا قد عاشوا حربًا مروِّعة وترحيلًا مفجِعًا.

أمسكَت ماما بذراعي وقالت:

ـ آمال، لا تذهبي بعيدًا، وابقَي أنتِ وهدى حيث يمكنني أن أجدكما.

دوَّى صوت كالرعد آتيًا من بعيد، جعلني أقفز، وزاد من نبرة الإلحاح في صوت ماما. نظرَت إليَّ بعينيها السوداوين والشديدتَي العمق، اللتين أورثتني إياهما، وكرَّرت الدرس الذي أرادت مني أن أتعلَّمه أكثر من كل شيء آخر:

ـ كوني قوية كما علَّمتك أن تكوني، بغض النظر عما يحدث.

والآن غاص إيماني بغدٍ أفضل في بحر من الخوف، إذ قامت ماما بنقلنا، أنا وهدى، إلى ركن ما، كأننا قِطع من الأثاث أو الدُّمى. أمرَتْنا:

ـ ابقَيا هنا ولا تغيبا عن ناظري!

لم يخبرنا أحدٌ من الكبار ما الذي يجري، لذلك قمنا بتجميع مقتطفات من أحاديثهم على قدر ما استطعنا.

لقد تكهرب الجو من حولنا، وساد المكانَ هرجٌ ومرجٌ... حالة الهلع الممزوج بالتأهُّب... وتيرة النشاط والعجلة... التنهدات الطويلة... النظرات الحادَّة... الإرادات الصلبة، كل ذلك دفعنا، أنا وهدى، لزيادة اقتراب إحدانا من الأخرى، ملتصقتين بالجدار، مشدوهتين ومرتبكتين وحائرتين. تردَّد إعلان يفرض على النساء والأطفال أن يبقوا في أماكنهم، بينما على الرجال أن يتخندقوا في مواقع دفاعية، قال أحدهم:

ـ إلى أن تأتي الجيوش العربية.

شبكنا ذراعينا، أنا وهدى. زحف الخوف عبر جسدَينا وجعل عضلاتنا ترتعش وتتقلص لاإراديًا. قالت هدى باكية:

- باحبِّك يا آمال!

- وأنا كمان. إنتِ أقرب صديقة عندي يا هدى!

- وإنتِ كمان أعز صديقاتي!

- راح نكون بأمان. بابا عنده سلاح وراح يحمينا!

- خلِّينا نبقى مع بعض!

- شو ما صار!

- احلفي!

- باحلف بألله!!

تعانقنا لكي نؤكد تعهُّدنا.

انتظر الرجال العدوَّ، لكن لم يظهر أيٌّ من جنوده.

مرَّ الوقت بعد ذلك كجدولٍ متدفِّق، لا يميزه نهار أو ليل. لم نتمكن من رؤية وجه الأعداء، لكننا سمعنا أصواتهم: طائرات كثيرة حلَّقت منخفضة وألقت قنابلها على الناس أينما كانوا. أدخلتنا ماما على عجل الحفرة في المطبخ، وقد أصبحت الآن خالية من السلاح.

كان عمق الحفرة مثل طول قامتي، وعرضها كافيًا لأن نجلس القرفصاء، أنا وهدى، في قعرها. نظرت إلى أعلى ورأيت وجه ماما من أسفل إلى أعلى. كم بدا فكَّاها قويَّين في هذه الحالة. وبينما كانت تغلق علينا غطاء الحفرة، وقع نظري على وعاء مطلي بألوان زاهية على طاولة

المطبخ، وهي قطعة كنت قد صنعتها بيدي في الروضة لمناسبة عيد الأم. تذكَّرت كيف أشرق وجه ماما عندما أعطيتها إياها، وكيف انقبض حين قلت لها إنني تمنَّيت لو كان لي أُم أفضل لأقدِّمها لها! كنت في الخامسة آنذاك، وأردت أن أرى فقط مدى استطاعتي أن أجعلها تطبق أسنانها وتبرز عضلات فكِّها.

أُغلق الغطاء علينا واختفى وعاء عيد الأم على الجانب الآخر. وكانت حفرة المطبخ تلك معتمةً. همستُ، وما زلتُ ممسكة بها بالإحكام نفسه الذي أمسكتني به.

ـ هدى!

ـ نعم.

كانت ترتجف.

ـ أنا آسفة لأنني دائمًا أصرخ فيكِ.

كانت هدى صديقتي الحقيقية الوحيدة؛ فالفتيات الأخريات لم يتقبلن بروح التسامح نفسها مسابقاتي التي لا تنتهي، والتي يجب أن أفوز فيها أنا. لقد كنت وقحة مع نزعة إلى السيطرة. الآن اعتقدت أنني سأموت داخل هذه الحفرة المعتمة.

مر وقت طويل قبل أن تسحب ماما فجأة البلاطة التي تغطِّي الحفرة، وناولتنا طفلة رضيعة، هي عائشة ابنة خالتي سميحة، ولم تزد سنُّها آنذاك على ثلاثة أشهر. قالت ماما بصوت أجشّ:

ـ خذوا عائشة. سأعود قريبًا.

كانت خالتي سميحة قد ثقبت منذ شهر أذنَيْ عائشة لإدخال القرطَين

فيهما، وحين تناولناها من ماما تدلَّى من أذنيها قرطان جميلان وصغيران، وفيهما حجران أزرقان اختارهما والدها لطرد عَين الحسد عنها.

* * *

لم نكن ندري حين أخذنا عائشة من ماما، أنَّ خالتي سميحة وزوجها، وابنها موسى، ابن الأعوام الستة، قد قُتلوا في الهجوم، ولم ينجُ من العائلة إلا عائشة ابنة الأشهُر الثلاثة. لقد وجدوها على جانب الطريق المؤدِّية من جنين إلى الضفَّة الشرقية للأردن، وكانت ممدَّدة غير بعيدة عن جثث أفراد عائلتها، وملفوفة بحِرام كانت ماما قد حاكته لها عندما ولدت! لقد ميَّزت الحِرامَ إحدى النساء النازحات من جنين، وكانت تعرف أن ماما لا تزال في المخيم، بعد أن رفضت الفرار مع الآخرين. وقامت تلك السيدة بإرسال عائشة إلى ماما مع جندي أردني شاب كان قد انفصل عن كتيبته المنسحبة، التي كانت قد أرسلتها المملكة الهاشمية للتصدِّي للاجتياح الإسرائيلي.

بقينا، أنا وهدى وعائشة، في الحفرة في صمتٍ مسكون بالأشباح مدةً خِلتُها دهرًا. ثم رجعت ماما ومعها رغيف من الخبز وحليب للرضيعة. كانت شعثاء ومتَّسخة، وعيناها تتحركان بسرعة وبلا توقُّف من جانب إلى آخر.

سألتْ ماما، وهي تمد ذراعها إلى الداخل لتتحسَّسنا:

ـ آمال، هدى، هل أنتما بخير؟

ـ نعم، ماما، لكن...

ـ ابقيا في مكانكما يا بنات. الأردن وسوريا والعراق يقاتلون جنبًا إلى جنب مع مصر. سوف ينتهي الأمر قريبًا. كل شيء سيكون على ما يرام.

ـ ماما، نحتاج أن نذهب إلى الحمَّام، وعائشة وسَّخت حِفاظها.

ناشدتُها، لكنها كانت قد غادرت المكان.

من دون كلام أزلنا، أنا وهدى، الحِفاظ ودفنّاه تحت أقدامنا، ثم قضينا حاجتنا وغطّينا الأوساخ بتراب كشطناه من جوانب الحفرة. كانت ماما قد تركت بلاطة الغطاء مزاحة قليلًا لتسمح للهواء والضوء بالتسرُّب إلى الداخل، لكنْ لا الضوء دخل ولا الهواء! لم يدخل إلا سحابة من الغبار. سمعنا انفجارات وذعرًا فوقنا، لكننا لم نجرؤ على إزالة بلاطة الغطاء، أو على التحرُّك بتاتًا.

مرَّت أيام، على ما أعتقد. أحيانًا لم يكن ممكنًا إسكات الرضيعة. انضممنا، أنا وهدى، إليها، وبكينا معها رُعبًا. صرخت الرضيعة وبكت حتى لم تعد قادرةً على البكاء. سمعنا صراخًا ونحيبًا في الخارج، صرخات غير مفهومة امتزجت ببكاء النساء ودعائهن، وكنَّ عاجزات كأطفالهن. بكين ودعَون بصوت عالٍ. سمعنا صوت الدمار وأصوات إطلاق النار. سمعنا هتافات. اختلطت رائحة اللحم الآدمي المحترق برائحة القمامة المتخمِّرة، ورائحة أوراق النباتات المحروقة برائحة برازنا في التراب.

ـ هدى، بافكّر إنُّو اليوم يوم القيامة. بالضبط مثل ما مكتوب في القرآن!

ـ يا اللـه! تعالي نقول الشهادة ونطلب من ألـلـه يسامحنا!

«أشهد أن لا إله إلا الله»، تلَونا الكلمات التي من شأنها أن تُدخلنا الجنة. بكينا. اسودَّت وجوهنا وفرغت بطوننا. التمسْنا الرحمة من الله.

«أرجوك أن تغفر لي، يا رب، لأنني رشقت بالطين ثوب لمياء الجديد. اغفر لي لأنني...»، تواصلت دعواتي واختلطت بدعوات هدى.

«أرجوك، يا رب!»، دعت هدى، «اغفر لأبي».

صمَّ أذني انفجار مدوٍّ نسف بلاطة الغطاء، وسطع الضوء، وكنا مغطَّيات بالغبار والحطام. كنت أصرخ وأبكي، لكنني لم أستطع أن أسمع نفسي. جثمنا نحن الاثنتين فوق الرضيعة، وغطَّينا رأسَينا بذراعينا. ألقيت نظرة خاطفة على هدى فرأيتها عالقة في منتصف صرخة، صرخة مكتومة من الرعب المطلق. كان شعرها متلبِّدًا، مبيضًّا من الغبار، ومحمرًّا من الدم؛ أما وجهها فكان مغطًّى بالقاذورات. كان الدم يسيل من صدغها. ازدادت نبضات قلبي وقويَت بحيث أمكنني سماعها.

«با.. بووم، با.. بووم»، صمَّ صوت الانفجار أذنَيَّ، ولم أعد أسمع غيره إلا إيقاع ضربات قلبي، وقرقرة الرعب. كان صمتًا ثقيلًا مهلِكًا، كالهدوء الذي يسبق العاصفة، أو كانكتام الصوت تحت الماء.

نظرت إلى الأسفل، نحو عائشة. كانت نائمة: وجهها هادئ وملائكي، شفتاها الصغيرتان الورديتان العذبتان كانتا متباعدتين قليلًا، وكأنهما ترسمان ابتسامة! لم أفهم. سقطت دموعي على خدِّها لتمسح الأوساخ عنه. كانت في بطنها فجوة مفتوحة تؤوي شظية صغيرة. شعرت أن العالم كله قد حشر نفسه في دَقة قلبي حين أخذت المعدن الملطَّخ بالدماء في يدي. إنها قطعة صغيرة جدًّا وخفيفة، فكيف يمكن أن تُحدثَ جرحًا كهذا؟ كيف يمكنها أن تسلب طفلةً حياتَها بهذه السهولة؟!

نهضت على قدميَّ وأنا أحمل ابنة خالتي الرضيعة ميتة، وفي يدي قطعة المعدن الصغيرة. كانت أرضية المطبخ على مستوى عيني، لكنَّ المطبخ نفسه قد اختفى، واستطعت أن أرى السماء من حيث كان السقف. كانت أمامي أكوام من الركام، ما زال الدخان يتصاعد من بعضها. رأيت رجلًا ميَّزتُ فيه جارنا، أبا سميح، كان يحفر بشكل محموم عبر كومة من الركام بيديه

الملطَّختين بالدماء. اختفى في سحابة من الدخان، ثم ظهر مع طفل صغير بين ذراعيه، واخترق ذهولي بنُواحٍ مكثَّف مخيف لن أنساه طوال حياتي.

هناك، فوق الركام حيث كان كوخ لجوئه، وحيث دُفن أفرادُ أسرته وهم أحياء، وقف أبو سميح على حافة هاوية وانتحب بصوت مشحون باليأس، وبوجه شوَّهه الألم المبرح والكرب. احتضن طفله الهالك بين ذراعيه، نظر إلى السماء مستسلمًا لقدره البائس، وأطلق عويلًا أوقف شعر بدني.

كان أبو سميح لاجئًا، بدأ حياته مجدَّدًا بعد عام ١٩٤٨، حين سلبه الهجوم الإسرائيلي حياة والده وأشقائه الأربعة. تزوَّج في مخيم اللاجئين. ربَّى أطفاله، وأنفق على أختيه الأرملتين. ومِثلنا جميعًا، كان يتطلَّع إلى العودة! لكن في النهاية، عاد القاتل نفسه ثانيةً ليسلبه مرة أخرى جميع أفراد أسرته التي بناها في المخيم. ولن تكون هناك فرصة لبداية ثالثة. لم تبقَ في حياته حياةٌ!!

تجوَّل الأطفال، وقد عرفت بعضهم، بلا هدف. بعضهم كان يبكي، والبعض الآخر يحدق في اللاشيء وبوجوه خالية من كل تعبير. نظرت إلى الأسفل ورأيت هدى، لا تزال في الحفرة منحنية على نفسها في وضع كوضع الجَنين، وتتأرجح ذهابًا وإيابًا. كانت قد توقَّفت عن الصراخ، لكنني استطعت سماعها وهي تتلو الفاتحة:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ آمين.

ثم تعود وتبدأ مجدَّدًا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...

شعرت بأنَّني متجمِّدة، غير قادرة على رفع قدمي كما لو أنها مثبَّتة بالأسمنت.

أدرت عيني لأستوعب الأشياء. رأيت ماما. كانت جالسةً على الأرض وعيناها خاويتان. بدت كأنها لم تلاحظ انسحاب الجنود في شاحناتهم.

تواريت ثانية داخل حفرتنا، جثمت مرتعدة تحت ما تمكَّنت من سحبه كغطاء فوق رؤوسنا: قطع صغيرة من الصفيح المتموِّج، ودرَّاجة هوائية مسحوقة. أومأت إلى هدى بإشارة «إششش»، بينما تورَّمت أعيننا من خوف جديد!

وقفت مرة أخرى، حريصة على اختلاس نظرة من دون أن يراني أحد. كل ما استطعت مشاهدته من الجنود كان أرجلهم. كانوا يرتدون أحذية كبيرة بدت كأنها تسحق جسدي وهم يسيرون في الجوار. بعد أن قَصفوا وأحرقوا وقَتلوا وشوَّهوا وسَلبوا ونَهبوا، جاؤوا الآن يأخذون الأرض.

انحنينا منخفضتين في الحفرة عندما سمعنا صراخًا ومحادثات بلغة لم نفهمها، ثم عيارًا ناريًّا واحدًا. عندما تجرَّأت على اختلاس نظرة خاطفة مرة أخرى، رأيت أبا سميح ملقًى على الأرض ومسدَّس في يده وابنه الميت على ذراعه الأخرى. استلقى هناك، عيناه فارغتان، وتحدِّقان باستنكار أبدي. نزحت حياته من جسده إلى الأرض. راقبته من حفرة المطبخ، بينما كانت بركة الدماء تتَّسع تحته مثل همسة لنهايات لم يتمّ غناؤها.

كان أبو سميح قد استجمع ما تبقَّى فيه من قوة، وحاول إطلاق النار على العدو الذي كان يبحث عنه بلا جدوى. لكنَّ مسدَّسه أخفق، فأعدمه الجنود. أنقذوه من بداية رحلة عذاب جديدة!

بقينا، أنا وهدى، في مكاننا وقد جمَّدنا الخوف. بعد أن غادر الجنود، حفرنا بأصابعنا رفًّا صغيرًا في التراب ووضعنا الرضيعة هناك، في جدار الحفرة، في المكان الذي كان مطبخنا فيما مضى.

ثم نِمنا ملتفَّتَين، الواحدة حول الأخرى، كتوأمين في رَحِم، إلى أن وصلت يد إلى داخل الحفرة وأيقظتنا. كنَّا مذعورتَين وواهنتين. نظرنا إلى الأعلى فرأينا راهبة. كانت تصرخ بلغة عربية ركيكة:

ـ نقَّالات، بسرعة! فتاتان صغيرتان! إنهما تتنفَّسان. إلى هنا.. إلى هنا!

مذهولتَين من الخوف ومرهقتَين من الجوع، شددنا، أنا وهدى، جسدَينا؛ أحدهما حول الآخر، من دون كلام، وفي رغبة فهمتها الراهبة. لم نكن لنرضى بأن ننفصل!

بقيت هدى ملتفَّة على نفسها كجَنين حين حملونا ونقلونا إلى مستشفى موقَّتة أقامتها وكالات الإغاثة الدولية. أما أنا فكنت رابضة أشاهد كل ما يجري، أسناني تطحن التراب الذي غطَّى فمي، على الرغم مما بذلته من جهد لبصقه إلى الخارج. كانت تلك هي اللحظة التي شاهدت فيها جثة والد هدى الممزَّقة تمر على عربة يد. هي لم ترَه، كانت عيناها مغمضتين.

ـ أين بابا؟ أرجوك يا الله! أرجوك! أحضره إليَّ الآن!

كرَّرت ذلك بلا توقُّف.

قال لي والدي ذات مرة: «لقد سمَّيناكِ آمال بالألِف الممدودة؛ لأن الاسم بالهمزة يعني أملًا واحدًا فقط، أُمنية واحدة. أنتِ أكثر من ذلك بكثير! وضعنا كل آمالنا فيكِ! آمال، بالألف الممدودة، تعني: الآمال، الأحلام، كثيرًا منها».

كان لي من العمر وقتها ست سنوات فقط، وكبرت مؤمنة أنني وحدي أحمل كل أحلام أبي.

كانت لي أمنية واحدة فقط الآن: أن أرى بابا مرة أخرى.

الراهبة الطيِّبة ـ الأخت «ماريان»، هكذا دعت نفسها ـ مشت بجانبنا

وهي تحمل عائشة مغطَّاة بين ذراعيها. قبل وصولنا إلى خيمة المستشفى استوقفنا جندي ـ أول جندي إسرائيلي أراه عن كثب على الإطلاق ـ كان طويلًا جدًّا. أجبرتني الشمس على إغماض عينَي حين كنت أحاول أن أراه كاملًا حتى أعلى خوذته.

قال الجندي بِلغة عربية ثقيلة ومكسَّرة:

ـ لا يمكنكِ أخذ الطفلة إلى هناك!

ـ لِمَ لا؟

ـ المراسِلون!

ـ هل تخشون أن يرى العالم ما تفعلونه بالأطفال؟

ـ اخرسي. سوف أطلق عليكِ النار هنا، إن شئتِ.

حذَّرها وهو يرفع بندقيَّته، لكنَّ الغريب أنه كان يبتسم. أجابت برباطة جأش:

ـ افعلها. أنت لا تختلف عن النازيِّين الذين وقفوا في طريقي عندما كنت أعتني باليهود في أثناء الحرب!

وضيَّقت عينيها عندما ميَّزت لهجته، وتحدَّثت معه بلغة عرفها كلاهما. اتَّسعت عيناه من المفاجأة، ثم أجاب باللغة نفسها؛ وفي النهاية أومأ برأسه في حركة تأذن لنا في المُضي قُدمًا.

أمرت الأخت «ماريان» العاملين المتطوعين:

ـ خذوا الفتاتين إلى المحطَّة رقم ثلاثة.

وبينما كنا نتجاوز الجندي، نظرت إلى الأعلى وأنا على النقَّالة، فلمحت

عينيه الزرقاوين كالسماء. عولجنا، أنا وهدى، من جروح ثانوية. عالجوا الجرح الذي أحدثه الحطام المتساقط في رأس هدى ببعض القطب. رأيت ماما في خيمة العلاج وهرعت نحوها، أتوق بشدة إلى احتضانٍ آخر. كانت تجلس بلا حِراك في إحدى الزوايا، تمامًا كما شاهدتها جالسة على الأرض عندما وقفت في حفرة المطبخ. توقَّفت. عيناها الواسعتان الفارغتان لم ترياني واقفة أمامها. بدت كأنها لا ترى شيئًا!

ـ ماما!

لمستُها بِرفق، لكنها لم تستجب. وضعتُ وجهي أمام وجهها، لكنها نظرت إليَّ ولم ترَني!

اقتربت الأخت «ماريان» مني، تلفُّني بذراعيها ـ كم كان جيدًا ذلك الإحساس:

ـ هل تعرفين هذه المرأة؟

ـ هل هي ميتة؟

ـ لا يا عزيزتي. إنها في حال صدمة!

سألَت الأخت «ماريان» مرة أخرى:

ـ هل تعرفينها؟

في تلك اللحظة، غمرني التضرُّع. وكرهتُ ماما لكونها في حال صدمة، مهما كان يعني ذلك؛ لأنها لم تكن في تلك اللحظة هي التي تلفُّني بذراعيها؛ لأنها كانت دائمًا مختلفة عن الأمهات الأخريات:

ـ لا! لا أعرفها!

كذبتُ..!

انكمشت وراء كِذبتي المشينة، لكي أبقى في حماية الأخت «ماريان»، وتبعتْ هدى خطاي. كانت مرتبكة وخائفة، تريد فقط أن تبقى معي.

ميَّزتُ وجوهًا أخرى كثيرة في تلك المستشفى الموقَّتة، وحاولت أن أتذكَّر متى كانت آخر مرة رأيت فيها تلك الوجوه. رأيت باسمة مستلقية ونائمة على سرير خفيف نقَّال، وعِصابة ملطَّخة بالدم حول رأسها، وجبيرةٌ على ساقها. كنت قد شاهدتها آخر مرة وهي تُرضع طفلها في منزل خالتي سميحة، في اليوم الذي ثقبت فيه أُذُنَي الطفلة عائشة. رأيت العم منيرًا مستيقظًا على كرسي في الغرفة، وكل جسمه ملطَّخٌ بالدم. لعلَّ الصورة الأخيرة التي انطبعت في ذاكرتي عنه كانت في مقهى بيت جواد، وهو جالس يقرأ، ويشتم القادة العرب الذين نقلت الصحيفةُ أقوالَهم.

لكني لم أجد بابا بعدُ.

أغمضت عينَيَّ وبقيت مغمضة أطول فترة ممكنة، ثم فتحتهما قليلًا بما يكفي لتبديد تلك الصور من رأسي.

* * *

في وقت لاحق من ذلك النهار، أخذتنا الأخت «ماريان»، أنا وهدى، معها في شاحنة للهلال الأحمر في رحلة طويلة إلى بيت لحم. عندما وصلنا نقطة تفتيش خبَّأتنا داخل صناديق الطعام. لحُسن الحظ، ألقى الجنود نظرة سريعة لا أكثر حين فتحوا باب صندوق الشاحنة. عندما توقَّفت الشاحنة مرة أخرى، كنا قد وصلنا إلى باحة كنيسة مألوفة، كان بابا قد ذكر لي ذات مرة أنها كنيسة المهد، وذلك في خلال أحد الاحتفالات المسيحية التي كنا

كثيرًا ما نسافر لمشاهدتها. «يقولون إن هذا هو المكان الذي وِلِد فيه سيدنا عيسى»، قال ذلك، مجيبًا بصبر عن أسئلتي التي لا تنتهي.

بدت بيت لحم مثل جِنين بالضبط: منهارة ومشتعلة، ويتناثر فيها الموت. حتى الكنيسة التي وِلِد فيها سيدنا عيسى قصفها اليهود، وتفوح منها رائحة الحرائق. مئات الأطفال في الداخل يجلسون على الأرض، وقد أصبحوا يتامى. لا أحد يتكلم، وكأن مجرَّد الكلام سيؤكِّد الحقيقة المُرَّة، وكأن الصمت يحمل احتمال أن يكون كل ذلك مجرَّد كابوس. صعد الصمت عاليًا إلى سقف الكاتدرائية وتراكَم هناك، يردِّد الحزن والأذى الخفيَّين، وكأن أرواحًا كثيرة جدًّا ارتفعت في آن واحد. كنا كأننا في مكان ما بين الحياة والموت، ولا يقبلنا كليًّا أيٌّ منهما.

وصلت الأخت «ماريان» تحمل وعاءً معدنيًّا مليئًا بالماء:

ـ اتبعوني يا عزيزتي، سيكون عليكما الاستحمام معًا من أجل توفير المياه.

طلبت منا ذلك، بينما سِرنا، أنا وهدى، وراءها إلى غرفة الاغتسال. سكبت الراهبة الطيِّبة الماء في وعاء الاغتسال وتركتنا. كنا مرتبكتين جدًّا إلى درجة أننا دخلنا حوض الاستحمام المعدني من دون أن نخلع ثيابنا القذرة. غمر الماء الدافئ جسدي مثل عناق حميم... مثل همس يَعِدُ بالأمان.

خلعنا، أنا وهدى، ملابسنا في الحوض، وجلسنا متقابلتين. مياه معتمة فصلت بيننا، لكن أرجلنا ارتكزت بعضها على بعض. وجهًا لوجه، دقَّقت الواحدة منا في أفكار الأخرى، كلٌّ منا ترى رعب الأخرى، ونحن نعرف أننا قد تخطَّينا حدودًا لن نفهمها، ولا يمكن الرجوع بعدها. العالم الذي عرفناه قد ذهب. بشكل ما عرفنا ذلك. بكينا بصمت، وانتقلت كلٌّ منا إلى الذراعين الصغيرتين للأخرى.

استلقينا على هذا النحو في هدوء منذر بالشَّر، وكأننا نسينا الكلام. نظرت إلى أصابع قدمي ناتئةً من الماء. طلاء أحمر متشقِّق. لقد مر أسبوع واحد فقط منذ تبادلنا طلاء الأظافر، متشوِّقتَين إلى شيء قد يجعلنا نشعر أننا أكبر سنًّا. الآن، في حوض حمَّام الكنيسة التي وِلد فيها سيدنا عيسى، كانت أظافر هدى وأظافري لا تزال تحمل بقايا متشقِّقة من اللون الأحمر من ذلك اليوم. لقد حسبت ذلك الأسبوع الواحد على أنه المسافة الفاصلة بين زهو البنات والجحيم.

تركت جسدي ينزلق ببطء، وعندما نزلت برأسي تحت الماء؛ هناك، في ذلك العالمِ الصامت مثل السكون بعد الانفجار الذي مزَّق المطبخ وقتَل عائشة، تملَّكتني رغبة غريبة في أن أكون سمكة؛ يمكنني العيش في عالم الماء الهادئ، حيث لا تُسمع صرخات ولا أصوات إطلاق النار، وحيث لا تُشمُّ رائحة الموت.

(١٠)

بعد أربعين يومًا

١٩٦٧

عندما أطللت من النافذة المكسورة في مخيَّمنا المدمَّر، لمَّا تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكن السماء كانت قد توهَّجت بالألوان البنفسجية والبرتقالية المبشِّرة بالشروق. الأمر المثير للدهشة أن الديوك نجت، وها هي تصيح كالمعتاد، غير واعية للنذير الذي يُحلِّق فوقنا. كنت كعادتي مستيقظة قبل الفجر. شروق الشمس كان مِلكَنا وحدنا، أنا وبابا، عندما كان يقرأ لي بينما ينام العالم من حولنا. لقد مر أربعون يومًا منذ انتهت الحرب، وقد أرجعتنا الأخت «ماريان» إلى جنين، فوجدتُ ماما بذهنها المشوَّش. بابا وأخي يوسف ما زالا مفقودَين.

سرعان ما حمل الهواء لحن الأذان إلى بيوتنا الموقَّتة. لاحقًا، بعد عشرات السنين، وبعد حياة في المهجر، فإنَّ ذلك الإيقاع العربي الذي لا لَبس فيه، سيستدعي يقينًا هادئًا في قلبي بأنني اتَّخذت القرار الصحيح بأن أعود إلى جنين.

على الرغم من أن الخروج من البيت كان لا يزال مغامرة خطيرة، فإن

الصغير سامر، جارنا ابن السنوات الخمس، كان يجري في أنحاء المخيَّم صارخًا باضطراب، وصوته العالي يشق سكون حظر التجوال الذي أصبح الآن حقيقة من حقائق حياتنا.

ظننت أنَّ الطفل المسكين كان يعيش مجدَّدًا حالة من الرعب بسبب الأحداث الأخيرة. لم يكن ذلك غريبًا؛ فمعظم الصغار في الفترة الأخيرة كانوا ينتحبون في أثناء نومهم.

«إنَّهم عراة»، قال سامر وهو يلهث، يكافح من أجل ترتيب أفكاره: «إنهم بحاجة إلى ملابس. لقد قالوا لي ذلك».

بدا سامر الصغير بحالة هستيرية، وبدأ الناس يضطربون. عيون منهَكة، لكنها مرتبكة، حدَّقت من النوافذ. شقَّت النساء العجائز أبوابها الموقَّتة لإلقاء نظرة.

نادى صوت أسفل الزقاق:

ـ ما الذي يحدث؟

سأل آخر:

ـ هل نحن في حرب جديدة؟

في هذه اللحظات من الارتباك واليأس والترقُّب، نبضت الشائعة مثل موجة من الأمل عبر هؤلاء الناس الميِّتين في الحياة. بدأ الناس يصيحون: «الله أكبر!».

ظهرت وجوه من نوافذ الأكواخ، وتعالى مزيد من الصيحات، بينما عمَّت الإثارة أنحاء المخيم. من فتحة نافذة اسودَّت من آثار النار، جاءت ملاحظة منعشة: «الجيوش العربية قادمة لتحريرنا!»، لكنَّ الناس ظلُّوا متردِّدين، لأنه

أمكننا أن نرى الجنود الإسرائيليين يجثمون في مواقع المراقبة التي أقاموها. إنهم منتصرون ومتعجرفون. قتلة ولصوص. لقد كرهتهم على قدر ما كرهت بحر القماش الأبيض الذي يرفرف فوق بيوتنا: علامة استسلامنا المُهين.

لكنَّ النشوة تلاشت بالسرعة نفسها التي ازدادت بها، عندما بدأ سامر يعود إلى رشده.

ـ كفى! ليس هناك أي حرب أخرى. هذا الصبي يقول لكم إنَّ أبناءنا على قيد الحياة.

جاء صوت رجلٍ ليُسكت أغاني الحرب. لقد كان هذا الحاجَّ سالمًا. لقد نجا! تساءلت: «أين كان مختبئًا؟».

* * *

كان الحاج سالم قد عاش وشاهد كل ما حدث. هذا ما اعتاد أن يقوله لنا نحن الصغار. استغرق الأمر فصولًا متعدِّدة لمعرفة قصَّته، لأنه رواها على أجزاء، كان يقول: «لقد عشت ورأيت كل شيء... أنا عملت بإخلاص لدى أولئك الرجال ذوي الشعر الأصفر والعيون الملوَّنة، لكنهم في المقابل جلبوا لنا اليهود الأجانب الذين سرقوا أثاثي». كان دائمًا يقدِّم قطعًا فقط من أحجية وجوده، قطعة واحدة في كل مرة: «لقد رأيت كلَّ شيء. كلَّ الحروب. طردونا من الأرض وأخذوا كلَّ الأثاث الذي صنعته». ثم كان يسير مبتعدًا، ويتركنا فريسة للفضول. لكن في مخيمنا، كانت قصَّته هي قصَّة كل واحد منا: حكاية بسيطة عن النهب، عن تجريد المرء حتى العظام من إنسانيَّته، عن إلقائنا كالقمامة في مخيَّمات للَّاجئين لا تَصلح حتى للفئران، عن تركنا من دون حقوق أو وطن أو دولة، بينما أدار العالم ظهره، ليشاهد أو يهتف لابتهاج المغتصبين، وهم يعلنون دولة جديدة سُمِّيت إسرائيل. كان الحاج

سالم رجلًا ذكيًّا لديه روح الفكاهة، عمل في تحويل الخشب إلى أثاث مزخرَف وتُحف صغيرة جميلة. ادَّعى مرة أنَّ ضابطًا بريطانيًّا رفيع الرتبة اشترى قطعة من منحوتاته من خشب الزيتون، وهي تمثال لمريم العذراء، لإهدائها للملكة... لملكة هؤلاء الرجال ذوي الشعر الأصفر والعيون الملوَّنة، مما أثار في نفسي فكرة خيالية هي أنَّ الحاج سالمًا يعرف ملكة ما.

بالنسبة إليَّ في فترة صباي، كان الحاج سالم مفعمًا بالنشاط والحيوية أكثر من كل شخص آخر. وهو من عرَّف أطفال المخيم بتاريخهم. هو مصدر الكنز الذي لديَّ من الفولكلور الفلسطيني والأمثال الشعبية. كان هو من أعطاني أسماء وقصصًا عن أناسٍ كنت سأجدهم ضحايا حربٍ لاحقًا في نصوص التاريخ التي سأقرأها بعد عقود من الزمن.

أحببنا أن نعترض طريقه، ونناشده كي يروي لنا قصَّة عن الأيام الخوالي. كنا نتوسل إليه، عشرة أو عشرين من الأولاد الصغار الأشقياء، أنوفنا تسيل، حفاة الأقدام، ونكرِّر وعْدنا له بأننا لن نزعجه مرة أخرى، إلى أن يلين، مع أنه كان يعلم تمامًا أننا سنعود في اليوم التالي، أو في الساعة التالية.

كنا نتجمَّع حوله على الأرض، ونركِّز انتباهنا لاستيعاب الحكايات التي يرويها لنا. كان ينسج حكايات الماضي بوضوح وحيوية شديدين؛ فإذا بفلسطين وجميع قُراها، التي محت إسرائيل كثيرًا منها منذ فترة طويلة، تصبح حية في ذهني، كما لو أنني قد عشت هناك بنفسي. كان صوته الخشن المتحشرج بِفعل سنوات من تدخين المعسل، يعلو بحدة، ثم ينخفض ليناسب فعل الحدث الذي يتكلَّم عنه، يحثُّ مخيلتنا على العيش بين أسلافنا، نراقب الأحداث الماضية، تتكشَّف لنا كأنها تحدث في تلك اللحظة بالذات.

بدا الحاج سالم، في نظرنا نحن الصغار، عجوزًا إلى أقصى حد. «تسعون عامًا على الأقل»، تجرَّأت لمياء أن تخمِّن في إحدى المناسبات. بعدما كبرتُ فقط أدركت أنه كان في أوائل الستينيات من عمره لا أكثر في فترة حرب عام ١٩٦٧ . كان أصلع الرأس تقريبًا، مع شعر أبيض خفيف يشكِّل بقعًا فوق أذنيه الضخمتين. وكان على جلده الأسمر شعر كثيف يغطِّي هيكلًا كبيرًا من العظام التي برزت عند كتفيه، وكأنها مِشجبٌ تحت الدشداشة التقليدية التي يرتديها. وتَعمَّم، كمعظم الرجال الفلسطينيين، بالكوفية ذات المربَّعات السود والبيض التي اعتاد أن يعصبها بإهمال ملحوظ حول رأسه. كان له شاربان ضخمان وغير مهذَّبَين، وقد بقي شعرهما الكثيف أسود حتى بعد أن جاوز التسعين، وكأنَّه هبةٌ من شبابه الغابر لشيخوخته. أحلى ما في الأمر أنه كان بلا أسنان. لقد فقدها ـ كما قال ـ في معركة مع داء «الإسقربوط»؛ وهو مرض التهاب اللِثَة وتورُّمها. وقد كرهْنا، نحن الأطفال، «الإسقربوط» كرهًا شديدًا، وافترضنا أنه وحش إسرائيلي، فكنا نستحضره دائمًا كإهانة للخصم كلما أطلقنا العِنان للشتائم الصبيانية. وقد شكَّلت جملة «أنت شِرِّير مثل الإسقربوط» مكوِّنًا رئيسًا في مخزون كلماتي الفظَّة. لكن ما إن تجاوزت التاسعة من عمري حتى قام أحدهم بتقويمي، فتوقَّفت عن استعمال تلك الجملة.

أتذكَّر جيدًا ابتسامة الحاج سالم العريضة التي تكشف عن فم كبير وخالٍ من الأسنان. كنا دائمًا، نحن الأطفال، نحاول فعلَ ما يُضحك الحاج سالمًا، فنستمتع بفمه الخالي من الأسنان، والذي يبدو كصورة مكبرة لأفواه الأطفال الرُّضَّع حين يضحكون. كنا نستهزئ بالقادة الإسرائيليين، ونسخر من غطرستهم واعتدادهم بالنفس؛ فكنا نسخر من ملامح «مناحم بيغن»، ونقلِّد ملامح وجهه بتشويه شكل وجوهنا. أو نحاول تشويه رؤوسنا ووجوهنا

لتشير إلى منظر شيخهم، «دافيد بن غوريون»، مع خصلتَي الشعر البارزتين من جانبَي رأسه كأُذُنَيْ أرنب. أو نهزأ من وجه «العجوز الشمطاء» ـ كما دعا المصريون «غولدا مائير» ـ التي يغطِّي أنفها الضخم نصفَ وجهها. كنا نقوم بتلك الحركات البهلوانية بمثابرة إلى أن يعجز الحاج سالم عن الاحتمال أكثر، فينفجر ضاحكًا. عندها يفترُّ ثغره، وتقسم لِثَتاه الورديَّتان رأسَه الأسمر في نوبة من الضحك الصادر من القلب. تتقلص عيناه وتنكمشان في تجعيدتين طويلتين تنضمَّان إلى تجاعيد وجهه الأخرى الكثيرة. وبعد أن نُشبع رغبتنا في الاستمتاع بتلك الضحكة الرائعة، ننضم إليه بقهقهاتنا.

لم أعرف قطُّ من أين جاء الحاج سالم، ولم أعرف اسم بلدته أو قريته؛ فهو يعرف كثيرًا عن كل موقع في فلسطين. كذلك لم تخبرني ماما، ولم يكن يوسف على يقين من أي مكان هو بالضبط. قيل إن عائلته قُتلت في نكبة ١٩٤٨، على الرغم من أنه لم يخبرنا قطُّ بتلك القصة. عاش وحيدًا؛ بلا زوجة ولا أولاد ولا إخوة أو أخوات. كان هذا لافتًا حقًّا للنظر في مجتمع مِحورُه الأسرة والعائلة والحَمولة. لم يكن أحد «بدون عائلة». لكنَّ الفلسطينيين، الذين أصبحوا مهجَّرين ومشتَّتين في أعقاب النكبة، جسَّدوا استثناءات كثيرة للمجتمعات العربية. كان صديقًا لجدِّي يحيى، وهذا هو كل ما عرفته عنه من بابا.

وكان الحاج سالم أول من أخبرني عن أخي إسماعيل الذي كان قد اختفى، وهو رضيع في خلال العدوان المشؤوم عام ١٩٤٨. قال في واحدة من عمليات نبشه المسرود للتاريخ:

ـ الطفل اختفى... اختفى بكل بساطة. بعدها لم تعد أملكِ أبدًا كما كانت.

* * *

ذلك اليومُ ـ عندما ركض سامر الصغير وهو يصرخ في أنحاء المخيم، يومَ علمتُ أن الحاج سالمًا نجا من حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ـ مثَّل بالنسبة إليَّ نهاية للحياة كما عرفتها، وبداية لاحتلال عسكري سيتحكَّم في حياتنا. كان قد مرَّ أربعون يومًا منذ كان الجنود الإسرائيليون ينتقلون من بيت إلى بيت، ويجمعون الرجال الذين بقوا في المخيم. أربعون يومًا، خضعنا في خلالها لحظر التجوال، وفي خلال تلك الساعات الطويلة بقينا، أنا وهدى، متلازمتَين، حتى إننا كنا نذهب إلى المرحاض معًا. لقد دمَّروا منزلنا فلجأنا إلى منزل خالتي سميحة، وهناك حاولنا ألا ننظر إلى مهد عائشة. عندما وصلنا المنزل كانت ماما هناك، وكانت تصلِّي. لم تقل لي شيئًا، وكل ما فعلته أنها أخرجت لنا رغيفًا جافًّا من الخبز وبعضَ الجبن، وعادت إلى سَجَّادة صلاتها. تبعتُها ووقفت خلفها وأحطتها بذراعيَّ. شعرت بالخجل وساءلت نفسي: هل كانت واعية ومدركة أنني تخلَّيت عنها ولجأت إلى الأخت «ماريان»؟ لم تقل ماما شيئًا، ولم أقل أنا لها شيئًا؛ لمسَت يدي فقط برِفق، وربما بمحبَّة. ثم تركتها مرة أخرى. وجدنا، أنا وهدى، رزمة من أوراق الشدَّة في خزانة المؤن، فاخترعنا ألعابًا وارتجلنا قواعدها. أحيانًا كنا نجلس بصمت في زاوية ما، وغالبًا ما نغفو بتأثير إيقاع همس ماما، والترنُّح البطيء لجسدها وهي تصلِّي على الأرض ساعات بلا انقطاع. سرَّحت كلٌّ منا شعر الأخرى وضفرته، وبدأنا نتحدَّث عن كل ما مرَّ بنا. في آخر الأمر بَكينا.

قُرِعَ الباب المعدني قرعات متواصلة وبشدَّة. أخرجت رأسي من النافذة، ورأيت أنَّ جارتنا سميرة قد أخرجت هي الأخرى رأسها من نافذتها المجاورة، ورأيت سامرًا الصغير أمام الباب المعدني، وحين رآني صاح بأعلى صوته:

ـ آمال، يوسف على قيد الحياة!

صاحت سميرة في الحال، وشعرُها منكوش وعيناها لا تزالان تحت وطأة النعاس، سألت عن شقيقها:

ـ ماذا عن فاروق؟

لكنَّ سامرًا كان قد واصل طريقه، وكان يعدو بسرعة، ثم ما لبث أن انضم إليه أطفال آخرون من المخيم، وصارت مجموعة متزايدة من الأولاد تركض في المخيم، وكأنهم أرواح صغيرة في عملية فرار جماعي. أدخلت رأسي لأوقظ ماما، فإذا هي في طريقها نحوي.

ـ ما الذي يحدث؟

ـ سامر هيثم يقول إنَّ يوسف عارٍ.

ـ ماذا؟

ـ يوسف حي!

ـ الله أكبر! أين ابني؟

ـ أظن أنه في بستان الخوخ.

ـ هل هو مع والدك؟

لقد سألَت السؤال الرئيسَ الذي كان يُلحُّ عليَّ!

صرنا، أنا وماما، في الخارج فورًا. وِشاحها المفضَّل كان ملفوفًا بإحكام على رأسها، وأطرافه تنصب على كتفيها. كان هذا الوشاح هدية من بابا قبل سنوات، عندما حصل على أول راتب له كبوَّاب في مدرسة وكالة غوث اللاجئين (الأونروا) في مخيمنا. لقد اصفرَّ لونه مع الوقت، وقد كان أبيض توشِّحه خياطة مطرَّزة على أطرافه. عندما لحق جسد ماما أخيرًا بعقلها الذي

غادر العالم بعد حرب ١٩٦٧، احتفظتُ بالوشاح، ولا يزال محفوظًا لديَّ، مطويًّا ومحفوظًا بأمان في صندوق صغير يتَّسع لما تبقَّى لي من عائلتي.

لكن في ذلك اليوم الأربعين، كان كل ما أردته هو أن أرى بابا. لا شيء... لا شيء آخر يهم. ما من شيء كان سيشفي جرحي إلا أن أنعَم بأمان عِناقه، وأسمعه يهمس لي بأنَّ كل شيء سيكون على ما يرام.

في حين بدأ حشد صغير من الناس يتجمَّع، كان من الواضح أنَّ بعض الرجال يعودون، بالفعل، إلى المخيم. بدأت النساء بإطلاق الزغاريد التي يتخلَّلها هتاف «الله أكبر». عرفت أنَّ يوسف كان بينهم، لكن لم يكن هناك أيُّ ذِكر لبابا.

انتظرت، في تلهُّف مشوَّش ومضطرب، طوال تلك اللحظات التي لا تنتهي، قبل أن يصل الرجال. كلما طال الوقت الذي لم أستطع فيه تمييز ملامح بابا من بعيد، ازداد خوفي مما لا يمكن احتماله. بإرادة مرهِقة كبحتُ رغبة مُلحَّة في البكاء، وتسلَّقت سطح مبنى غير متضرر لأرى المشهد بوضوح.

وأنا أطلُّ على المشهد الجديد المكوَّن من أبراج المراقبة الإسرائيلية التي بُنيت على عجل، شعرت كأن سنوات تُحشر في أسابيع، حلم رهيب لا نهاية له. هيمن الطعم الترابي للفناء. لقد أرسخت تلك الأيامُ نفسَها في ذاكرتي كذرَّات غبار دموي، مع رائحة كريهة لكائنات متعفِّنة وتُربة محروقة. لقد انتقلنا، ولكن إلى لا مكان. نظرنا، ولكنَّ الواقع أغشى على أبصارنا. لقد شهَقنا وزفرنا غبار الأشلاء فلم نتنفَّس. وبينما أصبح الحشد أكبر، كنت أنا أراقب من فوق السطح في صمت ارتباكي الشخصي. كنا لاجئين، جميعنا. أولئك الذين هاجروا أصبحوا لاجئين مرة ثانية، في ساحة خِربة بشرية أخرى

على خلفية تاريخ إسرائيل القصير. وأولئك الذين بقوا منا أصبحوا سجناء في جنين.

أصبح انتظارنا الآن من أجل الحرية. أصبحت الآمال الأصلية في العودة إلى الوطن توسُّلات لنيل أبسط الحقوق الأساسية. قبل الآن كنا نتوق إلى رؤية حيفا ويافا واللد، أما الآن فخطوة واحدة نخطوها في الهواء الطلق صارت مجازفة قاتلة. لقد ولَّت أيام الرحلات العائلية إلى طولكرم ورام الله، والقدس أيضًا ضاعت. «لقد أحرقوا القدس، فليحرقهم الله»؛ دعاءٌ سمعتُ صوتَ امرأة يردِّده في سياق لم أعد أتذكَّره.

تسلَّقت هدى السطح إلى جانبي، حيث وقفت أبحث من بعيد عن بابا.

كان الرعب الذي عشناه، أنا وهدى، في حفرة المطبخ قد قوَّى الرابطة بيننا. لقد امتلكَت قدرًا من اللطف والإخلاص انتقل إليَّ في خلال صداقتنا. وعلى الرغم من أنَّ الشدائد في العقود المقبلة سوف تكشف عن اتزان طبيعي وقوة هادئة فيها، ففي صغرنا كان خجلها ومزاجها الانعزالي يجعلان كثيرين، وخصوصًا الكبار، يرونها غريبة الأطوار.

أحبَّت عجائز المخيم أن يتفحَّصن عينَي هدى. كن ينادينها: «ها هيَ تلك الفتاة الصغيرة الغريبة. تعالي إلى هنا يا حبيبتي». وبينما تقف هي بإذعان، من دون احتجاج على أصابعهن الواخزة ورائحة أنفاسهن الكريهة، كن يشاهدن ما يعلنَّ أنه «بركة إلهية» في عينيها اللتين كان لونهما مزيجًا غير عادي من الرمادي والبرونزي.

كانت هدى قد عاشت معنا منذ ثلاث سنوات قبل حرب ١٩٦٧. وتلك السنوات هي على الأرجح أسعد أوقات طفولتي. كل يوم، منذ الصف الرابع وحتى السادس، سِرنا، أنا وهي، يدًا بيد من المدرسة وإليها. وجدنا

أشجارًا لنتسلَّقها في أماكن لا يمكن أن يرانا أحد فيها نتصرَّف كالصبيان. جمعنا الحشرات، ولعبنا «بيت بيوت» في بيت ألعاب قمنا ببنائه. رسَخت وقويَت صداقتنا مع «وردة»، وهي دُمية بذراع واحدة أنقذناها من كومة قمامة بالقرب من قرية الطِّيبة. لقد بنينا بيت ألعابنا من أجل وردة. كان له أربعة جدران من الحجارة المكدَّسة، وأقمناه تحت شجرة الزيتون الثالثة، خلف الأرزَتين التوأمين على ممر المشاة المؤدِّي إلى بلدة بَرْطَعة القريبة. اعتدنا أن نذهب إلى هناك كل يوم تقريبًا للاعتناء بوردة، وانتشرت الشائعة بين فتيات أخريات في المخيم، بأننا، أنا وهدى، والدتان فخورتان لطفلة معوَّقة فقدت ذراعها بعد أن أطلق إسرائيلي النار عليها وهي تلطِّخ حِفاظها وتبكي. لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت مجموعات من الفتيات الصغيرات الفضوليات تتوافد من جنين لزيارة «بيت وردة» قرب برطعة. وحِفاظًا على العادات، كن يجلبن الحلويات. أحيانًا يحلُّ الظلام ونحن منهمكات في حفلات الشاي والمعجنات، فيما وردة تتنقَّل وسط أحاديث وُدِّية تجري بين عديد من الأمهات.

كان والد هدى هو السبب في انتقالها لتعيش معنا. كان أبًا فظيعًا اعتاد أن يضربها، وعندما كانت في الثامنة من عمرها، حدث «ذلك الشيء». لقد فعل ذلك بها. وستكون خيانة لا تُغتفر أن أنطق بتلك الكلمة. بعد أن حدث ذلك مرة أولى وأخيرة، اعترفت لي كما لو كان الأمر عارها هي، وسمحت لي بأن أخبر بابا. تدفَّق الذعر في عينَي بابا عندما نقلت إليه السِّر الثقيل، الأمر الذي لم أفهمه بشكل تام. بتحذيرٍ صارم، أمرني بابا بأن أحترم ثقة هدى بي، وأن أكتم السِّر. لم يرغب والدي في تحويل ألم هدى إلى فضيحة؛ لذا اجتمع مع عمِّي درويش والحاج سالم في مؤامرة هادئة من أجل ترحيل والد هدى. لم يكشف بابا عن السِّر الذي بُحت به له، لا لعمِّي ولا للحاج، وهما

لم يطلبا منه أي تفسير؛ إذ إنَّ والدي كان يمتلك سُلطة طبيعية أمَّنت له ولاءَ كل مَن عرفه. ذهب الرجال الثلاثة أولًا إلى فارس، شقيق هدى الأكبر. ذليلًا ومُهانًا، حوَّل فارس غضبَه إلى الهدف الأضعف، إلى شقيقته هدى، لكنَّ بابا تمكَّن من أن يأخذ هدى لتأتي وتعيش معنا. وكنا، أنا وهي، في غاية السعادة.

لم نرَ والد هدى بعد ذلك. وراجت إشاعات بأنه كان جاسوسًا لإسرائيل. يعبر إلى إسرائيل ليقدِّم المعلومات عن كل مَن يحاول في جنين تنظيم مقاومة ضد إسرائيل. ربَّما كان هذا صحيحًا بعض الوقت، ولكن ليس بعد الحرب. لم أكن لأتعرَّفه على تلك العربة المجرورة باليد، لولا يده ذات الأصابع الأربع، والتي تدلَّت على جانب العربة. لم يحدث قطُّ أن أفشيت لهدى سِرَّ ذلك المشهد، مشهد والدها القتيل.

سألتْ هدى، بينما كانت تبحث بين المحتشدين في الشارع من تحتنا:

ـ هل أخوكِ واحد منهم؟

ـ نعم، وهل فارس معهم؟

ـ نعم، إنه عارٍ.

ـ يوسف عارٍ أيضًا.

ـ لماذا هم عُراة؟

اتَّقد التساؤل بيننا، وقلت أخيرًا:

ـ أظن أنَّ ثيابهم قد سُرقت!

رأيت غطاء رأس ماما وهي في الحشد بجانب أُم عبد الله؛ المرأة التي عاشت في كوخ فوق كوخنا. كانت أرملة، وهي والدة سميرة وفاروق

وعبد الله، وكانت أيضًا الصديقة المقرَّبة من ماما. كانتا تقضيان كثيرًا من الوقت معًا، تطبخان وتتحادثان. والآن تنتظران ابنيهما معًا وهما عائدان من المجهول.

قالت هدى، كعادتها المزعجة في توضيح الواضح:

ـ أُمكِ هناك.

ـ أعرف.

ـ إنها ترتدي وشاحها الحريري.

ـ أعرف.

ـ إنها مع أُم عبد الله.

أردت أن أصرخ في وجهها، لكنني عرفت أنَّ ذلك، بعد كل المعاناة التي عاشتها، سيكون فيه قسوة بالغة. في غباء صباي، لم تكن لديَّ القدرة على الفهم والتقدير لرقَّة هدى وحساسيتها، وتركت لنفسي العِنان لأستاء وأغضب منها. أتمنى لو كنت صديقة جيدة لها، على قدر ما كانت هي بالنسبة إليَّ.

ما زلنا واقفتين على السطح. سألَتْ هدى:

ـ هل فاروق قادم أيضًا؟

لم أُجِب. لم أستطع العثور على بابا بين الرجال المقترِبين.

ـ هل تعتقدين أنه هو أيضًا عارٍ؟

نظرَتْ إلى قدميها ثم إلى السماء، وأجابت نفسَها:

ـ على الأرجح أنهم جميعًا عراة.

صعدت لمياء، البنت التي كنت أحسد شقلباتها، وكانت ضيفًا دائمًا في منزل وردة، صعدت إلى جانبنا. سألَتْ:

ـ لماذا هم عُراة؟

ردَّت هدى:

ـ اليهود سرقوا ثيابهم...

شعرت بأنَّني مضغوطة. كانت الشمس في كبد السماء الآن. إن فجرًا آخر من دون بابا جعل الهواء يفسد، وشعرت بصعوبة في التنفُّس. لقد كبر غياب بابا منذ الحرب وأصبح بكبر البحر وكلِّ أسماكه. بحجم السماء والأرض وكلِّ ما فيهما من أطيار وأشجار. كان الجرح في قلبي كبيرًا بحجم الكون وكلِّ نجومه.

* * *

الحرب غيَّرتنا، وماما كانت أكثر مَن تغيَّر؛ لقد أذبلتها الحرب. تفكَّكت طبيعتها الأصلية تاركة جسدها مجرَّد هيكل، غالبًا ما تملؤه الهلوَسة. بعد الاحتلال واختفاء أخي وأبي، قلَّما غادرت ماما سجَّادة صلاتها. لم تكن لديها أي رغبة في الطعام، ورفضت حتى المؤن الهزيلة التي وصلت على شاحنة المساعدات الخيرية. أصبح قطن ثوبها داكن اللون، وفاحت من جسدها الذي تركته بلا حمَّام رائحة كريهةً، كأنها رائحة البؤس المتخمر. تصلَّبت شفتاها في شبكة من الشقوق، وانكمش جسدها وهي تصلِّي وتصلِّي بلا انقطاع. وفي حين خسر جسدها مزيدًا من الوزن، راقبتُ الفراغ يكبر في عينيها، وشهدت خيانة عقلها الذي بدأ من الآن فصاعدًا يتخلَّى شيئًا فشيئًا عن واقعيَّته المعهودة.

سيُضرَب المثَل فيما بعد بشجاعة ماما في أثناء الحرب، بوصفها جوهر لبات الفلَّاحة الأصيلة. لقد رفضت الفرار. لقد أُجبرت على الخروج من أرضها عندما فُقد إسماعيل، وكانت قد صمَّمت على عدم السماح بحدوث ذلك مرة أخرى. اتَّفق الجميع على أنها كانت، عند اللزوم، تُظهِر شجاعة حقيقية. «معظمنا تحدَّث بكلام كبير، لكننا هربنا لننجو بحياتنا، بينما التزمت أم يوسف كلامها. قالت إنها لن تسمح لليهود بسلب الوطن الوحيد الذي عرفته ابنتها»، هذا بعض ما قاله الناس عن ماما بعد الحرب.

بقيت ماما لأجلي. وأنا تركتها وحدها لأذهب مع الأخت «ماريان». لم أسامح نفسي قطُّ على حقارتي هذه.

أتذكَّر أن اليوم الذي عاد فيه يوسف كان يومًا شعرت فيه بتعلق شديد بماما. كانت لا تزال آنذاك تمتلك لحظات من الوعي على الرغم من الضعف والهذيان. رأيتها ذلك اليوم في تمام أمومتها، وقد شُفيت في لحظة كلُّ جروح حياتها المحطَّمة وعقلها المسحوق. رأيت فيها المرأة التي خاطرت بحياتها كي تحميني من كل ما تعرَّضتْ هي له. كانت حركاتها صادقة، وكذلك كانت أمومتها ودموعها. ولكنه كان أمرًا سريع الزوال؛ إذ كانت قد بدأت بالفعل تفقد عقلها. لو كان باستطاعتي لقبضت على تلك اللحظات الحنونة بيديَّ المجرَّدتين، وخزنتها في مكان آمن.

«الله أكبر!» صاحت عندما أخبرتها بأن يوسف على قيد الحياة. دموع نادرة غسلت وجهها، وهي تنضم إلى أُم عبد الله في الحشد المندفع إلى أطراف المخيم، لكي يكونوا أقرب ما يمكن من الفتيان والرجال القادمين في اتجاههم. كنا لا نزال تحت الحكم العسكري، ممنوعين من أن نخطو خارج الأبنية التي صارت ملاجئ. لكنَّ أخبار عودة الرجال سيطرت على

الناس، فتدفَّقوا في الأزقَّة، ربما وجدوا الأمان في خروجهم بأعداد كبيرة، أو ربما تناسوا الخطر لا غير. أعتقد أن الجنود لم يعرفوا تمامًا ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا.

«الله أكبر»، مرارًا وتكرارًا. عشرات منها، بل مئات، اندمجت في هتاف واحد قوي، حين أخذ الناس يقتربون بعضهم من بعض. كان هناك عدد قليل من الذكور في الحشد. لم يبقَ إلا مَنْ هم كبار جدًّا أو صغار جدًّا في السِّن. كنت أرى من موقعي بحرًا من الرؤوس المغطَّاة بالمناديل: أمهات، وأخوات، وبنات، وزوجات، يبكين ويهتفن معًا، منتظرات ليعرفن ما الذي جلبه لهن القدر، بعد أربعين يومًا.

عندما وصل يوسف إلى طرف جنين، كان المخيم بأكمله، آلاف من النفوس، يقفزون ويصيحون: «الله أكبر». كان يوسف يحمل صرة فيها، على ما يبدو، ملابس إضافية وهبها للشباب على طول الطريق أُناس علموا أنهم جُرِّدوا من ثيابهم تمامًا.

استقل الجنود شاحناتهم وبدأوا يطلقون النار في الهواء. ركض خمسة من الشباب بسرعة وتفرَّق الحشد، واختبأ الباقون في الأزقَّة المحيطة بمساكننا. لمياء والفتيات الأخريات كن قد غادرن قبل ذلك الوقت، وعندما بدأ إطلاق النار قفزنا، أنا وهدى معًا، عبر النافذة، من فوق الحافة إلى دار خالية كانت قد تعرَّضت لقصف جزئي.

كنت أرى يوسف عن بعد. يرتدي سروالًا بُني اللون وصغيرًا جدًّا، وقميصًا أخضر مجعَّدًا، لعله أول شيء أعطاه إياه أحدهم ليستر عُريه. لم يكن بابا بين الرجال. بكيت على الرغم مني، هناك في شباك المنزل المقصوف جزئيًّا، وهدى بجانبي، جلسنا في وضع الجنين كما كنا في

حطرة المطبخ، أطللنا من فوق على مئات النفوس التي تكدَّست بارتباك في الزقاق تحتنا.

فتَرَ الابتهاج الأوَّلي تحت شمس تموز (يوليو)، بعدما أصبح الشباب قريبين بما يكفي لنرى آثار الجراح والعلامات الحديثة على أجسادهم، شهادة دامغة على الضرب والتعذيب المنتظمَين.

كان يوسف قد غاب أربعين يومًا فقط، لكنه بدا وقد كبر عشر سنوات. أصبح جسده نحيلًا، ورؤيته بهذا الشكل ملأت قلبي بالألم الفظيع.

* * *

ذهب بابا إلى الأبد. انتظرته أمي حتى يوم موتها، تمامًا كما انتظرت العودة إلى الوطن، وتمامًا كما بحثت في عقلها عن إسماعيل.

كنت بحاجة إلى الاعتقاد أن بابا قد مات. لم أستطع تحمُّل فكرة معاناته بعيدًا عنا، واخترت أن أقتنع بأنه في الجنة: يرتدي دشداشته ويتعمَّم كوفيَّته بفخر، طرفُ غليونه في فمه، فنجان من القهوة بين أصابعه، وكتاب أحبَّه بين يديه. كافحت طوال حياتي للحفاظ على تلك الصورة: أبٌ قوي وفخور ومُحب. لكن صورة أبي سميح الراسخة، وهو ميت ومسدَّسُه في يده بالقرب من أنقاض منزله، كانت تسيطر عليَّ، ليتحوَّل وجهه إلى وجه بابا في نهاية الأمر.

عندما اقترب الشباب، بحثت عن عمِّي درويش وأبناء عمِّي. لم يكن أيٌّ منهم في الحشد، فاعتقدت أنهم هم أيضًا قد قُتلوا، لكنني علمت فيما بعد أنهم جميعًا وجدوا ملاذًا في الكهوف الجبلية، وعادوا إلى جنين بعد الحرب بأشهُر قليلة.

دخل يوسف والشباب الخمسة الآخرون، واجتمع الناس للترحيب بعودتهم سالمين، وللاستفسار عن أحبَّائهم المفقودين.

جلس فاروق وأمين وطه وعمر ومحمود ويوسف قريبين بعضهم من بعض، ويتقاسمون رغيفًا من الخبز. كانوا مرتبكين، منهكين، مرهقين، واهنين. بعض المتفرِّجين حثَّ الآخرين كي يتركوهم وشأنهم فترة؛ لتمكينهم من استجماع أفكارهم. وقفت والدة فاروق، أُم عبد الله، أمام ابنها، ممسكة بكتفيه، ومقبِّلة رأسه مع ابتسامة حزينة. أكبر أبنائها، عبد الله، كان قد قُتل، لكنها رفضت تقبُّل التعازي. أصرَّت:

ـ أُقسم بالله، لن أتقبَّل إلا التهاني باستشهاد ابني!

بعُيون روَت وهنَ ليالي الأرق والدموع، ظلَّت أُم جمال، جارتنا في المخيم، تسأل الشباب وتردِّد بلهفة وحرقة:

ـ هل تعرف أي شيء عن جمال يا يوسف؟ قل لي يا محمود يا ابني! قل لي يا طه! من فضلك يا عمر، هل تعرف شيئًا عن جمال يا ابني؟ أرجوك يا بُني! هل رأيته؟ هل هو بخير...؟

كان رأسها يلاحق عينَي يوسف اللتين تتفاديانها، لعلها تكتشف في تعابير وجه أخي ونظراته تلميحًا إلى مصير ابنها.

ـ أنا وجمال، تم فصلُ واحدنا عن الآخر. هذا كل ما أعرفه.

كذب يوسف!

عرفتُ لاحقًا أنَّ حياة جمال انتهت كي يجعلوه «عِبرة» للآخرين. أعدمه الجنود أمام أخي وخمسين آخرين. كان جمال معصوب العينين، مقيَّد اليدين، راكعًا، عندما وضع جندي إسرائيلي رصاصة واحدة في رأس الفتى الذي تردَّد

يوميًّا على منزلنا، الذي لعب كرة القدم في الملاعب الترابية، والذي اعتاد أن يدعوني أمُّورة، وركب معنا في الرحلات المتعدِّدة إلى القدس ونهر الأردن وبيت لحم وأريحا. وكان في السادسة عشرة من عمره عندما صار «عِبرة».

كان يوسف فاقد الحس، واهتمامه بالطعام أو الكلام معدوم تقريبًا. اتَّسع بؤبؤا عينيه فاحتلا كامل العينين، فبدَتا كأنهما تريان شيئًا خفيًّا.

تناقص الحشد، وبقي معنا أمين وفاروق ومحمود. جلست ماما وأُم عبد الله على أرضية المطبخ، وقد تشابكت أيديهما، تسبِّحان الله، وتتأمَّلان في ابنيهما ـ نصف الميِّتين ـ كما لو أنهما تريانهما أول مرة. قمت بإعداد القهوة، وقدَّمَتها هدى بحسب الأصول على صينية لكل شخص. وقف يوسف عندما لاحظني أراقب، وضمَّني إلى ذراعيه. خدش الكشكش المخرَّم قميصه الأخضر. كاد احتضانه لي يجعلني أعتقد أن كل ما جرى كان مجرَّد حلم مزعج.

لكنَّ بابا لم يكن قد عاد بعد!

في وقت لاحق، إذ نام محمود وفاروق، سمعت مصادفةً أخي يتحدَّث إلى أمين. بحلول ذلك الوقت، كان يوسف قد اكتسب طريقة متأنِّية في الحديث، وقد عزَّزت الحرب قوةً ما في شخصيته، الأمر الذي من شأنه أن يأخذه ذات يوم بعيدًا في الحُب وفي التاريخ.

وقعت عليَّ كلماته إلى أمين كالصاعقة. قال:

ـ لقد كان هو! رأيت الندبة! إنه حي، وهو يهودي يسمُّونه «دافيد»!!!

كان أخي قد رأى جنديًّا يهوديًّا، له ندبة مطابقة لتلك التي ميَّزت وجه أخينا إسماعيل الذي اختفى قبل أن أولد بسبع سنوات.



نَدبة داود

(١١)

سرٌّ، كالفراشة

١٩٦٧

و«يو لانتا» تتأمَّل «دافيد» المنحني بكتفيه العريضتين على طاولة العشاء، حاولت بصعوبة أن تستوعب كم من الوقت قد مرَّ منذ ذلك اليوم البعيد، عندما أحضره «موشيه» لها صُرَّةً صغيرةً خائفة ومجروحة.

فكَّرتْ في هذا المخلوق الجميل، الذي أصبح الآن رجلًا، يقول لها عندما يطبع قبلة على خدِّها: «وأنا أيضًا أحبُّك يا ماما!». فكَّرتْ فيه حين كان صغيرًا بين ذراعيها، تذكَّرت كيف كانت تُلقمه ثدييها الجافَّين عندما لا يكون هناك أحد في الجوار.

دلَّلته واعتنت به بشغف، وكانت تُلبسه عِدة طبقات من الملابس في فصل الشتاء، وعندما بلغ سنَّه السابعة أدرك أن بإمكانه أن يرفض ارتداء ما كانت تختار له من ثياب. كانت تعشق حتى تحدِّيَه لها، وبصعوبة كانت تستطيع أن تُخفي ابتسامتها عندما كان يؤكِّد لها استقلاليته.

كانت دائمة القلق، وكان يقول لها: «لا تقلقي يا ماما، سأكون على ما يرام». كان في الثامنة عندما بات ليلته الأولى خارج البيت. ساورها

القلق من أنه قد يشعر بالحنين إلى البيت، وجعلته يعدُها بالاتصال في كل وقت ولو في منتصف الليل. وحين ذهب، وهو في العاشرة، في أول رحلة تخييم في عطلة نهاية الأسبوع، كانت قائمة مخاوفها عليه طويلة حتى عجزت عن تذكُّر جميع بنودها. خشيت أنه ربما لم يتناول كمية كافية من طعام الفطور قبل المدرسة، وأنه قد يؤذي نفسه وهو يلعب كرة القدم، أو ربما كسرت فتاة قلبه الصغير. شعرت بالقلق عندما ذهب إلى أول حفلة له، إذ كانت تعلم أنَّ المشروبات الروحية متوافرة هناك. وعندما بدا أنَّ كل شيء على ما يرام، كانت تشعر بالقلق من أنَّ هناك شيئًا ما يخفيه عنها، فيجب أن تقلق بشأنه.

وكانت تشعر بالقلق أيضًا من أنه في يوم ما سيعرف أنه لم يكن حقًّا ابنها. ولكن قلق «يولانتا» بلغ أشُدَّه في السنة التي بلغ فيها «دافيد» الثامنة عشرة من عمره.

لم تكن تريده أن يلتحق بالجيش، لكن لم يكن لديها ـ ولا لديه ـ خيار. كانت إسرائيل ملاذًا صغيرًا لليهود في عالمٍ وفَّر لهم معسكرات الموت في الأماكن الأخرى. وكان يجب على كل يهودي أن يخدم في الجيش. لذلك، وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٧، حين دخلت بلاده الحرب، كان «دافيد» قد أمضى عامًا كاملًا في جيش إسرائيل.

أرسله الجيش شمالًا إلى الجولان. كان قويًّا، وعلى استعداد لخدمة بلاده. كان جاهزًا للقتال.

كان «دافيد» أحد أفراد كتيبة كُلِّفت باستفزاز السوريين كي يحاولوا الرد، فيمنح ذلك إسرائيلَ الذريعةَ لاحتلال الجولان. أصدر الجنرال «موشيه ديان» تعليماته بإرسال الجرَّافات لحرث أرض شبه مهجورة

تقع في منطقة منزوعة السلاح، ممَّا قد يدفع السوريين إلى إطلاق النار. فإن لم يفعلوا، كانت التعليمات تفيد بأن يتقدَّموا أكثر بالجرَّافات لمزيد من الاستفزاز. استعملوا المدفعية، ثم انخرط الطيران في العملية. لكن في اليوم الأخير من حرب حزيران (يونيو)، عندما هاجمت إسرائيل السفينة الأمريكية «ليبرتي» في البحر المتوسط، أُعيد «دافيد» إلى بيته بسبب إصابة في يده.

أصيب بـ«نيران صديقة» حرقت كفَّ يده اليمنى. امتلأ قلب «يولانتا» بالرعب عندما علمت بذلك، ولم يكن هناك أي شيء من شأنه طمأنتها حتى عاد «دافيد» إلى البيت.

أحاطته بذراعيها:

ـ يا ولدي، دعني أرَ يدك!

ـ إنها بخير يا أمي. لقد قاموا بعلاج كل شيء.

تفحَّصته للتأكُّد، وهي عاجزة عن شكر الله الشكر الكافي على سلامته:

ـ هل أنت جائع؟

تأمَّلته «يولانتا» سعيدة وهو يلتهم المعجنات التي قدَّمتها له، والكعك والفطائر. «سينفطر قلبي إن أصابه أي مكروه». في مكان ما في ثنايا حبها له كان يكمن السِّر وينتظر. لم تكن تنوي إخفاء الحقيقة عن «دافيد» إلى الأبد. منذ يوم وصوله في تموز (يوليو) ١٩٤٨، اختُزل كيان وجودها الماضي لتصبح والدة «دافيد»، لا أكثر. أما كيف أصبح الولد ابنها، فقد بقي من دون إفصاح؛ مجرد فراشة غير مؤذية في حقل من الحب.

الآن وهي ترى يده ملفوفة بالضمادات، لم تستطع أن تتحمَّل إمكانية أن تفقد «ابنها». لم يكن لـ«يولانتا» أي سيطرة على خدمته في الجيش، لكن بإمكانها إبقاء الحقيقة مخفية. «إنه ابني، هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يحتاج إليها»، هكذا جاء قرارها، وحبست الفراشة.

(١٢)

يوسف، الابن

١٩٦٧

يفتح شابٌّ، طالبٌ في جامعة بيت لحم، بابَ قاعة المحاضرات ويندفع فجأة إلى الداخل في خلال محاضرة في الرياضيات ألقيها على طلابي عن التفاضل والتكامل. في ظروف عادية قد أُرحِّب بأن يقطع عليَّ أحدهم محاضرتي، لكن ليس اليوم... ليس حين ينفجر خبر كهذا:

«اليهود يقصفون مصر! وقعت الحرب!».

يصرخ ذلك الشاب ويخرج من القاعة راكضًا نحو الممر.

الحرب! يا لها من كلمة تفجِّر حملًا ثقيلًا من الفزع، حملتُه على ظهري منذ أن كنت في الخامسة. منذ عام ١٩٤٨، عندما تعرَّفت إلى الحرب وتعرَّفت هي إليَّ.

إنها كلمة تجمِّد الدم في عروقي.

مع استعادتي لتوازُني، كان طلابي قد اندفعوا في هياج مُخْلين قاعة تدريس وهم يهتفون: «الله أكبر!».

يجب أن أعود إلى جنين.

لقد ملأت الحشود أرصفة بيت لحم وشوارعها. أركض وأزاحم لأشقَّ طريقي نحو مكان السكن التابع لمسجد عمر بن الخطاب، حيث الغرفة الصغيرة التي استأجرتها.

تفتح الحاجة أُم نسيم الطاقة المتحرِّكة في البوَّابة الخشبية القديمة وتُغلقها بسرعة عندما تراني. بعد لحظات مسبوقة بصرير الأقفال الحديدية تنفتح وتتأرجح البوَّابة الثقيلة ببطء. ضخامة البوَّابة تجعل جسد أُم نسيم الصغير يتضاءل أكثر أمامها وهي تشير عليَّ بالدخول.

تقول لي، والخوف في عينيها:

ـ يوسف، يا وليدي، هل سمعت الأخبار؟

هذه هي المرَّة الأولى التي أسمعها تلفظ باسمي. كانت دائمًا تدعوني «يا وليدي» طوال سنتَيْ سكناي في بيت لحم. اعتادت أن تجلب لي ما يتبقَّى من الطعام يوميًّا عندما أعود من العمل، وتقول لي برفق:

ـ خذ يا وليدي، كلْ.. كلْ.

هناك شيء من الإحسان يحَلِّي كل ما تفعله أو تقوله الحاجَّة أُم نسيم. عندما تكون منتصبة تمامًا لا يزيد طولها عن المتر ونصف المتر. تسبح عادةً في ثوبها الفضفاض، لكنها اليوم تغرق في قلق وهمٍّ.

أقول لها وأنا أمرُّ مسرعًا بجانبها:

ـ لا بُد من عودتي إلى جنين يا حاجَّة.

تتبعُني وهي تمدُّ رقبتها إلى الأمام، ناظرة إلى الأرض حتى لا تتعثَّر ساقاها المخفيَّتان في ثوبها وهي تمشي أسرع من المعتاد.

تقول لي:

ـ الذهاب الآن خطير جدًّا يا وليدي. الرحلة طويلة، ولا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يحدث حتى في الساعة المقبلة. يقولون إنَّ الأردن وسوريا تحرَّكتا بالفعل للدفاع عن مصر، والعراق أيضًا في الطريق.

أردُّ عليها وأنا أجهِّز حقيبتي الصغيرة، بينما هي واقفة بالباب تنظر إليَّ:

ـ عائلتي بحاجة إليَّ.

تقول وهي تستدير على ساقيها المخفيَّتين:

ـ سأتَّصل بأبي ماهر ليأخذك. لن تجد سيارة أُجرة في هذه الفوضى.

إنها على حق. معظم السيارات تفرُّ إلى الأردن.

تظهر الحاجَّة أُم نسيم عند الباب وأنا أغادر المكان. تبدو جادة وآمرة:

ـ سوف يقوم أبو ماهر بتجهيز السيارة في خمس دقائق. إذا لم يتمكَّن لأي سبب من العودة إلى بيت لحم الليلة، فعليك أن تضمن مبيته مع عائلتك في جنين.

تقول لي وهي تضع رزمة من الدنانير في جيب قميصي:

ـ أمسكْ!

أنا بحاجة إلى هذه النقود. في جيبي أقل من عشرين فَلسًا، وليس بإمكاني دفع ثمن البنزين، لكن كبريائي تجعل يدي تتحرَّك لإعادة المال.

ـ وليدي! لن أسمح لك بأن تعصيني. على كلِّ حال، إنها من الإيجار عن فترة عدم سكناك عندي، ويمكنك أن تعيدها إليَّ عندما تعود. اذهب الآن، أبو ماهر في الانتظار. الله يحميكما أنتما الاثنين.

أُقبِّل رأسها من فوق حجابها، وأغادر.

(١٣)

شيطان «موشيه» الجميل
١٩٦٧

كان «دافيد» قد مكث في البيت أقل من ساعة عندما جاء «يرئيل»، صديقه من الثانوية، حاملًا له الأخبار عن سجين عربي مُعيَّن.

قال «يرئيل» وهو يبدأ ما بدت كأنها قصَّة طويلة لا علاقة لها بـ«دافيد»:

ـ ابن العاهرة، ينبغي أن يكون قد مات من الضرب. إنه صلب.

قاطعه «دافيد»:

ـ لماذا تخبرني بذلك؟ إنه أمر لا يهمُّني أبدًا.

بدأ «يرئيل» مرة أخرى:

ـ حسنًا، لقد جعلت الشباب يكفُّون عن ضربه...

ـ لا يهمُّني. هاك بعض الفطائر. ماما أعدَّتها.

لم تتزعزع نبرة «يرئيل» الجادَّة:

ـ «دافيد»، يجب أن تأتي وترى هذا العربي. كأنه... كأنه توأمك.

شعر «دافيد» برغبة في التسلية، فأجاب مداعبًا:

ـ أوه بالتأكيد!

ثم أضاف:

ـ أتقول لي إنني أبدو كواحد من الأغيار، يا مُتخلِّف؟!

ـ أعتقد أن عليك أن تأتي معي غدًا.

ثم انحنى ليزداد اقترابًا منه، وأضاف:

ـ إذا أزلنا الندبة يصبح وجهاكما... واحدًا.

بلع «دافيد» ريقه، وهو يبحث بجهد في وجه صديقه عن شيء يوحي بأنه يمزح، ثم قال بجدِّية ما:

ـ حسنًا، احضرْ لاصطحابي إلى هناك غدًا.

كان يوسف في زنزانة مع خمسة عشر آخرين، يجثم عاريًا على حافة الحياة، يداه مقيَّدتان خلف ظهره، ووجهه مُغطًّى، بينما كان «دافيد» و«يرئيل» يوقِّعان على الأوراق في مدخل سجن الرملة المكتظ الآن بالمعتقلين الذين جُمعوا عشوائيًّا بعد الحرب. قال «يرئيل» وهو يسحب الغطاء عن رأس يوسف:

ـ ها هو، مع الطلاء الأحمر على ذراعه. لقد وضعت عليه علامة حتى نتمكَّن من العثور عليه بسهولة.

نظر «دافيد» إلى الأسفل نحو رجل صبغت الجروحُ المتخثرة جسده بالأسود والأزرق. عيناه غائرتان في وجهه المنتفخ، وبدا ما بين فخذيه متورِّمًا. قال «دافيد» بغضب:

ـ لعنة الله عليك يا «يرئيل»! جعلتني أقطع كل هذه المسافة من أجل هذا؟

كانت إجازته من الجيش محدودة، وقد جرَّه «يرئيل» مسافةَ ساعة سفر على الأقل، ليأتي إلى السجن من أجل لا شيء.

ـ لعنة الله عليك أنت يا «دافيد»! لم يكن متورِّمًا هكذا أمس. صدِّقني يا «دافيد»، كنت أفضِّل أن أقضي يوم إجازتي في البيت مع صديقتي بدلًا من أن أكون هنا.

كانت لهجة «يرئيل» مقنعةً، ثم أضاف:

ـ افعل ما شئت، لكنني أعتقد أنَّ عليك أن تعود إلى هنا مرة أخرى. لديَّ بعض الأصدقاء هنا. سوف أرى هل بالإمكان أخذ هذا إلى العيادة. من المفترض أن تتحسَّن حالته في غضون أيام قليلة.

* * *

في عشية ذلك اليوم، وهو إلى مائدة عشاء العائلة، روى «دافيد» أحداث يومه الذي قضاه مع «يرئيل» في سجن الرملة. كان «موشيه» في المنزل، يتناول الطعام مع العائلة على غير عادته، وكانت «يولانتا» مشغولة في المطبخ، كعادتها. قال «دافيد» وهو يقضم قطعة من الخبز:

ـ يقول «يرئيل» إنني أبدو والعربيَّ كتوأمين.

تحطَّم طبقٌ على أرض المطبخ. استدار «دافيد» نحو مصدر الصوت فرأى «يولانتا» وقد تجمَّدت في مكانها.

ـ هل أنتِ بخير يا ماما؟

ـ لا أريدُكَ أن تعود إلى هذا السجن!

ـ لم أكن أخطِّط للعودة، لكن لماذا تبدين مستاءة هكذا؟

نظر «موشيه» إلى صحنه، خبط عليه بشوكة الطعام بعنف، نهض دافعًا كرسيَّه إلى الوراء، وقال:

ـ دعيه يذهب يا «يولانتا»، فعليه أن يذهب في وقت ما.

ثم انصرف هابطًا الدرج بتثاقل، سامحًا لبوَّابة الفناء أن تنغلق بعنف. انعطف في زاوية الشارع، ثم سار بخطًى سريعة ثلاثة شوارع جانبية أخرى، ودخل ملاذه... حانة، ثم نادى النادل:

ـ «بِن»، صُبَّ لي شرابي المعتاد مع الثلج.

كان «موشيه» يريد أن يُطلع «دافيد» على حكايته. لقد تضخَّمت الهدية التي أهداها لـ«يولانتا» سنةَ ١٩٤٨ لتصبح سرًّا يُثقِلُ كاهله. لم تكن تلك الحقيقة بالنسبة إليه فراشة، بل شيطانًا... شيطانًا يحمل الوجه الجميل لامرأة عربية جَلجل خَلخالُها على ساقيها، وقدَّمت له لحم الضأن؛ وكان ابناها، واحد على صدرها والآخر يمسك بساقيها، يتحركان معها، ولا يزال صوتها، وهي تندب صارخةً: «ابني! ابني!»، يدوِّي في رأس «موشيه».

لم يرغب في أي من هذا. كان يريد التمام والكمال: وطنًا، وزوجة، وأسرة. لقد قاتل لإنقاذ الشعب اليهودي، لكن الآن تلاحقه عمليات الاقتلاع والترحيل والقتل والاغتصاب المروِّعة التي فعلوها بالعرب. هو لا يقدر على مواجهة كل تلك الوجوه، كل تلك الأصوات. حياته تكاد تخلو من الراحة. السكينة المحدودة التي كان بإمكان قلبه أن يحصل عليها، كانت تلك التي يأتيه بها السلوان القادم مع الكأس؛ لذا كان يمشي كل يوم حتى زاوية الشارع، ثم يسير ثلاثة شوارع أخرى، ويدخل ملاذه لإسكات شياطينه، وإسكات نفسه.

* * *

بعد بضعة أيام، غادر «دافيد» مع «يرئيل»، ووقَّعا ليدخلا سجن الرملة في الصباح الباكر. كان صوت أحذيتهما العسكرية يتردَّد بين الجدران القذرة وهما يسيران نحو العيادة الطبية. بعد لحظات، وقف «دافيد» إلى جانب سرير يوسف. لقد خفَّ التورُّم في جسمه، وكان كيس محلول الأملاح يحقن السائل في ذراعه التي ما زالت معلَّمة بالطلاء الأحمر. لم يفصل بين جسديهما سوى خمسة عشر سنتيمترًا، وقد امتلأ هذا الفضاء الضيِّق بعشرين عامًا، وحرب، وديانتين، ومَحرَقة، ونكبة، ووالدتَين، ووالدَين، وندبة، وسرٍّ ذي جناحين يرفرفان ببطء على طريقة الفراشة.

أمسك «دافيد» بمعصم العربي قائلًا:

ـ قلبه ينبض.

انفتحت الجفون المنتفخة ببطء، وبدَّدت ندبةُ «دافيد» ضبابية آلام الجسد. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر ما يقارب العشرين ثانية.. عشرين دهرًا، تدلَّى فيها «دافيد» في شراك أسئلة كثيرة، وجميعها خاطئة: «أيمكن أن يكونوا قد ألقوا القبض خطأً على يهودي؛ يهودي تربطني به صلة ما؛ يهودي جاء إلى فلسطين من غير أن يعلم أنَّ أقاربه أيضًا قد نجوا؟». فتَّش في عقله عن إجابات، فاتحًا ومغلقًا أبواب ذكرياته لعله يجد دليلًا يرشده نحو مَنْ هو هذا السجين، أو ماذا يمكن أن يكون بالنسبة إليه ـ هذا، إن وُجد مثل هذا الدليل!

انحدرت دمعة من زاوية عين العربي:

ـ إسماعيل!!

ثم مدَّ يده نحو الجندي وسقط مغشيًّا عليه مرة أخرى، بينما انزلقت ذراعه على جانب السرير.

(١٤)

يوسف، الرجل

١٩٦٧

أتغيَّر..

عالمي يتغيَّر، بدءًا من اليوم الذي دعتني فيه الحاجَّة أُم نسيم باسمي. أعود إلى جنين، وعليَّ أن أشقَّ طريقي من خلال الحشد لكي أصل إلى بيتنا. أختي متصلِّبة من الخوف وتلتصق بالجدار. لا تستطيع أن تراني، وأنا أريد أن أذهب إليها. أريد أن أتحدَّث إليها، أن أسحبها نحوي كي أسحب الخوف بعيدًا عنها، لكنَّ أبي يسحبني بعيدًا، ويناولني سلاحًا أخرجه من مخبأ المؤن الصغير في حفرة المطبخ، لكي نحمي أنفسنا من الغضب المطبِق على الأرض. لأنني أحمل بندقية أول مرة في حياتي.

ـ لا بُد من أن أجد فاطمة.

تقول والدتي:

ـ لا يمكنك الذهاب.

ماما، وهي ضحية حرب، صاحبة خبرة، تجمع اللوازم وتحدِّد أماكن

الاختباء مع النساء الأخريات. وتقول لي إنَّ فاطمة قد ذهبت مع أمها وأخواتها إلى بيت عمِّها في رام الله، وإنها ستكون آمنة هناك.

في الأيام التالية، أجد نفسي مرة أخرى محاطًا بالنار والنفوس الفارَّة. بالخوف المحفوف بالغضب. أُطلق النار من سلاحي، ولكن في لحظة الحقيقة، عندما أواجه اختبار شجاعتي، لا أستطيع سلب الآخر حياته. أخشى انتهاك الحياة. أخاف أن أفقد حياتي فأسير مع الآخرين، وذراعي مرفوعة عاليًا باستسلام. أحد الجنود اليهود يشدُّ وجهي ويتفحَّصه بذهول، فتنتابني الحيرة من نظرة الارتياب في عينيه. لكنني الآن أُدرك أنها كانت نظرة تعني تعرُّفه إليَّ.

في ذلك الأسبوع أرى كيف يمكن كلماتٍ مألوفة أن تتفتَّت كأنها زجاج ينكسر، ثم يُعاد سبكه كالشياطين التي تنهش العقل بمخالبها. كلمة «عِبرة» لم تكن إلا حصاةً كنت قد سمعتها وردَّدتها مرات لا تُحصى من قبل. مثلًا، تغزو هذه الكلمة التافهة الحقيرة الأيام السعيدة من شبابي، وتسرق ذكريات لعب كرة القدم مع الشاب جمال الذي جعل منه اليهود «عِبرةً» أمام عينَيَّ. أشاهد الحياة تسيل نقطة نقطة من الجرح الذي أحدثته الرصاصة في جسد «العِبرة» ابن الستة عشر عامًا، وأستغرب كيف تتحوَّل الأشياء الضعيفة، حتى الكلمات، إلى أشياء شريرة، ومن دون رحمة، من أجل بلوغ السلطة، على الرغم من المنطق أو التاريخ.

(١٥)

يوسف، السجين
١٩٦٧

هنا، في هذا المكان الشديد الرطوبة، أعيش على حُب فاطمة وذكريات مستقبلنا المفترض. هذه هي الخيوط التي أتشبَّث بها كي أتنفَّس. جسدي مصعوق من ألوان التعذيب. لقد تجاوزتُ عتبة الألم إلى فقدان الحواس... إلى التخدير الكلي. لا أستطيع أن أرى؛ فعَيناي مغلقتان من الورم. أكمُن هنا، مقيَّدًا إلى نفسي بحبل، وأعتقد أنَّ شيئًا ما، أو كلَّ شيء فيَّ، قد تكسَّر. أعتقد أنني سأموت. أفكِّر في فاطمة، حبيبتي، وأستطيع أن أستنشق رائحة الياسمين في شعرها. أستطيع أن أرى رموشها ترفرف في الهواء، عندما تنساب عيناها اللعوبان الشقيَّتان نحوي في السوق المزدحمة. تتوازن الجرَّة تمامًا على رأسها، ولا تسقط حتى عندما تسحب بإغراءٍ وشاحها المطرز لتغطِّي شفتيها قبل أن تحوِّل نظرها عني. فجأة تدير رأسها إلى الوراء، ليتأكَّد لها أنني أشاهدها. أتحمَّس، وتجفُّ أنفاسي في فمي المفتوح. إنها تمشي من أجلي. الجرَّة على رأسها تتهادى معها في تناسُق يُذهلني. أتخيَّلها وهي ترقص والجرَّة متوازنة على رأسها، بينما تتمايل خاصرتاها ووركاها بعضها على بعض في عرض خاص لي وحدي. قرأت رسائلها مرة أخرى، وخطُّ يدها مرسوم على شريط من حرير في ذاكرتي:

حبيبي، أُمي وأخواتي ذاهبات إلى القدس مساء الأربعاء، وسيبقين هناك حتى يوم الجمعة. قابِلني يوم الخميس قبل صلاة الفجر في مكاننا المعتاد، أفتقدك بشكل لا يُطاق. ها قد مضى أسبوعان!

أسمع أصواتًا من حولي. الجنود يتحسَّسون النبض في عنقي. يسكبون المياه عليَّ، فأفيق. لا يهمُّ؛ أعود إلى فاطمة، إلى الرابط الذي يُبقي جسدي متعلِّقًا بأنفاسه.

أراها في بستان الخوخ تحت سماء الشرق الصافية، تحت جسدي الذي أخشى أن ينفجر من الرغبة. إنها تهمس على شفتيَّ: «عندما نتزوَّج يا يوسف.. ليس الآن!». لكنها تسمح لي بتذوق نعومتها... وأشعر بدَوران الأرض في قلبي. أقدِّم وعودًا صامتة إلى الله كي أستحق حبها، وأن أكون قادرًا على حمايتها إلى الأبد... وفجأة يُبعدني الجنود بقوَّة عن ذكريات فاطمة. يتحادثون وهم يغادرون المكان. بعد قليل ينقلونني إلى العيادة. أذهب إلى حيث يرسلونني، وأينما أكن أعُد إلى ذلك الحيِّز في ذهني حيث تسكن فاطمة.

لقد خفَّ التورُّم قليلًا، وشعاع المصباح الكهربائي يتسرَّب إلى داخل عينيَّ. أجد الضوء، أول مرة منذ الأزل، وهو يضيء ندبة من حياة أخرى. إنها الندبة التي رسمتُها بإهمالي على وجه أخي إسماعيل. لكنَّ إسماعيل ميت. هذا جندي يهودي، وجهه مثل وجهي تمامًا، لقد استولى على ندبة أخي. لا بُد أنني أحلم. أمدُّ يدي لألمسه، لكنه يبتعد إلى الوراء. لاحقًا، وليس الآن، أصبحت موقنًا أنه لم يكن حلمًا. إسماعيل حي. أخي يهودي، وهو جندي إسرائيلي.

أوَّاه، يا أبتِ، أين أنت؟ لقد فصلوا بيننا، هل أخذك اليهود أنت أيضًا؟ هل أنت في مكان ما في هذا السجن، في هذه العيادة؟

ما زلت على قيد الحياة. يعيدونني إلى بستان الخوخ حيث اكتشفت الفردوس في بشرة فاطمة. المخيم مدمَّر. فُرض على اللاجئين أن يصبحوا لاجئين مرة أخرى، ولا أستطيع أن أحتمل الترحيب بعودتي. علامات تركها التعذيب على جسدي، لا علاقة لها بالاحتفال. أرى جنودًا جاثمين على المراصد، ويمتلئ قلبي بكراهية لم أشعر بها من قبلُ، لكنني موقنٌ أنَّ هذه المرة لن تكون الأخيرة.

حولي كثير من الناس، وأنا أبحث في وجوههم عن فاطمة. تأتيني أُم جمال تبحث عن ابنها، ولا أستطيع أن أحتمل قلقها، ولا ألمَها مما تعلمه في أعماق قلبها. لا أستطيع أن أنظر في عينيها. أريدها أن تختفي بعيدًا عن ناظرَيَّ. لا أستطيع أن أقول لها إنَّ حياة جمال قد سُلبت كي تُعطي كلمةَ «عِبرة» معنًى... معنًى لا حقَّ لهذه الكلمة فيه. لا أستطيع أن أقول لها إنَّ الطفل الذي حملته وأطعمته وأحبَّته، مدفون داخل كلمة تأخذ شكلها الجديد من ابتسامة جمال وأذنيه الكبيرتين.

هناك إطلاق نار، والناس تتركنا في حالنا. تبدو أُمي متماسكة مع علمي أنها تبكي. تنساب دموعها وتسقط على الجانب الخطأ، على بئر لا قعر لها في داخلها. شقيقتي الصغرى آمال منكمشة في الركن. شيءٌ ما قد زحف إلى عينيها وجعلهما تغوصان في محجريهما. وعلى الرغم من أنني لا أرغب في شيء أكثر من رغبتي في العزلة، فإنَّ قوة غياب أبي تدفعني إلى الاقتراب من آمال، وهي تأتي وبها حاجة مُلحَّة إلى صدري، فتعصر جسدي المليء بالكدمات كما لو أنها ستتشبَّث به إلى الأبد.

لم يرَ أحد أبي منذ الحرب. تميل السماء على أضلاعي المكسورة وأنا أتصوَّر ما لا يمكن تصوُّره: ذلك الأب، الرجل الذي ظننت أنه لا يموت،

مات. أميل إلى الوراء، أخيرًا، على وسادة، فأسمع كلمات جلال الدين الرومي، متمتمًا إياها بهمس أنفاس أبي:

كيف يمكن أن يغادر العالمَ جزءٌ من هذا العالم؟
كيف يمكن أن يترك البللُ المياهَ؟
ما يجرحك، يباركك...
الظلام شمعتك.
حدودك مسعاك.

يمكنني شرح ذلك، لكنْ قد ينكسرُ
الزجاجُ الذي يغطِّي قلبك
ولا شيء يُصلِح ذلك.

هل تكفي هذه الكلمات
أو عليَّ أن أعصرَ منها أكثر؟

وفي ذهني أقول لأبي ما علِمته: إنَّ إسماعيلَ يهوديٌّ، وهو صهيوني يحارب من أجل إسرائيل.

(١٦)

الأَخَوان يلتقيان مجدَّدًا

١٩٦٧

كانوا خمسة جنود إسرائيليين: أربعة على الأرض، وواحد في برج المراقبة، في نقطة تفتيش بالقرب من قرية برطعة. كانوا يتناوبون على واجباتهم في مجموعات من اثنين، يراوغون ضجر عملهم الوحشي. كان «دافيد» يتسكَّع في الجيب العسكري عندما اقترب من الحاجز فلسطينيان، جهَّزا وثائقهما وتصاريحهما للتفتيش. كان كل شيء على ما يرام، لكنَّ الجندي عند البوَّابة أمرهما بالتنحِّي جانبًا، وأوقف الصف الطويل من الفلسطينيين الذين ينتظرون للعبور. كان الجندي أمريكيًّا بدينًا هاجر مع عائلته من نيويورك إلى إسرائيل.

أسند الجندي رأسه إلى سيارة الجيب، حيث كان «دافيد» يتناول قطعة من البطيخ، وصاح قائلًا بضحكة مجلجِلة:

ـ هيه! تعالَ وانظر إلى هذا العربي ابن الزانية. إنَّه يبدو كتوأمٍ لك!

تبدَّد ضجر «دافيد» من هول الفزع. رفرفت أجنحة فراشة «يولانتا» في بطنه، ونفخ شيطان «موشيه» في رقبته. السِّر الذي لا يعرفه، الذي لا يريد أن يعرفه، ها قد تبِعه وجعله يتردَّد قبل الخروج من الجيب.

بينما كان يتبع النيويوركي، أخمد «دافيد» رغبةً جامحة في ركل رئيسه ليرى هذا النيويوركي السمين متدحرجًا أسفل التل. إنه لا يريد أن يرى ذلك الفلسطيني مرة أخرى. لا يريد أن يرى مَن يحمل وجهَه نفسَه، حتى لو كان بلا ندبة.

اقترب «دافيد» من الفلسطيني مسترِقًا النظر من تحت حافة خوذته، وقف الرجلان وقد جمعهما: تطابُق زوايا فكَّيهما، غمَّازتان متشابهتان في ذقنيهما، وامتلاء متساوٍ في الشفاه.

حدَّق كلٌّ منهما إلى الآخر متفجِّرًا بالأسئلة: «مَن أنت أيها العربي القذر؟ وكيف أصبحت يهوديًّا، يا إسماعيل؟»، وفي الهواء يحلِّق سِرٌّ لا يريد «دافيد» أن يعرفه.

بأسفٍ يليق بالمأساة، سأله يوسف مستعملًا المفردات العبرية القليلة التي يعرفها، ومكرِّرًا ما قال بالعربية:

ـ هل اسمك إسماعيل؟

ضحك النيويوركي الذي صار إسرائيليًّا.

شَوَّشت الرفرفةُ العنيفة لأجنحة الفراشات رؤية «دافيد»، ونفخت الشياطين في أذنيه.

صفع «دافيد» العربيَّ، ثم أخذ يضربه بعقِب بندقيَّته. لم يعلم لماذا، لكنه لم يستطع أن يكفَّ عن الضرب. ركل خاصرة العربي مرَّات. فعل ذلك مرارًا وتكرارًا حتى غاب ذلك العربي ـ ذلك الوجه ـ عن الوعي. صرخ صديقه العربي متوسِّلًا:

ـ أرجوك، أرجوك، كُفَّ عن ذلك! نحن لسنا إرهابيين. إنه لم يفعل شيئًا. تصاريحنا سارية المفعول. أرجوك!

فردَّ النيويوركي:

ـ حسنًا، حسنًا.

ودفع «دافيد» جانبًا.

ـ لا أريد أن أضطر إلى ملء جميع النماذج المطلوبة، للتبليغ عن حالة وفاة عند نقطة التفتيش.

تمدَّد يوسف على الأرض نازفًا. أمر الجندي السمين:

ـ خذه معك وارجعا من حيث جئتما. الآن!

ابتعد «دافيد» وهو يلهث.

(١٧)

يوسف المُقاتِل

١٩٦٨

أخشى أن أكون قد أصبحت عاجزًا جنسيًّا. منذ أن ضُربت على أعضائي التناسلية، أصبحت أعتقد أنني عَنين.

التبوُّل يؤلم! لكنني أتألَّم أكثر عندما أرى فاطمة؛ تمر قرب المرآب، أختبئ تحت غطاء محرك سيارة، أتظاهر بأنني لم ألاحظها، بينما يعلم جميع أصدقائي أن لا علاقة لفاطمة في جِنين بِسواي. يشاهدونني وأنا أختبئ، وهم بدورهم يختبئون من الأسى الذي يرونه على وجهها!

شقيقتي الصغيرة، آمال، تبحث عني أيضًا. أراها مع هدى، تحدِّقان إليَّ من الطرف الآخر للشارع، وأنا أعلم أنها تنتظر مني أن أملأ الفراغ الذي تركه أبي!

الجنود يبحثون عني!

ماما تتلاشى وتضيع!

أنا رجل محطَّم، ليس بي أي نفع لمن أُحِب. إذا بقيت هنا سأموت، لكنَّ شيئًا ما يبقى متَّقدًا في داخلي، شيئًا يرفض أن ينكسر، يُصرُّ على القتال.

(١٨)

ما وراء الصف الأول من الأشجار

١٩٦٧ - ١٩٦٨

مثلما فعلت النكبة بحسن، ألقت النكسة ابنه يوسف في المصير المجهول عينه. أطبقت مخالب الاحتلال على عنقه بلا نية للتراخي. تحكَّم جنود إسرائيل في حياة أهل الضفة الغربية. مَن يُسمح له أو لا يُسمح له بالمرور، بات أمرًا متروكًا لمزاجهم، وليس وفقًا لأي بروتوكول. مَن سيُصفع ومَن لا يُصفع، كان قرارًا يتَّخذونه على هواهم. ومَن سيُجبرونه على التعرِّي ومَن سيتركونه، كان قرارًا يتَّخذونه في اللحظة الحاضرة.

كبر يوسف وكبر شبهُه لأبيه؛ مزاجه الهادئ كأنه همسة من إرث حسن. وجد ملجأه في رحم عزلة تتنفَّس الأفكار. في ظل صعوبة الحركة تحت الاحتلال، لم يعد ميسورًا ليوسف السفرُ إلى عمله، فاضطر إلى التخلِّي عن منصبه في جامعة بيت لحم، وقبول وظيفة للتدريس في مدرسة البنين التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين، حيث عمل والده بوَّابًا.

للسبب نفسه، كان يوسف غير قادر على الهروب إلى التلال عندما يرغب. عوضًا عن ذلك، كان يستغل الطاقة المتبقِّية له في تَعداد ساعات العمل في

المرآب الذي ورثه من والده. لم يمر وقت طويل حتى صار يوسف يقضي معظم ساعات النهار بعيدًا عن أمه وعن آمال. كان ممكنًا العثور عليه في مقهى بيت جواد، ينفخ في النارجيلة أحيانًا، يتسلَّى مع الأصدقاء في لعب الطاولة أو الورق. ولكن كلَّ يوم جمعة، بعد الصلاة، تحت ضغط نداء العزلة، وإغواء جمال الطبيعة، ودافِع العادة القوي، كان يجازف بالتعرض للذل والتأخيرات التي لا نهاية لها على نقاط التفتيش، ويغامر في الذهاب إلى التلال، كما كان يفعل مع حسن منذ زمن أبعد مما في وسع يوسف أن يتذكَّره. هناك، تحت ظلال الأشجار، كان يوسف يقرأ بتحريض ذاتي مستمر لتكريم ذكرى أبيه. وكما واصلت آمال القراءة عند الفجر، مثلما اعتادت أن تفعل مع والدها، كذلك ظل يوسف يعود إلى المراعي برفقة كتاب؛ كأنهما يواجهان العجز بالمثابرة على استمرارية العادات، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصدر قوَّتهما ـ بابا، الوالد.

* * *

في غضون ستة أشهر، كان يوسف قد تعرَّض للتعذيب والضرب العشوائي الذي ترك آثارًا على كل جزء من جسده تقريبًا. أجبروه على التعرِّي أمام النساء وأمام طلابه، وأرغموه على تقبيل قدمَي جندي كان قد هدَّد بضرب فتًى صغير إذا لم يركع يوسف. معظم الرجال عانوا مثل هذه المعاملة؛ معظمهم انكسر، ومعظمهم عاد من هذا الذل بمزاج عنيف استهدف زوجاتهم أو أخواتهم أو أطفالهم.

أمَّا يوسف فقد ابتلع كل شيء كما كانت داليا تفعل. كبتَ الألم وأدْمجه في العجز. كان الصمت يستهلك كوخهم الصغير في جنين؛ وكلاهما، يوسف وآمال، سيتذكَّران في زمن لاحقٍ تلك الفترة بطعم فراغ كثيف يكاد يُلمَس باليدين.

* * *

وجدت الصلابة تربة خصبة في قلوب الفلسطينيين، وبُذرت بذور المقاومة ونَمَتْ تحت جلودهم. أصبحت القدرة على الاحتمال السمةَ المميزة لمجتمع اللاجئين، لكنهم دفعوا الثمن غاليًا... لقد ضحُّوا برقَّة الإحساس. تعلَّموا أن يحتفلوا بالاستشهاد، فالاستشهاد وحده هو الذي يقدِّم الحرية. في الموت فقط يصبحون محصَّنين أمام إسرائيل. أصبح الاستشهاد هو التحدي النهائي للاحتلال الإسرائيلي. رسَخ فنُّ البقاء لديهم في عقيدتهم بأنْ: «لا تسمحْ لهم أبدًا بأن يعلموا أنهم قادرون على إيذائك!».

لكنْ لا بُد للقلب أن يحزن. كان الألم يظهر أحيانًا في شكل فرح، وغالبًا كان من الصعب على الأجيال التي وُلدت في المخيمات، معرفة الفرق بينهما. كان الحزن يجد مرقدَه على فِراشٍ من الجثث. جاء الموت ليشابه الحياة، والحياة لتشبه الموت. وفي وقت ما في شبابها، تطلَّعت آمال إلى الاستشهاد.

يُمكنني شرُح ذلك، لكنْ قد ينكسرُ الزجاجُ

الذي يغطِّي قلبَك

ولا شيءَ يُصلِح ذلك.

قلَّما انضم يوسف إلى الهتافات الغاضبة في المسيرات الجنائزية. لم يحتفل بالاستشهاد، كما أنه لم يُظهر الحزن. تحت غطاء رقيق من اللامبالاة، كان هناك شوق مؤلم إلى الحياة يغلي في أعماقه.

كانت آمال تعشقه، تتوق إلى أن تكون جزءًا من يومه. أحيانًا كانت تجلس مع هدى في الجهة الأخرى من الشارع لمشاهدة شقيقها وهو يعمل في المرآب، آملة أن يدعوها للنظر تحت أغطية السيارات. تتوق إلى مشاركته حياته؛ ليعيد إليها الإحساس بالأسرة، ليعانقها كما فعل في ذلك اليوم الأربعين بعد الحرب.

كان يوسف يلْمحها أحيانًا، لكنه لم يكن يدعوها للاقتراب منه.

لم يعد يوسف وآمال يتحادثان إلا لمامًا. بعد حادثة برطعة، عندما قام «دافيد» بضربه حتى وقع على الأرض، أغلق يوسف أبواب قلبه. ما زالت تأتيه رسائل فاطمة، ولكن من دون أن تتلقَّى أيَّ ردٍّ منه.

بينما كان يوسف يغلِّف نفسه داخل قرار يغلي بهدوء في أحشائه، كانت أُمه تجول في دنيا عقلها المزدحمة وهي منغمسة في أحاديثها المشوَّشة مع الأشباح. وكانت أُم عبد الله رفيقةَ داليا المواظبة. تجلسان طوال النهار على الشرفة التي مالت تحت ثقلهما وتحيكان الصوف. كثيرًا ما تعجَّبت آمال وهدى من العجوزين، وتساءلتا هل كانتا في غاية الشجاعة، أو تجهلان الوضع المتهالك للشرفة؛ وقد بُنيت أساسًا للزينة فقط، وتكاد لا تتَّسع لأكثر من شخصين. فيما عدا ذلك، لم تُعر آمالُ آنذاك أُم عبد الله اهتمامًا يُذكر. لكن لاحقًا، عندما كانت تعود بذاكرتها إلى تلك السنوات، كانت تكتشف أنها قد أحبَّت تلك المرأة التي أظهرت هذا الولاء الراسخ لأمِّها. حتى عندما كانت داليا في أكثر حالاتها اضطرابًا، كانت أُم عبد الله تستمع إلى حديثها المشوَّش، وتُرجعها برفق إلى كرسي الحياكة كلما شرعت في تيهها، أو هامت على وجهها.

عادت هدى للعيش مع والدتها وشقيقها بعد الحرب بوقت قصير، لكنها استمرَّت هي وآمال في قضاء أيامهما معًا، فهذا حافظ على تواصُلهما.

ظلَّت الفتاتان تدبِّران شؤونهما بنفسَيهما كما كانتا تفعلان من قبلُ، لكنَّ آمال أصبحت الآن ملزمة أيضًا بضمان إدارة سليمة للمنزل. لقد تلوَّنت حياتها قبل الحرب بحُب والدها عند الفجر، وتربية أُمها الحكيمة، وبقِصَّة حب يوسف السِّرية لفاطمة. أما الآن، فقد تبدَّلت هذه الألوان وحلَّ محلَّها

بأسُ الأخضر العسكري وشحوب الاستنزاف. كان الجيران يتطلَّعون إليها بشفقة ويهمسون متسائلين عن مصيرها:

ـ إنها في سن الزواج تقريبًا. هذا أمر جيد.

ـ نعم، ستجد قريبًا رجلًا طيِّبًا يرعاها، إن شاء الله.

* * *

جسد آمال نما وتفتَّحت براعم أنوثتها، إلا أنها كانت لا تزال طفلةً ابنة الثني عشرة سنة، في ذلك اليوم البارد من شهر كانون الثاني (يناير)، يوم نضجت الحمضيَّات وتمَّ تقليم كروم العنب، يوم عاد يوسف إلى البيت فجأة بعد صلاة الجمعة.

فرِحت آمال بالمفاجأة. أعدَّت طعام الغداء وبدأت تفرش الأرض بالصحف القديمة، كي يتناولوا عليها وجبة الغداء. أبهجها احتمال قضاء بعض الوقت مع شقيقها البعيد المنال، فحرصت على استعراض أفضل مهاراتها في الطهي. داليا أيضًا بدت من دون أشباحها، واعتقدت آمال أنَّ كل شيء سيعود كما كان. ستعود العائلة التي كانت فيما مضى. سألها يوسف، وهو يحمل ظرفًا مغلقًا:

ـ آمال، هل يُمكنك توصيل هذا إلى فاطمة؟

سألته بإحباط:

ـ ألن تتغدَّى معنا؟

شعر يوسف بخيبة أملها، وتظاهر بأنه يتابع «الرائحة اللذيذة» لطبخها، حتى انتهى إلى جوار شقيقته. تمتمَ وفمُه مليء بطعامها:

ـ متى كبرتِ إلى هذا الحدِّ يا آمال؟

ـ لقد أصبحت في الثالثة عشرة تقريبًا.

توقَّف يوسف متعجِّبًا من سرعة مرور الزمن، التفت إليها ليرى فيها الدليل المادي على مُضي زمن لا يعود. تأمَّل أخته الصغيرة فأحس بلسعة ذنب لقلَّة اهتمامه بها منذ الحرب. قال لها:

ـ أنتِ جميلة.

تلك الكلمة المثالية الرائعة الوقع على مسمعها، وجدت صداها في الصورة المشوَّشة المرتبكة التي كوَّنتها عن نفسها. أشرقت الابتسامة على محياها.

أكل ثلاثتُهم طبق المقلوبة معًا، وناولوا بعضهم بعضًا سلَطة الخيار مع اللبن، والحِمَّص مع حَبِّ الصنوبر المحمَّص، والبصل المحمَّر. كانت آمال سعيدة.

أنعشت الوجبة وجهَ الأم، وجلبت ابتساماتها وضحكاتها؛ كأن شيئًا داعبها في مكان ما من عالمها الخفي، بينما تناغم يوسف وآمال من دون هدف في جوٍّ مُسالم من الضحك والابتسامات، واضعَين تلك الدقائق معًا في علبة الذكريات الجميلة، ذكرى آخر وجبة طعام لهما مع أُمهما.

بعد الغداء، أخذت آمال ظرف يوسف وركضت خارجة تبحث عن هدى. سارعت البنتان إلى تنفيذ مهمَّتهما المكوكية المعهودة لتسليم رسائل حب يوسف وفاطمة. «تمامًا مثل الأيام الخوالي»، قالت هدى:

ـ نعم، دعينا نرَ في طريق عودتنا هل منزل وردة ما زال موجودًا.

تمامًا مثل الأيام الخوالي.

وقعت عينا فاطمة على آمال وهدى من نافذة منزلها، فانتظرت بفارغ الصبر الرسالة من حبيبها. أشرقت غمَّازتا خدَّيها بابتسامة عريضة وهي تأخذ الرسالة، بينما سرت رعشة من التشوُّق والإثارة في جسدها من رأسها إلى أخمصيها. قالت وهي تمزِّق طرف الظرف وتسير نحو الغرفة الخلفية:

ـ تفضَّلن يا بنات، هاك البسكويت والحلويات، ولديَّ بعض الشاي الساخن على الموقد.

أكلت البنتان بعض البسكويت وهما تنتظران في الغرفة التي فيها مرآة كبيرة مثبَّتة إلى الحائط، وتعكس صورة آمال كاملةً. لم يسبق لها أن رأت جسدها كله دفعة واحدة بهذه الطريقة. كان لديهم في جنين مرآة واحدة صغيرة فوق المغسلة في الحمَّام. في منزل فاطمة، شاهدت آمال أول مرة براعم صدرها التي كانت تؤلمها منذ بضعة أسابيع. وقفت أمام المرآة وتتبَّعت بيدَيها تلك العلامات الأنثوية التي تدوَّرت وبرزت وانتفخت تحت قماش قميصها.

وهي تقضم الحلويات في مطبخ فاطمة، نظرت هدى إلى يدَي آمال الآثمتين منقبضتين على نَهدَيها، وسألت:

ـ ماذا تفعلين؟

قالت آمال، في محاولة فاشلة لتبدو نبرتها عادية:

ـ صدري يؤلمني.

ردَّت هدى بعدم اكتراث:

ـ العمَّة نادية تقول إنَّ هذا ما يحدث حين يشرع صدر الفتاة في النمو.

وأضافت وهي تتفقَّد نفسها متحمِّسة متأمِّلة:

ـ أودُّ لو أنَّ صدري يبدأ بالنمو في وقت قريب.

ـ لماذا؟

ـ ألا يعجبانك؟

ـ إنهما يؤلمانني.

قالت هدى بنبرة اتهام:

ـ أنا أعلم أنهما يعجبانك.

ـ وما الغضاضة في ذلك؟

ـ هل يمكنني أن ألمسهما؟

ـ لا!

كسر نحيبُ فاطمة من الغرفة المجاورة الصمتَ الذي تلا حديث الفتاتين. قالت هدى:

ـ فاطمة تبكي.

ـ أسمع ذلك!

سألتها آمال، وهي تدفع الباب لفتحه:

ـ فاطمة، هل أنت بخير؟

رفعت فاطمة، المنحنية تحت الدشداشة الزرقاء الشاحبة، وجهها من بين كفَّيها. كان منظرها رهيبًا. مسحت أنفها محاوِلة تَمالُك نفسِها، لكنْ بلا جدوى، فقد ظلَّ شعرها عالقًا على وجنتيها الرطبتين وبدت عيناها حمراوين ومنتفختين.

كانت الرسالة متجعِّدة في يدها. قالت بصوت متألِّم خافت جدًّا:

ـ آمال، عزيزتي، لِمَ لا تذهبان أنتِ وهدى إلى المنزل الآن؟

سلكت آمال وهدى المسار المعتاد الذي يعرج على طول تلال شمال فلسطين. وجدتا بيت وردة القديم سليمًا، لكنَّ وردة لم تكن هناك.

شعرتا بلدغة فقدان الدُّمية ذات الذراع الواحدة، طفلتهما، لكنْ لم تذكر أيٌّ منهما ذلك. حزن قلباهما الفتيَّان على انفراد؛ إذ بدا لهما أنَّ البكاء على دُمية فعلٌ طفولي، وخصوصًا بعد دفن عائشة، الطفلة الحقيقية التي كانت تبكي دموعًا حقيقية وتنزف دمًا حقيقيًّا. ولكن فقدان وردة كان أشد إيلامًا، وكان ذلك سرًّا أخفته كلٌّ عن الأخرى وهما تبتعدان عن بيت وردة.

كانت الأشجار قد فقدت أوراقها مع قدوم برد الشتاء، ووقف الخشب الفضي لأشجار الفواكه المختلفة عاريًا، فبدت الأشجار كأيادٍ عملاقة عتيقة، تمتد ملتفَّة وهادرة ونابعة من الأرض لتحمي الزمن. ووقفت أشجار الزيتون الدائمة الخضرة تنتظر برضا وصبر أن تنضج ثمارها، وأن يحين قطافُها. توزَّعت منازل، عمرُ بعضها قرون، على سفوح التلال، تعانق أحجارها الكروم الكثيفة، ويتنقَّل بينها الرعاة مع قطعانهم.

بعد بضع سنوات، كانت آمال تتذكَّر ذلك الجمال الأخَّاذ الذي كانت تعتبره من المسلَّمات، ولم تكن تتخيَّل أنَّ شيئًا بتلك الروعة والجلال، يمكن مسحه من الوجود، أو يمكن أن يرغب أيُّ شخص في القضاء عليه.

في ذلك الوقت، كانت معظم أراضي الضفة الغربية لا تزال مكسوَّة باللون الأخضر، وعظمة الطبيعة التي تنحني للرياح ترتجف من البرد، وتزدهر مع الشمس. لكن كل هذا قد تغيَّر. عمليات هدم ومصادرة وتجريف تجري، وفي كل مرة يُهدم منزل أو تُجرَّف مزرعة أو تختفي قرية بكاملها. إنها عملية

الاستيلاء المتواصل على الأرض بما عليها ومَن عليها. «إمبريالية بوصة بوصة»، كما كان يسمِّيها الحاج سالم. المسار الذي كانت الفتاتان تسلكانه حاملتَين رسائل الحب بين يوسف وفاطمة، تحوَّل اليوم إلى مساحات جُردٍ، تتناثر فيها أنقاض البيوت القديمة، والإطارات المحروقة، والرصاصات الفارغة، وشُجيرات الزيتون المكافِحة.

كانت هدى تتساءل وهي قلقة على فاطمة:

ـ ما الذي جاء في الرسالة فجعلها تبكي؟

كانت مشيتهما عند العودة سريعة ونشطة، على الأقل إلى أن وصلتا حاجز نقطة التفتيش.

هناك، سألهما جندي نحيل:

ـ إلى أين أنتما ذاهبتان؟

أجابت هدى ببساطة:

ـ إلى جنين.

قالت آمال محتقرةً خنوعها:

ـ إلى جنين.

قدَّمتا الأوراق والبطاقات التي كانتا قد تلقَّتا تعليمات بحملها منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . كانت هذه وثائق ثبوتية وبطاقات هُوية ملوَّنة، بحيث يرمز كل لون إلى هوية حاملها الدينية، أو إلى المنطقة التي يعيش فيها، فضلًا عن أوراق مختلفة أخرى تحدِّد السماح بالتنقُّل في اتجاه الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب. كان مطلوبًا الحصول على إذن خاص لتلقِّي العلاج الطبي،

أو للحركة التجارية، أو للمرور إلى الجامعة، بحيث يحمل الفرد أكوامًا من الأوراق باللون الوردي والأصفر والأخضر وغيرها من الألوان؛ أوراقٍ متجعِّدة وبالية من العرق، ومن الأصابع التي تفتحها باستمرار ثم تطويها مجدَّدًا بعد كل عملية تفتيش.

كان في الجانب الآخر من الحاجز جندي آخر يحقِّق مع أسامة جمال؛ صبيٌّ في الرابعة عشرة من العمر، يسكن في مدينة جنين، وليس في مخيم اللاجئين. وقد امتلك والده فرنًا في المدينة تفوح منه رائحة الخبز الطازج والمناقيش والفطائر، فتجذب المارَّة ليتجمَّعوا حوله بالعشرات.

لقد دفع أحد الجنود أسامة إلى الأرض وركله بوحشية، لكنَّ جنديًّا آخر أخذ أسامة بذراعه وساعده كي يقف على قدميه، قبل أن يوجه بعض الكلمات الغاضبة بالعبرية إلى الجندي الأول. في حين تشاجر الجنديان، ابتعد أسامة بضلع مكسورة وذاتٍ مسحوقة، وهو يدعو الله ألا تكون الفتاتان من جنين قد لاحظتا ما حصل له.

حالما ابتعدوا عن أنظار الجنود، عرضت آمال وهدى المساعدة على أسامة، لكنه رفض. أخيرًا تغلَّب الألم على اعتداده بالنَّفس، فتخلَّى عن حقائبه، وأسند جسمه إلى أكتافهما بعد أن وعدتاه بألا تكشفا عن قبوله المساعدة من فتيات. سأل:

ـ أنتِ أخت يوسف أبي الهيجا، أليس كذلك؟

أجابت آمال بسعادة غامرة لأنه تحدَّث إليها:

ـ بلى.

وأضافت بشوق:

ـ أنفك ينزف.

أخرجت هدى منديلًا من الكومة التي تحتفظ بها في جيوبها بشكل دائم؛ إذ كما كانت تقول لآمال مرارًا: «المرء لا يعرف متى سيحتاج إلى منديل».

لم تقترب آمال يومًا من صبي إلى هذا الحد، عدا يوسف. تورَّدت وجْنتاها إثارةً وخجلًا بسبب هذا القرب الشديد منه، وعقد الحياءُ لسانَها. تحمَّلت ثقل ذراعه وهي ممتدة على كتفها، تدفع رأسها إلى الأمام ونظرُها إلى الأسفل، بينما رفرف شيء ما في داخلها. ساروا صامتين، وعلى وتيرة تنفُّس أسامة المتحشرِج، بينما ثبَّتت آمال نظرها إلى تجاعيد قماش سرواله. كانت الأرض تتحرك تحت خطواتهم. سألهما أسامة بكلمات متقطِّعة وممطوطة من الألم:

ـ هل تشتريان الخبز عادةً من دكان والدي؟

رفعت آمال رأسها، لكنه لم يكن ينظر إليها، فرأت بوضوح أن عدم إدراك هدى لاهتمامه بها، كان يضاهي عدم اهتمامه هو بآمال.

ـ لا تتكلَّم، ستزيد الأمر سوءًا.

ردَّت هدى بحزم غير معهود لا يدل على ثقة بل على إرادة، وتبخَّر خجل آمال ليحل محلَّه الشعور بالحسد.

في البيت، وجدت آمالُ يوسفَ ممسكًا يد أمهما، وهو يتحدَّث إلى الهواء الساكن المعلَّق فوق عينيها الشاردتين:

ـ هل نحن بحاجة إلى الخبز؟ في وسعي الذهاب وإحضار بعض منه.

قاطعَت، غير مبالية بالتجهُّم الملموس في الغرفة، راغبة فقط في إيجاد ذريعة للوجود مع أسامة مرة أخرى. قال يوسف:

ـ آمال، أنا بحاجة إلى التحدُّث إليك، ولكن ليس الآن. هل يمكنك البقاء مع ماما قليلًا؟ سأعود على الفور.

وخرج. مع نفاد صبرها لتعرف ما الذي يريد يوسف أن يقولَه لها، ولماذا كانت فاطمة تبكي، نظرت آمال بقسوة إلى أُمها، وجلست إلى جانبها بمزاج حاقد.

استدارت داليا نحو ابنتها. طافت برقَّة فوق ستار اللاوعي، لمست شعر آمال بشفتيها، وأخيرًا، كأُم قالت:

ـ سيرحل يوسف!

ثم انسحبت بسلاسة إلى أعماق نفسها. «عودي يا أُمي!» ناداها قلب آمال، لكنَّ ماما كانت قد انسحبت إلى أعماق خيالها.

عرفت آمال أنَّ ما قالته ماما كان صحيحًا. يوسف يعتزم الرحيل. خشيت أن يكون مطارَدًا من قبل الإسرائيليين؛ فكثير من الرجال ذهبوا بعيدًا وهم مقيَّدون ومعصوبو العيون، ثم لم يرهم أحد مرة أخرى، وابتلعهم ذلك المكان الذي لا يظهر فيه للعِيان إلا الخاضعون والمنكسرون. شعرت باقتراب شيء مُرعب. شيء لم تستطع حتى الآن رؤيته أو إدراكه، مثل النفس العفن لوحش مختبئ. جعلها ذلك ترتعد، وانطلقت ساقاها في خطوات بلا هدف. ركضت، غير عاقلةٍ إلى أين تذهب، أو حتى لماذا كانت تركض.

هدى. أين هي؟

صاحت آمال تحت نافذة صديقتها:

ـ هدى ى ى ى ى!

أطلَّ رأس هدى من النافذة ما يكفي من الوقت لتقول:

ـ ليس الآن. سأمرُّ بك في وقت لاحق. لا أستطيع التحدث الآن. إلى اللقاء.

يا الله، ما الذي يحدث! ركضت آمال، غير قادرة على السيطرة على انطلاق ساقيها، والبراعم الغضَّة على صدرها تعذِّبها مع كل خطوة. الدموع تلسع عينيها، البرد يحرق رئتيها، حتى سقطت على ركبتيها مُنهكة في حقل الخوخ، المكان الذي كان يومًا يعجُّ بالنشاط في حصاد موسم الربيع، وكان المكان السِّري الذي يجتمع فيه العشَّاق الشباب في فصل الشتاء للاختباء من عيون أهلهم اليقظة. لقد أصبح الآن خارجَ الحدود بالنسبة إلى العرب، مجالًا آخر لا تتجرَّأ أن تتجاوزه.

ومع ذلك، ها هي هناك، وراء الصف الأول من الأشجار...

(١٩)

يوسف يرحل

١٩٦٨

هأنذا هناك، وراء الصف الأول من الأشجار في بستان الخوخ، وكان الظلام يزحف. كان الجو باردًا، وكان شعوري بالوحدة كبيرًا حتى إنني لم أشعر بالخوف. ثنيت رجلَيَّ وتقوقعت داخل تعبي متخيِّلة نفسي في حضن أسامة. لقد نمت على هذا النحو، منصهرة في ظلمة السماء المليئة بالنجوم، واستيقظت قبل الفجر فوق طبقة رقيقة من الضباب تحوم مقتربةً من الأرض.

لا أذكر كيف أثَّر المشهد الذي فتحت عيني عليه في نفسي، لكنْ عندما أستحضر الآن ذلك المنظر الطبيعي في ذلك الصباح النقي تتقطَّع أنفاسي. كانت هذه الخلفية الخلابة لحياة والديَّ ـ كيلو مترات كثيرة من المراعي تمتد كالسجاد في الوديان وسط أمواج حقول الزيتون. أشجار مثل الأجداد، عمرها مئات السنين، تنحدر وتنحني متجعِّدة، وأذرعها الثقيلة تمتد في كل الاتجاهات، كما لو كانت في صلاة. هؤلاء الذين أخذوا تلك الأرض المجيدة التي كانت تتلألأ بالخضار، إلى جانب المياه الزرق للبحر المتوسِّط منذ ما قبل زمن موسى، يدَّعون أنها كانت كالصحراء، وأنهم هم

الذين جعلوها «تزدهر وتخضرُّ». سكبت شمسٌ رائعة ضوءها على التلال مثل الطلاء الأصفر، وأضاءت البيوت العربية القديمة التي تقاوم مخاطر الهجر. لم تلُح أيُّ روح أخرى في الأفق، وظننت حينها أنني فهمت الإغراء الهائل للعزلة.

من دون تفكير، تحسَّست نهديَّ الجديدين. إحساسي بالفضول أغراني بمداعبتهما، وفي ذهني أفكار أثارت ظلالًا من الذنب. ذكَّرني شعوري بالخجل بالكتاب المقدس والخطيئة والعقاب، لكنني لا أبالي بأي شيء غير يدي وهي تنساب داخل ثوبي بطريقة لا يمكنني مقاومتها. وهناك، تحت شجرة في بستان الخوخ المحظور، اكتشفت الملذَّات السِّرية للأنوثة.

ظهرت يدي مذنبة وملطَّخة بالدماء، تبرهن على وصول الدم الشهري الغامض الذي طال انتظاره. شممت رائحتي، بل تذوَّقت طعم دمي، واعتقدت أنني قد تحوَّلت بين عشية وضحاها إلى امرأة، وأنَّ عالمي قد تغيَّر بطريقة سحرية. وقفت على قدميَّ، وبدأت العودة إلى جنين، وأنا على ثقة أنَّ يوسف لم يغادر حقًّا، وأنَّ كل هذا كان مجرَّد سوء تفاهم فقط.

قطع تخيُّلاتي صوت يتكلم بلغة عربية ركيكة:

ـ توقَّفي!

إنه جندي!

رفعتُ عيني المتوسِّلة نحو الشمس، لكن ابتسامتها المشرقة وغير المبالية أعمت رؤيتي ببقع سودٍ، بينما يتم ضبطي في منطقة محظورة. وينقضُّ عليَّ الجنود كالضباع. في البداية واحد، ثم اثنان آخران، وأنا أرتعد من الخوف. بدأوا استجوابي، أسئلة لا نهاية لها، وهم يمرِّرون

بينهم كومة من الأوراق تثبت هويَّتي. ثنى أحد الجنود الأوراق بعناية، وبأدب وشفقة أعادها إليَّ، وقال:

- عودي إلى بيتك.

لعدم ثقتي بهم ابتعدت عنهم بخطوات متثاقلة ومتشكِّكة، إلى أن أطلقَت غريزةٌ بدائية في ساقيَّ الخائرتين قفزةً في اتجاه البيت. وأنا أركض، شعرت بطنين أشعل نارًا في أذنيَّ؛ إذ مرَّ شيء فظيع على بُعد بوصة من رأسي. لم شعرت أنَّ بطني تشنَّجت، وأنَّ أنفاسي تتسارع بشكل صاخب ومُرعب، وركبتيَّ تضعفان. توقَّفتُ على مشارف جنين، ليس بعيدًا عن المكان الذي طلب فيه أسامة بالأمس أن نتوقَّف لنستريح. في اللحظة نفسها كنت قد لمست ساقي اليمنى ونظرت إليها، فإذا هي مبتلَّة ودافئة بشكل غريب. مع إدراكي الأوَّلي أنَّ دمي يسيل، مرَّ بخاطري الفيض الكبير من دماء الحيض. انتقلت يدي إلى مكان المغص في خاصرتي، وغرقت أصابعي في وحل بشع، انثنت ركبتي، وانتفخت وجحظت عيناي، وتصاعد من أعماق الأرض إلى رئتي آخِرُ خيط من الوعي الذي بقي لي في ذلك اليوم، لينطلق هاربًا من نفسي على شكل صرخة وحشية.

* * *

لقد أُصبت بطلقة نارية.

فتحت عيني على ضوء، وعلى صوت أُنثوي غير مألوف يتحدث بعربية فلسطينية هذه المرة:

- إنها تصحو.

اختفى النور وراء هالة وجه هدى. وقفت فاطمة بجانبها ولمياء بجانب

فاطمة. سمعت فاطمة تقول: إنَّ الحاج سالمًا، وعمُّو «جاك أومالي»، وعمُّو درويش مع عائلته، وآخرين من المخيم، جميعهم موجودون خارج المستشفى يدخِّنون وينتظرون الأخبار.

التقطت أذني تمتمة مألوفة كدوَّامة مسموعة داخل عقل منكسر، مما جعلني ألتفت لأجد ماما وأُم عبد الله، وكأنَّهما من ديكور الغرفة. كانت ماما تبدو ضعيفة، ترتدي ثوبها المطرَّز الجميل. لم أفكر تلك اللحظة في الرصاصة أو الألم، ولا في يوسف أو أسامة أو بابا، لكنني فكَّرت في داليا. وتمكَّنت أخيرًا من أن أرى، من خلال هذا الإطار الهزيل لوالدتي، تلك الفتاةَ البدوية الملوَّنة والجريئة والمرِحة التي قُضي على براءتها بمِكواة ساخنة، الفتاةَ التي دفنت خفَّة دمها برماد كثير من الموت، وكثير كثير من الحروب. تلك كانت تأمُّلاتي عندما صحوت من الجراحة التي أزالت الشظية من بطني. كانت الرصاصة قد أتت من ناحية برج المراقبة الجنوبي، وليس من الجنود الذين فتَّشوا أوراقي وبقوا ورائي. هكذا كان استنتاج الطبيب الذي فحص مسار الرصاصة داخل جسدي. لقد أصابت الرصاصة جانبي الأيمن فوق الكُليتين تمامًا، وانفجرت ممزِّقةً أجزاء من بطني عندما خرجَت.

ـ الألم يحرقني.

قالت فاطمة وهي تعطيني حبَّتين من الدواء باللون البرتقالي:

ـ تفضَّلي. أشار الطبيب بأن تتناولي هذا لتخفيف الألم.

ـ سلِمت يداكِ. أين يوسف؟

علمتُ من تعبيرات وجوههن المحزونة أنه لن يحضر.

بدأت هدى:

- لقد بحث عنكِ...

وأضافت فاطمة أنها هي أيضًا تؤكِّد ذلك:

- لم يكن ممكنًا أن يذهب لو علم أنه تم إطلاق النار عليك.

إلى أين ذهب؟

قدَّمت إليَّ هدى رسالة كان يوسف قد تركها لي:

- تفضَّلي.

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة آمال..

يجب أن أذهب. أرجوكِ افهميني. لقد مرَّت أسابيع وأنا أحاول كتابة هذه الرسالة لكِ، لكنني لم أستطع العثور على الكلمات المناسبة. في كل مرة أجلس وفي يدي القلم، أتذكَّر الوعد الذي قطعتُه على نفسي أمام بابا.

في أحد أيام الجمعة، بينما كنا جالسَين في حقل الزيتون الغربي بعد صلاة الظهر، جعلني بابا أعِده بأن أرعاكِ إذا حدث له أي مكروهٍ. قال إنه يريدكِ أن تحصلي على التعليم، وأن تتزوَّجي برجل صالح. كنت ساذجًا إلى حدٍّ أني لم أعتقد أنَّ اليهود سوف يجتاحوننا مرة أخرى، لكنني أعتقد أنَّ بابا كان يشعر بقدوم الحرب.

ظننت أنَّ بابا سيكون معنا إلى الأبد، والآن لا أعرف كيف أحافظ على وعدي له. إذا بقيتُ هنا فهؤلاء الإسرائيليون سيقتلونني. لديهم كلُّ القوة ويريدون كلَّ الأرض. وحتى الآن، ليس هناك أيُّ شيء يجعلهم يتوقَّفون.

لقد أخذوا كل شيء يا آمال، وما زالوا يأخذون المزيد. لا أستطيع الجلوس ومشاهدة ما يحصل وأنا مغلوب على أمري. أرجوكِ يا أختي الحبيبة، اغفري لي هذا الرحيل؛ أنا ذاهب للمقاومة. هذا خياري الوحيد. لقد كتبوا لنا حياةً ليست سوى أحكام مؤجَّلة بالإعدام، وأنا لن أعيش بحسب نصوصهم.

إذا استُشهدت، فليكن. افتخري بي، ادعي لي، واحتفلي بانتقالي إلى الرفيق الأعلى، كجميع الشهداء الذين يموتون وهم يقاتلون من أجل الحرية والعدالةِ والأرض، والذين سوف يضمُّونني إليهم.

أنا مثل طائر حبيس هنا. وأعرف أنكِ أنتِ أيضًا كذلك. إنني لست قادرًا على تحقيق الحياة التي كان يريدها بابا لنا؛ لقد تحطَّم قلبي. لا أحتمل التفكير في أنَّ مستقبلنا انتهى، وأنه حُكم علينا بأن نعيش حياة أبدية من القهر والعبودية كلاجئين.

المقاومة تتشكَّل، وسوف نسترجع عاجلًا أو آجلًا ما هو حقٌّ لنا. لقد وُلدتِ لاجئة، ولكن أعِدكِ بأني سوف أموت إذا كان لا بُد من ذلك، حتى لا تموتي وأنتِ لاجئة.

لا بُد لي من ترك ماما في رعايتكِ، وهو عبء رهيب لفتاة صغيرة في سنِّك. لقد أعطيت أمينًا نصيبي من المرآب مقابل وعده بأن يعتني بكِ وبماما. تركت أيضًا كل مدخراتي لكِ؛ لقد تركتها مع عمِّي درويش، مع إرشادات لكي يتم الانتفاع بها بحكمة، لتعليمك إذا أُتيحت الفرصة لذلك. أرجو أن تبقي على اتصال بفاطمة، إنها تحبُّك.

أُحبُّك دائمًا..

يوسف

كان يوسف قد بدأ بتوفير ذلك المال عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وبعد أن التقى فاطمة، لتغطية تكاليف حفل زفاف بسيط ومنزل جديد. حاولتُ أن أتفهَّم، كما طلب أن أفعل، ولكنْ كل شعوري كان الإحساس بالعارِض للخيانة والهجر. مع رحيل يوسف، أصبحتُ الآن وحيدة فعلًا. وكان هذا في العشرين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٨.

(٢٠)

أبطال

١٩٦٧ - ١٩٦٨

تتصاعد الأرض مباشَرة بعد الخضرة التي تكسو بلدة الكرامة الأردنية، وتتحوَّل إلى تلال صخرية قاحلة، حيث مخيم للّاجئين الفلسطينيين، مدينة أخرى من الخيام الباردة والطرقات الموحلة، وكذلك المقر الرئيس لحركة فتح، حركة المقاتلين الثوريين الفلسطينيين الذين انضم إليهم يوسف، تحت قيادة مهندس شاب اسمه ياسر عرفات.

في آذار (مارس) من عام ١٩٦٨، تقدَّمَت عبرَ ضباب الصباح قوةٌ إسرائيلية غازية وهائلة؛ لتعبُر جسر الملك حسين متَّجهةً إلى الكرامة، بهدف القضاء على القاعدة المقاتلة لمنظَّمة التحرير الفلسطينية في غضون ساعات.

أخطأت إسرائيل في حساباتها، فقد قاتل الفدائيون بشجاعة أسطورية. واندفع بعض المقاتلين مع أحزمة ناسفة حول خصورهم، ليفجِّروا أنفسهم ويفجِّروا معهم الدبابات الإسرائيلية ويحوِّلوها إلى أشلاء.

كان أخي يوسف معهم، يقاتل وجهًا لوَجه بجرأة وغضب، في معركة شملت جميع أنحاء بلدة الكرامة. وقد قضمت رصاصةٌ من العدو قطعةً

من فخذه اليسرى وهو يحاول إنقاذ رفيقه الجريح. تلك القصّة التي تشهد عليها مِشيةُ يوسف العرجاء فيما بعد، أصبحت أسطورة في جنين، حيث كنت لا أزال أتعافى من جرح إطلاق الرصاص عليَّ.

دُمِّرت بلدة الكرامة ظهر ذلك اليوم، لكنَّ مجموعة المقاتلين التي لم يكن بحوزتها إلا بعض الأسلحة الخفيفة، احتفظت بسيطرتها على الأرض، مما أجبر الإسرائيليين على التراجع، فهربوا كالأرانب بسرعة تاركين وراءهم كثيرًا من السيارات والعربات المصفَّحة والدبابات. وهكذا، تحطَّمت أسطورة إسرائيل التي لا تُقهر بأيدي شقيقي ورفاقه.

في غضون ساعات، جابت الأخبار عن معركة الكرامة أرجاءَ العالم العربي مثل كرة النار. تردَّدت أصداء أمجادها في أوروبا والاتحاد السوفيتي، وبدأ الشباب الأجانب يرتدون الكوفية الفلسطينية باعتبارها رمزًا للثورة وقوة الضعفاء.

كنت أسمع الراديو يُدوِّي من مقهى بيت جواد في طرف الحارة.

قالت لي هدى وهي تضع ذراعي حول كتفها وتجعلني أنهض:

- هيا، سوف أساعدكِ. لنذهب ونرَ.

عندما خرجنا، توقَّفت لأحمي عينيَّ من انقضاض ضوء النهار الذي لم أحظَ برؤيته فترة. كانت الحشود قد تجمَّعت تهتف وتغنِّي مع الراديو. وقف أمين، صديق يوسف، على طاولة في المقهى وهو يرفع سمَّاعة الراديو عاليًا. صمَت الحشد وسمعنا صوت ياسر عرفات. أعلن الصوت الصادر:

> قمنا بما قمنا به لنجعل العالم يُدرك أن الفلسطيني لم يعد اللاجئ رقم كذا وكذا، ولكنه من شعب يمكنه الإمساك بزمام مصيره، وأنه في وضع يُمكِّنه من تحديد مستقبله.

شعرت بالقشعريرة تسري في ذراعَيَّ وظهري ورأسي.

هتفت الحشود بصخب:

ـ الله أكبر!

غنَّت جنين بعزَّة نفْس وفخر، ورقص الناس في الشوارع. عندما رآني الحاج سالم تقدَّم إليَّ من بين الحشد، وقال وهو ينحني ليقبِّل خدي:

ـ أخوكِ قاتَل في الكرامة؛ ما رأيكِ في ذلك؟ سمعتُ أنه بخير.

ابتسامة من دون أسنان أشرقت في وجهه وهو يمشي ويصفِّق، وأصابعه كلها مفرودة كليًّا أمام وجهه العجوز الأسمر. رأيته من بعيد يضع ذراعه حول عمُّو «جاك أومالي»، ومن حولهم الحشود تردِّد بشكل متواصل:

ـ الكرامة! الكرامة!

ـ يوسف أبو الهيجا! فدائي جنين!

ـ الله أكبر!

حتى عندما وصل الجنود لتفريق الحشد، استمرَّت ألحان الثورة الوليدة. تُسمع الموسيقى تدوِّي من النوافذ، وامتلأ الليل بزغاريد النساء. عبقَت رائحة الطعام المخبوز عبر الظلام، ولطَّفت ليلتنا عندما مُرِّرت كل هذه الأشياء الممتعة من خلال النوافذ وأبواب جيراننا المجاورة لمنزلنا، تكريمًا لبطولة شقيقي.

الكرامة!

احتفلنا، أنا وهدى وفتيات أخريات، بطريقتنا الخاصة. كنت أضعَف من أن أشارك، فشاهدت صديقاتي وهنَّ يرقصن في الظلام. قالت لمياء وشاركتْها الأخريات فرحتها:

ـ لأن حظر التجوال مفروض، فلن نذهب إلى المدرسة غدًا على الأقل.

مع الأمل الذي أشعلته حماستنا، مع قدر من السذاجة، فكَّرنا مليًّا في التفاصيل العملية للعودة إلى قُرانا الأصلية، الأمر الذي اعتبرته طفولتنا البريئة من المسلَّمات، وأنه نتيجةٌ حتميةٌ للانتصار في الكرامة. كشفت مداولاتُنا البريئة تلك الليلة تفاصيلَ أحلامنا: «فِراش حقيقي»، «حياةٌ لا جنودَ فيها»، «ملعب»، «حديقة»، «درَّاجة هوائية». واستمرَّت قائمة رغباتنا البسيطة. كتبناها على ورقة، حدَّدنا أول ثلاث أَولويات، ثم قمنا بمقارنة خياراتنا.

أرادت هدى أن تجلس على شاطئ البحر أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. قالت:

ـ مجرَّد الجلوس.. لأنني لا أستطيع السباحة.

لن أنسى ذلك أبدًا. بساطة رغبتها النابعة من أعماقها تكفي الآن لاستدعاء الدموع.

بثَّت القناة التلفزيونية لقطات عن الفدائيين وهم يؤدُّون استعراضًا عسكريًّا عبر شوارع عمَّان، وتجمَّع الكبار حول شاشات التلفزيون القليلة المتوافرة في جنين لمشاهدتهم. كانت شاشة مقهى بيت جواد في متناوَل الأغلبية، وتمكَّنتُ من رؤية الحاج سالم وعمُّو «جاك أومالي» جالسَين إلى طاولتهما المعتادة محاولين إبعاد الآخرين الذين يحجبون الرؤية عنهما. ظهرت القصص الحية وانتشرت كالريح. اجتاحت المسيرات أرجاء الأردن، حيث تجمَّع مئات الآلاف من الناس العاديِّين للتضامن والثناء. ألقت النساء والأطفال الزهور في اتجاه الثوَّار. بكى الرجال البالغون وهم يخترقون الزحام لتقبيل إخوانهم الفلسطينيين. عمَّت وتضخَّمت الحركة بين عشية وضحاها، واصطفَّ الرجال

في كل مكان في الدول العربية للانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية. كثيرون من جنين حزموا أمتعتهم في اليوم التالي للانضمام أيضًا، ليعتقلهم فقط الإسرائيليون الذين كان لهم مخْبرون مأجورون في كل مكان.

بعد شهر، كنا لا نزال تحت حظر التجوال، وكانت قوائم أحلامنا السخيفة الطفولية تتعفن بين أكوام القمامة في الشوارع، عندما مرت سيارة الجيب العسكرية لتمنحنا الإذن في مغادرة بيوتنا. حتى لمياء كانت متشوِّقة للعودة إلى المدرسة.

(٢١)

نهايات متهاوية

١٩٦٩

من دون أن تقطعا مثابرتهما الأبدية على مشروع الحياكة وهما جالستان على الشرفة المتهالكة، كانت أُمي وأُم عبد الله ترفعان رأسيهما بين الحين والآخر لإلقاء نظرة على العالم حولهما. كانت ماما في ذلك الوقت قد غاصت عميقًا في هاوية عقلها، حتى إنها انفصلت عن جسدها تاركة إياه لأوبئة الابتلاء، وأصبح من الضروري أن تستعمل الحفاظات. وتولَّت أُم عبد الله، بوفائها الاستثنائي، متابعة العناية بوالدتي.

كانت عَينا ماما مستنفدتَين وفارغتَين، جلدها منكمش، ونفَسُها يتحشرج. كانت عائلتي قد انتهت، وأنا أقترب من الرابعة عشرة، بجسد مشوَّه، وحياة زئبقية ومتقلِّبة لا يمكن الوثوق بها. لحظةٌ ما تداعبني بالسحر الفاتن الذي يمكن أن تعيشه فتاة شابة بأول لوعة إعجاب بصبي، وتُغريني بحلم كل فتاة أن تصبح امرأة. ولحظة أخرى بعد ذلك تكسوني، بقسوة وبلا رحمة، بجلدٍ مشوَّه منسوج بالشكوك والفقدان والهجر.

كان جزءٌ من لحم خصري الليِّن الناعم قد تمزَّق. وزاد في الألم شعوري

بأنْ لا نصير لي، فاعتقدتُ أنَّ الشيء الرهيب الذي ترك علامته على جسدي، ربما كان عقابًا على خطيئةٍ ما كنت قد ارتكبتها. انحنيت بتواضع، واستسلمت للعذاب الأبدي.

لم يبقَ لي شيءٌ سوى حلمِ والدي الذي كدح من أجله، وهو يعمل مقابل أجور ضئيلة متدنِّية، لكي يوفِّر ما يكفي من المال لتعليم أولاده اللاجئين. ألزمتُ نفسي بذلك الهدف على الرغم من أنني لم أكن أتمتَّع بقدرات فكرية أو دراسية. لم تكن لديَّ أي أحلام سوى أن أكون محبوبة وحرة، كما كنت في أوقات الفجر مع والدي.

لتكريم بابا، ومن أجل تحقيق حلمه، التهمتُ بنَهم كتبَ التاريخ والأدب والرياضيات والعلوم. أما في الليل، فلمعاقبة نفسي وللحفاظ على زخم عزلتي الدراسية، كنت أتلمَّس بأصابعي هذا اللحم التلِف عند بطني لأتذكَّر أنني بضاعة تالفة لا يريدها أي فتًى. فقْدان العضلات جعلني بعد ذلك أعرج بعض الوقت عرجًا زاد من شعوري بالنقص.

بقيَت هدى إلى جانبي طوال فترة استردادي لعافيَتي، لكن سرعان ما دفعتُها بعيدًا عني. وأقول الآن، بشعور من الخجل وتأنيب الضمير، إنني كنت أحسدها على كمال جسدها، وأتمنى أن يحلَّ بها البؤس نفسُه الذي أعانيه، لكي يكون لي صديقة في بيت المشاكسين والبائسين والمشوَّهين، لكنها كانت دائمًا بجانبي، ثابتة على ولائها بلا امتعاض ولا استياء من هجري لها.

* * *

على الرغم من الاعتداء الذي تعرَّض له جسدي، استمرَّت عادة الاستيقاظ قبل الفجر إحياءً لذكرى بابا اليومية، على الرغم من أن ملامح وجهه كانت قد بدأت تتلاشى من ذاكرتي، وتحل محلَّها رائحة مبهَمة للتبغ المعسل بطعم

التفاح. كنت أقرأ وأعيد قراءة الكتب التي كان يحبُّها. واليوم، إن كان بإمكاني وضع قائمة بالأشياء المادية التي أرغب فيها، كما فعلنا ونحن فتيات صغار بعد معركة الكرامة، ما كنت لأتمنى إلا تلك الكتب الممزَّقة.

غلَّفتُ جلدي الجديد بالأوراق والحبر، غير مبالية بوالدتي المسكونة التي تفقد من وزنها كيلو جرامًا تلو الآخر، ولا بعمليات التوغُّل الفجَّة التي يقوم بها أولئك الجنود المتغطرسون، ولا بأفضل صديقة لي، هدى، وقصَّة الحب التي تنمو بينها وبين أسامة.

اشتُهرت بأني طالبة استثنائية، وخرجت من المنفى الذاتي الذي فرضتُه على نفسي، أمام عيون البالغين المادحة في المخيم، والذين كانوا معجبين باللامبالاة التي أبديها تجاه الفتيان، وهو الأمر الذي نسبوه إلى عفَّتي. لكني كنت أعرف، وكذلك كانت هدى، أنَّ هذا لم يكن إلا المعاناة التي يُسببها شعوري بالنقص. عندما خرجتُ أخيرًا من برود تصميمي العنيد، وجدت مرة أخرى الأرضَ الصلبة الثابتة لصداقة هدى، واستأنفْنا من حيث كنا قد توقفنا.

بينما كنت غارقة في الخجل والدراسة والندم، كانت هدى تقع في الحب. في ذلك الوقت، أصبح معروفًا في المخيم أنَّ هدى هي فتاة أسامة، وأنَّ زواجهما مسألة وقت فقط. ضمن تحوُّلات المراهقة، كان خدًّا هدى قد ارتفعا عاليًا تحت عينيها المقلَّمتَين كعيون القطط، ونضجت شفتاها اللتان امتدَّتا متعرِّجتَين فوق أسنانها الأمامية الملتوية قليلًا عندما تبتسم. لقد شبَّت تلك «الفتاة الصغيرة الغريبة، صاحبة العينين النادرتين» لتصبح كليوباترا، بنهر حريري من الشعر الأسود، وبشرة زيتية ناعمة. كان أسامة موضع حسد جميع الشباب في المدينة.

* * *

كانت سنّي أربعة عشر يوم وجدْنا، أنا وهدى، ماما باردةً في سريرها ظُهر أحدِ أيام حزيران (يونيو) الحارَّة. اقتربنا ببطء، بعدما أشعلنا مصباح الزيت المعلَّق على الحائط. وكما كنا نفعل دائمًا حين نواجه المجهول، بحثتْ كلٌّ منا عن يد الأخرى. كانت ماما مضطجعة على جنبها، كعادتها حين تنام، وظلُّها المتيبِّس يرفرف على الجدار. زحفت تمتمةُ حديثٍ عابرة خارج النافذة، ورائحةُ نهايةٍ موهنة على طول الخط الفاصل بين الأحياء والأموات. هناك، على حصيرتها البالية ذات الألوان المزوَّقة والمفروشة على الأرض، وبجانب بقايا الجدار العاري لكوخنا الصغير، ووسط أُمَّة موقَّتة من المنسيِّين، ماتت ماما وحيدة.

سالت من عينَي دموع هادئة. بكيت، ليس على وفاة هذه المرأة، بل على أُمي... أُمي التي كانت قد غادرت ذلك الجسد منذ سنوات. بكيت بارتياح فيه مرارةٌ وحلاوة في آنٍ معًا؛ لأنها تخلَّصت أخيرًا وكليًّا من هذا العالم البغيِّ الذي سلبها روحها. بكيت لشعوري بالذنب لأني لم أستطع أن أحميها، ولم أجد طريقة أو أخرى لذلك. بكيت لأني، على الرغم من محاولاتي المستمرة، لم أستطع أن أجد في ذلك الجسم الصغير الشاحب المرأةَ التي مِن رحِمها منحتني الحياة. وبكيت لاقتراب غدٍ حزين على التربة الجرداء التي تتناثر عليها جثث أيامي. بكت هدى عليَّ أنا. أُم عبد الله فقط، التي كانت قد تركت رفيقتها الدائمة لكي تستريح ثم عادت لتوقظها، هي فقط التي بكت على ماما. كانت هي الروح الوحيدة التي تعرف الشخص الذي عاش داخل تلك الجثَّة الهزيلة، التي بكيناها ثلاثتنا.

* * *

في مكان ما، بيني وبين جسد والدتي، حلَّقت ذكرى من ذلك الزمان

الذي علَّمتني فيه داليا أن أحرِّك الجنين داخل رحم أُمه. كان الطفل سيموت، اعتقد الجميع ذلك، واعتقدوا أن الأم قد تموت أيضًا. أخيرًا وصلت داليا. قال أحدهم، ونحن ندخل بسرعة:

ـ وصلت أُم يوسف القابلة، ومعها ابنتها آمال.

هناك كانت المرأة مجهدة وتُحتضَر متألِّمة، بينما نحن ننتظر الحصول على إذن لمغادرة بيوتنا خلال ساعات حظر التجوال. لم نُمنح الإذن، فانسللنا ومعنا مقص ماما الخاص مدسوسًا في ثوبها. كانت المرأة قد استنفدت قوَّتها وهي تحاول تخفيف الألم بالصراخ. تحاول تخويف الموت لإبعاده عن طفلها. كانت الغرفة الصغيرة مليئة بالضوء الخافت ورائحة الولادة، حيث المرأة تئنُّ على السرير. وضعت داليا يدها ببطء على جبين المرأة، والأخرى على بطنها، وأخذت تردِّد:

ـ تنفَّسي يا ابنتي، سلِّمي أمرك لله. هو أرحمُ الراحمين. خذي نفَسًا يا بنتي!

كان هدوء ماما معديًا. أشارت إليَّ:

ـ ساعديني لكي أرفعها.

اقتربت أيضًا عمَّة المرأة، ومعًا قمنا بقلبها، ساقاها مرفوعتان على الوسائد، وكتفاها تتدلَّيان من حافة السرير.

ـ الطفل مائل، ويمكن أن يكون عالقًا، يفعل الله ما يشاء.

ثم قالت ماما لمن في الغرفة:

ـ اخرجوا وادعوا لها، وسوف أناديكم إذا كنا بحاجة للمساعدة.

نحن، أنا وهي!

أرشدتني:

ـ ضعي يديكِ هنا!

ووضعتْ يديها على الجانب الآخر من بطن المرأة:

ـ أغلقي عينيك لكي تشعري بالحركة، ودعي الله يوجِّه يديكِ.

كنت مرتعبة، لكنني فهمت جيدًا.

أيًّا كان شعورك، اكْبتيه في داخلك!

ماما تدندن، وكأنها تحاول إقناع الطفل، وهي تفرك جلد المرأة فترة طويلة بدت كأنها أبدية، حتى شعرنا بها، ها هي الحركة. قالت وهي لا تزال هادئة تدندن:

ـ الآن ساعديني، حرِّكي يديكِ بهذا الشكل.

كانت المرأة تئنُّ لكنها هادئة.

ـ تنفَّسي يا بنتي.

تنفَّستُ وحرَّكت يديَّ مع حركة الطفل، على الجهة المعاكسة لماما.

أصبحنا على استعداد الآن، وعادت النساء. قالت ماما لهنَّ:

ـ لقد استُجيب دعاؤكن، لكن ابنتي قامت بالجزء الأصعب.

وهي تطلُّ من الجانب الآخر من البطن، قالت لي:

ـ أنتِ التي قمت بتعديل وضع الجنين يا آمال.

وابتسمتْ ابتسامة عريضة بكل فخر. وقفَت على قدميها، وتحرَّكت نحوي، وطبعت قبلة على جبيني.

كيف نسيتُ ذلك اليوم؟ ولماذا يعاودني الآن، عند وفاة ماما؟! لقد أحبَّتني داليا. كيف أمكنني أن أشكَّ في ذلك في أي وقت مضى؟

«الله أكبر!» انتهى الموكب الجنائزي مع دفن ماما، النهاية المتهاوية لوالدتي، تلك الفتاة البدوية النارية المسمَّاة داليا؛ التي كانت خطواتها تجلجل.

لم أرَ عمِّي في العزاء. وجدته في المقبرة وحده يعاني وجع قلبه العاري، وهو مقيَّد إلى كرسيِّه المتحرك.

لقد تفجَّع عمُّو «جاك أومالي» على موت ماما. قال لي معزِّيًا:

ـ تعرَّفتُ إلى أُمك عندما كانت شابة صغيرة ومنكسرة نتيجة فقدان طفلها الصبي. كانت امرأة طيِّبة، ووالدك أيضًا. رحمة الله عليها، البقية في حياتك!

* * *

كان «جاك» يتصرَّف ببساطة وعفوية، يرحِّب بالحياة كما هي، لكنَّ سلوكه المرتجَل لم يكن ناتجًا من البساطة؛ فقد كان حادَّ الذكاء وذا ثقافة عالية، فضلًا عن إرثٍ كبيرٍ من الصدق والاستقامة، يجعله منيعًا على الفتنة، ويدعو إلى احترام الفلسطينيين له، وإلى احترام المحتلِّين أصحاب الزي العسكري أيضًا.

بالنسبة إلينا، كان عمُّو «جاك» أيرلنديًّا فلسطينيًّا؛ يزور ابنته في مدينة «دبلن» مرة في السنة، ويعيش معنا الظروف المزرية نفسها بقية الوقت. كان يتحدَّث العربية بطلاقة، إنما بتلك اللكنة الأيرلندي التي تمطُّ نهاية الجملة لتبدو كسؤال.

قال لي ذات يوم بعد دفن ماما:

ـ مرحبًا يا عزيزتي. تعالي إلى بيت عمِّك في وقت لاحق، نريد التحدث إليكِ، اتفقنا يا حبيبتي؟

تحدَّث معي بالإنجليزية، وهو الأمر الذي كان قد بدأ يفعله منذ فترة، في البداية ليتأكَّد له تمكُّني من اللغة، وقد سمع عنها من أساتذتي؛ ولكي يساعدني فيما بعد على ممارسة اللغة. وكثيرًا ما كان يخلط بين اللغتين بهذه الطريقة:

ـ «يِس». أرى أنَّ «يور» إنجليزي صارت أحسن.

ـ نعم، لغتي الإنجليزية في تحسُّن.

ـ جيِّد!

وضحك ضحكته الخافتة، ثم سعل.

ولكن ما الذي يجري في منزل عمِّي؟ لماذا يريدون التحدث إليَّ؟ ومَن يكونون «هم» على كل حال؟ مهما كان ذلك، فقد أثار في نفسي رهبة انبعثت من أسباب وجيهة. من وجهة نظرهم، كنت في الرابعة عشرة، لا أُم لي ولا أب ولا أخ ولا أخت، وكنت فقيرة وتقية. بشكل عام، حان وقت زواجي...

مرَّت الساعات التالية في ظل قلق مستبدٍّ، وأنا أُفكر في مخطَّطات مختلفة لتجنُّب الزواج، وكان ذلك يرجع جزئيًّا إلى خشيتي من أني ـ كامرأة متزوِّجة ـ سأضطرُّ إلى الكشف عن مدى تشوُّه مظهري. فكَّرت في الهروب، لكنني لم أكن لأجرؤ على ذلك وعلى تحمُّل التبِعات. ثم إنني كنت أعلم أني أينما ذهبت فسأجد نفسي مصطدِمة بالجنود الإسرائيليين والمستوطنين؛ لأن إسرائيل كانت قد بدأت عمليات مصادرة واسعة النطاق للأراضي، وبناء مستوطنات خاصة باليهود لتطوِّق التجمعات السكنية الفلسطينية. فكَّرت فعلًا في ادِّعاء الجنون، أو اصطناع مجموعة من العلل الأخرى.

مع قدوم المساء، كنت منهكة، وأذعنت للهزيمة الخيالية. أمسكت بيد هدى، وذهبنا إلى منزل عمِّي درويش. انتظرتني هي في الزقاق، بينما اقتربت أنا بتردُّد من الباب الحديدي، وصعدت إلى الفناء غير المسقوف، حيث يجلس عمِّي والحاج سالم وعمُّو «جاك أومالي» على وسائد مفروشة على الأرض، غير مبالين بالدجاجات التي تتجوَّل حولهم، يتبادلون فوهة النارجيلة ويحتسون القهوة المُرَّة. مشيت حافية القدمين، وهي عادة أدَّت إلى تراكُم الجلد الميت حول قدمَيَّ وكعبَيَّ، ودفعَت الناس إلى استقبالي بسؤال: «أين حذاؤك يا بنت؟»؛ سؤال فيه ملامة تحمل الشفقة والازدراء على حدٍّ سواء، ويوجهونه إلى كل مَن يفتقر إلى أهل يقومون بتوجيهه.

قال أحدهم قبل أن يدركوا أنني لا أنتعل حذاءً:

ـ اخلعي حذاءك يا آمال، وتعالي انضمِّي إلينا.

مشيت ببطء نحوهم على الأرض المرصوفة بالحصى. كان المكان معتمًا، والضوء الضعيف المنبعث من مِصباحَين زيتيين يعجُّ بالفَراش والبعوض.

رأيت بطرف عيني ظلًّا يسارع نحوي بذراعين ممدودتين.

ـ مرحبًا يا حبيبتي!

قالتها خالتي بهية، الشقيقة الكبرى لماما. كانت تعيش في طولكرم، حيث تعمل خادمة في منازل المستوطنين اليهود القريبة، واتجهت نحو جنين حالما سمعت الخبر. وعلى الرغم من أنها تسكن على بعد خمسة عشر كيلو مترًا أو أقل، فقد استغرقت رحلتها ثلاثة أيام. مُنعَت مرتَين من المرور عند حاجز التفتيش، وفي المحاولة الثالثة سمح لها الجنود بالمرور، لكنَّ ماما كانت قد دُفنت. وعندما أدركت خالتي بهية أنها لم تتمكَّن من تقبيل جثمان شقيقتها الصغرى وتوديعها، بدأت تَكيل الشتائم للجنود وتتمنى موتهم.

لم أتوقَّع وجود خالتي بهية هناك، لكني كنت سعيدة جدًّا لرؤيتها. كان التشابه بينها وبين والدتي مثيرًا، لكنَّ الجمال نفسه ازدهر بشكل مختلف في كلٍّ منهما. كان بهاء أُمي رائعًا لا يُمس، يتجوَّل وحيدًا في قلعة مهجورة. أما جمال خالتي بهية فيأسرك على الفور، كأنه حشود من الضحكات السهلة المكشوفة. كان التشرُّد والشمس والزمن قد نحَتت على وجوههن خطوط عذاب العمل الشاق وإنجاب الأطفال والعوَز. لكن حتى هذه الخطوط اختلفت على وجهيهما؛ فخالتي بهية أدرجَتها ضمن فرحها وآلامها، بحيث تظهر وتختفي وفق تعبيراتها وتشكِّل أطرًا ومنحنيات لحنانها. الطيَّات اللطيفة التي تسكن حول شفتيها، تجعل وجهها ـ عندما تبتسم ـ يتفتَّح كزهرة الزنبق أو كبيَّارة مُزهِرة. في المقابل، كانت الخطوط على وجه ماما تبدو دائمًا متضاربة، كما لو أنَّ جمالها لا يقبل أي تغيير أو تدخُّل خارجي. كانت التجاعيد على وجه ماما قد حفرت بشَرتها، وكأنها قضبان سجنٍ حجزت وراءها أمرًا عظيمًا وحزينًا يحتجُّ ويرغب في الخروج.

ـ تعالي هنا يا بنتي.

أومأ إليَّ الحاج سالم أن أجلس إلى جواره، وهو يرفع ذراعه فيكشف عن بقعة عرق قد بللت دشداشته القطنية. جلستُ مُضطربة على وسادة بينه وبين عمِّي درويش المعذَّب الذي يعاني منذ سنين؛ وهو الآن في حالة سيئة، ويتدلَّى من كرسي ذي عجَلتَين تم تثبيت أحد مفاصله بحبل وبقطعة من الشريط اللاصق. كان أصغر أولاد عمِّي درويش، واسمه فؤاد، مريضًا بالحمَّى ونائمًا في غرفة العائلة، لذا كان علينا أن نتحمَّل البعوض والحشرات الأخرى في ساحة البيت.

كان عمُّو «جاك أومالي» يجلس مرتاحًا إلى الجانب الآخر من الحاج

سالم، وكلاهما يتمازحان ويتناحران كالأولاد حول من أخذ نفَسًا أطول من النارجيلة:

ـ الله يلعنك يا أيرلندي.

ـ اللعنة عليك يا فلسطيني.

وضحكا؛ واحد بخشونة وبلا أسنان، والآخر بمثل قعقعة جهاز معطَّل.

لقد تجمَّعوا ليقرِّروا مصيري. كان هذا واضحًا جدًّا.

ـ البقية في حياتك يا آمال. نحن جميعنا محزونون على هذا المُصاب.

هكذا بدأ عمِّي درويش الكلام. بعد تقديم تعازيه إليَّ، قدَّم لي بيته. يمكنني العيش مع عمِّي الذي يكسب الحدَّ الأدنى من قوته من صنع الحلي الرخيصة من الزجاج، وترويجها للسياح من على كرسيه المتحرك. قال لي عمِّي بصدق:

ـ أنتِ من دمي ولحمي، وسأفعل كل ما في وسعي من أجلك.

قاطعته خالتي بهية بشعور حُرمة الأسرة الذي لا يمكن انتهاكه:

ـ أو يُمكنكِ العيش معي في طولكرم.

على الرغم من أنَّ لخالتي خمسة أفواه وعليها إطعامُها، كانت بلا شك جاهزة لتحمُّل مسؤولية ابنة أختها.

الخيار الثالث المتاح لي كان العيش في القدس مع عمَّتي سميحة، تلك التي أنقذ والداها عائلة «آري بيرلشتاين» ذات مرة.

انحنى عمُّو «جاك» إلى الأمام، وعيناه الزرقاوان تتطفَّلان من خلال شعره الأشعث.

ـ قد يكون هناك خيار آخر يا آمال.

قالها وهو يأسرني بشدَّة نظرته. في تلك اللحظة تلاشى مشهد الدجاج والنارجيل. نظرات عمُّو «جاك» جعلت الغرفة بكاملها تحبس أنفاسها. تنحنح عمِّي درويش لمسح حَنجرته. تبادل الحاج سالم وخالتي بهية النظر سريعًا، ثم نظرا إلى الأرض. كلُّ الكلام التالي وقع عبؤه على عمِّي درويش.

ـ هناك مدرسة في القدس على استعداد لقبولك.

قالها، وهو شبه مقتنع بأنَّ هذا هو التصرُّف الصحيح، ونصْف خجول من أنَّه لا يستطيع أن يقدِّم لي شيئًا أفضل. قاطعته خالتي بهية، قلقة من أنني قد أسيء فهم نِيَّاتهم الصادقة:

ـ ولكن الخيار لك، فبيوتنا دائمًا مفتوحة لك، في كلِّ وقت، وطوال حاجتك.

قال عمُّو «جاك» الذي ما زال منحنيًا إلى الأمام، ولكنه توقَّف عن التحديق:

ـ إنه مكان جيد للفتيات مثلك يا آمال، ومستواه التعليمي يُعتبر استثنائيًّا.

مثلي؟!

كانت تلك دارًا للأيتام في الليل، ومؤسَّسة أكاديمية تنافسية في النهار. وباعتباري يتيمة فلسطينية حاصلة على علامات مذهلة، قد يتم قبولي مُعفاةً من كل التزام مالي. كانوا قد ناقشوا هذا الموضوع حتى قبل أن تتوفَّى ماما؛ لأن عمُّو «جاك» اعتقد أنه ستكون لديَّ فرصة أفضل للحصول على منحة دراسية في الجامعة، إذا تخرَّجت في تلك المدرسة.

لكنَّ الحاج سالمًا قدَّم الأمر بطريقة أخرى:

ـ هذا ما كان أبوك سيرغب فيه من أجلك.

جاء هذا الكلام تحدِّيًا لأشد عواطفي ضعفًا. وأضاف:

ـ الكلُّ يعلم أنك ورثت عن والدك حبه للكتب، ويبدو أنك قد تقدَّمت كثيرًا على مدارسنا التي لم تعد قادرة على منحك مزيدًا من الفائدة العلمية.

ومن ثَمَّ أطلق جملته المعهودة التي حصل لنفسه على براءة استعمالها خالصة:

ـ لقد عشتِ ورأيتِ كلَّ شيء.

وانطلق بعد ذلك في مونولوج استمعت إليه حينها بنفاد صبر، لكنني في وقت لاحق وبعد عِدة سنوات، سأستعيده مدركة أنها كانت أعظم حكمة قالها لي أي إنسان التقيته في حياتي. قال:

ـ نحن جميعًا نولد ولدينا أعظم الكنوز التي يمكن أن نحصل عليها في الحياة. أحد هذه الكنوز هو عقلك، والآخر هو قلبك، والزمن والصحَّة أداتان لا غنى عنهما لتلك الكنوز. ما تفعلينه لتطوير نفسك ولمساعدة البشرية، يدلُّ على مدى تقديرك لهذه النعمة من الله. لقد حاولت أنا أن أستغِلَّ عقلي وقلبي للحفاظ على ارتباط شعبنا بالتاريخ؛ لكي لا نصبح مخلوقات بلا ذاكرة، تعيش اعتباطيًّا على هوى الظالم.

في تلك اللحظة، اتَّسعت نظرته إلى مجمل ماضيَّ ومستقبلي. شيء من الكآبة ومقدرة حكيمة عميقة طبَعا على وجهه المجعَّد الداكن وعدًا يقينيًّا بأنه يقول الحقيقة. أضاف معلِّقًا:

ـ الفراق قاسٍ على الأهل والأحباب، لكنك قمت بتكريم الهبة التي أعطاكِ إياها الله بالمثابرة والعمل الجاد، وكلنا نعلم أنه ينبغي لنا أن نساعدك الآن على إكمال مشوارك، لا أن نخنق ما وهبَ لكِ الله.

جلستُ بلا حراك، غير مصدِّقة، في حالة من الذهول الذي يمكن أن ينتاب محتالًا غير محترف. لم أكن قد فعلت شيئًا لكسب التميز المخيف الذي منحوني إياه. روح المثابرة وروح العمل الشاق اللذان تحدَّث عنهما، كانا مجرد جبن وخوف من غياب الهدف، من العقاب الإلهي، ومن الرفض؛ بل إنهما خوف من الضوء ومن الصوت يعلو ليصبح حربًا وموتًا ومفاجآتٍ، تُحْدثها رصاصة وحيدة تهوي وتتدحرج في الجسد. تخبَّطت الصراحة داخلي لوضع الأمور في نصابها، لتوضيح أن ما يرونه فيَّ هو محض خوف، وليس هبة ولا تكريمًا. تصارعت اللغة الصادقة على شفتي لتجميع الكلمات الصحيحة بطريقة مرتَّبة. قلت:

ـ ولكن... أنا لا... أنا أعني... أنا لست... يا الله، أنا لا... الأمر ليس من هذا القبيل... أنتم لا تفهمون...

أخيرًا، خرجت أفكاري المدمَّرة بصدق الحقيقة البسيطة لكَينونتي منذ أن رحل بابا:

ـ أنا مُرتعبة!

تقيَّأتُ تلك الكلمات. ارتجفت شفتاي، وكنت على وشك البكاء. لقد كان المجهول هو ما خشيت وكرهت.

حاولت خالتي بهية أن تريحني:

ـ معلهش!!

لكنْ لم أعُد بحاجة إلى الطمأنينة، بل إلى الطعام. اضطربت معدتي لتذكِّرني، بضجيج صاخب، بأنني لم أكن قد أكلت شيئًا طوال النهار. كانت خالتي قد أعدَّت بالفعل الحِمَّص والبيض المقلي والسلطة وبقايا

الكوسة، وبدأت بتوزيع الأوعية والصحون على الأرض فوق الصحف القديمة. تَشاركنا جميعًا الطعام؛ امتدَّت بعض الأذرع عبر بعض لتصل وتنتزع شرائح الخبز، بينما كانت الدجاجات من حولنا تنقر في كومة من الخبز القديم الملقى على الأرض. لم نستعمل الأواني، وغمسنا اللقمة في الصحون نفسها. بعد بضع سنين، حين تعوَّدت مآدب الشركات في الولايات المتحدة، كنت أُمتِّع نفسي وأنا أتخيَّل عواقب أن أتذوَّق طعام شخص آخر بغمس لقمتي في صحنه.

بقيت مع عمِّي درويش، بعد أن غادر الجميع، وذهبت خالتي بهية للنوم في السرير المجاور لسرير ابن عمِّي فؤاد الذي انخفضت حرارته، فأصبح واعيًا تمامًا ويرسم الصور على وجه خالتي بهية النائمة. سألت وأنا ألاحظ غيابها أول مرة:

ـ أين والدته؟

ـ إنها في زيارة لوالديها.

أجاب عمِّي درويش بلهجة تشير إلى أنه قد تشاجر معها، وأنها تركته مع الأطفال، كما اعتادت أن تفعل في كثير من الأحيان، وتعود بعد بضعة أيام.

في تلك الليلة علمتُ بحقيقة كسر كاحل داليا، قبل عِدة سنوات، في قرية عين حوض، قبل أن أولد أنا، وقبل أن تولد إسرائيل، وقبل مخيمات اللاجئين. أطلعني عمِّي على صورة لشاب مِقدام يمتطي حصانًا عربيًّا أسود، ويطل وجهه من تحت عِمامة بيضاء. وقال لي إن هذا الرجل الوسيم كان يريد أن يتزوَّج والدتي. كان من الصعب أن أصدِّق أنَّ عمِّي وهذا الرجل هما الشخص نفسه. رنَّت تلك القصة التي رواها لي في أذني، مثل بيت شعر من قصيدة غزل في داليا، تنتهي وتغرق في الرمال المتحرِّكة لفلسطين، والتي

لا يمكن أبدًا أن تكون كما كانت من قبل. سألته، سعيدةً أنني تمكّنت أخيرًا من رؤية صورة لحصان العائلة الأسطوري:

ـ هل هذا هو غنُّوش؟

أجاب ووجهه يتفتَّح على الهواء النقي للماضي:

ـ نعم، هذا هو.

سحب نفْسه ليقترب مني، وهو يستعمل قوة ذراعيه ليجرَّ ساقيه الصغيرتين والمشلولتين، وبدأ يسرد سلسلة رائعة من الحكايات عن غنُّوش وفطُّومة... عن العنزة التي كانت تعتقد أنَّ فطُّومة هي أمها، وتبكي كلما ابتعدت الفرس عن نظرها... كيف كان يضطر إلى النوم في الإسطبلات عندما يهدر الرعد لتخفيف فزع الخيول... كيف كانت هذه الخيول تحمله بسرعة فائقة عبر جبال الجليل ووُديانه، وعلى طول ساحل البحر المتوسط... وكيف كانت هذه الحيوانات الرائعة، على الأرجح، أعظم حبٍّ في حياته.

الوقت الذي قضيته مع عمِّي في تلك الليلة، كان من تلك المناسبات التي تزداد روعة مع تقدُّم السِّن. ملأ عمِّي الساعات المتأخرة بقصص عنه وعن بابا عندما كانا طفلين صغيرين، عن جِدُّو وتيتا، وعن أجداد سائر أفراد العائلة. كانت تلك أكثر مرة أقترب فيها من مرافقة بابا مرة أخرى، فقرَّرت بعد ذلك أنني أريد العيش مع عمِّي، وليس في دار الأيتام أو في بيت خالتي بهية. عندما بُحت لعمِّي درويش بهذه الفكرة، اكفهرَّ وجهه وتجمَّعت شبكة من الخطوط في زوايا عينيه. قال وهو يشير إلى نفسه في الصورة مع غنُّوش:

ـ انظري إلى هذا. هذا هو أنتِ الآن، وإذا بقيتِ هنا، فستتحولين إلى ما أنا عليه الآن.

كان وجهه واضحًا الآن، يكشف عن الهدنة التي عقدها مع مصيره ليُبقي المرارة بعيدة عنه. ثم تابع:

- لا يمكن المستقبلَ أن يتنفَّس في مخيم للَّاجئين يا آمال! الهواء هنا كثيف يخنق الأمل. لقد أُتيحت لك فرصة لتحرير الحياة النائمة فينا جميعًا. استغلِّيها!

- لكنني لا أريد أن أترك جِنين.

- إذًا، يجب عليَّ إقناعك بطريقة أو بأخرى؛ لأنه في يوم ما، عندما نلتقي مجدَّدًا، أنا ووالدك، سوف يكون عليَّ أن أخبر أخي الكبير أنني وضعت ابنته على الطريق الصحيحة، الطريق التي كان يريدك أن تسلكيها.

كان هذا كل ما احتاج عمِّي أن يقوله لي.

(٢٢)

الرحيل عن جنين

١٩٦٩

في البيت الصغير الذي أصبحت فيه وحيدة، تجمَّع حشد من الأقرباء والأصدقاء حتى غصَّ الزقاق الضيِّق في الخارج، وودَّعوني على مدى ساعات من القبلات والعناق في ذلك الصيف الخانق الذي رحلت أُمي فيه. منذ بدأوا يتوافدون إلى البيت وحتى رحلت عنه، أنا وهدى ظللنا، تمسك الواحدة بيد الأخرى في قبضة واحدة مُحكَمة ومليئة بالعرق. كان أسامة هناك يحوم حول هدى بنظرات خاطفة متشوِّقة، كأنها تسكب في كفَّينا عصارة سرٍّ ما بينَهما، سرٍّ مكبوت لا يمكن الإفصاح عنه أمام الأهل ولو بقبلة لطيفة على خدها.

وكانت زوجة عمِّي درويش قد عادت من خلوتها، وقد حضر كلاهما مع أطفالهما الخمسة الذين يتراكضون في الجوار، حاملين النصائح والهدايا.

همس عمِّي:

ـ ادرسي، ادرسي بجدٍّ، ولا تُهملي صَلاتك!

وطبع قبلة خفيفة على الرباط الجميل الذي نسجناه بيننا قبل أيام فقط.

قال إنَّه كان يود لو باستطاعته إيصالي بنفسه في سيارة الأجرة، لكن ـ ذكَّرني ـ لا يُسمح إلا للأجانب بالتحرُّك بحرية.

قبَّلَتْ أُم عبد الله جبيني بعُنفوان أُمومتها التي تحنو على القريب والبعيد. نبَّه الحاج سالم العمَّ «جاك» على أن يترك انطباعًا قويًّا في «دار الأيتام تلك» بأنه ينبغي لهم الاعتناء بي جيدًا:

ـ عليك أن تتذكَّر الآن ما قلته لك لتقوله هناك في تلك الدار!

قالها بكل الصرامة التي أمكنه جمعها، بفمه الخالي من الأسنان وإصبعه المهتزة. سخر عمُّو «جاك» منه، وأطلق ضحكته المقهقهة:

ـ لقد نسيتُ بالفعل يا حاجّ.

قال الحاج سالم وهو يبتعد لإخفاء ابتسامته العريضة:

ـ الله يلعنك يا أيرلندي!

كانت خالتي بهية قد عادت إلى طولكرم، وكنا قد ودَّعنا بعضنا بعضًا يومَ مغادرتها. طلب الجيران والأصدقاء إليَّ أن أعدهم بأني سأخبرهم لو احتجت إلى أي شيء:

ـ أي شيء يا آمال، أي شيء!

ردَّدت لأشكرهم:

ـ الله يطيل أعماركم، ويرزقكم!

كانت هناك معانقات دامعة مصحوبة بمقولات مثل: «الله معكِ»، و«الله يحميكِ»، و«يا ربي، لا أستطيع أن أصدِّق أنهم يرسلون واحدة منا بعيدًا»، وما شابه ذلك.

أمسكَتْ لمياء، ووجهُها المدوَّر يُفصح عن دموع سابقة، بيدي الأخرى، وأودعَت فيها زوجًا من حجر النرد. قالت بندم مَهيب، وهي تطْبق أصابع يدي على حَجرَي النرد:

ـ خذي! أخذتهما من مكتبك في المدرسة.

لا بُد أنها فعلت ذلك قبل سنوات، أو كانت قد أخذتهما من مكتب شخص آخر، لأنه لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن ذلك، لكنني شكرتها، وضممناها، أنا وهدى، معًا، في عناق ثلاثي، بينما كنت أضحك في سرِّي من العذاب التافه الذي لا بُد أن تكون لمياء قد سبَّبته لنفسها لأنها سرقت من يتيمة.

وقف أسامة في مقدمة الحشد الذي تجمَّع على الطريق الترابية المؤدية إلى مخيم جنين للَّاجئين، في حين أمسكت، أنا وهدى، كل واحدة منا بالأخرى، في عناق طويل مليء بالدموع. همست في أذني أنَّ أهل أسامة حدَّدوا موعدًا لطلب يدها للزواج. كانت تريد الاندفاع في أمانِ حبهم أكثر من أي شيء آخر، وأنا كنت سعيدة لسماع هذه الأنباء.

ـ مبروك!

قلتها وأنا أضم أعز صديقاتي ضمة قوية. بكت هدى على عنقي:

ـ سأشتاق إليكِ يا آمال! أشعر كأن نِصفي يذهب بعيدًا عني!

وقفنا نبكي؛ هدى بدموعها وأنا بصمْت والدتي وفكِّها المطبق. وقد التففنا بعضنا حول بعض مثل فصلٍ أخير من قصيدة ملحمية لم نكن نتصوَّر أن تنتهي. قصة طفولة عشناها معًا سطرًا فسطرًا، يدًا بيد، تصل إلى نهايتها؛ وكنا نعرف أنها ستنتهي في اللحظة التي تنفكُّ فيها ذراعانا. ناداني عمُّو «جاك» من داخل سيارة الأجرة، وهو يلوِّح لي بالدخول:

ـ لا تقلقا، أنتما الاثنتين، الآن. ستلتقيان مرة أخرى.

كان الوقت قد حان للمغادرة.

افترقنا، أنا وهدى، ودخلتُ سيارة الأجرة.

بدأت أبتعد في حطام الفراق المحزن. ركض الأطفال الصغار وراء سيارة الأجرة المغبَّرة. نظرت من النافذة الخلفية إلى الناس الذين أحببتهم، وبدأوا يظهرون أصغر فأصغر كلما ابتعدت عنهم إلى أن تلاشوا، ثم اختفوا وراء منعطف في الطريق. قبضت يدي على النرد الذي أعطتني إياه لمياء، وأدرت وجهي إلى الأمام. بلاستيك السيارة الحامي يحرق باطن ساقيَّ من خلال ملابسي، وبدا لي أنه يحرق أيضًا أسى الفراق. أدهشني اضمحلال الأسى، وحاولت أن أشعر بالحزن الذي كان يتدفَّق قبل لحظات، لكن بلا جدوى، وكأنَّ قضبان سجن أحاطت بعواطفي.

قال عمُّو «جاك» وهو ينظر إليَّ، يتفحَّص وجهي:

ـ لا أصدِّق أنني أعرفك منذ ولادتك!... أنت ذكية مثل حسن وقوية مثل داليا.

قالها ونظر إلى الأمام. ثم أضاف:

ـ رحِم الله روحيهما، كان والداك طيِّبَين.

هما. روحاهما هما.

لم أقل شيئًا. كانت أسناني مضغوطة داخل فكِّي الذي أطبقته من دون وعي. انحدر من عينَيَّ خيطٌ صغير من الدموع هذه المرة ـ وأول مرة ـ لأنني افتقدت أُمي.

أيًّا كان شعورك، اكْتبيه في داخلك!

* * *

بعد أكثر من ساعة سفرًا، أشار عمُّو «جاك» من النافذة نحو القدس، وَقبَّتها ترتفع من بعيد:

ـ ها هي هناك.

قبَّة الصخرة والمسجد الأقصى، موضع الإسراء والمعراج؛ كانت في ذهني ذكرى الوقوف داخل القبَّة بجانب واحد من الاثني عشر عمودًا من الرخام الصلب، والتي تحيط بصخرة الإسراء. صورة تلك الدعامة الضخمة التي وصلت أعلى مما يمكن لعقلي ابن السنوات الخمس أن يستوعب، كانت هي ما بقي معي من الرحلة العائلية التي قمنا بها إلى القدس عام ١٩٦٠، قبل أن تغزوها إسرائيل وتحتلها. كانت ماما قد احتفظت بصورة فوتوغرافية التُقطت في ذلك اليوم لنا نحن الأربعة، هي وبابا ويوسف وأنا، واقفين في المجمَّع المرصوف بالبلاط، والقبَّة الذهبية فوقنا. كانت هذه هي الصورة العائلية الوحيدة لنا. التقطتني الكاميرا وأنا أمسِك بساق والدي من فوق ثوبه، كما لو كنت أنوي أن أدوِّن في محضر فوتوغرافي ملكيَّتي الحصرية له. ظهرتُ صغيرة وجادَّة، وعندما وجدت تلك الصورة بعد وفاة ماما، صدمني كم كانت ابتسامتي شحيحة. كان وجه والدي رحبًا ولطيفًا، أعطى انطباعًا بأنه يبتسم، لكنَّ شفتيه كانتا مسترخيَتين. كانت ابتسامته في عينيه. وقفت ماما بجانبه منتصبة باستقامة متناسقة تمامًا، وتنعكس وقفتها الطبيعية وأعماقها التي لا يمكن سبر أغوارها في عينيها. مال يوسف بمرح على ساق واحدة مع ابتسامته التي تدفئ القلب، والتي تهرب دائمًا من الجانب الأيمن لفمه أولًا، ثم تنتشر عبر الجانب الأيسر. من بيننا جميعًا، ظهر هو الأسعدَ والأرقَّ والأكثر جاذبية.

بعدما ابتلعت إسرائيل بقية فلسطين عام ١٩٦٧، لم نذهب إلى القدس

مرة أخرى. في البداية كان الذهاب صعبًا، وفيما بعد مُنعنا تمامًا. في اليوم الأول من الاحتلال، قامت إسرائيل بتجريف حي المغاربة بكامله، وكان يحوي نحو مائتي بيت من البيوت القديمة، وأمهَلت المئات من سكانها أقلَّ من ساعتين لإخلاء منازلهم. شاهد المسلمون والمسيحيون على حدٍّ سواء ـ واليونانيون والأرمن، لهذا الغرض ـ معظم ممتلكاتهم وهي تُصادَر، في حين تعرَّضوا هم للطرد إلى أحياء مغلَقة، أو تم نفيهم خارج المدينة.

طلب عمُّو «جاك» إلى السائق أن ينقلنا إلى مكان يسمَّى الخَلوة على جبل الزيتون. قال لي:

ـ هذا المكان خارج قليلًا عن مسارنا، لكنكِ ستحبِّينه؛ فهو بقعة جيدة للإطلال على المدينة.

بعد لحظات كنا نتجوَّل عبر شوارع ضيقة تحدُّها جدران حجرية عالية وقديمة قِدم التاريخ، إلى أن توقَّفنا عند طرف مقبرة اليهود القديمة تحت فندق «الأقواس السبعة» المطل على تلك المدينة الخالدة.

صَعُبَ عليَّ دائمًا ألا أنفعل من القدس، حتى عندما كرهتُها ـ ويعلم الله أنني كرهتُها لِما كلَّفته من أرواح. لكنَّ رؤيتها، سواء من بعيد أو من داخل متاهة أسوارها، تجعلني ألين! يحتضن كلُّ شبر منها أسرار حضارات قديمة؛ حيث تتجلَّى علامات ولادتها وانهيارها من أحشاء المدينة، وتطفو على أنقاض أطرافها. طبع المؤلَّهون والمنبوذون آثار أقدامهم على ترابها. لقد غُزيت، ونُهبت، ومُحيت، وأُعيد بناؤها مرارًا، كأنَّ حجارتها تمتلك الحياة التي منحتها إياها دروب من الصلاة والدم. مع ذلك، بطريقة أو بأخرى، فإن التواضع ينبعث منها. إنها تبثُّ في داخلي إحساسًا بأنَّها ليست غريبة عني ولا أنا غريبة عنها، ذلك اليقين الفلسطيني الثابت الذي لا يقبل الجدل،

على أنني أنتمي إلى هذه الأرض. إنها تمتلكني، بغضِّ النظر عمَّن يحتلها؛ لأن ترابها هو من يحرس جذوري وعظام أسلافي... لأنها تعرف الشهوات الخاصة التي ألهبت فِراش جدَّاتي... لأنني البذرة الطبيعية لماضيها العاطفي العاصف. أنا ابنة الأرض، والقدسُ تؤكِّد طمأنينتي إلى هذا اللقب غير القابل للتصرُّف، أكثر بكثير من كلِّ سندات الملكية المصفرَّة، وسِجلات الأراضي العثمانية، والمفاتيح الحديدية لمنازلنا المسروقة، أو قرارات الأمم المتحدة، والمراسيم الصادرة عن القوى العظمى.

قال عمُّو «جاك»:

ـ مكان لا بأس به، صحيح يا عزيزتي؟

ابتسمتُ بخجل، وعُدت إلى السيارة.

* * *

وصلنا دار الأيتام، «دار الطفل العربي»، مع حلول الظلام. استقبلتنا عند البوَّابة وباتِّزان مدروس، الآنسةُ حيدر مديرة المدرسة، وأرشدتنا إلى مكتبها حيث بدأت بشرح تاريخ الدار وقوانينها في ضوء المصباح الكهربائي. لاحظنا، أنا وعمُّو «جاك»، ضيقًا واضحًا في تعبيرات وجه حيدر، كما لو كنا على نحو ما قد خيَّبنا أملها. على مدى السنوات المقبلة، كنت سأدرك أنَّ شيئًا من الشوق الرومانسي الشرس البعيد المنال، كان يلوح في داخلها كلما عرفَت أنَّ هناك رجلًا سيدخل المجمَّع. وكان من الواضح أنَّ العم «جاك» ليس ما كانت تطمح إليه، ولكن لم يفهم أيٌّ منا آنذاك سرَّ ضيق ملامحها عندما كانت تتحدث إلينا.

قالت:

ـ أنشأتْ هذه المؤسسةَ الآنسةُ هند الحسيني، من عائلة الحسيني في القدس.

وعزَّزت وقْع كلامها برفع حاجبيها.

آل الحسيني كانوا من وجهاء القدس، لديهم تاريخ قياديٌّ موثَّق، ولهم الصدارة في المدينة على مر القرون. وكانت الآنسة هند وريثة ثرية غير متزوِّجة، عندما أنشأت إسرائيلُ نفسَها على معظم أراضي فلسطين عام ١٩٤٨.

كانت تعيش في قصر من الحجر الأحمر، مُلاصق لفندق «الأقواس السبعة» الذي كانت تملكه، وكان ينزل فيه اللوردات والدبلوماسيون وكبار الشخصيات والشعراء والكُتاب عندما يزورون القدس، قبل أن تستولي إسرائيل على المدينة. ولكن في نيسان (إبريل) ١٩٤٨، كان ثلاثة أيتام ملطَّخون بالدماء قد شقُّوا طريقهم إلى القدس الشرقية، وبقوا هائمين على وجوههم حتى أحضرهم شخص ما إلى عتبة منزل الآنسة هند. كان الأطفال من قريةِ دير ياسين في ضواحي القدس، القريةِ التي ذبحت عصاباتُ اليهود فيها أكثرَ من مائتي مُواطن فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال. آوت الآنسة هند الأطفال المشرَّدين. وفي الأسابيع التي تلت، ومع ارتكاب الإسرائيليين مزيدًا من الفظائع، أُحضر مزيد من الأطفال إلى الآنسة هند، حتى إنها أغلقت الفندق وحوَّلته إلى مأوى، ومن ثَمَّ إلى دار للأيتام، ولاحقًا إلى مدرسة.

كانت الآنسة حيدر من بين هؤلاء الأيتام الذين أُحضروا في البداية، وقد تبنَّتها الآنسة هند التي بقيت عازبة. في هذه النبذة الموجزة التي قدَّمَتها لعمُّو «جاك» ولي، لم تشاركنا الآنسة حيدر قصَّتها الشخصية. قدَّمت لنا نفسها

على أنها ابنة الست هند بهالةٍ من الأهمية الذاتية. وفي أثناء أيامي الأولى بدار الأيتام، كشفَت لي الفتيات الظروف المأسوية التي أدَّت إلى تبنِّيها.

كانت الآنسة حيدر امرأة قاسية، تعوِّض قِصر قامتها بانتعال حذاء عالي الكعب، تتحرَّك معه بطريقة أكثر رشاقة من مشيها حافيةً. كانت تتحرَّك بذلك الشيء البشع بسهولة طبيعية، كما لو أنها لم تتعلم إلا المشي على أطراف أصابعها. كان شعرها مصبوغًا بالحناء، وهو الشيء الوحيد الذي بدا ناعمًا في مظهرها، ومثَّل هذا الشعر إطارًا لوَجه من الجبس عانى كثيرًا بسبب المكياج، ولعُيون ضيقة عاشت بشكل حصري تقريبًا داخل حدود دار للأيتام.

قالت وهي تنظر إليَّ بعينين متوهجتين:

ـ يجب أن تعتبري نفسك محظوظة بحصولك على التعليم الذي ستتلقَّينه هنا. يدفع الأهل كثيرًا من المال لإرسال بناتهم إلى هنا.

كانت تتحدَّث عن الطالبات اللواتي يحضرن إلى المدرسة في النهار، ويعُدن إلى بيوتهن كل يوم، وهنَّ مَن صرت أدعوهنَّ، كما تفعل اليتيمات الأخريات: «بنات الخارج». ولم أتصادق قطُّ مع أي واحدة منهنَّ طوال السنوات الأربع التي قضيتها هناك. كنا نحصل منهنَّ على المال أو الطعام بالاستجداء أو التخويف. صَعُب علينا أن نبني صداقات ذات مغزى معهنَّ، وخصوصًا عندما كنا ننظر إلى أحذيتهنَّ الجديدة، والزيِّ المدرسي اللطيف، وامتيازاتهنَّ الأخرى التي بدت كأنها «طبيعية»، بينما كنا جميعًا نشتهيها. لكن في النهاية، كانت الرسوم التي يدفعنها، بجانب التبرُّعات الدولية، هي التي تموِّل وجودَنا نحن اليتيماتِ ـ «الداخليَّات» ـ في القدس.

تكوَّن المبنى الرئيسُ من خمسة طوابق، بناية جميلة من الحجر الجيري الأبيض، ومداخل مقنطَرة مزخرَفة على طريقة العمران الفلسطيني التقليديّ.

شكَّل جناحها الغربي مَسكنًا للفتيات اللواتي تُراوح أعمارهن بين عشرة أعوام وثلاثة وعشرين عامًا. أما باقي المبنى فيضم الغرف الدراسية، وتُدرَّس فيها علوم الأحياء والرياضيات واللغة العربية والدين والجغرافيا واللغتان الألمانية والإنجليزية. شُرفة المبنى المعلَّقة تُطل على فناء واسع يقع في طرفه البعيد هدفٌ وحيد لكُرة السلة، مستهلَك من كثرة الاستعمال، ووراءه تنمو أشجار اللبلاب القديمة، وتتسلَّق أغصانُها الجدارَ الحجري الذي يحيط بالمجمَّع وتتشبَّث به.

قالت الآنسة حيدر وهي تومئ بغطرسة نحو حقيبة ملابسي الصغيرة:

ـ احملي أغراضك واتبعيني! على السيد «جاك» أن ينصرف.

لم أكن مستعدَّة لفراقٍ آخر. هبط قلبي وارْتَخت كَتِفاي. سقطتُ على رُكبتي، وترقرقت الدموع في عينيَّ، لكنني لم أبكِ. توسَّلت:

ـ لا تتركني عمُّو «جاك»!

حرَّك جسده الضخم ليلاقي عينيَّ، وأبعد شعره الجامح عن جبينه بيَدٍ ترتجف. كان يحمل في كفِّه الأخرى رزمة صغيرة ملفوفة بوَرقة جريدة وشريطٍ بُني لاصِق. بدأ يقول بهدوء:

ـ ما كان ينبغي أن أحتفظ بها طوال هذا الوقت.

ثم تابع:

ـ قصدت إعطاءها لأخيك يوسف، لكنني لم أتمكَّن من استجماع الشجاعة اللازمة لأروي ما شاهدتُه ذلك اليوم الذي رأيت فيه هذا يسقط على الأرض.

وسلَّم لي العُلبة بحركة فيها قدرٌ كبير من عدم الارتياح ومن الألم.

ـ لم يكن هناك أي شيء يمكنني فِعله يا آمال!

قالها ليَستبق الأسئلة التي كان يعرف أنني سأطرحها عليه عندما أفتح العلبة.

لكنَّ الآنسة حيدر أبعدَتني، وسحبتني من ذراعي بنفاد صبر.

ـ يكفي. يجب أن ندخل، فقد أوشك الظلام.

والتفتَت إلى عمُّو «جاك» قائلة:

ـ شكرًا لك يا سيدي. أرجو أن تتوجَّه بنفسك إلى البوَّابة.

* * *

احتشدت نحو ثلاثين فتاة أحْدثن جلبة لرؤية القادمة الجديدة تصعد الدرج الحجري الضيِّق الذي بلغ من العمر ثلاثمائة عام. مشيت تحت تحديقهن وقبضتاي متصلِّبتان: واحدة تُمسك برزمة عمُّو «جاك»، والأخرى بالنرد من لمياء؛ البقايا الهشَّة لحَياتي السابقة. أشارت الآنسة حيدر إلى فراشي، بِدعة معدنية غريبة سَمَّتها «سريرًا». كان ستة عشر زوجًا من هذه الأَسرَّة تصطف على جانبَي الغرفة المستطيلة؛ ثمانية أزواج على كل واحد من الجدارين الطويلين، وجميع الفتيات الإحدى والثلاثين، اللواتي يعشن في تلك الغرفة، ما زلن يتفحَّصنني. اثنتان وستون عينًا، كالمحكمة الصامتة مطبوعة على جسدي. أمَرتهن الآنسة حيدر:

ـ يا بنات، عرِّفنها المكان، واستَوثِقن من معرفتها للقوانين.

ثم استدارت مبتعدة بكعبها العالي. اقتربت الفتيات نحوي، فانكمشت على نفسي.

أقربُهنَّ مني ذاتُ شعر أحمر وجلد شفَّاف وابتسامة رقيقة، داعبَت رأسي وقالت:

ـ شعركِ جميل. أنا اسمي سمرة. ما اسمكِ؟

لم أُجبْ. كنت سأدرك قريبًا أن اسمها مثار تندُّر دائم في دار الأيتام؛ فاسمها «سمرة» مع أنَّ خُصل شعرها بلَون الجزر، وتنتصب على رأسها مثل البالون البرتقالي وسط محيط مظلم.

سألَت أخرى:

ـ من أين أنتِ؟

ثم أُخريات:

ـ لِمَ أنت حزينة؟

ـ هل ستكونين صديقتي؟

ـ هل ألقت عليكِ حيدر محاضرتها الغبية؟

ـ هل أنتِ أيضًا يتيمة؟

ولمَّا لم يحصلن مني على إجابات، بدأن بإجابة أنفسهن:

ـ إنها بالطبع يتيمة، يا غبية!

ـ اسمها آمال. سمعت حيدر وهي تتحدَّث بالهاتف.

ـ وما السبب الذي يمكن أن يجعلها ترغب في أن تكون صديقتك، أنتِ يا أُمَّ أسنان ناتئة؟

ـ حيدر مقرِفة!

سُمع التحذير المليء بسُلطة الأقدمية، وجاء من فتاة جميلة ذات بشرة داكنة، وطبقة حريرية من الشعر الأسود. أَمَرَتْ:

ـ ابتعِدن عنها! ألا ترَينَها مضطرِبة؟ أفسِحن لها قليلًا، يا متطفِّلات!

أطاعها الجميع. كان هذا أول لقاء لي ومنى جلايطة التي أصبحت فيما بعد صديقتي العزيزة.

قبل أن تستدير وتغادر، أكَّدت مُنى لي أنَّ الوضع في دار الأيتام ليس سيئًا للغاية، وأنها ستُبعد عني الفتيات ما أمكنها. ثم ابتسمت وغادرت.

وحيدة، وعيناي محمرَّتان وحائرتان ومشوَّشتان من دوران الحياة، فتحتُ الرزمة التي أعطاني إياها عمُّو «جاك». تحت خشخشة ورق الجريدة البالي، فتحت العلبة المهلهلة، فوجدت داخلها غليونًا مصنوعًا من خشب الزيتون. رفعت الغليون، وأنا أمسك بذكريات بابا الهشَّة، نحن الاثنين وحدنا مع الشعر والشمس المشرقة. بالقرب من القطعة التي تُدخَل في الفم، ارتسم خطٌّ على طول الغليون حيث كان شارِبُ بابا يحتكُّ بالخشب على مر السنين. لا تزال موجودة رائحة التبغ المعسل الذي كان بابا يدخِّنه، رائحة أنفاس والدي المُجهَدة وملابسه البالية، عندما كان يطلق العنان لحبِّه من خلال الصفحات التي كان يطويها ويقلبها من أجلي عند الفجر. كنت أميِّز تلك الرائحة بشكل جيد، إلى درجة أني أصبحت أعتبرها رائحة شروق الشمس. تكوَّمتُ كالكرة محاطة بحب بابا على سريري الجديد، وسمحت لذلك النسيم اللطيف القادم من عند أبي بأن يغلِّف جروحي، ويأخذني بهدوء إلى النوم في ليلتي الأولى تلك في الملجأ المقدسي.

* * *

لم أرَ عمُّو «جاك» قطُّ مرة أخرى لأسأله عن الظروف التي أدَّت إلى حيازته غليونَ والدي. في صيف ١٩٧١، بعد عامين من مرافقته لي إلى القدس، علمتُ أنَّ عمُّو «جاك» قد توفِّي في أثناء نومه. لم أتمكَّن من العودة للمشاركة في الجنازة؛ لأنَّ حظر التجوال كان قد فُرض على جنين، لم لم يكن لديَّ ما يكفي من المال للقيام بالرحلة، لكن وصلتني الأخبار بأن الآلاف من الناس تجمَّعوا لوَداعه، في مشهد لا يحظى به سوى الشهداء. كان عمُّو «جاك» موضع حبٍّ عميق من جميع مَن عرفوه، وخصوصًا اللاجئين الذين قضى السنوات الأخيرة من حياته في خدمتهم؛ حتى بعض الجنود الإسرائيليين الذين كانوا عادةً يديرون الحواجز العسكرية في جنين، ذهبوا لتقديم العزاء لابنتِه، قريبتِه الوحيدة التي أتت من أيرلندا لدفنه، لأنه أوصى بأن يُدفن في فلسطين.

بكى الحاج سالم في جنازة «جاك». بعد ذلك، لم يعد قطُّ إلى مقهى بيت جواد، حيث لَطالما تشارك الرجلان النارجيل التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهما ينسجان صداقتهما بنوع لذيذ من تلك الضغينة اللعوب، الصالحة لرجال شاخوا في ملل المعركة الأبدية التي خاضوها، من أجل أن يجعلوا العالم مكانًا أفضل للأجيال القادمة.

(٢٣)

دار الأيتام

١٩٦٩ - ١٩٧٣

كانت منى جلايطة على حق؛ لم تكن دار الأيتام بذلك السوء، ومنذ البداية أخذتني منى تحت جناحها.

ذات ليلة صيف حارَّة تغمرها الرطوبة وأصوات الحشرات الساهرة، وفي خلال عامي الثاني بالدار، شعرت من سريري بمُنى تتقلَّب في سريرها. همسْتُ:

ـ هل أنت مستيقظة؟

ـ وكيف أنام وسط شخير هؤلاء البُلْه؟

وتأفَّفتْ، مدلِّيةً رأسها من جانب سريرها:

ـ هيا نجرِّب البلاط البارد.

قلت وأنا أنهض عن السرير، وأخلع قميص نومي:

ـ فكرة جيدة.

ـ وهذه أفضل. عاريَتان على البلاط.

لكنَّ المكان المتاح على الأرض كان ضيِّقًا جدًّا.

ـ الشرفة؟

ـ بالتأكيد، لِمَ لا؟

خطَونا عبر الباب المزدوج إلى الهواء الطلق، وعلى الفور عانقنا القمر.

ـ واو! لم يَحدث قطُّ أن رأيت القمر بهذا القرب.

قالت ذلك وهي تمسك بقضبان حديد الشرفة المنمَّق. تظلَّلت حدود أنوثتها على خلفية فانوس الليل المتدلِّي من السماء. أضافت مستنشقة الليل، وعيناها مغمضتان:

ـ يُذكِّرني البدر بوالدي، على الرغم من أني لا أستطيع تذكُّره حقًّا. أليس ذلك سخيفًا؟

قلت بشكل أخرق:

ـ إذًا، لنشْكُ إليه الحمارةَ حيدر. ربما يأخذها إليه.

ـ مَن قال «أبو الهيجا» ليست خفيفة الظل؟

سألتها:

ـ كيف ماتا؟ والداك؟

بعد صمت قصير:

ـ كان والدي أستاذًا، وكان في محاضراته يتحدَّث عن حقيقة صفقات الملك عبد الله القذرة مع «غولدا مائير». القادة العرب خانونا، باعونا في

منتصف الطريق. أبناء العاهرات. كنت سأقتلهم جميعًا لو استطعت، من الهاشميِّين حتى آل سعود.

نفَس عميق آخر في الليل، وتابعَتْ:

ـ أحبَّ الطلاب والدي، وتسابقوا ليحضروا فصوله. أفترض أن هذا جعله خطرًا على النظام الهاشمي.

كان يومًا من أيام شباط (فبراير)، كنا في طريقنا إلى البيت عائدين من منزل عمَّتي حين بدأت الأمطار تهطل. أنا وأمي وأبي وأختي جميلة، كنا نُغِذُّ السير حاملين المظلات. كانت أمي تصيح بي لأتوقَّف عن نثر الماء من البرك الصغيرة التي تكوَّنت من المطر، عندما نادى عميل للهاشميين الأردنيين:

ـ مُعين جابر جلايطة...

عندما أجاب والد منى النداء، أطلق العميل عليه طلقة واحدة أصابت رأسه. رصاصة أخرى شقَّت طريقها عبر رئتَي والدة منى عندما حاولت أن تحمي زوجها. طلقتان ناريَّتان سريعتان وإرهاب مكتوم بالمطر افتتحت ذاكرة منى الأولى. كانت في الرابعة من عمرها.

استلقينا على الظهر، رأسها على بطني، رأسي على كتلة قميصَي نومنا، بينما سكب القمر ضوءًا على جلدنا الداكن. قلت وأنا أداعب شعرها وأثني أصابع قدمي المبلَّلة بالعرق على الدرابزين المعدني للشرفة:

ـ لا تحزني يا مُنى!

أذكر تلك الليلة بوضوح، المواساة بين صديقتين. على حاشية ذاكرة مُنى، شعرت بتحوُّل لا يمكن إيقافه في داخلي. لم أعد طفلة، لمَّا أصبح امرأة بعد، تساءلت مَن منا كانت أفضل حالًا؟ أهي التي عاشت مع الرعب

الواضح تفاصيل وفاة والدها، أم أنا التي عشت جاهلة ما حدث لأبي؟ ملت إلى وجع مُنى وقبَّلت جبهتها. أمسكتْ كلٌّ منا بالأخرى على سجادة من ضوء القمر، وفي روعة هادئة وضعتُ ذراعي حولها. قبَّلت هي ندبتي واستغرقنا في النوم.

* * *

أخذتني مُنى إلى زمرتها التي كانت أقرب ما يمكن إلى أسرة. من بين صديقاتي الجديدات كانت «الأخوات الكولومبيَّات»، ياسمينا وليلى ودرينا. وصلن إلى دار الأيتام قبلي بثلاث سنوات. في أعقاب حرب ١٩٤٨، كان والدهن قد تمكَّن من الهجرة إلى كولومبيا، حيث وِلدت الفتيات الثلاث، وتفتَّحن على الإيقاع الحيوي لرقصتَي «السالسا» و«الميرينجو» اللتين علَّمنني إياهما. لكنَّ حياتهن في أمريكا الجنوبية توقَّفت عندما تُوفِّي والدهن بداء السرطان. بدلًا من استعمال ماله القليل في العلاج، أنفقه لتأمين عودة عائلته إلى فلسطين، حيث ساعدهم عمٌّ لهم على إيجاد شقَّة صغيرة، وأرسل الفتيات إلى دار الأيتام لأنها كانت السبيل الوحيد لمواصلة دراستهن. تخرَّج شقيقاهم الأكبران في المدرسة، وبقيا مع أمهما في رام الله.

سواء أكانت الأخوات الكولومبيات في عِراك أم متصالحات، لم يخلُ الأمر قطُّ من الدراما والإثارة. لم أستطع قطُّ أن أشبع من ضحكات درينا التي كانت فوضى عارمة وشيئًا متمرِّدًا يُسقط الجدران مثل صدًى ثمِل، ويندلع دائمًا من فم مفتوح كليًّا مع رأس مندفع بقوة إلى الخلف. كانت كبرى الأخوات الثلاث، جسمها رياضي وقوي، وكانت أكثر الفتيات خشونة في المدرسة. وعلى الرغم من أنني لا أذكر أنها آذت أحدًا، فتعامُلها الخشن مع كل شيء أعطى غالبًا الانطباع بأنها كانت تستعدُّ لهرس

أول شخص يُغضبها. أكثر ما أتذكَّره عن درينا استدارةُ رأسها السريعة المفاجئة، وعيناها اللتان تنظران بتركيز متَّقد مباشر على الهدف الذي تتفحَّصه، تطالبان بالصدق والإخلاص.

قذفتني مرة بتلك النظرة، بعد أن خرجتُ من استجواب قاسٍ من الآنسة حيدر، التي كانت قد حجزتني خمس ساعات في القبو السفلي الذي كنا نسمِّيه «الزنزانة» لإقناعي بأن أشي بشَريكاتي في الذنب. كنا نحن الخمسة، أنا ومنى والأخوات الكولومبيات، قد اقتحمنا استوديو الفن في الليلة السابقة، كما كنا نفعل كل ليلة من ليالي شهر رمضان. وخلال الأسبوع الأخير من شهر الصيام اكتشفتنا الآنسة حيدر، بسبب وعاء من ورق العنب المحشو أحضرته لنا راهبة فرنسية.

تلك الراهبة كانت الأخت «كلير» التي لم أتمكَّن قطُّ من النطق باسمها صحيحًا. كانت مولعة بليلى بخاصةٍ، الوسطى بين الأخوات الكولومبيات. في أثناء عيد الميلاد في ذلك العام، قامت مجموعة من الدير بجلب هدايا لمن هم أقل حظًّا في العالم: لنا. اقتربت الأخت «كلير» من صديقتي، مدَّت يدها، مدرِكة في ليلى روح العطاء، وقالت:

ـ اسمي «كلير».

لفظَت باسمها وكأنَّ المياه تغرغِر في الجزء الخلفي من حلقها، ثم سألتْ مشيرة إلى طفلة رضيعة مجهولة بين ذراعَي ليلى:

ـ هل لي أن أساعد؟

قالت ليلى، واضعة الطفلة بعناية بين ذراعَي الراهبة:

ـ شكرًا لك. لقد تُركت هذا الصباح عند البوَّابة الأمامية.

قالت درينا:

ـ ليلى دائمًا تأخذ الأطفال. تُصرُّ على ذلك كما لو أنها هي التي أنجبتهم.

كان هذا صحيحًا؛ فغرائز الرعاية لدى ليلى كانت نقية جدًّا، واعتدنا وضع كل فتاة أُصيبت بجروح أو مسَّها سوء، تحت رعايتها.

لها، كأُختها درينا، الشعرُ الأسود والحاجبان الكثيفان والشفتان الممتلئتان والعينان النفَّاذتان، لكن جميع هذه بدت مختلفة في وجه ليلى بفعل رقَّتها. الملامح نفسها التي بدت حادة لدى درينا، كانت ليِّنة ومصقولة لدى أختها الصغيرة، ليلى. التجعيدات الكثيفة للشعر، التي ورثتها ثلاثتُهن عن والدتهن، نبعت من رأس درينا في لفائف مشوَّشة طائشة، لكنها تدلَّت في خصلات مدعِنة على ظهر ليلى.

صارت الراهبة الطيِّبة تعود إلى دار الأيتام كل أسبوع تقريبًا بعد أن التقت ليلى. في كل مرة، جلبت الأخت «كلير» صندوقًا من الحاجات. أحيانًا كانت مجرد أشياء لسدِّ النقص في الإمدادات الطبية لدى ليلى؛ من أجل معالجة الكشوط والجروح المختلفة في الفتيات اللواتي قصدْنها للرعاية والتضميد. ولكن كان ثمَّة دائمًا أشياء ممتعة أخرى، كالشوكولاتة والحلوى التي تقاسمتها ليلى معي ومع أختيها ومنى.

لتلطيف صيام رمضان علينا، كانت الأخت «كلير» تأتي كل مساء إلى الجدار الشرقي للدار، وتُناوِل ليلى إناءَ طعام ساخنًا من خلال فتحة صغيرة في الجدار الحجري. كان إحسانها سرًّا مبهِجًا بيننا نحن الصديقات الخمس. وبعد أن صار مجيء الراهبة عادة، صِرنا نصل عند الفتحة قبل الخامسة بنصف ساعة على الأقل؛ وهو الموعد المحدَّد لوصول الراهبة الطيِّبة. كان شهر شباط (فبراير) قد بدأ، لكنَّ الطقس الذي ما زال باردًا، كان يجعلنا

نرتجف بردًا في مهمَّتنا الاستطلاعية ونحن ندفع بعضنا بعضًا بلطف لإلقاء نظرة خاطفة من خلال فتحة الجدار.

ـ إنها قادمة!

همستُ عندما رصدت الوجهَ ذا البشرة الصافية، والخدَّين الورديَّين في رداء الراهبات البُني؛ هو وجهٌ تطلَّع إلى الله فقط، وازدهر في تقوى انعزالية. دفعتني درينا عن طريقها، وقالت مختلسة نظرة من خلال الفتحة:

ـ آمل أن يكون ورق عنب وكوسة محشوَّة مثلما أمس.

أضافت ياسمينا مقاطِعة:

ـ كل شيء يتفوَّق على القذارة التي تُعِدُّها أُم أحمد.

تنحَّينا جميعًا لنُتيح لليلى أن تتسلَّم وعاء الطعام الذي اشتهيناه، والذي مرَّرته إلينا مِن خلف على الفور، لكي تتمكَّن من التحدُّث إلى صديقتها الراهبة.

أكَّدتُ للجميع، مخفية الوعاء في بطَّانيتي:

ـ إنه معي!

قالت درينا مفتونة وأنفُها في بطَّانيتي:

ـ ممْم..!! رائحته شهية.

كما كنا نفعل طوال الشهر، اقتحمنا استوديو الفن لنتناول وجبتنا. ياسمينا، صغرى الأخوات الكولومبيات، والأكثر تنظيمًا منا جميعًا، قسمت الطعام خمس حصص متساوية، بينما انتظرنا أذان الإفطار. كانت منى تصوم معنا تضامنًا على الرغم من أنها مسيحية. لم يكن لدينا أطباق، لذلك استعملنا

صبغات الطلاء من خزانة التجهيزات الفنية، وجلسنا في دائرة، عيوننا مثبَّتة بإحكام على هدية الأخت «كلير» المثالية، وآذاننا مضبوطة تمامًا على النداءات الأولى من الأذان.

«اللـاااااااه أكبر... اللـااااااااه أكبر...» انهمرت في إيقاع موسيقي من السماء فوق رؤوسنا، وأفطرنا «بسم الله الرحمن الرحيم». التهمنا الطعام في غضون دقائق معدودة، وانتهينا معًا مع إدراكنا أننا كنا جميعًا نحدِّق إلى الوعاء من أجل القطرات القليلة الأخيرة من العصارة والنكهة. مرة أخرى، انصرفت ياسمينا إلى دَورها كوَسيط غير رسمي. نهضت على قدميها، وخصلات شعرها السود مربوطة على شكل ذيل حصان بإحكام شديد، بحيث شدَّت عينيها وانتشرت خلفهما في كتلة شعر كثيفة خشنة من اللفائف المتشابكة الفوضوية، وقالت:

ـ إليكن ما سنفعل. سوف نلعب لعبة، والفائزة تحصل على الوعاء.

أعلنت ياسمينا ذلك باحثة في أرجاء الغرفة عن شيء ما. خطرت في بالها الفكرة من لوحة بالونات رسمها طفل. أخذتها وجمعت قواعد اللعبة في صياغة مرتجَلة. أوضحت، وجسدها النحيل يسبقها، قائلة:

ـ تُسمَّى لعبة البالون. ولكي نلعب اللعبة، عليكن بالوثب على قدم واحدة في خطٍّ مستقيم وأنتن تقلن كلمة «بالووووون» في نفَس واحد حتى ينفد منكن الهواء. مَن تثب إلى أبعد مسافة تفُز.

لا أذكر مَن التي فازت، إلا أنها لم تكن أنا. لكنني أذكر من تلك الليلة نظرة درينا الشيطانية، بالضبط قبل أن ترش الطلاء على ياسمينا التي خرجت من اللعبة عندما انفجرت درينا في ضحكتها المربِكة. قفزتُ لمساعدة ياسمينا مع أنابيب من الطلاء الأزرق الذي رششناه على درينا، في حين ألقت ليلى

الطلاء عشوائيًّا من الوراء محتمية بشقيقتها. لم تنحَز مني إلى أيٍّ من الجانبين، ورشقت لفائف من الورق المعجَّن على كل من كان في مرمى نيرانها. تناثر الطلاء على تلك الصور من تلك الأمسية، وضحكنا حتى بَحَّ صوتي فيما بعد عِدة أيام. بقينا إلى وقت متأخر من تلك الليلة، في محاولة لتنظيف آثار معركة الطلاء. وعندما عدت لزيارة دار الأيتام بعد سنوات جمَّة، رأيت مجموعة من الفتيات الصغيرات، يلعبن لعبة البالون في الفناء خارج استوديو الفن.

ضبطتني الآنسة حيدر، في صباح اليوم التالي، وأنا عائدة إلى مسرح الجريمة لاسترداد بطَّانيتي. كانت تنتظر عندما تسلَّقت عبر نافذة غرفة الفن التي كنا نتحايل لنبقيها غير مقفلة، من دون أن ينتبه أحد. لقد خفَّ أخيرًا ألمُ استجواب الآنسة حيدر لي، والذي دام خمس ساعات، بفعل استحسان درينا حين أدركت أنني لم أشِ بأحد. لقد كان كسب احترام درينا جائزة.

* * *

على الرغم من أنه كان لدينا قليل من كل شيء، وكثيرًا ما تمرُّ الأيام من دون طعام كافٍ، فإن ذكرياتي عن تلك السنوات في نهاية المطاف هي ذكريات سعيدة وغنية في الروح والجوهر. كانت فصول الشتاء في القدس بيضًا وقاسية، وقاومْنا برْد ليل الشتاء القارس ببطَّانية واحدة رمادية واهية لكلٍّ منا. كان منافيًا للقوانين تقاسُم الأسِرَّة أو دفعُ بعضها إلى جانب بعض، وكانت هناك عقوبة قاسية إذا تم ضبطنا؛ لكننا غالبًا ما خرقنا ذلك القانون، متشاركات في البطَّانيات وفي حرارة الجسم. جاءت فتاة جديدة اسمُها مها إلى الدار بعد سنة من وصولي، وقد بلَّلتنا جميعًا في إحدى تلك الليالي، عندما كنا متجمِّعات معًا في نوم دافئ. بقيت مها بضعة أشهر فقط، لكننا أصبحنا بعد تلك الحادثة أكثر انتقائية بخصوص مَن نسمح لها بالانضمام إلى شلَّتنا.

كانت أُم أحمد، الطاهية، تجهِّز ثلاث وجبات كل يوم، لنحو مائتين من الفتيات في سن النمو. وجبة الفطور التي كنت غالبًا ما أصل إليها بعد فوات الأوان، مكوَّنة من شريحة واحدة من الخبز وكمية غير محدودة من الشاي الساخن. وجبة العشاء كانت تكرارًا لوجبة الفطور، مع إضافة شريحة من «المورتديلا». نادرًا ما تغيَّر محتوى هذه الوجبات على مدى السنوات الأربع لإقامتي هناك. الغداء، من ناحية أخرى، شكَّل الوجبة الرئيسة، وكان دائمًا نوعًا من اليخنة مطبوخةً في مِرجل معدني ضخم، ويقدَّم مع الأرز. أمكننا أن نأكل القَدر الذي نشاء من اليخنة حتى تنفد. المشكلة أنَّ اللحوم الوحيدة في الطبيخ هي لحم الصراصير التي كانت تعيش بأعداد كبيرة في المطبخ.

اعتدتُ ذلك أيضًا. في الواقع، كثيرًا ما عقدنا مسابقات لنرى مَن يمكنها أن تلتقط أكبر عدد من الحشرات من اليخنة في طبقها. كان ممكنًا رصد الأخطار الداكنة اللون بسهولة في أطباق يَخاني البامية والبندورة، لكنَّ الأمر كان أصعب بالنسبة إلى الملوخية الداكنة اللون. في تلك الأيام، حدث مرارًا أن أكلت فتاة تعِسة صرصورًا من طريق الخطأ.

وقد حظيَت منى بهذا الامتياز التعِس ذات مرة؛ بعد أن التقطت ثلاث حشرات من طبقها ورمتها، اطمأنَّت إلى عدم وجود حشرات أخرى، فأكلت طبقها كاملًا، لكنها ما لبثت، أمام اشمئزاز شديد مسموع من الجميع، أن أخرجت من بين أسنانها خيوطًا رفيعة غامقة اللون تبيَّن لنا أنها أرجل صرصور مكسوَّة بالشعر.

صاحت إحداهن:

ـ منى جلايطة أكلت صرصورًا!

وانفجرت غرفة الطعام كلها بالضحك والهتاف بابتهاج شديد ـ «منى! منى!» ـ حتى اندفعت الآنسة حيدر إلى المشهد تأمرنا ـ نحن «الحيوانات» ـ بالتزام الهدوء. ولم يستمر الهدوء طويلًا؛ إذ حالما ابتعدت الآنسة حيدر استؤنف الضجيج، بينما جاءت الفتيات إلى طاولتنا مُعرِبات عن تعازيهن، ومؤدِّيات الإجلال لمنى، وكأنها جريح أُصيب في معركة.

قبل وجبات الطعام، كان علينا أن نصطفَّ في طابور بفناء صغير جدًّا خارج قاعة الطعام. وكانت الآنسة حيدر تُصرُّ على أن نقف في خمسة صفوف متباعدة بالتساوي قبل أن تسمح لنا بالدخول. قبِلنا سلوكها الغريب والغبي كشَكل من الخَبل الذي لم يحدِّده العلم بعد، لأنها كانت بالفعل تستهلك الوقت لقياس المسافات بين الفتيات في كل صفٍّ. كانت هذه العملية مؤلمة للجميع، وخصوصًا في فصل الشتاء، باستثناء الفتيات الثلاث اللواتي وصلن إلى الفناء في الوقت المناسب للحصول على «مواقع الأنبوب». كانت هذه أماكن حول أنبوب معدني طوله قُرابة الثمانين سنتيمترًا، ويمتد متسلِّقًا جدار الفناء لتنفيس البخار الساخن المتصاعد من المطبخ. وقد شكَّل هذا الأنبوب مصدرًا للحرارة؛ يمنح الدفءَ مَن يقف قرب أحد جوانبه الثلاثة المكشوفة منتظرًا أن تنتهي الآنسة حيدر من ثرثرتها، وعملياتها السخيفة في قياس البعد بالعصا التي تحملها. لم يمنحني تأخُّري المتكرِّر ترَفَ الوقوف بجانب أحد مواقع الأنبوب، ولم أتمكَّن قطُّ من أن أعتاد الوقوف في البرد نصف ساعة بهذا الشكل.

لقد حصلتُ مرة واحدة فقط على امتياز الأنابيب. لم يكن ذلك لأنني وصلت إلى الفناء في الوقت المناسب، بل لأنَّ دَرينا أشفقت عليَّ حين رأتني واقفة في الطابور في إحدى الليالي الباردة، وعلامات الحمَّى تبدو واضحة على وجهي. عندها أمرَت درينا فتاةً صغيرة اسمُها سونيا ـ تقف

في أفضل مواقع الأنبوب ـ بأن تسمح لي بأخذ مكانها. قبِلتُ شاكرةً، وأنا أرتجف في تلك البقعة الدافئة، إلى أن تمكنّا من دخول قاعة الطعام لتناول عشائنا المكوَّن من قطعة واحدة من «المورتديلا»، وشريحة من الخبز، وكلِّ ما نرغب في شربه من الشاي.

تعافيت طبعًا في ظلِّ رعاية ليلى، وبفضل تدابيرها العشبية وكماداتها الباردة. لم يُفاجَأ أي منا، أو يُصَب بخيبة أمل، عندما أعلنت ليلى ذات ليلة أنها سوف تعتنق المسيحية، لتنضمَّ إلى الدير بعد التخرُّج، وتعيش مع الأخت «كلير». ظنَّت درينا أنها حالة نفسية موَقَّتة تمر بها أختها، لكن ليلى انضمَّت في آخر الأمر إلى جماعة «راهبات الكَرْمِليتْ»، مكرِّسة حياتها لله وللفتيات اللواتي ذهبن للعيش في «دار الطفل للأيتام». كنا حينها نخطو نحو مرحلة البلوغ المبكرة، خلف جدران حجرية، وتحت مراقبة شديدة من حيدر.

لولا رعاية ليلى لي لعِشت في دار الأيتام حليقة الرأس، لأن شعري غالبًا ما انتشر فيه القمل. كان يوم التفتيش على القمل هو اليوم الأول من كلِّ شهر. وكنا قبل بداية الشهر بعِدة أيام، ننشغل جميعًا بالتقاط القمل بعضنا من شعر بعض، على أمل تجنُّب ماكينة الحلاقة المفزِعة. كنا نصطف في سلسلة، نقتلع القمل ونرميه في علب مليئة بالكيروسين. وقد اعتنت ليلى بشعري. وبفضل «المشط الأبيض» لياسمينا ـ وهو ابتكارٌ آخرُ من ابتكاراتها البارعة ـ الذي أمكنه أن يقتلع المئات من الحشرات الصغيرة بضربة واحدة، لم يلتقِ شعري الأسود الطويلُ قطُّ ماكينةَ الحلاقة.

حدثت «قِصَّة حِلاقة» حزينة لفتاة شابة جميلة اسمها سعاد، وكانت على وشك التخرُّج والزواج. كان شعرها الكستنائي الجميل قد نما إلى خصرها عندما ادَّعت حيدر أنها وجدت فيه قملًا. لم يكن في وُسع أيٍّ منا التدخُّل،

إلا بالاستماع إلى صرخات سعاد، بينما خصلات شعرها المتموِّج تسقط على الأرض. اعتقدت درينا أنَّ حيدر كانت تغار من سعاد، واخترعت قصَّة العثور على قمل في شعرها، لتُشبع غريزة مرض الحسد لديها. قالت درينا:

ـ لقد عرفتْ أنَّ سعاد سوف تتزوَّج... ولم يكن ممكنًا أن تتحمَّل العجوزُ الشمطاء ذلك.

وافقنا معها جميعًا.

كانت لغة حرف الزاي من ضمن الابتكارات العظيمة الأخرى لياسمينا؛ وهي لغة اخترعتْها بإدخال لفظ حرف الزاي في الكلام بعد كل حرف صوتي. ولسُخط الآنسة حيدر الشديد، أصبحنا نُجيد هذه اللغة بطلاقة تامة، وسمَّيناها «لغة العصافير». وقد لجأنا إلى اعتمادها كوسيلة للتهكُّم والسخرية من بدانة حيدر ومن فتْحتَي أنفها اللتين تذكِّراننا بمناظر المهرِّجين والبهلوانيين.

الصداقات التي كوَّنْتها في دار الأيتام، كانت واسطة العقد في جواهر أعزِّ ذكرياتي عن مرحلة المراهقة. طبعًا، لم أتمكَّن قطُّ من تكرار الرابطة التي كانت بيني وبين هدى. أنا وهي، كنا مقيَّدتين إلى الأبد بطفولتنا، بستة أيام من الرعب في حفرة المطبخ، وبأُخوَّة ظلَّت بلا مثيل طوال حياتي. لكنَّ القدر كان قد أحدث شرخًا في حياتنا، واضعًا إيانا على مسارين متوازيين ومتباعدين.

استطاعت هدى زيارتي مرة واحدة في السنوات الأربع التي قضيتها في دار الأيتام. وعلى الرغم من أنَّ السفر إلى القدس كان صعبًا، فقد وصلت إلى هناك مع أسامة في شباط (فبراير) ١٩٧٣، ليخبراني بأنهما ينتظران طفلهما الأول. تفتَّح في وجودهما معًا إشراقٌ رائع وهادئ لم أستوعبه آنذاك، والحياةُ التي تنمو في داخلها تبعثُ هالة من الوعد والأمل حولهما معًا.

في بداية اللقاء، لم أستطع العثور على صديقتي الحبيبة في تلك الحسناء

التي بدت ناضجة، وفيها من المرأة أكثر بكثير مما لديَّ. بدت فاتنة ومغرية، عيناها جزءٌ منهما نمر وجزءٌ بشر. لكنَّ شخصيَّتها الراسخة والرقيقة هدَّأت من حدَّة جمالها، ووجهُها فيه جاذبية ترتاح إليها. حتى بعد عقود لاحقة، وبعد أن خربش الزمن خطوطًا على خدَّيها وغضَّن حكايات العمر في جبينها، أمكن وجْهَ هدى أن يبقيك مأسورًا حين تبحث عن السِّر الذي عرفت أنه هناك، تمامًا وراء الخطوط الصفر في عينيها. هي لم تدرك قطُّ جمالها الفريد، وهذا ما جعلها أروع.

ـ لقد اشتقتُ إليك.

قالتها والدموع على حواف عينيها. أعتقد أنني في تلك اللحظة من حياتي، أحسست أول مرة بفتور في قلبي، ووجدت جدران ماما تتوطَّد في داخلي. لقد أخافني التفكير في أنه أمكنني بسهولة كبيرة التخلُّص من ألم الخسارة والانفصال. وثبتُ نحو صديقة طفولتي، كاتمةً اكتشافي، وتنهَّدنا الواحدة على كتف الثانية. بكت لأنها أحبَّتني، وكانت قد شعرت بفراغ كبير في حياتها منذ أن غادرت جنين. بكيت لأنني لم أتمكَّن من الإحساس بالعاطفة بمثل القوة التي أحسَّت هي بها.

في أثناء محاولتي الاحتفاظ بتوازُن مِشيتي في حياة اهتزَّت بعدم اليقين، تعلَّمت المسالَمة مع الحاضر من طريق قطع خيوط حب الماضي من دون دراية مني؛ حيث كبرت في أجواء من الأحلام المرتحَلة وأشواق وطنية مجرَّدة، كل شيء بدا موقَّتًا بالنسبة إليَّ. لا يمكن النظر إلى أي شيء على أنه باقٍ، لا الآباء ولا الإخوة ولا الوطن، حتى جسدُ المرء غير محصَّن أمام الرصاص إلى ذلك الحد. كنت قد تقبَّلت منذ زمن طويل أنني في يوم ما سوف أفقد كلَّ شيء وكلَّ أحد، حتى هدى. فهمت ذلك بين ذراعَيْ أعز

صديقة لي في ذلك اليوم، وبكيت بأنانية لأجلي أنا، وعلى البلُّورات التي تتجمد فوق قلبي. بكت هدى:

ـ أنتِ أعز صديقة لي. جِنين من دونك ليست كما كانت.

تعلَّمتْ هدى أن تحبَّ ما هو موجود لديها، وأن تأخذ ما أمكنها من حلاوة الحياة، مرتكِزة على ذكرياتها مصدرًا للقوَّة. مخيم اللاجئين كان مقبولًا بما يكفي. وجدَت العزاء في الروابط التي صاغتها من أوتار قلبها. أمكنها بالإيمان والصلاة أن تحقِّق الصفاء، حتى بعد أن خرَّب نهبُ الجنود منزلها في بحثهم اللانهائي عن «إرهابيين». كان كلُّ ما يهمُّها هو أنه كان في وسعها العودة إلى أحضان الحب في نهاية كل يوم.

أمضينا زيارة هدى داخل نطاق المدرسة، حيث لم يسمح لي بالمغادرة، في حين ذهب أسامة إلى البلدة القديمة. قدَّمتُ هدى إلى شلَّة دار الأيتام، احتضنتها البنات بحماسة دافئة، وقضينا النهار في العالم الممتع للنساء الشابَّات. اصغَينا بكل جوارِحنا إلى ردود هدى عندما استجوبَتها درينا عن الجنس، لأن هدى كانت الوحيدة بيننا التي مرَّت بالتجربة الغامضة العظيمة. أخذنا بالدور نُصغي إلى بطنها، نحاول إيقاظ الجنين. لقد تحرَّك عددًا من المرَّات، مثل ظلٍّ من وراء ستار، وصرخنا بفرح في كل مرة؛ بسبب الإحساس السحري، والمُعجزةِ التي يمكن أن يستثيرها الأطفال والأجنَّة فقط بمجرَّد تحرُّكهم. أكلنا نحن الستة من لحم الضأن باللبن الذي كانت هدى قد جلبته معها. قسمت ياسمينا اللحم، مركِّزة نظرَها وراء عدستَي نظَّارتها ضمن إطار الأسلاك المعدنية. قالت هدى:

ـ تلك النظَّارة غريبة يا ياسمينا. لم أرَ قطُّ إطارًا مثله قبلًا!

أجبناها جميعًا معًا:

ـ لقد صنعَتها بنفسها.

قالت درينا بفخر غير معهود:

ـ ياسمينا تصنع وتخترع أشياء باستمرار.

ـ يمكنني أن أصنع لكِ زوجًا يا هدى، إذا كانت لديك العدسات.

عرضت ياسمينا ذلك، وقد اتَّسعت عيناها متشوِّقة إلى فرصة صنْع شيء ما.

* * *

على قدر ما كنا نريد أن نؤمن أن لا شيء سيتغيَّر، وأننا سوف نبقى عائلة من خمس صديقات إلى الأبد، فقد زحف التخرُّج نحونا. عندما حلَّ العام ١٩٧٣ ، كانت درينا قد تخرَّجت منذ سنتين، لكنها بقيت في دار الأيتام مُعلِّمة رياضة، وتلقَّت دروسًا في الجامعة الإسلامية. كانت ليلى قد باشرت بالفعل رحلتها في الدين المسيحي، وانتقلت إلى دير لتعيش فيه وراء جدران حجرية أخرى. تخرَّجنا معًا، أنا وياسمينا، في تلك السنة، وكلتانا بتفوُّق. أما منى فكان لا يزال أمامها سنة أخرى.

مع أنَّ ياسمينا كانت الأذكى والأكثر مواظبة بيننا، فإن المنحة الدراسية كانت من نصيبي بدلًا منها. عَرض المنحةَ للَّاجئين الفلسطينيين مجموعةٌ من العرب الأمريكيين الأثرياء. ولأن عائلة ياسمينا كانت قد هاجرت إلى أمريكا اللاتينية، ولم تعش قطُّ في مخيم للَّاجئين، لم تنطبق عليها المعايير المطلوبة. أظن أنَّ فرصة الحصول على دراسة جامعية في الخارج، جعلتها تتمنى أن تكون قد عاشت في مخيم للَّاجئين.

خرجتُ واثقة ومستنزَفة من آخر يوم من خمسة أيام شاقَّة من الاختبارات

الأكاديمية، وانتظرت الحكم. أردت بشدَّة أن أفوز بتلك المنحة الدراسية، بُغية تأكيد استحقاقي لها لا أكثر. لم أستطع أن أتخيَّل الذهاب إلى أي مكان سوى العودة إلى أُلفة جنين، أو ربما كنت سأظل في دار الأيتام للتدريس، مثل درينا. طبعًا، لم أكن مستعدة للذهاب إلى الولايات المتحدة، حيث ستقودني المنحة الدراسية. العالم داخل الوطن أخافني بما فيه الكفاية، فما كنت لأُخاطر بالدخول في عالم غير مألوف؛ حيث لا أحد يتكلَّم العربية، وحيث لا أعرف أماكن للاختباء. الحصول على علامات عالية كان غاية في حدِّ ذاته. كان والدي يرغب لي في التعلُّم، وكنت قد أطعته، وزرعت حياتي في تربة حلمه. أنا ببساطة لم أكن أخطِّط لمستقبل بعيد.

ولكنَّ ياسمينا كانت تملك نبوغًا صغيرًا من التبصُّر، ووضعت خططًا، وخططًا احتياطية. لقد صفعتني بقوَّة على وجهي عندما قلت لها، بطريقة عرَضية، إنني قد أرفض المنحة الدراسية.

ـ مَن تظنين نفسك، لرفض نعمة كهذه؟

قرع سؤالُها ناقوسًا في أذني. من خلال مصادفات استثنائية فقط، وحظٍّ نادر، يمكن أن يحظى شخصٌ مثلي بفرصة كهذه؛ ضِمن قدَرٍ يُرثى له كان من نصيبي منذ الولادة. مَن ظننتُ نفسي حقًّا؟

كانت ياسمينا تصرخ الآن، لا في وجهي، بل على شيء غير مرئي:

ـ كم كنت مستعدَّة لأضحي بكل شيء لكي أحصل على هذه المنحة الملعونة!

صرخَت على قسوة الحظِّ الذي لم يلحظ ذكاءها، والساعات التي قضتها في الدراسة. كانت قد حلمت بالجامعة، ثم حلمت بشدةٍ أكبر عندما راجت شائعات عن منح دراسية.

شعرتُ بالخجل إزاء خيبة أمل ياسمينا. وفي ذلك المساء، بينما جلستُ وحيدة على الشرفة، فتحَت ياسمينا أبواب الصداقة على مصراعيها بنصيحة:

ـ لا تكوني غبية يا آمال! تجاوَزي الخوف.

قالتها، ودخلت تاركة معي على الشرفة لامبالاةَ هلالٍ غبيٍّ يهتزُّ في مهدٍ من الأثير الأسود المطرَّز بالنجوم.

عندما كنت طفلة، قال لي الحاج سالم إنه يمكن العثور على الإجابات في السماء، إذا نظرت طويلًا بتحديق شديد. أخبرني أنَّ ترتيب النجوم كان لوحًا من الهيروغليفية الإلهية التي يمكن حلُّ شفرتِها بواسطة القلوب المؤمنة. قدَّمتُ جرحي الأكبر قربانًا لهذا النسيج المزدان من النجوم. لم يتبقَّ لي في جنين أيُّ شيء سوى قُصاصاتٍ من طفولتي، وأطلالِ الأسرة التي فُقدت إلى الأبد؛ كلُّ ذلك متراصٌّ تحت أحذية الدوريات الإسرائيلية وجنازير دباباتها. إن عُدت، فإنَّ زواجًا لا مفرَّ منه ينتظرني بحسب عادات المخيم. نَدبتي البغيضة وجسدي المشوَّه جعلاني أرهب الزواج الذي كان بالتأكيد سيجلب مزيدًا من الرفض والهجر.

مَن كنت أنا، حقًّا؟ يتيمة مثيرة للشفقة، بلا جنسية، وفقيرة تعيش على الإحسان. كانت المنحة الدراسية الأمريكية هبة ليس من حقِّي أن أرفضها، فقد جلستُ برحمة على مسار أعظم تطلُّعات والدي تجاه أطفاله.

ما إن تبسَّم القمر في السماء، حتى توسَّلت إلى الليل لكي يفاجئني بحلم خاص بي؛ إذ إني طوال حياتي، لم أكن قد حلمت حلميَ الخاص بعد.

* * *

لم أكن أستطيع الرحيل من دون رؤية هدى وأسامة وطفلتهما التي سمَّياها «آمال».

أسهمت صديقاتي في دار الأيتام بكلِّ ما لديهن من نقود، كهدية في مناسبة رحيلي، مع أنَّ ذلك لم يغطِّ إلا جزءًا من أجرة التاكسي. ولكَم دهشتُ حين سدَّدت الآنسة حيدر بقية المبلغ بمائة شيكل. لكنَّ الباعث الأكبر على الحيرة كان ذلك العناق الذي رافق هديَّتها السخية. انتقلت عيناي من المال لتلتقي تلك المرأة ذات الوجه المغطَّى بالمساحيق، والتي رسمت حاجبَيها بقلم الكحل، وتؤدِّي مهمَّتها في إدارة دار للأيتام بطبع نكِد. تحت مظهرها الخارجي وجنونها الطفيف، رأيت انعدام الثقة، وشعرت بإحساس من الأخوَّة عندما وضعت ذراعيها حولي.

ـ شكرًا لكِ يا ست حيدر.

قلتُها بصدق.

ـ على الرحب. ارفعي رأسنا هناك.

غادرتُ متوجِّهة إلى جنين من دون أن أخبر أحدًا هناك؛ لأنَّني لم أرغب في أن يستقبلني حشد من الناس. وصلت إلى جنين مساءً، ومشيت مسافةَ كيلو متَرين في الجهة الأخرى من الخطِّ الأخضر، مارَّة عبر نقطتين من نقاط التفتيش الإسرائيلية. بالقرب من قرية «اللجّون» المفرَغة من سكانها، التقيت مُزارعًا فلسطينيًّا عرض عليَّ الركوب في عربته التي يجرُّها ثور، إلى «زِرعين» الواقعة في محيط مدينة جنين. رفض أن يتقاضى مالًا:

ـ عيبٌ أن آخُذ نقودًا من عربية من بناتنا.

وهكذا شكرتُه ومشيت ما تبقَّى من الطريق. تمركزتْ ثلاث دبابات إسرائيلية على المرتفعات المطلَّة على المخيم. دائمًا هناك. دائمًا تراقب.

كان الظلام قد خيَّم عندما بدأت نزول التل متَّجهة نحو متاهة من البيوت الفقيرة والأزقَّة العشوائية، لكنني لم أكن بحاجة إلى ضوء لاجتيازها. أمكنني ببساطة أن أغلق عينَي وأرى المسارات الترابية المنحوتة بين البيوت. كان هناك قُنٌّ لِدجاج عمِّي درويش، وكان في الماضي أفضل بقعة لديَّ للاختباء. أمامه بمتر واحد كانت نافذة لمياء، معلَّقة على مستوى العين، وعليها قضيبان معدنيان كان والدها قد لحَمهما هناك بعد أن ضبط صبيًّا ينظر إلى الداخل. ثم انفصل المسار إلى ثلاثة، وسلكتُ المسار الأوسط، الأضيق، في اتجاه منزل هدى. كانت المساكن متقاربة على جانبَي الأزقَّة، ويَبعد بعضها عن بعض مسافة عرضِ الكتِف، ومرَّرت راحتَيَّ على حجارة جدرانها الطينية، تمامًا كما فعلنا، أنا وهدى، دائمًا. لمعت أضواء من بعض الشبابيك، وعكست الأشكال المظلَّلة لنفوسٍ تعِبة تتنقَّل هنا وهناك، لكن معظم المخيم كان نائمًا. تحوَّلت الأرض إلى جوقة من الصراصير، وقطعانٌ من القِططة البرِّية تجمَّعت على أكوام القُمامة تبحث عن طعام فاسد، أو عن الفئران التي طافت بحثًا عن الطعام في المنطقة نفسها. لو لم أكن أعرف الشهامة الدائمة لدى الناس في المخيم، لخَشيتُ أن أكون هناك وحدي بعد حلول الظلام.

توقَّفت عند بابٍ معدني أزرق، منبعِج ومخدوش. طرقتُ الباب خفيفًا.

ألقى أسامة نظرة خاطفة من خلال ثقبٍ صدئٍ، قبل أن أسمع النشيج الرنيني للِسان القُفل يُفتح على عجل. ابتسامة أسامة العريضة جعلت حاجبيه يقفان منتصبَين بلطف تحت فوضى شعره الهائج، وطبيعتُه الطيِّبة المألوفة رحَّبت بي بعينَين فرِحتين.

قال مبتهجًا، مشيرًا عليَّ بأن أدخل فناءهم الصغير:

ـ أهلًا! أهلًا!

كان مصباح كهربائيٌّ وحيد يئنُّ في الزاوية البعيدة، استطعتُ أن أميِّز تحته شكلَ دجاجاتٍ تنام على فِراش من القش. نبتت الخَضراوات في وعاء مستطيل تم طلاؤه يدويًّا، بلا شكٍّ، بيدَي هدى. أوقفني أسامة عند اقترابي من مدخل بيتهم، والظلالُ تكشف عن مكرٍ محبَّب في وجهه. قال واضعًا إصبعه على شفتيه:

ـ اششش! دَعينا نفاجئها.

قادني ونحن نسير على أطراف الأصابع إلى بيتهما. تبِعته وأنا أراقب الصبيَّ الصغير من طفولتي، وهو الآن زوجٌ وأب مع شاربٍ ناعم يعشِّش على وجهه الصبياني الذي يتسرَّب منه حُبٌّ لعائلته لا يمكن كبْتُه. في وقت لاحقٍ، منحَتني مشاهدتي لأسامة وهدى معًا إحساسًا راسخًا بأنهما قد خُلق أحدُهما للآخر. بعد ثلاث سنوات من الزواج، كانا يتحدَّثان فيما بينهما بطريقة ما، وكأنهما قطَّتان تلهوان.

طوَّقتني هدى بذراعَيها عندما أقحمتُ رأسي داخل المطبخ. وكما كان متوقَّعًا، انخرطتْ في البكاء، وأخذنا، أنا وأسامة على حدٍّ سواء، نسخر من حساسيَتها بمزاح جَذِل.

أخذاني إلى مهد آمال الصغيرة. كانت طفلة مكتنِزة، بشَرتُها زيتونية مثل بشرة والدتها، وشعرُها أسود أملس قطني. قدَّرت حجم كل كومة من الدهن على ساقيها وعنقها وبطنها، بقَرصات لطيفة وقبُلات بينما كانت نائمة، وهدَّدتُ هدى وأسامة بأنني أتطلَّع إلى كشف خِدَعهما الماضية لآمال الصغيرة، حالما تكبر، لكي تتورَّط هي أيضًا في متاعب مشابِهة. توسَّل أسامة:

ـ افعلي ما تشائين، لكن أرجوك، لا توقظيها!

وتبادلا نظرة أفشَت سرَّ الفصل الرومانسي الذي كان قد قوطع بفعل زيارتي.

استغرقنا ثلاثتُنا في الذكريات، وأسَرَتنا النميمةُ عن المخيم. كانت البديلة التي حلَّت مكان «جاك أومالي» امرأة إنجليزية لطيفة، لكنها باردة، اسمها «إيما»، وهي نادرًا ما أمضت الليل في المخيم. تم ضبطُ عمِّي درويش يبيع الهدايا التذكارية للسيَّاح في القدس من دون تصريح، وكان يقضي حكمًا بالسجن ثلاثة أشهُر عن هذا الجُرم. هدى أصبحت صديقة حميمة لفاطمة. قالت هدى عنها:

ـ فتاة بَلهاء؛ لقد رفضت كل الخُطَّاب.

كان واضحًا، وإن لم يُقَل، أنها لن تقبل بأي رجُل سوى يوسف أخي.

ذهب أسامة إلى الفراش في الساعة الثانية تقريبًا، تاركًا إيَّانا لِـ«حديث الفتيات». مهما كان ظنُّه بماهية ذلك، فهو لم يرغب أن يكون له أي دور فيه. ناضلَت هدى للبقاء مستيقظة، لكنها سقطت أمام نداء النوم وهَدهدة يدي وهي تمسِّد شعرها. لكنَّ شيئًا ما في داخلي، خائفًا ومترقبًا، أبقاني يقِظة طوال الليل، ولم يتمكَّن الأرق من ترويض الهواجس التي تنمو، بينما يزحف مستقبلي ويزداد اقترابًا.

مصحوبةً بالقلق، خرجتُ إلى الظلام وتسلُّقت إلى سطح مسكن هدى. في فصول الصيف الحارَّة من طفولتنا، كنا، أنا وهي، قد قضينا لياليَ لا تُعدُّ نائمتين على السطوح الباردة لأكواخنا، نتبادل القصص والقهقهة والنميمة. من هذه النقطة الكاشفة، امتد تحتي مخيم اللاجئين التابع للأمم المتحدة في كيلو متر مربَّع واحد، تتكوَّم فيه نفوس كثيرة بانتظار طويل وعنيد للعودة إلى فلسطينِهم. سرعان ما أعلن الأذان نداءه الأول، بينما سارت الشمس ببطء في

اتجاه السماء، قادمة من وراء التلال. لحنُ الأذان غمرَني كما لو كان ذراعَي بابا القويَّتين، ونسيمُ الفجر رفرفَ على جِلدي مثل وِشاح ماما الحريري. ارتفعت الشمس خلف الدبابات الإسرائيلية وبرج المراقبة، وغمرَ اللون البرتقالي السماء، فأضاءتِ الجزءَ الذي كان قد غبرَ من حياتي، ويتعذَّر استردادُه. شعرت بتَوق شديد إلى أيامي في مخيم اللاجئين هذا. لكن ميراثي كان حياةً مغتصبةً، طالبتُ بها حينها وهناك، بكل قوةِ ارتباكي وتشوُّقي، بينما صاحت الدِّيَكة معلنة عن يوم آخر.

تركتُ لهدى رسالة بجانب القهوة في مطبخها، أول مكان تذهب إليه عندما تستيقظ. في داخل المغلَّف، وضعت قِلادة مع حِلية ذهبية صغيرة تحمل نقشَ آية الكرسي لتحميَ آمال الصغيرة.

انطلقتُ في اتجاه أقرب معبر إلى إسرائيل، حيث كنت آمُل أن أجد سيارة أُجرة عائدة إلى القدس. استنشقتُ نكهة الفلافل الطازجة المعلَّقة في الهواء الساكن المحاصَر في أزقَّة العُمران الضيِّق. غنَّى قفصٌ من عصافير الكَناري على شُرفة أحدهم، واستطعت سماع الصرخات الخافتة لأطفال رُضَّع يستيقظون وراء الجدران الرقيقة. عدد قليل من الناس تنقَّلوا في الجوار بادئين يومهم، وتقافزت الدِّيَكة أينما أمكنها أن تجد حيِّزًا. شعرتُ بألم المغادَرة حين قادتني ساقاي نحو باب الحاج سالم.

ها هو هناك، جوهرُ مرحِ طفولتي، يتنقَّل في الجوار عند بابه الأمامي. وقفت بعيدًا بحيث لا يمكنه رؤيتي، أراقبه وهو يقوم بمحاولات عقيمة ليَكْنس التراب المُصِرَّ على الانتشار عند عتبَته. استند ظَهري إلى جدار، وسمحتُ لجسدي بالانزلاق، فجلست القرفُصاء على الأرض، بينما كان الحاج سالم يدفع المكنسة بحركات تدلُّ على التهاب المفاصل. ممسِكة

بِرُكبتَيَّ قريبتين من صدري، فكَّرتُ في الاقتراب منه ولمْسه، لأتسوَّل قصَّة واحدة أخرى فقط عن فلسطيننا المسروقة. ربما واحدة عن الراعي الخليلي الذي قطع كلَّ الطريق حتى عكا بحثًا عن نعْجته.

لقد عشتُ ورأيتُ كلَّ شيء. أولئك الخلايلة رؤوسهم قاسية. أظنُّ أنَّ هذا هو السبب الذي أوجد اللهُ لأجله الكثيرَ جدًّا من الجرانيت في الخليل؛ وإلا كانوا سيكسرون الجبال برؤوسهم.

كان يقول ذلك، ويضحك ضحكته الرائعة بلا أسنان.

اغرَورَقت عَيناي بالدموع، وسحبتُ ركبتَيَّ أقرب إلى صدري.

سمعتُه يقول بنبرة إحباط رتيبةٍ، وهو يعود إلى بيته:

ـ الله يلعن الغبار!

انتظامُ معركته اليومية الهزلية ضد الغبار، وهزيمةُ الغبار اليومية له، جعلاني أبتسم، فسحبت نفسي واقفة على قدميَّ مع خبطة إغلاق بابه المعدني.

* * *

في القدس، ذهبت لاسترداد حقائبي من دار الأيتام، ولأقول «وَداعًا» لتلك المدينة، ولكلِّ ما أصبحت تعنيه بالنسبة إليَّ. عندما مددت يدي إلى جيبي، وجدت مغلَّفًا مغلقًا. ابتسمت ابتسامة عريضة؛ إذ عرفت أنه كان رسالة من هدى. وضعتْها في علبة قديمة من القصدير كنت قد تلقَّيتها هدية في أحد الأعياد، ضمن هبَة خيرية من إحدى دوَل الخليج الغنية قبل بضعِ سنوات. كانت مخدوشة ومنبعِجة وتحتوي على أغلى ممتلكاتي: غليون بابا، وقطعة الصدر من ثوب ماما الثمين، ووشاحها الحريري الباهت اللون، والنرد الذي أرجعَته إليَّ لمياء وهي تشعر بالذنب، وحزمة

من رسائل منى جلايطة تراكمت على مدى السنوات الأربع التي قضيتُها في دار الأيتام.

على الرغم من أننا عشنا في المهجع نفسه، كنا، أنا ومنى، نتبادل عبْر الرسائل: أسرارَنا، وما يجري في دار الأيتام. لقد كانت وسيلة للتغلُّب على العُزلة والملل في حياتنا. وكما اتَّضح فيما بعد، سوف تصبح هذه الرسائل تأريخًا لأوقاتٍ تقاسمْنا فيها الطعام الإضافي، والتقطنا الحشرات من وجبات طعامنا، ومشَّطنا القمل بعضنا من شعر بعض. لقد رسمَت ألوانَ الصداقات التي وُلدت من الحاجة المتبادَلة إلى البقاء والتقارب. كانت تحتوي على حكايات عن «المشط الأبيض»، وألعاب سخيفة اخترعناها، ومغامراتنا في اقتحام استوديو الفن والعيادة، لسرقة دهانات ولوازم تمريض نقدِّمها إلى ليلى. غالبًا ما كتبَتْ أيضًا في تلك الرسائل عن الصبي الذي كانت تحبُّه. كان اسمه أيضًا أسامة. اعتدتُ أن أمزح بأنني شعرت بكَوني مضطرَّة إلى الزواج بشخص ما يحمل هذا الاسم؛ لأن كلًّا منهما، هي وهدى، أعزَّ صديقتين لي، ستكونان متزوِّجتين «أسامتين» اثنين.

* * *

أفكِّر في تلك السنوات بحنين إلى الماضي. صحيح أنه لم يكن لدينا في ليالي الشتاء تدفئة أو مياه ساخنة للاستحمام، لكن كان لدينا كثير من الأشياء التي أدفأت أرواحنا. كنا صديقات تبادلنا الأدوار كأمهات وأخوات ومعلِّمات ومُعيلات، وأحيانًا كبطانيات. تقاسمْنا كلَّ شيء؛ من الملابس إلى أوجاع القلب. ضحِكنا معًا ونقشنا أسماءنا في حجارة القدس العتيقة.

كنا كلنا قد زحفنا من حُفر الطرد والتجريد، وحاولنا بأقصى ما استطعنا البقاء على قيد الحياة تحت الاحتلال. أعظم المتَع بالنسبة إلينا كانت لحظات

من الحياة نقضيها معًا. الافتتان بصبي. لعبة ورق الشدة. رواية النكات القذرة في أثناء غسل ملابسنا بأيدينا على سطح المبنى ذي الطوابق الخمسة. كلمات للسجيع من معلِّمة. تشكَّلت الرابطة التي صُغناها من التزام غير منطوق به لعائلتنا الجماعي؛ وقد امتدَّت عبر التاريخ، انتشرت في القارَّات، اجتازت حروبًا، واتَّسعت لمآسينا وانتصاراتنا الجماعية والفردية. رابطة وُجدت في رسائل الصبا، أو في قِدر من ورق العنب المحشو. رابطتُنا كانت فلسطين. وكانت لغةً قمنا بتفكيكها لنشيِّد وطنًا.



الغُربة



(٢٤)

أمريكا

١٩٧٣

شعور بالنقص ميَّز الشهور الأولى التي عشتها في أمريكا. تخبَّطتُ في هذا العالم المفتوح الذي لا نهاية له، حاولت الاندماج، لكنَّ بشرتي الداكنة ولكنتي الأجنبية ظلَّتا تشِيان بأجنبيَّتي. لازمَتني حالة عدم انتمائي إلى «دولة» مثلَ رائحة عطر سيِّئ، أما اسم عائلتي العربي فقد ربط بيني وبين عمليَّات اختطاف الطائرات التي راجت في السبعينيات.

سألتني فتاة جميلة ذات شعر أحمر، في مطار «فيلادلفيا» الدولي:

ـ لا تقلقي، كلُّ شيء على ما يرام. ألم ترَيِ السلالم المتحرِّكة قبل اليوم؟

إذًا، هذا هو النطق الصحيح بالإنجليزية لكلمة «السلالم المتحرِّكة».

ـ لا بُد أنكِ آمال.

قالتها، وهي تمدُّ يدًا ناعمة ذات أظافر مدهونة بطلاء الأظافر.

ـ أنا «ليسا حداد». أُمي في الموقف تودِع السيارة. نحن العائلة التي ستستضيفك.

كانت «ليسا» أصغر مني، وكانت أجمل أيضًا وأكثر أناقة، طبعًا.

قلت لها، وأنا أنظر إليها بحسد خجول:

ـ مرحبًا.

قالت «ليسا» بحماسة، في أثناء المشوار القصير بالسيارة من المطار إلى بيتهم:

ـ لقد جهَّزتُ لك غرفة الضيوف.

كان من السهل الشعور بالمودَّة تجاهها، بل من الصعب ألا يشعر المرء بذلك. كان عالمها فاتِح الألوان، محميًّا عاطفيًّا، مؤَمِّنًا ماديًّا، وليس له تبِعات سياسية. كان سعيُها بهدف استحساني ورضائي يُشعرني بالاستغراب، لكن يستهويني أيضًا.

ـ شكرًا.

أجبتها من دون أن أكون على يقين من الإجابة الأمريكية المناسِبة لحماستها اللطيفة. جئت من لغة تجعل من التعبير عن الشُّكر لغة قائمة بذاتها: «الله يسلِّم هالإيد اللي أعطتني هالهدية»، «عينيك الحلوة هي اللي شافتني جميلة»، «الله يطوِّل عمرك»، «الله يتقبَّل منك»، «عقبال فرح ابنك... تَخرُّج ابنتك... سلامة أُمك...»، وغيرها من عبارات الشكر وعِرفان الجميل. لذا شعرتُ دائمًا أنَّ مجرد كلمة «شكرًا» تعبيرٌ غيرُ كافٍ، بل جافٌّ، يضع في صوتي رنَّة بخلٍ وعدمِ تشكُّر.

تأمَّلتُ المنظر العام لمدينة «فيلادلفيا». أشرطة من الأسمنت والأسفلت تمتدُّ وتتموَّج تحت أعداد هائلة من السيارات لم أرَ لها مثيلًا من قبل. صفوف من المنازل والمصانع والمستودعات تشرِف على الطريق السريع، والضباب

الذي يسبِّبه الدخان يطمس أفق وسط المدينة. فاحت رائحة المدينة داخل السيارة. رائحة شطائر اللحم مع الجبن والبطاطا المقلية لدى الباعة الجوَّالين، ودخان شاحنات الديزل، وعوادم السيَّارات، جميعها دخلت معًا قنوات أنفي بمنزلة ترحيب مدَوٍّ. مثَّلت هذه الروائح خسارة لا يمكن تعويضها لرائحة الزنابق البيض التي تنمو على الجدران الحجرية في فلسطين، وفجيعةَ فقْدان زهرة الحنَّاء التي تنطلق كل ربيع، ليفوح منها عبق عناقيد بيضٍ وصُفرٍ، رقيقة ونارية في وقت واحد.

تحدَّثت «أنجيلا حداد»، أُم ليسا، بهدوء، وهي تشير إلى متحف الفن، وتمثال «وليم بن»، وقاعة المدينة، ومبنى الاستقلال، ومعالم أخرى كنت أجهلها تمامًا. أبقت رقبتها مستقيمة، وكانت أصابعها الطويلة مُحكَمة على عجلة القيادة في سيَّارتها المرسيدس طوال الوقت، وهي تقودها عبر المدينة. كانت أناقتها مَهيبة. ومع أنها كانت كريمة ولطيفة جدًّا معي، فقد كان من الصعب عليَّ الاسترخاء في وجودها. سألت «ليسا» أمَّها:

ـ أُمي، هل سيأتي بابا في نهاية هذا الأسبوع؟

* * *

كان والد ليسا يعيش مع عشيقته، ويأتي لزيارة عائلته بين الحين والآخر. وكنت أشعر أنَّ هذا وضع غريب حتى التقيتُه. كان رجلًا طويل القامة ومغامرًا، تسلَّق السلم الاجتماعي، تزوَّج وريثة ثروةٍ اسمُها «أنجيلا»، فاستغلَّ مالها لتمويل علاقاته المُكلِّفة بالنساء، متفاخرًا بسلوكه في أندية الرجال وبيوت الدعارة في «فيلادلفيا». حين جاء إلى البيت ليصطحب ابنته للخروج، سأل «ليسا» وهو يومئ برأسه في اتجاهي:

ـ هل هذا مشروع أُمك الجديد يا حبيبتي؟

أجابته بعدم ارتياح:

ـ هذه آمال يا بابا.

ـ مَرحبًا أومار! اسمي «ميلتون دوبز».

قال مادًّا يده، فصافحتُه. وأضاف:

ـ هذا ما أحبُّه في أمِّك يا حبيبتي، فهي دائمًا تحاول إنقاذ العالم. ولهذا السبب تزوَّجتها.

قال ذلك وهو يرفع صوته، لتسمعه «أنجيلا» التي كانت تتجاهله واقفة خلف منضدة المطبخ.

ردَّت «أنجيلا» ببرود أنيق غير مبالٍ:

ـ لا، لقد تزوَجتَني من أجل مالي.

أجابت «أنجيلا» ابنتها، وهي ما زالت تشير إلى معالم أخرى في «فيلادلفيا»:

ـ أنا لست موقنة أنه كان سيأتي هذا الأسبوع يا عزيزتي.

ثم التفتت إليَّ وقالت:

ـ وهذا يا آمال سيكون بيتك في الأسابيع الثلاثة القادمة، أو مدَّة أطول إذا كنت تريدين.

قالت ذلك، وهي تتباطأ في أثناء دخولها ممر السيارات الدائري الطويل أمام منزلها.

عندما وصلنا الباب، اتَّسعت عيناي لاستيعاب ضخامة بيتهم الذي

لم يكن في وسعي أن أتخيَّل حتى الشبيه به من قبل. كان الثراء يرشح من غرفهم الضخمة النظيفة، وبصعوبة تمكَّنت من استيعاب إقامة «ليسا» وأمها وحدهما في ذلك المنزل الرحب الفسيح مع خادمة غير متفرِّغة.

من أوضح ذكرياتي عن ليلتي الأولى في الولايات المتحدة، النومُ أول مرة في حياتي على سرير حقيقي، لا على حصيرة أو فرشة ممزَّقة. مددتُ أطرافي، وتمرَّغت في بحر واسع وليِّن من الكَتَّان الأبيض الذي امتص التعب المتراكم في جسدي. كانت «ليسا» قد علَّقت فوق السرير مُلصقًا لرجل بشعر كالجلد، وسترةٍ من الجلد أزرارها مفكوكة، واقفًا وقفة مثيرة ولكنها كوميدية. أبلغتني «ليسا» أنها تعشقه، وأنه شخصية درامية تلفزيونية، وأنَّ اسمه «ألفُنْز». رأيت هدية لي مُسنَدة إلى الجدار: درَّاجة لونُها أزرق فاتح، ماركة «شوين» موديل ١٩٧٣؛ قامت «أنجيلا» بتعليمي الركوب عليها فيما بعد. وفي محاوَلة لحماية نفسي فوق ذلك السرير الكبير، لجأت إلى الماضي، فغلَّفت نفسي به وأنا أحرِّك يدي فوق الجلد المشوَّه لِبطني. وهأنذا محاطة بالترف على عتبة عالم مليء بالتساوي بالوعود والشكوك. كنت أبدأ حياة جديدة. ولكن، مثل الندبة التي أتحسسها بيَدي، لا يزال الماضي يلازمني.

تجوَّلت متحيِّرة في «فيلادلفيا»، وسط تناقضات الغنى والفقر، وابتسامةٌ يائسة تلتصق بوجهي. لم أجد أيَّ شيء مشترك بيني وبين هؤلاء الرجال والنساء الذين يمشون بعزم وثقة، ولا بيني وبين البشر النائمين على أرصفة المدينة. تعجَّبت من هؤلاء الأمريكيين الواثقين بأنفسهم وهم يذهبون إلى أعمالهم اليومية؛ يشترون البُقول، يسيرون إلى العمل، يأكلون الأطعمة اللذيذة، يتبادلون أطراف الحديث في مطاعم في الهواء الطلق. شعرت بنفسي ضئيلة؛ لا أنتمي إلى المكان، لكنني كنت متشوِّقة إلى الانتماء.

ساعدتني «أنجيلا» على استكمال كمية الأوراق الهائلة التي كان لا بُد من فهمها وتعبئتها، قبل أن أتمكَّن من البدء بالسنة الأولى من دراستي في جامعة «تمبل». لم أتعامل قطُّ من قبل مع هذه الكمية الهائلة من النماذج: للتأمين الصحي، للتسجيل في المكتبة، للهُوية الجامعية... والقائمة تطول. بَيد أني كنت جاهزة قبل بدء الدراسة، وبمساعدة «أنجيلا» انتقلت للسكن في مساكن الطلاب بالجامعة.

* * *

«إيلانا ريفرز»، تلك الحمقاء ذات الصدر الضخم، سألَت مسؤولةَ السكن هل ثمَّة نموذج خاص لتسجيل ثدييها. في الأشهر الأولى من الدراسة، كانت قد عزَّزت منزلتها بين طلاب السنوات المتقدِّمة كفريسة سهلة، وهي ميزة جعلتها تحصل على دعوات لحضور الحفلات الخاصة «للأخويَّات». كثيرًا ما كانت تعود إلى غرفة النوم في ساعات متأخرة من الليل، وهي تترنَّح وتحدِث الضجيج. وعلى الرغم من أنها لم تقم بأي محاولة للتحدُّث إليَّ، كانت في أحيان كثيرة تشير إليَّ باسم «العربية» وتلفظ: «آي ـ راب»، أو «الخرقاء».

شاهدتها ذات ليلة في ردهة السكن، وهي تتهكَّم صبيًّا بسيطًا يقوم بتوصيل البيتزا. سدَّد نحوها نظرات غرامية، وهو فاغرٌ فاه بشكل كوميدي في ذهول من شهوانيَّتها الفاسقة، مما جعلني أضحك ضحكة خافتة في أثناء مروري، فالتفتَت نحوي بحدَّة، وقالت:

ـ يا إلهي!

قالتها، وانفجرت ضاحكة، ثم أضافت:

ـ تعتقد هذه العربية أن هذا أمر مضحك.

ملأ الخوف قلبي وتدفَّقت علاماته بغزارة على وجهي، ممتصَّةً معه شعوري بالفكاهة مع اقتراب «إيلانا» مني. سألتْ بطريقة تتَّسم بالتهكُّم:

ـ هل مارستِ الجنس في أي وقت مضى؟

تجمَّدتُ. لم أكن قد قبَّلت... ولو صبيًّا. الحمد لله؛ فقد سمعت صوتًا مشمئزًّا ورائي يتدخَّل:

ـ أوه يا «إيلانا»! ألا تتوقَّفين عن هذا أبدًا؟

كانت هذه «كيلي ماسون»؛ طالبة في السنة الإعدادية للطب، أعرفها من محاضرات العلوم. قالت «إيلانا»:

ـ ماذا؟ أنا أتحدَّث إليها فقط.

لكن «كيلي» أبعدَتني، ووقفَت بجرأة أمامها، فكفَّت عن إزعاجي.

مرَّ العام الأول لي في الجامعة بلا أصدقاء، باستثناء تناوُلي الغداء مع «كيلي» في مناسبات معدودة. لقد كان عامًا من العزلة والانشغال. كانت لهجتي تمثِّل عائقًا اجتماعيًّا، أو على الأقل اعتبرتها كذلك؛ ومن ثَمَّ لم أفعل كثيرًا عدا الدراسة، وركوب الدرَّاجة في جميع أنحاء البلدة. المحاوَلات التي قمت بها للمشاركة في الساحة الاجتماعية لم تكن جدِّية أو ناضجة، وباءت جميعها بالفشل، فقوبلت إمَّا بالتجاهل وإمَّا بالصد، وهو الأمر الذي لم يُثِر دهشتي. أمضيت وقتي مع الكتب، وكان المردود عظيمًا؛ فقد بلغ متوسط علاماتي، للفصلين الدراسيين في السنة الأولى، «أربعة من أربعة» على سلَّم العلامات في النظام الجامعي الأمريكي.

استطعت تدريجيًّا أن أجد لنفسي مكانًا بين مجموعة صغيرة من الأصدقاء

الذين شاركتُهم المنزلَ نفسه حتى تخرُّجي. هذا المَنزل المكوَّن من ثلاثة طوابق من الطوب كان متهدِّمًا، وقد سمَّيناه في السنوات الدراسية الأولى «المرحاض الخارجي»، بعد أن طفح ماء الصرف على الأرضيات.

بقيتُ على أرض صلبة في المجال الأكاديمي طول سنوات الدراسة، لكنَّ الفتاة الفلسطينية ذات الأصول المثيرة للشفقة انسحقت تحت اندفاعي إلى الانتماء، والبحث عن مكانة في الغرب. أخمدتُ حواسي تجاه العالم، ودسست نفسي في ركنٍ أمريكي وكأن ليس لي ماضٍ. عشت أول مرة بمنأى عن تهديدات الحرب ورواسبها. عشت متحرِّرة من الجنود، متحرِّرة من الأحلام الموروثة، والشهداء الذين يجرُّونني بيديَّ.

ولكن لكلِّ بيت شياطينه!

تحوَّلت إلى مخلوق هجين عربي ـ غربي غير مصنَّف، وغير معروف، وبلا جذور. شربت الخمر وواعدتُ عِدة رجال، تصرُّفات من شأنها أن تجلب عليَّ العار والاستنكار في جنين. تهتُ في دروب الثقافات، وتخبَّطت في الدخول والخروج من روح الشعب الأمريكي حتى فقدتُ طريقي. وقعت في حبِّ أمريكيين، وصدَّقت أنه حبٌّ متبادَل. عشت في الحاضر، واحتفظت بالماضي مخبأً بعيدًا. لم أكتب لهدى ولا لمنى أو الأخوات الكولومبيات، ولا لعمِّي درويش أو لمياء أو خالتي بهية أو الحاج سالم، لكنني شعرتُ أحيانًا أنَّ طرْفة عيني كانت رعشةَ ندمٍ تضعني وجهًا لوجه مع الماضي.

ذات مرة، وأنا أمشي وسط المدينة، ظننت أني رأيت أُمي، لمحةً من شبح يهمس لي عبر انعكاس صورتي على واجهة الدكان. توقَّفتُ ونظرتُ إليَّ، أنا؛ ابنة أُمي. داليا، أُم يوسف التي أورثتني ترِكتَها التي لن تتنفَّس ما دامت تتمسَّك بأيدي الماضي. كانت قادرة على عزل كل لحظة من الحاضر، بينما تعيش

في ماضٍ أبدي، لكني كنت بحاجة إلى البعد المادي لكي أستطيع الخروج من نفسي. فكَّرت في تلك اللحظة أنه ليس بإمكان أي روح أخرى أن تفهمني كما كانت داليا ستفعل.

كان التيَّار الخفي لحياتي في أمريكا هو الشعور بالعار؛ لأني خنت عائلتي، بل الأسوأ هو أني خنت ذاتي. سلَّمت نفسي للعادات الأمريكية وعشت حُرِّياتهم.

ولكن كانت هناك لحظات حثَّتني على النظر إلى الهاوية التي تفصلني عن الآخرين. في أثناء حادثة تسرُّب مياه الصرف الصحي التي ألْصقت بمسكننا الجامعي كنْيته، أحْيَت الضجَّة التي أثارها الحادثُ ذكرياتٍ من جِنين، حيث كانت أحيانًا تفيض المجاري المفتوحة، وكنا نتسلَّق ونجمع الملابس القديمة والمناشف لسد مداخل منازلنا. على قدر ما كانت التجربة مقزِّزة، وكذلك التنظيف الذي يتبعها، لم نكن، أنا وهدى، نستطيع أن نسيطر على الشعور بالإثارة، وبترقُّب أن يُسمح لنا بالنوم على السطح هربًا من الرائحة الكريهة. كان أطفال آخرون يفعلون الشيء نفسه، وكنا نملأ الجو بنداءاتٍ ونِكاتٍ وقهقهاتٍ من النفوس الشابة من اللاجئين. كنا في ذلك الوقت، وبسذاجتنا الطفولية، متخَمين بالأحلام والأمل، غير مدركين ـ لحُسن حظِّنا ـ أننا كنا قمامة العالم، متروكين تحت وطأة بؤسنا وبرازنا. هناك، على أسطُح المنازل كنا نُفصح عن رغباتنا وأسرارنا للسماء المرصَّعة بالنجوم. لم يكن هناك جنود بعد، قبل حرب عام ١٩٦٧. كانت أمنياتنا بسيطة، لكن لم يكن من المتاح لها أن تكون أكثر تعقيدًا. كنا دائمًا نفكِّر في العودة إلى عين حوض. كنا نظن أنها الجنَّة. تلك الليالي الخالية من الهموم على السطح كانت تفوح بالبراءة. كان أذان العشاء بطَّانيَّتنا، وكنا ننام، أنا وهدى، في عناق بين طفلتين صغيرتين، حتى يبزغ الفجر مع الكتاب

الذي يختار بابا أن يقرأ لي فيه. كان التسرُّب الكريه الذي ملأ الأزقَّة بالنسبة إلينا، مجرَّد إزعاج موَقَّت يتيح لنا فرصة هروب مبهِجة.

وهكذا، بينما كانت رفيقاتي في السكن في «فيلادلفيا» يتَّصلن بشكل محموم بآبائهن، وبمالِك البيت، ودائرة الصحة، وشركات التأمين؛ كنت في منتهى الهدوء والتماسك. وفي حين تصرَّفن كما لو أنَّ عالمهن وصل إلى نهايةٍ نتِنة، شعرت بالحنين العذب والشوق إلى الأصدقاء القدامى.

لم يكن ممكنًا أن تكون الفجوة أوَسَع، ولا كان ممكنًا سدُّها. هكذا كانت. كانت فلسطين تنبعث من عظامي إلى أواسط حياتي الجديدة، ببساطة ومن دون إعلان مسبق. في الصف أو في حانة أو في أثناء التجوال عبر المدينة، من دون سابق إنذار، يتحوَّل شجر الصفصاف المتهدِّل في ميدان «ريتنهاوس»، إلى أشجار تينٍ في جنين، تنحني لتقدِّم لي ثمارها. كان وخزًا متواصلًا ينبض في خلايا جسدي، ويناديني إلى نفسي، ومن ثَمَّ يعود ليكمن في الأعماق.

* * *

لقد عملتُ في وظيفتين في خلال معظم فترة دراستي الجامعية؛ تعاقدَت معي الجامعة كمرشِدة لأقراني، وعملتُ «في الخفاء» أيام عطلة نهاية الأسبوع، في متجرٍ يفتح ٢٤ ساعة يوميًّا في «ويست فيلي»؛ وهو حيٌّ سيِّئ السُّمعة، لا يقصده عادةً الأمريكيون البيض، وخصوصًا بعد حلول الظلام.

قالت لي رفيقاتي في البيت:

ـ لديكِ رغبة في الموت؟! إنَّك تغامرين بعملك في تلك المنطقة!

كنَّ على يقينٍ أنني سأصبح ضحية لحادث اغتصاب، أو سوف أتعرَّض للسطو على الأقل، فشدَّدن:

ـ أنتِ لا تعرفين هذا البلد بشكل جيد حتى الآن. لا أريد أن أكون عنصرية، ولكنه ببساطة مكان سيِّئ.

ولكنني اعتدتُ كل يوم جمعة أن أنطلق على درَّاجتي، عبر الطاقة المتعجِّلة التي تشحن شارع «برود ستريت»، ثم أنعطف يمينًا في اتجاه البيوت الأنيقة بشارع «سبروس»، وصولًا إلى منطقة «ويست فيلي» المتهدمة. كانت الفُرَص تلتفُّ متجنِّبة شارع ١٣، حيث المسكن الذي أنزل فيه. أمَّا الحرية للجميع فتبدو في «ويست فيلي» مترهِّلة على كرسيها مثل طالبة كسولٍ. كانت الطبيعة والعمارة في «ويست فيلي» تنحنيان تحت شبح العبودية، وتتركان القُمامة والبول ينموان مكان شجَيرات الزهور. الشبَّان، بالجينز المتدلِّي تحت الخصر والشعر «الإفريقي»، يتسكَّعون. في البداية كانوا يصفِّرون، ينادونني: «ماما»، ويُلمِحون بعبارات إلى مؤخِّرتي. لكن عندما أصبح وجهي جزءًا من المشهد الثابت لعطلة نهاية الأسبوع، صاروا ينادون اسمي بإيقاع مع التصفير والتعبير عن الإعجاب بمؤخِّرتي والترحاب بي، كل هذا بكلمة واحدة. كانت النساء المسِنَّات تثرثرن مع الأمَّهات الجليلات، وهن جالسات على الشرفات في أثناء مراقبتهن للحي، بكل ما أوتين من قدرة. هن أيضًا تحوَّلن، في نهاية المطاف، من تعبيرات الريبة وعدم الثقة إلى الابتسامات السمحة، عندما يشاهدنني مُقبِلة. الفتيات الصغيرات، بشعورهن المجدولة على شكل سلاسل، كن يلعبن الحجلة المزدوجة، في عرضٍ مذهل من التناسق. كان يبدو لي أنَّ هؤلاء السود يُضْفون إيقاعًا خاصًّا على كل مَهمة يقومون بها. لقد تمكَّنوا في يوم واحد من ترميم كنيسة بقوة غنائهم الجماعي. علمت أن من ثقافتهم المستعبَدة وِلِدت موسيقى «الروك آند رول». إنهم سلالة مخطوفة، قامت بتعريف الثقافة بأكملها من خلال موسيقاها.

أحيانًا تحدث عمليات قتل وسلب. وكنت أرى مروِّجي المخدرات والقوَّادين، ولكنني ما شعرت قطُّ بالخوف في ظلام «ويست فيلي»، وإن كان هذا من باب الحماقة؛ لأن الجنود الذين عرفتهم في حياتي رفعوا معيار الفتيان الأشرار بالنسبة إليَّ. ولهذا، حتى المراهقون الخائفون الذين أشهروا مسدَّسًا في وجهي داخل الدكان ـ من أجل أربعين دولارًا ـ لم يخيفوني على الإطلاق.

كانوا ثلاثة؛ دخلوا ذات سبتٍ بعد منتصف الليل بنصف ساعة. دخلوا وساروا معًا وخطَّتُهم المتسرِّعة لا تزال مرتسمة على وجوههم الخائفة. كان ثلاثة من الزبائن في المتجر. أمَّا المالكُ ـ اسمُه «بوبو» ـ فكان قد غادر قبل ساعة واحدة فقط. ذهب اثنان من الفِتيان إلى ركنَين متقابلين في المتجر، بينما وقف الثالث في الصف انتظارًا لدفع الحساب حيث وقفتُ أنا وراء الصندوق. عرفت أنَّ هناك ما يُريب. وبينما كنت أتسلَّم المال من الزبون، راجعتُ تعليمات «بوبو» في رأسي: «إذا حصل أن تعرَّضتِ للسطو، أعطِهم المالَ كلَّه. لا تُبقي معكِ شيئًا». هذا ما قاله لي عندما بدأت العمل العامَ الماضي. عند الصندوق، وضع اللص الشابُّ علبتين من العلكة وزجاجةَ كوكا كولا، وأضافَ مسدَّسًا عيار ٩ ملم. ومِن ثَمَّ طالب بالمال. كان الخوف يفيض من عينيه، وبشَرتُه الداكنة مشدودةٌ بنعومة شبابه. شغل الشابَّان الآخران نفسَيهما بنهب البضاعة من على الرفوف وبتغطية الباب. أدهشتني سخرية المفارَقة بين خوف ذلك الصبي وهدوئي. بينما كنت أُفرغ صندوق النقد من محتوياته في كيس من الورق البُني، فكَّرت في وجوبِ أن أكون أكثر خوفًا، لكن مسدَّس الصبي لم يكن سوى لعبةٍ بالمقارَنة مع البنادق الهجومية من طراز إمـ١٦. «أنتِ... توقَّفي!» إمـ١٦ مُشهَرة في وجهي. «أنت... سيري في هذا الطريق!» إمـ١٦ في صدري. «الجميع... عودوا إلى الوراء، الآن،

هذه منطقة عسكرية مغلَقة» إمـ١٦ تتأرجح عبر الحشد، وربما تُطلِق عِدة مرات في الهواء إذا لم نتحرك بالسرعة الكافية.

بعد أن أعطيتُ الولد كل المال، أرَيته صندوقًا مخفيًّا من النقود المعدنية، حيث يمكن أن يجد أصدقاؤه ثلاثين دولارًا إضافية. ثم أعطيته كرتونة من علب السجائر.

ردَّ مذهولًا:

ـ أنا لا أُدخِّن!!

وغادروا. اتَّصلتُ بـ«بوبو»، لا بالشرطة. في عطلة نهاية الأسبوع التالي، يوم السبت أيضًا، جاء «بوبو» إلى المتجر وهو يسحب صبيًّا من طوقه.

سألني:

ـ هل هذا هو؟

كان هذا الشابُّ الخائف نفسَه الذي هدَّدني بالمسدَّس عيار ٩ ملم. هززتُ رأسي بإشارة «نعم»، ثم استدار «بوبو» ـ واسمُه الحقيقي كان «برنارد» ـ بجسده الأسود القوي نحو الصبي، وطرحه أرضًا، طارحًا معه محتويات رفوف الحلويات. وهدر بنبرة سُلطوية تجعل الحمقى فقط يجرؤون على العِصيان:

ـ إمَّا أن تدفع لي الآن ما سرقته، وإمَّا أن تحضر إلى هنا كل يوم للعمل حتى تسدِّده.

استمر الشاب، الذي كان اسمه «جيمي»، في العمل لدى «بوبو» حتى بعد أن سدَّد دَينه. لم تعلم الشرطة بذلك قطُّ. قال لي «بوبو»:

ـ لقد وقع في المصيدة التي لا ترحم، هذا كل ما في الأمر. إنها شبكة قديمة، تعصر الشباب السود حتى النهاية.

ما كنت أعرفه، على وجه اليقين، هو أنَّ الناس في «ويست فيلي» كانوا يعتبرونني جميلة، لا مختلفة، ولم تكن لهجتي دعوة لعدم الثقة. الأشياءُ نفسُها التي جعلتني موضع شكٍّ في عالم البيض، كانت جوازَ المرور بالنسبة إليَّ في أحياء السود.

(٢٥)

مكالمة هاتفية من يوسف

١٩٧٨ ـ ١٩٨١

في صيف ١٩٧٨، قبل أن أبدأ الدراسات العليا في جامعة «كارولاينا» الجنوبية، خضعت لإصرار رفيقاتي في المسكن على الذهاب إلى شاطئ «ميرْتِل بيتش».

كنت على مدى السنوات الخمس الماضية، وبكل أنانية، قد عزلت نفسي عن العالم. كانت حرب تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣ قد بدأت وانتهت، ومثلُها الاضطرابات التي تلتها في فلسطين، وكذلك اتفاقات «جيمي كارتر» في «كامب ديفيد»، والتي كان سيتم التوقيع عليها قريبًا. كل هذا من دون أي رد فعل من ناحيَتي. تعمَّدت تجنُّب النقاشات السياسية. لم أكتب إلى الناس الذين أحبوني، وسمحت لنفسي بأن أصبح معروفة باسم «إيمي». كنت آمال بلا أمل. كنت كلمة تلاشى معناها. امرأة أُفرِغت من ماضيها. الحقيقة هي أنني كنت أريد أن أكون شخصًا آخر. ذلك الصيف في «ميرتل بيتش»، كانت «إيمي» ترتدي لباس السباحة وتتسكَّع على الرمال؛ كنت بعيدة عن نفسي كما لم أكن في أي وقت مضى.

لقد تطلَّب الأمر أيامًا حتى تمكَّنت من إيجاد لباس سباحة مناسب. لم يكن خيار «البيكيني» واردًا على الإطلاق. سألَت «كيلي» في غرفة تبديل الملابس، عندما رأت بطني:

ـ آه، هل تعرَّضتِ لحادث أو شيء من هذا القبيل؟

أجبتها:

ـ شيء من هذا القبيل.

اخترت أن ألبس ثوبَ سباحة أسود محافظًا تغطِّي مقدَّمتَه باقة من ورود البلاستيك، مجرد منظر سخيف هدفُه تغطية الفجوة الأكثر وضوحًا في بطني.

كنت قد تصوَّرت أنَّ شواطئ البحر المتوسط في حيفا ستكون الشواطئ المهيمنة على حياتي؛ لكنني في سنِّي الثالثة والعشرين سبحت في مياه المحيط أول مرة، وحرَّكت أصابع قدمَي كالديدان في الرمل الأطلسي على شاطئ في ولاية «كارولاينا» الجنوبية.

فردْت جسدي لاستقبال الشمس، الشمس نفسها التي أشرقت على جنين منذ فجر حياتي، وجلبت لي سماواتٍ أرجوانية وإيقاعَ الشِّعر في جهير الربو الآتي من صدر بابا.

لا جنود هنا! لا أسلاك شائكة أو مناطق محظورة على الفلسطينيين! لا أحد يحكم على تصرُّفاتي! لا مقاومة أو صراخ أو هتافات! كنت مجهولة. غير محبوبة. وأنا أرتدي أول لباس سباحة في حياتي، تذكَّرت تَوق هدى الكبير بعد معركة الكرامة، عندما كنا نظن أننا سنعود إلى فلسطيننا. «الجلوس على شاطئ البحر. مجرَّد الجلوس، لأنني لا أستطيع السباحة»، كانت أمنيتَها على رأس تلك القائمة الساذجة التي صنعناها في صغرنا.

* * *

بعد سنة واحدة من البدء بالدراسات العليا في «كارولاينا» الجنوبية، وصلتني البطاقة الخضراء، وأصبحت الولايات المتحدة بلدي الجديد.

«إيمي». آمالُ اللاجئين الصامدين والبداياتُ المأسوية أصبحت الآن «إيمي» في أرض الامتيازات والوفرة. البلاد التي تدفَّقت على سطح الحياة، مستلقية تحت سماوات لا تتزعزع. بلاد كانت الواجهة التي اشتريتها لنفسي، غير أني بقيت أنتمي إلى الأبد إلى تلك الأمة الفلسطينية التي نُفيت إلى اللامكان. العروبة ونداءات فلسطين الأولى هما مرساي في العالم. ووجدت نفسي أبحث في كتب التاريخ عن بيانات تطابِق القصص التي كان الحاج سالم يرويها.

مرت سنة أخرى. أيًّا كان شعورك... كبتُّ كلَّ شيء في داخلي؛ حتى أتى ذلك اليوم، عندما رنَّ جرس الهاتف في الخامسة صباحًا. التقطت السَّماعة وأنا شبه نائمة:

ـ هالو!

أجابني صوت بنبرة رجولية:

ـ ألووو، آمال؟

ـ أيوا.

قلتها، وقد ظننت أنني عرفت هويَّته واستيقظت تمامًا. ضحك ضحكته الخافتة. صوت يمكنني التعرف إليه في كل مكان. كانت هذه الضحكةَ المكتومة التي تهرب في البداية من الجانب الأيمن من فم يوسف، ومن ثَمَّ تمتد إلى ابتسامة عبْر وجهه الوسيم. منذ وقت بعيد، قالت لي فاطمة إنَّ ابتسامة أخي أذابت قلبها عندما شاهدته أول مرة، حين كان في السادسة عشرة من عمره، وهي في الرابعة عشرة.

ـ وأخيرًا، يا أختي الصغيرة! منذ أشهر ونحن نحاول العثور عليكِ.

أخذ شخصٌ ما سمَّاعة الهاتف.

ـ آمال! حبيبتي، يا عزيزتي! لقد وجدناكِ.

كانت هذه فاطمة.

آمال! بكيت عندما سمعت اسمي بالعربية. كان الهاتف وسيلة غير ملائمة لنقل المفاجأة والحنين الحار، ونحن نحاول التحدُّث من خلال النشيج وتشويش الخط.

ـ أنا حاملٌ (طفلهما الأول)! أين أنتِ في الولايات المتحدة؟ نحن في لبنان الآن. تعرفين ماذا فعلوا بمنظمة التحرير في الأردن! الكلاب!!

سمعتُ يوسف وهو يقاطع:

ـ ليس الآن يا حبيبتي.

ـ حاضِر حبيبي.

وتابعت تروي قصة كفاحهما الطويلة التي يتخللها نهر لا ينتهي من الحب:

ـ سوف يحكي لك يوسف كلَّ شيء عن ذلك. ولكن أنت أصلًا تعرفين ذلك.

كانت رتبة أخي قد ارتقت في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية، في السنوات التي تلت معركة الكرامة. حجم التأييد الشعبي الذي اكتسبته الحركة في الأردن جعل المملكة الهاشمية تخشى على بقائها، فقامت بسحق المقاتلين الفلسطينيين والمدنيين في مجازر فظيعة، اتسم بها الشهر التاسع الذي سُمِّي «أيلول (سبتمبر) الأسوَد». وهكذا أُبعدت منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان في عام ١٩٧١، تحت قيادة ياسر عرفات، وعمل أخي

في التدريس بمدرسة تابعة لوكالة غوث اللاجئين التي تخدم مخيَّمَي صبرا وشاتيلا، وواصل العمل في صفوف المقاتلين الفلسطينيين.

قالت فاطمة:

ـ لم أتخلَّ قطُّ عن انتظاره، أنت تعلمين... سأقول لك كل التفاصيل عندما نجتمع مجدَّدًا. يوسف يفتقدك بشكل فظيع. وأنا أيضًا يا عزيزتي.

على الرغم من سنوات الغياب، وعدم التثبُّت من مكان يوسف أو مصير فاطمة، فقد تشبَّثا بحبِّهما، وقاوما ضغوط الأهل لتزويجهما بآخرين. وأخيرًا، في عام ١٩٧٧، وبعد بحث طويل، علم يوسف أن حبيبته لم تتزوَّج، فبعث إلى فاطمة رسالة على الفور، استغرق وصولها ما يقارب سنة كاملة من السفر عبر قنوات خفية، أقل من ثمانين كيلو مترًا إلى الجنوب من قرية برطعة، حيث كانت فاطمة لا تزال تعيش مع والدتها.

قالت فاطمة:

ـ كان ذلك كما لو أنَّ أبواب السماء انفتحت، وأنزل الله تلك الرسالة إلى قلبي مباشرة.

ذلك القلب الذي تاق إلى يوسف مثلما يتوق الصدر إلى التنفُّس. في غضون ثلاثة أشهر، كانا قد التقيا وتزوَّجا في بيروت. من أجل القيام بتلك الرحلة، ودَّعت فاطمة عائلتها وبلدها بشكل نهائي، لأنها حالما تغادر لن تسمح لها إسرائيل بالعودة. لقد تخلَّت عن كل شيء عرفته لكي تتزوَّج أخي، ولم تندم قطُّ على ذلك. كان ابنَ أربعة وثلاثين عامًا، وكانت هي في الثانية والثلاثين.

ـ آمال، من الأفضل أن تصِلي إلى هنا قبل أن تجعل منك فاطمة عمَّة!

ـ متى موعد الولادة؟

ـ في وقت ما في منتصف حزيران (يونيو).

ـ نحن الآن في كانون الأول (ديسمبر). هذا يمنحني بضعة أشهر، لكي أجمع ما يكفي للحصول على تذكرة، ولإنهاء شهادة الماجستير.

ـ شهادة الماجستير؟.. مؤكَّد أنَّ بابا كان سيفخر بكِ.

حتى بعد بضع سنوات، كنت أتوق لأجعل والدي فخورًا. أينما كان. نظرت من النافذة، ورأيت أن الشمس بدأت بالارتفاع. شعرت بغصَّة من قوة الضوء وابتسامة بابا التي دخلت الغرفة.

ـ تعالي هنا بسرعة يا أختي. اشتقنا إليكِ.

ـ اشتقتُ إليكم أكثر. سأصل قريبًا.

ترك لي يوسف رقم هاتف حيث يمكنني ترك رسالة له، لكي يتصل بي في وقت متَّفق عليه. ووضعت سماعة الهاتف على مضض.

* * *

تخرَّجت في حزيران (يونيو) من دون أي خطط إلا الذهاب إلى لبنان. منذ اتصل يوسف، ندر أن يذهب فكري إلى شيء سوى العودة إلى عائلتي، العودة إلى نفسي. لكنني كنت أيضًا قد نسجت علاقات حقيقية في أمريكا. المكانُ الذي اعتبرته وطني على مدى السنوات الماضية، أصبح جزءًا مني بصوَر مختلفة. وأنا أستقل الطائرة إلى بيروت، شعرت بالحزن لترك أصدقائي، لكنني كنت سعيدة بلقاء ما ينتظرني، آملة الوصول قبل أن تجعلني فاطمة عمَّة.

قلبي في بيروت



(٢٦)

ماجـد

١٩٨١

استقبلتني موجة من الرياح الحارَّة والجافَّة وأنا أخطو خارجة من الطائرة فوق تراب لبنان. بدا لي مطار بيروت الدولي منذرًا بالشؤم، عندما رأيت كل هذه البنادق المثبَّتة فوق أكتاف كثير من المقاتلين بلباسهم العسكري. لكنَّ الأنغام الموسيقية الناعمة للُّغة العربية رقصت في داخلي حالما سمعت أصوات لغة أُمي. بينما كنت أمرُّ عبر أجهزة الكشف عن المعادن، قدَّم أحدهم الشاي إلى موظف على مكتبه، فقال له:

ـ يسلموا إيديك.

أجابه الآخر:

ـ وإيديك، بارك الله فيك.

شعرت بالكلمات ألحانًا تتراقص في الهواء.

في أثناء خروجي من طابور متوتِّر من المغتربين، لمحت رجلًا طويل القامة يبدو منهكًا، ويقف بجانب أحد الأعمدة في قاعة الاستقبال. لم أقاوم الرغبة

في النظر إلى وجهه: عيناه الداكنتان غائرتان عميقًا أسفل حاجبيه الممتدَّين بغير انتظام. شعرات متناثرة نبتت بشكل عشوائي في محيط فكِّه جاهدة من دون جدوى لتصبح لحية، وشاربان متناسقان بدقَّة متناهية لا يمكنهما إخفاء امتلاء شفتيه. التقت الأعين وتعارفنا في الحال، فأشرق وجهه بابتسامة عريضة:

ـ الحمد لله على السلامة.

وقال مادًّا يده:

اسمي ماجد. أرسلني أخوكِ لاصطحابكِ.

أجبت:

ـ الله يسلِّمك.

ـ لقد عرفتك على الفور، تشبهين يوسف.

ـ نحن نشبه والدتنا.

ابتسم، وحمل أمتعتي.

بدت حركة المرور في بيروت مرتبكة وسط هرج أبواق السيارات ومرجها. اندفعت الدرَّاجات الهوائية بخفَّة، وبانعطافات مفاجئة بين السيارات، بينما قاد ماجد السيارة بصبر عبر الصخب، معتذرًا عن «المعجم البذيء» للشارع، حيث كان سائقون ذوو شوارب وسريعو الغضب ويتصبَّبون عرقًا، يتراشقون بالإهانات وجميع ألوان الشتائم. أعادوا إلى ذاكرتي شتائمنا التي تنصبُّ غالبًا على الأقارب من الإناث وتشير إلى أعضائهن التناسلية.

باعة متجولون منتشرون وسط الجلَبة، ويبيعون الصحف والزهور وعلكة «التشكلتس» وغيرها، بينما عبير الخبز الطازج ـ المنبعث من البسطات على

جانبَي الطريق التي تعرض كعك السمسم مع الزعتر المطحون والجبنة ـ يفوح ويستولي على حواسّي مفجِّرًا فيَّ ذكريات فلسطين.

«جميل أن أكون على أرض عربية مرة أخرى»، فكَّرت بصوت عالٍ.

قال ماجد بعد توقُّف قصير:

ـ سمعت أنَّك غائبة منذ فترة طويلة.

ـ نعم، فترة لا بأس بها.

ـ المعذرة. لم أقصد أن أتطفَّل.

ـ لا، لا بأس. غادرت في منحة دراسية، ولم أستطع العودة إلى جنين. تعرف كيف هي الحال عِندما تغيب بعض الوقت. الإسرائيليون لا يسمحون لك بالعودة... علاوة على ذلك، لم يعد لي هناك أي شيء، لا أحد لأرجع إليه. ولكي أكون صادقة، فقد أردت أن أكون أمريكية. أردت أن أحزم أمتعتي بعيدًا عن الماضي والمأساة وأجرِّب مقاس «إيمي».

أدرت رأسي إلى النافذة المفتوحة لأنهي الموضوع، ولأستنشق المزيد من الجبنة الساخنة والزعتر على كعك السمسم من عربات الرصيف.

ندهَ ماجد خارج النافذة فاقترب أحد الباعة؛ رجل مُسِن ضئيل الحجم ولطيف، ومعه كعكتان كبيرتان ملفوفتان بورقة جريدة.

ـ الله يعطيك طول العمر يا حاج.

قال ماجد شاكرًا الرجل العجوز، ودفع له الثمن. أجاب الرجل العجوز:

ـ والله يسعدك أنت وعائلتك يا بُني.

استدار ماجد نحوي مع كعكة الجبن:

ـ أُراهن أنك لم تأكلي واحدة من هذه منذ فترة طويلة.

تلك الابتسامة مرة أخرى.

شكرته متأثرة:

ـ تسلم يداك. إنها مصنوعة من الكرم والشهامة.

ـ عرفت أنَّ شيئًا ما يمكن أن يجعلك تبتسمين.

تناقَض سلوك ماجد الخجول الرقيق مع مظهره الخارجي الفظ الذي لاحظتُه في البداية. قال، مبدِّدًا الصمت برفق:

ـ كثيرًا ما تمشَّينا معًا، أنا وأُمي، مسافات طويلة عندما كنت صبيًّا، وكنت دائمًا أجعلها تشتري لي واحدة من هذه الأشياء اللذيذة.

استمعت غير راغبة في إفساد ذكرياته بالحديث، لم أشأ مقاطعة الاسترسال السلس في صوته.

بالكد تستوعب السيارة «الفيات» الصغيرة المنبعِجة جسمَ ماجد الطويل، دافعة رأسه قليلًا إلى أسفل كي لا يرتطم بالسقف، بينما تكاد ركبتاه تلامسان عجلة القيادة. أكلنا في هدوء السيارة المغبَّر المشمس؛ النوافذ مرفوعة وأصوات الأبواق تزعق بين حين وآخر بسبب بطء سرعتنا، واحمرَّ وجهه عندما لمسَت يده ساقي من طريق الخطأ وهو يحوِّل غيار محرِّك السيارة.

ـ اعذريني. آسف جدًّا.

ـ لا بأس.

بعد أن قطعنا مسافة أطول، خفَّت حركة المرور على الطرق المليئة بالحفر، والمعبَّدة جزئيًّا.

ـ لماذا لم يأتِ يوسف بنفسه لاصطحابي؟

أجاب متعجِّبًا وصافعًا جبهته بخفَّة:

ـ لا أصدِّق أني نسيتُ أن أخبركِ. أنجبت فاطمة مولودها. لديكِ ابنة أخ!

اتَّسعت عيناه بإعلان الخبر السار. وأضاف:

ـ كان يوسف يأمل صبيًّا، لكنَّ قلبه ذاب الذوب نفسَه عندما رأى ابنته.

ـ أنا عمَّة؟

ثم قلت مازحة، وقد شعرت بمزيد من الراحة مع هذا الرجل:

ـ ألا يريد كلُّ الرجال العرب ابنًا أولًا؟

ضحكنا. وأجاب ماجد:

في الواقع، أتخيَّل بنتًا صغيرة. اسمها سارة، كاسم أُمي، رحمها الله. ولكن، أصْدُقك القول، أيهما يهب لنا الله فإنها نعمة.

كان صوته مخمليًّا، صورته الجانبية تجسيد لليقين، وحضوره يبعث على الطمأنينة. وكان به شبهٌ من «أرنستو تشي جيفارا».

كان شاتيلا أحد مخيمات اللاجئين الثلاثة في منطقة بيروت. بجانبه مخيم صبرا، وكلاهما يشبه مخيم جنين: متاهات مكتظَّة بأكواخ الأسمنت والطين التي ارتفعت من مهانة الخيام التي تصدَّقوا بها على الفلسطينيين الذين هُجِّروا في حرب عام ١٩٤٨ . قنوات المجاري كانت تفيض بمياه الصرف في الأزقَّة، حيث يلعب الأطفال ويعوِّمون القوارب الورقية في اتجاه المصب.

عرفت أننا وصلنا، عندما بدأ الأطفال يندفعون بأعداد كبيرة نحو «الفيات»، كما كنا نفعل عندما كنت طفلة، حيث كنا نضايق باستمرار الزوَّار القادمين

من خارج المخيم، ونضايق محقِّقي الأمم المتحدة إلى أبعد الحدود، توّاقين إلى الوقوف أمام كاميراتهم حتى تلتقط لنا الصور. وعلى الرغم من أننا لم نرَ الصور مطلقًا، كنا مع ذلك نتقاتل للحصول على مكان أمام عدساتهم. زوَّدتني الآن رؤيتي للأطفال في شاتيلا بنظرةٍ إلى نفسي آنذاك، وكيف بدوت لأولئك الزوَّار؛ فتاة بملابس متَّسخة ومعوزة. لكن في الحقيقة، كنا نشعر بالإثارة عندما كانوا يزوروننا، وننعم فرِحين بحظْوتهم الغربية. كنا نريد فقط أن نثير استحسانهم الذي نعبِّر عنه بالاهتمام العابر لمصراع الكاميرا، ابتسامة، ثم سؤال، وأحيانًا تقديم الحلوى التي كنا، أنا وهدى، نتشارك فيها دائمًا.

مدَّ ماجد يده إلى درْج السيارة، وأخرج حفنة من الحلوى:

ـ لقد فعلت هذا ذات مرة فصاروا الآن يتوقَّعونه. سوف أقع في ورطة كبيرة إن جئتُ خاليَ اليدين.

ماجد في الوسط، والأطفال ضاحكون حوله، وحلاوة الحلوى. كم كنا، أنا وهدى، سنُحبُّ مثل هذا الرجل في صِغرنا!

ناداه الأطفال، وقد لمح المفاجأة في وجهي:

ـ دكتور ماجد! دكتور ماجد!

لم أعتبره رجلا متعلِّمًا. لقد نظرت إليه بعينَي «إيمي»، وقد رأى هذا. وخفضت عينَيَّ مُحرجة من الحكم الذي عرف أنني توصَّلت إليه حالما التقينا.

* * *

تبعَتنا شمس بيضاء عبر البلدة المكسوَّة بالقمامة إلى بيت فاطمة ويوسف. كان بناءً من طابق واحد، له درجتان مكسورتان تقودان إلى الباب الأمامي. سقفُه، مثل البيوت الأخرى، يتكوَّن معظمُه من ألواح المعدن المتموِّجة

والأسبِست، تثبِّتها في مكانها حجارة وإطارات قديمة، وكلُّ شيء آخر يمكن أن يضيف ثقلًا في مواجَهة الريح. تجمَّع في الخارج حشد من قُرابة عشرين رجلًا، يجلسون على مقاعد مرتجَلة، يضحكون ويدخِّنون ويمرِّرون صينية من الكنافة احتفالًا ـ من دون شكٍّ ـ بمَولد ابنة أخي.

ها هو هناك.

يوسف! أخي، يا الله يا كريم!

الآن، بعد ثلاثة عشر عامًا من الانفصال، لم تبقَ إلا مسافة صغيرة. عشرون خطوة على الأكثر. يمكن اجتيازها بسهولة. خطوات قليلة على ممرٍّ ترابي، على جانبه قفص كناري وفخَّارة زهور يتحدَّيان الفقر.

ـ آمال!

رآني ونهض في الحال من بين رفاقه في منظمة التحرير. لمع طرفا شاربَيه المفتولان عند زاويتَي ابتسامته المعهودة.

ألقيت حقيبة يدي الصغيرة وركضت إليه. آمنة في حضنه، بقيت في حضنه أطول وقت أمكنني ذلك، محاوِلة امتصاص السنوات الضائعة من صدره الضخم الذي بدا لي كصدر أبينا. في لحظة، خفَّفتْ ذراعا شقيقي من الوحدة في حياتي.

كان في الباحة مجموعة من النساء، زوجات الرجال الذين في الخارج يعتنين بالأمِّ والرضيعة. قفزن يعانقنني ويقبِّلنني عندما دخلنا.

قال عديد منهن في آن واحد:

ـ جميل أن نلتقيكِ أخيرًا!

وقالت أُخريات:

ـ حدَّثتنا فاطمة عنكِ كثيرًا.

امرأة ترتدي وشاحًا أحمر منقَّطًا زمَّت شفتيها وقالت:

ـ أخبرتنا فاطمة بأنك تعرَّضت لإطلاق نار وأنتِ صغيرة. الله يأخذهم جميعًا!

قالت أخرى:

ـ اللهمَّ آمين! هاكِ، تناوَلي بعض الشاي والكنافة.

الأكبر سنًّا بينهن، في ثوب تقليدي مُطرَّز ومنديل أبيض، نهضت متثاقلةً، مقاطِعة الأخريات:

ـ هل تعتقدن أنها جاءت إلى هنا لرؤيتكن، أو لرؤية أقاربها والطفلة؟

سارت أمامنا إلى الغرفة الرئيسة في بيت أخي المكوَّن من ثلاث غرف مع مطبخ وحمَّام.

بدت فاطمة في سُبات، مستنزَفة بعد إحدى وعشرين ساعة من المخاض. وابنة أخي الرضيعة مقمَّطة بجوار أُمها في نوم ملائكي. لقد سمَّياها «فلسطين».

قلت مازحة ليوسف الذي وصل ليحمل طفلته فلسطين:

ـ يا للإبداع!

يوسف ذو الكتفين العريضتين، الحنان الذي كان يهدهد به فلسطين الصغيرة، كان مشهدًا يستحقُّ الرؤية. عندما أفكِّر فيه الآن، فإنَّ كل ما أراه هو تلك اللحظة المَهيبة من التَّفاني الصافي وغير المشروط لأُسرته. ولا أزال أسمع كلماته: «أحمل أكثر مخلوقات الله كمالًا». أخذتُ فلسطين من ذراعيه وحملتُها:

ـ اسم الله! اسم الله!

تناولتُ الرضيعة بحذر شديد. قلبي شَغِفٌ في بيت الحب ذاك. انفتح فمها الصغير في تثاؤب ناعم، واقتربتُ أكثر لأستنشق رائحتها. طهارة لا مثيل لها في الدنيا، كما لو أنَّ شيئًا من الله موجود في الأنفاس الخافتة للأطفال الرضَّع. التقطتُ في تثاؤبِ فلسطين نفحةً من وعود ربَّانية.

وضعت ابنة أخي على صدر أُمها النائمة وراقبت أخي؛ نظراته المشحونة بالعاطفة تترجَّح بين الزوجة والابنة. في مخيم اللاجئين الذي ستسمِّيه إسرائيل «أرض خصبة للإرهابيين» و«وكْر فاسِد للإرهاب»، كنتُ شاهدة على حبٍّ يتضاءل أمامه الوجود.

* * *

في وقت لاحِق، وحدي مع شقيقي في فناء الدار، كان قد حان الوقت.

قلت، مخرِجة غليون بابا من جيبي:

ـ لديَّ شيء لك.

سلَّمته الرزمة ببطءٍ، كما أعطاني إياها عمُّو «جاك أومالي»، رحِمه الله، قبل سنوات، عندما اصطحبني إلى دار الأيتام في القدس.

ببطءٍ، وكأنما يقاوم الجاذبية، نهض يوسف على ساقيه. ساقاه تحوَّلتا إلى صلصال عندما أزلنا التغليف عن غليون أبينا فانبعثت رائحة معسل التفاح. تدلَّت كتفا يوسف، وإنها لأولُ مرة في حياتي أرى أخي يبكي. سأل، مهدِّئًا نفسه وماسحًا دموعه:

ـ كيف حصلت على هذا؟

ذلك التوق الدائم في أعماقنا إلى أن نقضي مع أبينا ولو لحظة واحدة أخرى. توقٌ توَّج الساعات التالية بين أخ وأخت يتعارفان مجدَّدًا بعد أن أصبحا راشدَين. كان آسفًا لأنه تركني في جنين. كان سيأخذنا معه لو أمكنه ذلك:

ـ أنا آسف، لأني لم أكن بجانبك عندما تُوفِّيت ماما!

لم يكن قد سمع عن إصابتي بالرصاص، إلا بعد مرور عام على ذلك. لم تكن الحياة سهلة. ولم تكن كذلك بالنسبة إليَّ أيضًا. ولكننا كنا عائلة مجدَّدًا، والآن كانت هناك طفلة؛ وعدٌ نستطيع أن نعيش به.

ـ لم أتمكَّن من أن أفعل إلا ما فعلتُ يا آمال، لكنني أريد أن أعوِّضك ما فات. أريد أن أكون هنا لأجلك الآن.

أجبته:

ـ لقد فعلتَ أقصى ما يمكنك أن تفعل يا أخي، وأنا أعرف ذلك.

ـ هناك بعض الأشياء التي لم أخبرك إياها قطُّ.

بدأ يوسف. نظر إلى الأسفل، وكأنه يضع الكلمات في كفِّه أولًا، قبل أن ينطق بها، ثم أردف:

ـ شقيقنا إسماعيل، الطفل الذي فقدناه في حرب ثمانية وأربعين، هو على قيد الحياة.

قال ذلك وهو ينظر محدِّقًا إلى وجهي.

كان مندهشًا عندما أخبرته أنني عرفت ذلك من قبل، أو اشتبهت على

الأقل في ذلك طوال الوقت منذ سمعناه مصادَفةً، أنا وهدى، يتحدَّث قبل عدة سنوات عن اليهودي الذي يسمُّونه «دافيد».

ـ هل هدى تعرف أيضًا؟

ـ لا أظن أن حديثك في ذلك اليوم، ترك لديها الانطباع نفسه الذي خلَّفه عندي. وفي كل الأحوال، نحن لم نتحدَّث عن ذلك مطلقًا.

* * *

قدَّمنا، أنا وأخي، الطعام لفاطمة على السرير عندما استيقظت، واستمتعنا للاثنتُنا بالطعام معًا، محتفلين بلمِّ الشمل وبالعائلة، نقضم برفق من أطباق الجبنة النابلسية والبطيخ. يمكنني الآن إعادة مشاهدة تفاصيل ذلك اليوم في ذهني، لكنها تأتي إليَّ على نحو غريب، من دون صوت. نشوة الأم والطفل تبدو في الهزَّات الخفيفة لرأس فلسطين الصغيرة وهي ترضع. فاطمة جميلة، ويملؤها الابتهاج، وعاشقة. يقال شيء مضحك؛ وألاحظ حشوة فضِّية في السن الخلفية ليوسف حالما تفتح ضحكتُه فمَه واسعًا. ويُقطِّع الخبز الإيراني الرقيق الكبير الذي أحبُّه، ويوزِّعه بيننا.

في وقت لاحقٍ، يتمشَّى يوسف بفخر في أنحاء المخيم حاملًا طفلته. أحملها بعض الوقت، ويتكئ يوسف إلى الوراء في مقعده، مشعلًا غليون أبينا مع تبغ طازج. يستنشق الدخان، ويسقط جفناه ناقلَين أخي إلى بعض الذكريات التي تجعله يبتسم ابتسامة عريضة. يفتح عينيه، ونحن نشعر بالأمان في رائحة أبينا. في وسع ذاكرتي أن تقرأ حركة شفتيه، لكنها لا تستطيع الآن سماع الكلمات:

ـ كان بابا وماما سيرقصان اليوم!

منذ كان صبيًّا، كان يريد مشاهدتهما يرقصان مرة أخرى، كما فعلا في اليوم الذي عاد فيه جِدُّو يحيى مع ثماره «المحرَّمة» من عين حوض، وابتهج بشدَّة جميعُ اللاجئين.

التقطت عديدًا من الصور في ذلك المساء في شاتيلا، لكن واحدة منها كانت أعزَّها على قلبي، فأحطتُها بإطار ووضعتها على رفِّ المدفأة. إنها تستحضر تفاصيل سعادة ذلك اليوم. إنها الصورة التي من شأنها ذات يوم أن تغادر بيتي في «بنسلفانيا»، في صندوق أدلَّة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية «سي آي إيه»، وبعد ذلك كنت سأبحث محمومة عن نيجاتيف الفيلم، لأطبع نسخة أخرى عنها. شقيقي الكبير واقفٌ بابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه، يحمل طفلته البكر، فلسطين، بينما فاطمة، حبُّ حياته، تميل بغُنج على كتفه وهي تبتسم، في مسكنهم الصغير في بلدة اللاجئين وصفائح التنك تلك.

في ذلك الصيف في لبنان، توثَّق الرباط بيني وبين فاطمة كامرأتين. لم أعد بعد الآن تلك البنت الصغيرة التي توصِل رسائلهما، وتلعب حافية القدمين في المخيم، بل امرأةً شابة صار بإمكانها أن تؤويني في كنفها. تشارَكنا المسؤوليات المنزلية، نتبادل رعاية نمو فلسطين، بينما شرعت فاطمة في مهمَّة البحث عن زوج لي.

كان في ذهنها رجلٌ واحد فقط. هو طبيب، وظروفه مماثلة لظروفي. كان لاجئًا ويتيمًا، وكان قد حصل على منحة دراسية من الأمم المتحدة، وأمضى أحد عشر عامًا في «أكسفورد» ليتخصَّص في جراحة الأوعية الدموية.

تظاهرتُ طبعًا بعدم الاهتمام. لكنها استفزَّتني مازحة حول مدى الإحباط الذي لا بُد أنني أعانيه، لكَوني في هذه السِّن بلا رجل. رددت عليها بمثل قولها:

ـ لا بُد أنكِ تعرفين؛ فأنتِ لم تمارسي الجنس إلا بعد أن بلغت الثانية والثلاثين!

ـ نعم، وكان الأمر بالتأكيد يستحقُّ الانتظار!

صرخت وأنا أضغط بيدَيَّ على أذنَيَّ:

ـ أرجوكِ! لا أريد أن أسمع عن كفاءة أخي الجنسية.

ضحكَتْ. لكن عندما اعترفت بسلسلة علاقاتي الخائبة مع الرجال في أمريكا، تغيَّر صوتها وجرَّبت الحكمة، وأطالت الحديث:

ـ آمال، أعتقد أن معظم الأمريكيين لا يحبُّون بالطريقة التي نحبُّ بها نحن. ليس السبب أي نقص أو تفوُّق متأصِّلَين فيهم؛ إنَّما هم يعيشون في المناطق الآمنة السطحية التي نادرًا ما تدفع العواطف البشرية إلى الأعماق حيث نسكن. أرى حَيرتك. فكِّري في الخوف. بالنسبة إلينا، الخوف العادي لدينا يُعادل الرعب لدى الآخرين؛ لأننا أصبحنا مخدَّرِين ضد البنادق المصوَّبة نحونا باستمرار. والرعب الذي عرفناه، ما كان إلا للقليل النادر من الغربيين أن يتعرَّض له على الإطلاق. الاحتلال الإسرائيلي يعرِّضنا، ونحن أطفال، للحدود القصوى من عواطفنا، حتى لا يعود بإمكاننا الإحساس إلا في الحالات القصوى.

إنَّ جذور أسانا تضرب بعمق شديد في الفُقدان، إلى درجة أنَّ الموت يعيش معنا كأنه أحد أفراد الأسرة. قد تسعدين بتجنُّبه لك، لكنه لا يزال واحدًا من العائلة. غضبُنا غيظٌ لا يستطيع أن يفهمه الغربيون. حزنُنا يُبكي الحجر. والطريقة التي نحبُّ بها ليست استثناء يا آمال.

إنه نوع من الحب يمكنك معرفته إذا شعرتِ فقط بالجوع الشديد الذي

يجعل جسمك يأكل نفسه في الليل. النوعُ الذي تعرفينه فقط، بعد أن تقيلكِ الحياةُ القنابلَ المتساقطة، أو الرصاصَ المار عبر جسمك. إنه الحب الذي يغوص عاريًا محاوِلًا الوصول إلى اللانهاية.

في انتظارهما الطويل، وفي الحب المقدَّس الذي نشأ وعاش في الحرب، كان يوسف وفاطمة قد اكتشفا هذا السِّر.

* * *

ذات يوم جمعة، جاء ماجد لزيارة أخي بعد الصلاة. شهد ذلك اليوم نهاية أسبوعي الثاني في مدرسة البنات التابعة للأمم المتحدة، حيث كنت قد اضطلعت بوظيفة تدريس في الصيف. كان ذلك أيضًا يومًا بالغ الأهمية، حين ابتسمت الطفلة فلسطين أول مرة.

مرَّت فاطمة بقربي حاملة صينية عليها مكسَّرات وقهوة لضيفها، وهمست في أذني:

ـ هذا هو الطبيب الذي كنت أحدِّثك عنه.

الرجل الذي أمَلت أن تزوِّجني إياه، كان الرجل الذي اصطحبني من المطار.

لاستكمال مسعاها، اقترحت فاطمة أن يصطحبني ماجد في جولة لمشاهدة المدينة، ولمَّا لم أكن قد غادرت المخيم طوال شهرٍ من وجودي هناك، تردَّد هو، وأنا شعرت بالإحراج. مخطَّط فاطمة كان واضحًا، وقد أحدث موقفًا غير مريح. تجهَّم يوسف، مع أنه كان طبعًا يثق بماجد. أضافت فاطمة، من دون أن تُثنَى عن عزمها:

ـ أقصِد فقط أنَّ بإمكان آمال أن تساعدك في عمليات التوليد.

كان ماجد يتطوَّع بشكل منتظم في المخيم، ما يعني أنه أشرفَ على عددٍ لا بأس به من الولادات.

تابعت فاطمة كلامها:

ـ أُم يوسف، الله يرحمها، كانت قابلةً، وقد علَّمت آمال. كلتاهما أشرفت على ولادة كثير من الأطفال في جنين.

أنا وداليا كنا فريقًا.

التفَت ماجد نحو يوسف كاعتراف بمسؤوليته. لم يبدِ شقيقي أيَّ اعتراض، ورحَّب ماجد بدَوره بمساعدتي. قال:

ـ أُم لَيث تتوقَّع الوضع الأسبوع المقبل.

وهو سيُشرف على عملية الولادة، وسوف يشعر بالارتياح لمشاركتي في المسؤولية. هذا، بالطبع، إن كنت مهتمَّة بذلك.

التفتُّ إلى يوسف احترامًا وتأكيدًا أنَّ أمور العائلة تخضع لقراراته. وقد فهِم الإيماءات وأحبَّنا جميعًا:

ـ لا بأس بالنسبة إليَّ. الله يعطيكم العافية.

شقيقته وأعزُّ صديق له معًا سوف يكملان فرحته. أراد أن يضع الأمور في نِصابها الصحيح؛ أن يفي بوعده لبابا ولي.

ابتسم يوسف ابتسامته العريضة الساذجة، مندمجًا خفية في خطة فاطمة.

الوضوء، ثم الصلاة. مستعدَّة، وضعت مقصًّا جديدًا فوق اللهب «بسم الله الرحمن الرحيم». تأخَّر ماجد، وكان عليَّ أن أمضي قدُمًا إلى منزل أُم ليث.

ونحن متَّجهتان إلى هناك، لاحظَت فاطمة أنني صامتة:

ـ ماذا بكِ؟ لقد قمتِ بذلك من قبل ألف مرة.

من دون تفكير، ردَّدت كما أجابتني ماما ذات مرة:

ـ لا تتكلَّمي. الآن ليس الوقت المناسب لذلك.

لُمت نفسي على الفور. سأوضح لفاطمة في وقت لاحق.

كان الجَنين في وضعٍ غير صحيح داخل رحِمِ أُمه. شعرتُ بالمشكلة على الفور:

ـ ساعديني لنعكس وضع الطفل!

صرختُ، وتذكَّرت أنني بحاجة إلى أن أكون أكثر هدوءًا. أيًّا كان شعورك...

توقَّفتُ قليلًا، تمتمتُ بدُعاء. تنفَّسْ أيها الطفل. تنفَّستُ أنا. ساعديني يا داليا. وضغطتُ براحتَيَّ لأتحسَّس الطفل. همستُ للمرأة المضطربة جدًّا:

ـ وكِّلي أمركِ إلى الله!

دعي الله يعمل من خلال يديك، همست لي داليا.

وصل ماجد واستدعى سيارة إسعاف. سمعت: «قيصرية» و«هذا يكفي». وقالت فاطمة: «انتظروا».

استدار الجنين في الوقت المناسب قبل أن يموت أو يقتل أُمَّه. لم يعد الحبل السرِّي يشكِّل عائقًا في الطريق، وعاد الرأس حيث كان يجب أن يكون. تسلَّم ماجد المهمَّة، أخرج مولودًا ذكرًا، وأرسل الأم والطفل للتعافي في العيادة.

ـ أين آمال؟

كنت قد اغتسلتُ وغادرت، يلاحقني جهدُ ساعات مضت، ونخْرُ ذكريات من سنوات غبرت. تلاحقني داليا. كم كان مؤلمًا! لكنه ألم حلوٌ يبعث على الرضا. أردت، أكثر مما في أي وقت مضى، أن أكون آمال مجدَّدًا؛ لا «إيمي» المجهولة.

واصلت السير وهناك رأيته. «لم أشاهده من قبل بهذا الشكل، لم أتصوَّر أن يفعل ذلك». لقد قصَّ ماجد شعره. وبعد ذلك بأشهر، سيخبرني بأنه فعل ذلك لأجلي، ليعطي انطباعًا أفضل. قال مشيرًا نحو ما فعلت في التوليد:

ـ لم يعلِّمونا ذلك في كلية الطب... تَبدين شاحبة قليلًا. هل أنتِ بخير؟

ـ أنا متعَبة.

نظرت إلى الأسفل. أفتقد أُمي.

ـ هل يمكنني أن أمشي معكِ لأوصلك إلى البيت؟

أومأت برأسي، نعم!

ـ جائعة؟

أتضوَّر جوعًا. لكن إلى أين يقود سؤالُه يا تُرى؟

قال، وكلماته تتعثَّر بعضها ببعض:

ـ أنا فقط... يمكنني أن أشتم رائحة الشاورما فقط من مطعم «أبو نايف».

وأضاف:

ـ أظن أنَّ ذلك مناسب؛ فبحلول الغد سينتشر النبأ بأنك مساعدتي الطبِّية.

كان يختبر صوته بأفكار عشوائية، آملًا أنَّ شيئًا مما يقول قد يكون ملائمًا، ويحل محل الإرباك الذي لم يُدرك هو كم كان ساحرًا.

ـ ولكن، إن كنتِ ترَين أنَّ الوقت ما زال مبكِّرًا، يمكنني ببساطة إحضار الطعام وأخذه إلى المنزل.

كنا قد ساعدنا امرأة وطفلها على الفوز بجَولة ضد الموت، وداليا ساعدتني على إيجاد قطعة أخرى من نفسي، والآن كان ماجد يتلعثم ليُقنعني بتناول وجبة بسيطة معه.

امتطَّت شفتاي تلقائيًّا، وتجعَّدتا في ابتسامة. اقترحت بمكْر:

ـ بإمكاننا أن نأكل في وسط البلدة.

اعتدل مبتسمًا، مبعِدًا الارتباك، ومرتاحًا إلى أنه لم يضايقني. ظهرت على خدِّه الأيسر غمَّازة لم أكن قد لاحظتها من قبل؛ ظِلٌّ صغيرٌ بدا أعمقَ في ضوء آخرِ النهار، وبفعل ابتسامته التي أحبَبت.

كان الظلام قد بدأ ينشر ظلاله، عندما عرَّجنا على البيت لنترك خبرًا لفاطمة عن مشوارنا. يوسف سيعود متأخرًا، لكن أنا وماجد أردنا أن نصل إلى البيت قبل عودته. لذلك اكتفينا بأن نأكل شاورما بجانب البحر.

ـ أخيرًا، «عروس فلسطين». اعتاد والدي أن يسمِّيه كذلك. جدِّي يحيى ـ الذي لم أره مطلقًا ـ اعتاد اصطحابه هو وعمِّي درويش إلى شواطئه، حين كانت فلسطين لا تزال فلسطين!

قلتها، وأنا أجلس وجهًا لوجه مع البحر الأبيض المتوسط اللامع في ضوء القمر. تحدَّث ماجد برفق، كما لو كان على مضض:

ـ إنها ستبقى دائمًا فلسطين.

أسند ظَهره إلى الوراء متنهِّدًا. أضاف وصوتُه أكثر خفوتًا وأسرع:

ـ تعلمين؟ اللبنانيون يسمونه «عروس لبنان»، وأظن أن اليونانيين والإيطاليين يدَّعون أنه عروسهم أيضًا.

ـ يبدو أنَّ العروس لَعوبٌ.

ـ تتخطَّفها الأيدي.

ضحك وتخيَّلت غمَّازته. الشعور السائد بالراحة كان غريبًا وسارًّا. الظلام واسع وتتخلَّله النجوم. انتصف القمر، متدفِّقًا على المياه. قال ماجد، مشيرًا إلى السماء المرصَّعة:

ـ أترَين؟ هناك.

ـ ماذا أرى؟

ـ هل تعرفين كيف يبدو شكل بُرج الأسد؟

ـ نعم، تلك هي علامة برجي.

ـ أعرف. هل يمكنكِ أن ترَي المحيط الخارجي للشكل؟ تابعي أصابعي بنظركِ.

متتبِّعًا عقفة رأس الأسد، قال:

ـ تلك هي «الجبهة»، وهناك «رأس الأسد»، «الطرف»...

ـ إنها تلفظ بمثل طريقة الغربيين. هل هي أسماء عربية؟

ـ نعم، النجوم سمَّاها العرب. الأسماء التي أطلقوها عليها لا تزال

تُعتمَد. ولكنَّ الأبراج تحمل أسماء يونانية. هل يمكنك أن ترَي حيث أُشير؟

تحرَّكتُ إلى خلفه كي أرى أفضل، بدلًا من أن أرى النجوم رأيت كتفيه وقد امتدَّتا بعرض البحر. سألت، مبتعدة إلى الوراء:

ـ كيف تعرف كل هذا عن السماء؟ وكيف تعرف أنَّ الأسد هو برجي؟

قال وهو ينظر إلى الأعلى بتركيز:

ـ كتاب «صور الكواكب الثمانية والأربعين»، لعبد الرحمن الصوفي.

كان ذلك أحد أثمن الممتلكات لدى ماجد ـ وهو من أوائل الكتب التي تشمل وصفًا شاملًا لأبراج النجوم والكواكب السيَّارة ـ وقد كُتب في القرن العاشر الميلادي.

ـ سوف أحضِره معي في زيارتي المقبلة ليوسف.

وأضاف:

ـ شقيقك وأنا مقرَّبان. لقد تحدَّثنا عنكِ.

ثم نظر مباشرة في عينيَّ:

ـ في الغالب، مؤخَّرًا... لأنني سألته.

ابتسامة صغيرة مظلَّلة بضوء القمر امتدت من شفتيه على طول الطريق إلى قلبي.

وجدتُ فاطمة في انتظاري عندما رجعت. سألتْ:

ـ هاتِ ما عندكِ! ماذا لديكِ؟

ـ إنه لطيف.

قلتُها، وأنا لا أريد أن أمنحها الإحساس بالارتياح، لكنني أتحرَّق شوقًا لأروي لها كل التفاصيل.

تفاخرَتْ:

ـ آها! لقد أعجبك. أستطيع أن أُخمِّن. لكنكِ لا تريدين أن تعترفي بأنني الخاطبة البارعة في المنطقة.

قلت مازحة:

ـ حسنًا، أنت يا بارعة وذكية. ولكن ماذا لو لم يُعجبني؟ لقد حاولتِ دفعي في اتجاه رجل غريب! أين عاداتنا وتقاليدنا؟

قالت فاطمة:

ـ ليس غريبًا تمامًا. لقد كان أعزَّ صديق لشقيقك منذ معركة الكرامة. ماجد هو الرجل الذي أنقذه يوسف عندما تلقَّى رصاصة في ساقه عام ثمانية وستين.

فاجأني أنَّ ماجدًا كان قد شارك في القتال في أي وقت مضى.

ـ كيف حصل مقاتلٌ في منظمة التحرير على منحة للدراسة في إنجلترا؟

ـ اكتشف يوسف أنَّ ماجدًا كان طالبًا مثاليًّا في المخيمات، وأنه كان قد حاول الحصول على منحة من أجل الدراسة، لكنه أخفق. لذلك توسَّط أخوكِ ليحصل صديقُه على واحدة. كانت له اتصالات بموظَّفي الأمم المتحدة بسبب عمله في المدرسة، واستطاع إيصال طلب ماجد إلى الأشخاص المناسبين.

ـ لم يخبرني بذلك!

ـ أنا موقِنة أنه سوف يفعل. أخبريني فقط أولًا، مَن الخاطبة البارعة في المنطقة؟

ـ زوجة أخي البلهاء.

ضحكَتْ:

ـ جميلٌ أن أسمعكِ تعترفين بذلك. تلك النظرة التي رمقتِني بها، في طريقكِ وأنت خارجةٌ، كانت مخيفة.

(٢٧)

الرسالـة

١٩٨١

احتلَّ ماجد أفكار آمال. ملأ أحلام يقظتِها التي استعادت فيها مرارًا الوقت الذي أمضَياه معًا، باحثةً عن المعاني الخفية لكلماته. وبدأ قلقها يطَّرد عندما مر أسبوع كامل من غير أن تسمع منه شيئًا. وطوال أسبوعين آخرين، غرقت آمال في لهفة انتظار زيارة ماجد المقبِلة لبَيت شقيقها.

تطلَّعت باستمرار حولها على أمل رؤية السيارة «الفيات» البيضاء الصغيرة المنبعِجة، وآملة ـ لا، بل متضرِّعة ـ أن تعثر عليه يزور مريضًا في المخيم، أو يدرِّب أطباء هناك. كانت تصغي باهتمام إلى أخبار عن أماكن وجوده؛ زيارات منزلية وشيكة لمرضى، أو خطط لزيارة رفيقه. كان من السهل إدراك حالتها بين نساء شاتيلا، وكن يتهامسن سرًّا عندما يرَين معلِّمة المدرسة الشابة تبحث هنا وهناك عن إشارات عن الدكتور ماجد. على الرغم من أنها نميمة، فإنَّ النساء لم يتحدَّثن بدافع المكر، بل بدافع من العادة والحنين إلى أيام صِباهن، عندما كان الحب هو الأروع من بين الاحتمالات الممكنة للحياة. في مخيم للَّاجئين، حيث

يعيش كثير من الناس في حيِّز صغير جدًّا، حتى الأسرارُ لا يمكنها أن تعثر على مكان للاستتار.

فيما أصبحت عادةً الآن، لحقت مجموعة من الفتيات معلِّمتهن في طريقها، سيرًا على الأقدام إلى المدرسة في صباح أحد الأيام:

ـ صباح الخير أبلة آمال!

استدارت آمال نحو تلميذاتها، كلٌّ منهن في زِيِّها المدرسي الأزرق، وشرائطِ الشعر البيض، والكتب المحزَّمة على ظهرها. رجاء، وهي فتاة نحيلة ذات عينين عابثتين، جاءت تركض، وقالت لاهثة:

ـ أبلة آمال، الدكتور ماجد قادم غدًا إلى منزل ميرفت ليطمئن إلى والدها.

مجرَّد ذِكر اسم ماجد أثار في آمال رعشة حاولت إخفاءها عن تلميذاتها. سألَتْ مع لامبالاةٍ مصطنعة:

ـ حسنًا. كيف حال أبي جلال بعد الجراحة التي أُجريت له؟

كرَّرت رجاء ما قالته، متجاهلة سؤال مُعلِّمتها:

ـ الدكتور آتٍ في المساء يا أبلة.

فتاة أخرى قالت لرجاء بتذمُّر:

ـ الأبلة سألتكِ عن أبي جلال!

ثم خفضت صوتها، مضيفة بحزم مع دفعة خفيفة لا مبرِّر لها:

ـ وليس عن الدكتور!

ألقت آمال عليهن نظرة عابرة، ساعية لملء لقب «الأبلة» بالسُّلطة الجديرة بها:

ـ حسنًا يا بنات. واصِلن السير إلى صفوفكن.

ومضَين إلى الأمام، يقهقِهن، مبتهجات بحصَّتهن من النميمة التي استرقْن السمع إليها عبر أُمهاتهن.

* * *

بقيت آمال في المدرسة إلى وقت متأخر، تُحضِّر دروس الأسبوع المقبل، ولمضي الوقت حتى يحلِ المساء، ممنِّيةً نفسَها بِلقاءٍ في طريق عودتها. أخيرًا غادرت، قاطعةً الطريق الطويل ببطء، مارة بمنزل أبي جلال، باحثة في كل الأزقَّة الضيقة التي تكفي لاستيعاب سيارة لا أكثر، لكنها لم ترَ أيَّ «فيات» بيضاء.

كسا اليأس وجهها وهي تدخل منزل أخيها. سارعت فاطمة نحو آمال تساعدها في التخلُّص من حمل كتُبها:

ـ أين كنت؟

أجابت آمال بهدوء:

ـ كان عليَّ إعداد بعض خطط الدروس للأسابيع الثلاثة المقبلة.

قالت فاطمة:

ـ أرسلتُ بعض الأطفال لاستحضارِك. ماجد كان هنا. غادر قبل أقل من خمس عشرة دقيقة.

مرة أخرى؛ ذِكْرُ اسمِه حرَّك أعماق آمال.

اقترب يوسف من شقيقته مقبِّلًا جبينها:

ـ سلامات يا أختي. ماجد ترك لكِ هذا الكتاب. طلب أن تعتني به جيدًا.

أخذَت الكتاب ببطء. نسخة ماجد النفيسة من «صور الكواكب» للصوفي. رفعت بصرَها نحو أخيها، باحثة في عينيه عن بقايا محادَثة معَ ماجد. من المؤكَّد أنَّ يوسف لم يكن ليأخذ هذا الكتاب من دون أسئلة، ولم يكن ماجد ليعطيه إياه من دون تفسير. ولم يكن لحديث بينهما أن يقع من دون صدق. الصدق مسألة شرف.

ومع ذلك، لم يزد يوسف على أكثر مما قال، ولم يوحِ وجهُه بأيِّ تلميحات مفيدة. لم تجد آمال شيئًا في تعبير شقيقها، إلا نوعًا من السذاجة المزعِجة.

تثاءب يوسف. مد ذراعيه الضخمتين، ومال برأسه نحو زوجته:

ـ فطُّومة، حبيبتي ـ كما كان يخاطب فاطمة عندما يريد شيئًا ـ أنا ذاهب إلى الفراش مبكِّرًا، هل ستأتين؟

همست فاطمة بغبطة في أُذن آمال:

ـ أخوكِ يُرهقني.

غطَّت الأخت أذنيها:

ـ بلا قرف! لا أريد أن أسمع عن أخي بهذه الطريقة.

قبَّلت فاطمة خدَّ آمال. ضحكَت في طريقها إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب خلفها. مشت آمال خارجة إلى الفناء، والكتاب القديم آمنٌ في قبضتها. قرَّبته من أنفها، كأنها ستتشمُّ رائحة ماجد مختلِطة بالغلاف الجلدي العتيق للكتاب. فتحَته، والوهن ينبعث من رقَّة صفحاته النفيسة.

في الداخل، مدسوسًا بين الغلاف والصفحة الأولى، اختبأ ظرفٌ صغير أبيض: إلى آمال.

تناولَته. يوسف يعرف. لم يكن ماجد ليجعل منه رسولًا مغفَّلًا. فاطمة أيضًا تعرف. الذهاب إلى النوم مبكِّرًا كان جزءًا من تآمُرهما.

والآن، كانت آمال أيضًا ستعرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

آمال الغالية..

لستُ واثقًا كيف أبدأ هذه الرسالة، إلا أن أقول لكِ إنني منذ ذلك اليوم الذي أحضرتُكِ فيه من المطار، لم أفكِّر في أي أمر سواكِ. ومنذ ذلك المساء على الشاطئ، ظللتِ في أحلامي.

لقد تجنَّبتُ القدوم إلى شاتيلا، على أمل فهْم ما أُحسُّ به. ولكن كل تفكير يصل بي إلى تلك الحقيقة: أنا مغرَم بكِ.

لقد وهبتُ حياتي للمقاومة، وأقسمت على الكفاح حتى النهاية. ظننتُ أنَّ قلبي كان مليئًا تمامًا بالالتزامات والمسؤوليات، بحيث لا يمكنه تقديم وعدٍ آخر. ولكنك لمستِ قلبي في مواضع لم أكن أعرف أنها موجودة. وأنا مضطرٌّ إلى تقديم وعدٍ آخرَ إضافي، وهو: إذا كنت ستقْبلين بي، فسوف أحبُّكِ وأحميكِ طوال حياتي.

المخلص

ماجد

قرأتها آمال مرة أخرى. ومرة أخرى. بَبوم، بَبوم، خفق قلبها بقوة مفعَمًا بالحب، كما خفق ذات مرة بالخوف.

قالت فاطمة ليوسف، متضايقة من أنه لم يكشف لها محتويات الرسالة؛ التي كان ماجد مضطرًّا إلى إطْلاع يوسف عليها:

ـ أتمنى لو كنت أستطيع أن أرى وجهها عندما تقرأها.

عبست فاطمة، تشتكي بدلالٍ لِكَونها آخر من يعلم. ضيَّقت عينيها لتركِّز على فكرة.

ـ إن لم تخبرني، فسوف أذهب لأنضم إلى آمال في الباحة.

حذَّرت زوجَها، غير قادرة على احتواء ابتسامة، على الرغم من بذلها أقصى جهد لتعطي إنذارًا جِديًّا.

أخذ يوسف يئنُّ كوَلد صغير، مستلقيًا على السرير، وفلسطين نائمة بين ذراعيه:

ـ حبيبتي، أرجوكِ، تعالي عندي.

أبقت عينيها ضيقتين وجعَّدت أنفها، وسعِد يوسف لمشاهدة وجهها يستسلم لابتسامةِ رغبة. في محاولة أخيرة للصمود على موقفها، عضَّت شفتها؛ وهو مشهد كان أجملَ من أن يستطيع يوسف تحمُّله. قالت، مستديرة لتسترد قميص نومها من أحد الأدراج:

ـ أعتقد أنه يمكنني الانتظار حتى الصباح.

كانت الطفلة قد تسبَّبت في إضافة مزيد من البدانة إلى جسم فاطمة، التي ترهَّلَ بطنُها، والآن أخفت نفسها بخجل وراء الخزانة، لكي تغيِّر ملابسها. أمرت يوسف عندما نهض واقترب نحوها:

ـ ارجع عند ابنتنا!

ـ لماذا؟ فلسطين نائمة.

ـ حسنًا، أنا أغيِّر ملابسي فقط. ارجع إلى الخلف.

وارتفع الحب منهما فوق مسكنهما الصغير في مخيم شاتيلا للّاجئين: من رجلٍ يمارس الحُبَّ مع زوجته؛ ومن شقيقته في الباحة تقرأ، وتعيد قراءة وعدٍ بالحُب.

(٢٨)

نعـم

١٩٨١

التقَينا سرًّا بعد ذلك بيومين. أراد ماجد أن يسمع جوابي بعيدًا عن التعليقات والتوقُّعات. وهكذا كان، في البقعة المفضَّلة لدينا، خارج قرية طبَرجا الساحلية الخلابة، هناك تعانقنا، أنا وماجد، أول مرة. لعق البحر الأزرق أقدامَنا العارية، وامتدَّت أطرافه البعيدة إلى داخل السماء الصافية؛ فلا تستطيع أن تميِّز أين ينتهي البحر وأين تبدأ السماء. وفي مكان ما، وسط كل ذلك الأزرق، وجدني سحرُ الحب.

التفت ماجد نحوي، سواد عينيه يخترق الزُّرقة. قال محاولًا هزيمة توتُّره:

ـ لقد تحدَّثتُ مع أخيكِ... هل تتزوَّجينني يا آمال؟

سأل بصدق لوَّنتْه زرقةُ البحر وزرقة السماء، كأنهما يتآمران معه في طلبه.

كنت أنتظر سؤاله لأُجيب. كنت قد تدرَّبت على قول «نعم» أمام المرآة. «نعم» مفاجأةً وسعيدة. «نعم» كمسألة مفروغ منها. «نعم، بالطبع سأوافق». كل هذا الاستعداد للَّفظ بتلك الكلمة الصغيرة.

ولكن كل ما تمكَّنت من فِعله كان الإيماء برأسي موافقة، وجسدي يضمه بين ذراعيه، لنستغرق في الزرقة الفاتنة العابقة بالحب.

مسَّ شفتيَّ بفمه، سحبني لأقترب منه أكثر، وشعرت كما لو أنني عشت كل حياتي من أجل تلك القبلة.

قال:

ـ أحبُّك!

أكثر الكلمات كمالًا.

أيًّا كان شعورك، اكْبتيه في داخلك!

كانت ماما مخطئة. همستُ في أذنه، مستسلمة لكلماتي عن طيب خاطر:

ـ أنا أيضًا أحبُّكَ.

وأنا بين ذراعيه، كدت ألمس أنفاسي وهي تتدافع في الدخول والخروج، لم يسبق لي أن شعرت بالحياة على هذا النحو، لم أكن شاكرةً قطُّ إلى هذه الدرجة لمجرَّد كوني على قيد الحياة.

عُدنا معًا لإذاعة الخبر. وضبطَتنا بعض طالباتي ونحن نسير عبر الأزقَّة. قمن بإلقاء التحية علينا وسط ضحكات خافتة، هربن وعُدن وهن يصرخن باندفاع:

ـ الدكتور ماجد وأبلة آمال سيتزوجاااااااان.

ثم ركضن هاربات مرة أخرى.

كتِفا ماجد العريضتان وهو يتحرك بجانبي، الموسيقى التي تصدر من خطواته، نحنحةُ حَنجرته، كل ذلك شكَّل حلمًا أعاد ترتيب حياتي مجدَّدًا، ووضعه في القلب منها إلى الأبد.

(٢٩)

الحُب

١٩٨١

التقى ماجد آمال يوميًّا طوال الشهر الذي استمرَّت فيه خطوبتهما. كان ماجد يذهب إلى آمال في الصباح الباكر الذي يحمل لها معنًى سحريًّا من طفولتها. كانت تنتظره بتشوُّق في كل مرة؛ قلبها معلَّق في ضباب الفجر إلى أن تسمع خُطاه تقترب. يمشي منتعشًا، مشتاقًا، ليرى كيف يوسِّع العشق عينيها العميقتَيِ السواد عندما يقع نظرها عليه. مع ذلك، عندما يقترب أحدهما من الآخر، فإنَّ استقامتهما، وولاءهما واحترامهما لسمعة يوسف وفاطمة، وزفافهما الذي يقترب موعده، أمورٌ كانت تردع رغبتهما في العناق، وفي الشعور باتصال الجسدين.

كانا يتحدَّثان، لا من أجل المعنى، بل ليسمع كلٌّ منهما صوت الآخر. تعلَّم ماجد الطبقات الدقيقة للحب المخلص من عينَي المرأة التي أحبَّته حقًّا، من اكتمال أنفاسه في حضورها. ما أسرع مرور الوقت عندما يكونان معًا! ما أبطأه عندما يفترقان!

بدت عواطفهما كأنَّها تمتلك حياة خاصة في خلال أوقاتهما معًا؛ شعرا

كأن الكلمات نفسها تتطفَّل على تلك الحياة. لذلك تكلَّما همسًا. وهكذا، كان الوقت يمر بهذه الهمسات والضحكات أو الابتسامات، كان ذلك يوفِّر لهما ما يتعلَّق به قلباهما، إلى أن يصدح أذانُ الفجر وتشرق الشمس.

عندما تبلغ خيوط الشمس الأرضَ، تجدهما يصلِّيان معًا، فتُلقي عليهما بظلال طويلة تمد هيئتَيهما إلى البعيد. من ثَمَّ، يفترِقان راضيَين.

تسأله كل مرة:

- هل ستأتي بعد العمل؟

لديه الجواب نفسه دائمًا:

- إن شاء الله.

* * *

كانت الأمسيات ممتعة، كاملة، مليئة بالأمل، صافية، عندما يحضر ماجد. أستطيع أن أرى جميعَنا الآن، كما لو كنت دخيلة تتلصَّص عبر نافذة شخص ما. نحن الخمسة: أنا وفاطمة ويوسف وماجد والرضيعة فلسطين، جالسون حول أطباق البندورة المقلية والحِمَّص والفول والزيتون والزعتر والبيض والخيار باللبن. سماء سوداء مرصَّعة بالنجوم هي سقفنا في الباحة، نتحدَّث جميعًا ونضحك، كما لو كنا معًا طوال حياتنا. تغمس فلسطين يدها في الحِمَّص، وفاطمة تلحس أصابع طفلتها. تستمتع الطفلة بذلك وتستمر تمدُّ أصابعها الصغيرة إلى فم والدتها. أشعر حينها أنني لا أستطيع الانتظار لأنجب طفلًا.

في بعض الليالي، كان ماجد يجلب تلِسكوبه ويعلِّمني أسرار السماء. ذات خميسٍ، على الشاطئ، والغروب ينشر حولنا خيوطه الذهبية، رأى

ماجد بطني المشوَّهة. وضع يده عليَّ من دون أن يزعجه الجلد المحفَّر. حرَّك يده بحَنان على بطني، وقبَّل الندبة في الجلد المتعرِّج. منح جسمي القَبولَ الذي لم أتمكَّن أنا من إعطائه إياه. فعل ذلك برِقَّة هزمت خجلي. ليلة ماجد هدَّأت ندبة الضغينة!

لقد اقترب اليوم الموعود بسرعة، ولم أكن في حياتي قطُّ مَركزًا لكل هذا القدر من الفرح والاهتمام. تتعالى في ذكرياتي من ذلك الوقت زغاريدُ النساء. صديقات فاطمة اللواتي أصبحن أيضًا صديقاتي الآن، نظَّفن وفركْن بشَرتي ودهنَّ جميع أنحاء جسمي بالزيوت والمَراهم، وأحرقن البخور لتعطير شعري، وبارَكنني بتمتمات صلواتهن وتعويذاتهن. إحدى النساء ـ الله يبارك فيها ـ أخذَت فاطمة جانبًا لتسألها هل كانت قد زوَّدَتني تعليماتِ ليلة الزفاف!

(٣٠)

حكاية أبدية

١٩٨١ - ١٩٨٢

مُزدانةً بمُجوهرات أكثر تواضعًا إلى حدٍّ بعيد مما كانت عليه حُلي والدتها، ابتهجت آمال بزفافها. ارتدَت الحرير الأبيض، ورقصت مع نساء شاتيلا اللواتي ملأن الفضاءَ بأغانيهن، وسحَرن الأمسية طربًا بأجسادهن الراقصة. في عالَمهن السِّري بعيدًا عن الرجال، رفعت النساء أغطية الرأس. رؤوسٌ بشُعور داكِنة ومصبوغة بالحِنَّاء تنكشف تحت الحجاب، وكلٌّ منهن ربطت وشاحَها حول أقواس موضع أنوثتها. تَنافسن في الرقص على إيقاع الموسيقى الشعبية، وبإغراءٍ وزهوٍ أُنثويَّين، واصَلن تقاليد عالمهن الخاصِّ الممتد عبر القرون، بعيدًا عن أبصار الرجال.

ـ آآآآآويييييهاااااا.

بدأت إحدى الأُمهات المُسنَّات بأعلى صوتها، وسكَت الحشد:

ـ اللهُم بارِك بطن العروس.

كان ينبغي أن تكون قريبات آمال، من الإناث الأكبر سنًّا، هن من يُطلِقن

تلك الدعوات المبارَكة، ولكنَّ فاطمة كانت قريبتَها الأنثى الوحيدةَ في لبنان، ولم تكن قد بلغت من العمر ما يكفي لتقوم بذلك.

تابعتِ المرأة المُسنة، رافعةً الدعوات إلى الله:

ـ آآآآويييييهاااا.

في النهاية، اندفعت الإثارة في زغاريد النساء، لتنثر الفرحة في الهواء.

ذكَّر المشهد آمال بمنزل وردة عندما لعبت الفتيات لعبة العروسة، حيث تتظاهر واحدة منهن بأنها العروس، وتلفُّ الأخريات المناديل حول العظام التي من شأنها أن تتوسَّع يومًا ما لتتحول إلى أوراك. قُمن بتمثيل مشاهد الزفاف، وحاولن تقليب ألسنتِهن بسرعة لإحداث الزغاريد.

هدى فقط، وبخجل في البداية، عرفت كيف تُطلق ذلك الصوت المثير. منذ ذلك الحين تم تعيينها «مدرِّبة زغاريد»، وطلبت إليها آمال سرًّا ألا تدرب لمياء على الزغاريد؛ يكفي أنَّ لمياء كانت تستطيع أن تقوم بالشقلبة.

ليت هدى كانت هنا الآن! اشتاقت آمال بصمت إلى أعز صديقاتها في زفافها. وقادتها تلك الأمنية إلى آخرين: إلى أُمها، داليا الجميلة ذات الإرادة الحديدية... إلى جميع فتَيات منزل وردة... إلى مُنى جلايطة والأخوات الكولومبيات... إلى الفجر وصوت والدها الحنون... إلى الأصوات والاستجابات من بلدها، وإلى أيام الغربة. ابتسمت طوال حفل زفافها، من دون أن تطْبق فكَّيها ولو مرة واحدة. وهي تشاهد الاحتفال، تجوَّلت آمال داخل ذكرياتها وخارجها بحنين.

وفيما الساعات تمرُّ، أعادت النساء وضع أوشِحتهن للانضمام إلى الرجال لدَمج الاحتفالَين في واحد. عندها وضع أحدهم يد آمال في يد ماجد. العريس

كان يرتدي الأبيض، وحزامُ سيف حول خصره، أهداب كوفيّته مطرّزة بأحمر حريري. استدارت آمال لتقابل زوجها. غطاء الرأس المرصَّع بالقطع النقدية المعدنية يؤطِّر رؤيتها. ورقص الجميع وأذرعهم متشابكة في دائرة حول الزوجين.

تكوَّنت داخل كلٍّ منهما عاصفة من الحب، ورغبةٌ تأجَّجت حتى أضعفت رُكبَهما وعرَّقت كفوفهما، فأدارا نظرَيهما نحو الحشد مبتسمَين. لكنَّ ماجدًا لم يترك يدها قطُّ. ومن اللحظة التي أحسَّ فيها بأصابع عروسه الصغيرة تنزلق بين أصابعه، لم يُطْلقها إلى أن حمل آمال إلى سيارته «الفيات»، وركبا مبتعدَين نحو الزوجية.

حمل ماجد زوجته مرة أخرى إلى شقَّتهما في بناية التعمرية في بيروت. في الوقت المناسب، أسقط حزام السيف، وأزاح الثوب الحرير عن جسمها. علا فوقها، يغرف من عُريها. كان قد عاشر كثيرًا من النساء أيامَ غُربته في إنجلترا، لكنَّ أيًّا منهن لم تفتنْه بمثل هذا الحب. لقد كان جسد آمال هو تطلُّعاته وآماله. استند إليها. قبَّل شفتيها مغلِقًا عينيه ليشرب لُيونتها. شعرت بأنفاسه تسقط بهدوء على وجهها ففتحت ساقيها، مثل جناحين، آخذة حبيبها، زوجها، إلى داخل جسدها. هناك، استسلما لعاصفة شقَّت طريقها إلى الأجزاء الأكثر خفاء من قلبيهما، واستيقظت آمال في اليوم التالي على حلم يطفو منخفضًا فوق منظر طبيعي من الحب.

أخيرًا، فاجأها القدَر بحلم خاص بها؛ حلم يتكوَّن من الحب والأسرة والأطفال. ليس حلم بلاد أو عدالة أو تعليم. كانت آمال ستذهب إلى كل مكان ما دام ماجد إلى جانبها؛ فقد أصبح هو جذورها... هو بلادها.

اندمجت حياته وحياتها، وفرِحت بأدق تفاصيل الزواج منه. نظَّفا أسنانهما في الحوض نفسه. أكلا وصلَّيا معًا. كتبا اسمَيهما على الرمال مثل المراهِقين.

تشابكت أيديهما طوال الوقت. أزال الشعر عن ساقيها وهي تقضم عنقه برفق. حلقت شعره وغسل شعرها. لم يأخذا أي شيء على أنه من المسلَّمات. علاقتهما كانت حميمة ومنفتحة ومتهوِّرة. ذلك النوع من الحب الذي تحدَّثت عنه فاطمة، الذي يغوص عاريًا داخل ذاتِه نحو الوصول إلى اللانهاية، حيث تكمن أسرار الله.

* * *

سألني زوجي:

ـ ماذا تقرئين، حبيبتي؟

أريته الغلاف:

ـ إنها مجموعة من القصائد الأمريكية عن الورود.

ـ الإنجليز أيضًا يعشقون الورود.

ـ جدَّتي باسمة اعتادت أن تهجِّنها. هاك قصيدة لـ«روبرت فروست»، الشاعر الذي ينظم شعرًا مقفًّى: الوردة هي وردة، وكانت دائمًا وردة، ولكن النظرية الدارجة الآن، أنَّ التفاحة وردة.

علَّق ماجد:

ـ ما الأمر الخاص جدًّا بشأن الوردة؟ هل سبق لك أن عاينتِ واحدة؟ إنَّ لها أشواكًا. وهي ليست ذات عبير على نحو خاص. من الصعب أن تنمو ـ وهي ضعيفة ـ عندما تحملينها على الإزهار. أنا أختار «الهندباء البرِّية» (سنُّ الأسد) مفضِّلًا إياها دومًا على الوردة. هذه فعلًا زهرة. إنها متواضعة وقوية، وتحيا باستمرار مهما فعلتِ بها. ودائمًا تزهر ابتسامة صفراء رائعة.

غِظتُه:

ـ تتحدَّث مثل شيوعي حقيقي. إذًا، ما أنا؟ وردة أم هندباء؟

ـ آخخ! كان يجب عليَّ أن أرى ذلك الفخ الآتي. أنتِ، يا عزيزتي... لستِ زهرة؛ فالزهرة شيء يزهر يومًا ويذبل في اليوم التالي. أنتِ النبض في قلبي.

قلت لأُثيرَه:

ـ جواب صحيح! أكمِل...

ـ هل أحصل على جائزة مقابل الأجوبة العظيمة؟

ـ ربما.

ابتسمتُ. قال:

ـ ... الضوء في عينَي.

ـ أنتَ بارع. كسبت الجائزة يا سيدي.

ـ أوه، سيدتي، أنت كريمة جدًّا.

يقوِّس ماجد جبينه اللَّعوب:

ـ سوف آخذ جائزتي الآن.

وجدنا منزلًا صغيرًا قرب شاتيلا، كي أتمكَّن من مواصلة عملي في التدريس في المخيم، وأكون أقرب من فاطمة والرضيعة. لكننا احتفظنا بشقَّتنا في بيروت، من أجل الليالي التي يعمل فيها ماجد إلى وقت متأخر.

كنا سعيدَين إلى أقصى حدٍّ يستطيع كل إنسان أن يحلم به. حتى عندما قُرعت طبول الحرب من خلال التقارير الإذاعية وأحاديث المقاهي، كنا نتحدث عن إنجاب أطفال، وعن التقدُّم في السِّن ومقارَعة الأحفاد.

عندما لم تأتني الدورة الشهرية في موعدها، كان ابتهاجي كبيرًا وشفَّافًا كسماء الصباح، وتضاعف مرتين بعد ظهر ذلك اليوم، عندما أكَّدت عيادة وكالة الأمم المتحدة حمْلينا أنا وفاطمة. وقد حسبنا أننا حمَلنا بطفلَينا في الأسبوع نفسه. قالت فاطمة:

ـ يعتقد الطبيب أنني سأضع طفلي في وقت ما منتصفَ أيلول (سبتمبر).

ـ وأنا أيضًا.

قالت بشيء من الجدِّية:

ـ هل تظنين أنَّ يوسف وماجدًا قد خطَّطا لذلك؟

ـ لا أستبعد شيئًا عن هذين الرجلين.

* * *

انفعال ماجد أنْزله على ركبتيه، وجهًا لوجه مع بطني المشوَّهة التي بوركت فجأة بحياة جديدة. لقد سرق الزمن التفاصيل الدقيقة لتلك الأمسية المثالية من ذاكرتي. لكنني أستطيع استحضار نقائها، ذلك الرضا التام الذي يتركك من دون حق في طلب المزيد.

قبَّل بطني، قائلًا:

ـ مرحبًا يا مَن هناك!

ثم نظر إليَّ غير مصدِّق:

ـ سوف نكون أبوَين، يا آمال!

كان منفعلًا كتلميذ! تحدَّثنا فترة طويلة، لكنني لم أعد أذكر الكلمات، الفرحَ فقط.

بعد شهر، عاريَين في سريرنا، كنا، أنا وماجد، نضع الخطط كما يليق بوالدَين مرتقَبين. أطرافُنا تشابكت، تحدَّثنا عن مستقبلنا ومستقبل طفلنا.

قال ماجد بوَقار، ضاغطًا جسده حول جسدي:

ـ إذا ازداد الوضع تأزُّمًا يا حبيبتي، فأنا ويوسف متَّفقان على أنه ينبغي أن تغادري أنت وفاطمة والأطفال حتى تهدأ الأمور.

كانت إسرائيل تقصف لبنان لاستفزاز منظمة التحرير الفلسطينية فتردَّ بالمثل. في تموز (يوليو) ١٩٨١، قتلت الطائرات الإسرائيلية مائتين من المدنيين في غارة واحدة على بيروت، وتعهَّد «آرييل شارون»، وزير الحرب الإسرائيلي في ذلك الوقت، في تصريح علني، القضاءَ على المقاوَمة إلى الأبد. لقد شكَّل ذلك الخطاب عبئًا ثقيلًا على يوسف، وكان قلقًا بشأننا في حال تكثيف الهجمات الإسرائيلية. كانت الأَولوية لحماية مخيمات اللاجئين. من أجل هذا الهدف، عقدت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، في نهاية الأمر، صفقة مع الشيطان للحفاظ على سلامة النساء والأطفال.

لكن بحلول نيسان (إبريل) ١٩٨٢، كانت الأمم المتحدة قد سجَّلت ٢١٢٥ انتهاكًا إسرائيليًّا للمجال الجوي اللبناني، و٦٥٢ انتهاكًا للمياه الإقليمية اللبنانية. حشدت إسرائيل خمسة وعشرين ألفَ جندي على الحدود مع لبنان، وواصلت القيام بالمناورات الاستفزازية غير القانونية في جنوب لبنان. قاومت منظمة التحرير الفلسطينية التوجُّهَ للانتقام، وكذلك فعلت الحكومة اللبنانية.

لكن يوسف كان مصيبًا في ظنِّه أنَّ إسرائيل سوف تجد سببًا للغزو، بغض النظر عن أي فعلٍ تُقدِم عليه ـ أو لا تُقدِم عليه ـ منظمة التحرير.

أقنَعني يوسف وماجد، حتى فاطمة، بأن ذلك كان الأفضل. كان عليَّ

أن أعود إلى الولايات المتحدة، وأجدِّد بطاقتي الخضراء، وأبدأ بإجراءات الهجرة لزوجي وفاطمة ولفلسطين التي قاربت في ذلك الوقت السَّنة من العمر. مصير يوسف كان مرتبطًا بمنظمة التحرير الفلسطينية، لكنه احتاج إلى الاطمئنان إلى أنَّ عائلته ستكون في أمان. قال يوسف بِرزانة، قارئًا ما في ذهني:

ـ آمال، لا تظني أنكِ تتخلَّين عنا. من الممكن جدًّا أن تكوني منقِذةً لِحياتهم.

* * *

تآمرت تلميذاتي لإعداد حفلة وَداع في آخر يوم لي في المدرسة. راوحت أعمارهن بين عشرة أعوامٍ وخمسة عشر عامًا. في زِيٍّ رسمي موحَّد أزرق داكن، أحْضرن حلويات وشايًا ساخنًا إلى الصف، ونقلن مقاعدهن بعضَها بجانب بعض لتشكيل طاولة. فتاتان، وفاء ودانا، دقَّتا على طاولتهما كطبلة، والأخريات شبكن أذرعهن لأداء دبكة، وقُمن بسحبي للرقص معهن. قبل أن أغادر، سلَّمتني كل واحدة منهن رسالة، أو رسمًا، أو هدية سفرٍ مصنوعة يدويًّا. خاطت لي فتاة صغيرة اسمُها ميرفت غطاءَ وسادة صغيرًا عليه: «أنا أحبُّك» باللغة الإنجليزية.

وعَدت بأنني سأعود، على يقين أنني سوف أفعل، وأنَّ رحيلي كان إجراءً احترازيًّا موقَّتًا غير ضروري في النهاية. كان هذا ما قلتُه لتلميذاتي قبل أن اتركهن في شاتيلا.

كانت صعوبة تركِ ماجد لا توصف. توسَّلت إليه:

ـ أرجوك، ماجد. أرجوك، حبيبي، تعالَ معي.

- حبيبتي، تعرفين أنني لا يمكن أن أغادر ببساطة. قريبًا سوف يحتاج الناس إلى الأطباء أكثر من حاجتهم إلى أي شيء آخر. لا أستطيع أن أُدير لهم ظَهري.

تمنَّيت في ذلك الوقت لو أنَّ زوجي كان جبانًا.

أعاد طمْأنتي، وقرَّبني منه:

- إنْ حدث أيُّ شيء، أعدُك بأن أقيم في المستشفى. حتى إسرائيل لن تقصف مستشفى. قريبًا سنكون معًا، نُربي طفلنا وربما ننتظر آخر. أحبُّك إلى ما لا نهاية. ما بيننا خُلق ليبقى، وسيبقى إلى الأبد.

الحب. لانهائي. إلى الأبد.

كانت تلك كلمات زوجي في المطار يوم غادرت بيروت. تعلَّقتُ بكل واحدة منها، بكل مقطع.

وعَدتُ شقيقي بما طلبه مني: أن يكون أولَ ما أفعلُه فور وصولي إلى الولايات المتحدة، هو تقديم طلب اللجوء لفاطمة التي وقفت وراءه تحمل بئرًا من الدموع في عينيها، وفلسطينُ الصغيرة بين ذراعيها. أنا وهي تدبَّرنا، بشكل هزلي، عناقًا مائلًا إلى الجانب حول بطنَينا المنتفختين، وقد كنا بالفعل في الثلث الثاني من الحمل، وتبادلْنا قبلة الوداع في ذلك العناق. في الطابور، ضغطَت فلسطينُ بفمها المفتوح على خدِّي. «أممه»، هكذا تفوَّهت باسْمي.

قبَّلتُ زوجي مرة أخرى، وقضيت الساعات التالية من السفر محاوِلة طرْد الهواجس القاتمة بعيدًا، لكنها ظلَّت تحوِّم كالصقور في رأسي.

(٣١)

«فيلادلفيا»، مرة أُخرى

١٩٨٢

تَضِيقُ بِنَا الأرضُ
تَحْشُرُنَا في المَمَرِّ الأخيرِ
فَنَخلعُ أعضاءنَا كَي نَمُرَّ
إلى أينَ نَذهَبُ بَعدَ الحُدودِ الأخيرَةِ؟
أينَ تَطِيرُ العَصَافيرُ بَعدَ السَّماءِ الأخِيرةِ؟
أينَ تَنَامُ النَّباتَاتُ بَعدَ الهَوَاءِ الأخِيرِ؟

ـ محمود درويش، من قصيدة «تضيق بنا الأرض».
(كتبَها بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان.)

الساعة التاسعة من صباح يوم ١٦ أيار (مايو) ١٩٨٢، بعد ستٍّ وعشرين ساعة من مغادرتي بيروت، كنت في «فيلادلفيا»، وأشعر بفراغ كئيب لأنَّني لا أريد أن أكون هناك. كان يبدو لي كأن حياة كاملة قد مرت منذ أتيت إلى تلك المدينة أول مرة، غير واثقة بخُطواتي، خائفة من أن يسحبني السلم الكهربائي تحته، وأغارُ من شَعر «ليسا حداد».

مَهمَّات عاجلة يجب عليَّ القيام بها. اتصلت بالدكتور محمد ماهر، الذي

كان يشرف على دراسة ماجد في إنجلترا، وقد استقر الآن في «فيلادلفيا» أستاذًا. قال لي بصوت مبحوح من العمر والابتهاج:

ـ آمال، كنت أتوقَّع مكالمتك. من فضلك. انتظريني في منطقة تسلُّم الأمتعة. سأكون هناك في أقل من نصف ساعة.

من دون أن أعلم، كان ماجد منذ أشهر يتبادل المراسلات مع الدكتور ماهر، لترتيب الأمور. فوجدت وظيفة في انتظاري. ستكون مهمَّتي إعداد تقارير تجارب الطبِّ السريري كي تُقدَّم إلى وزارة الصحة الأمريكية. قال لي:

ـ الأجر جيد. أنا بحاجة إلى تقديم إثبات شهادتك الجامعية فقط لهم. إذا قرَّرتِ العمل في مجال آخر فسأساعدك.

كان يعتبِر ماجدًا ابنَه.

ـ لذا أرجوك، يسعدني أن تناديني عمُّو، أو محمد فقط إذا كنت تفضِّلين ذلك. لكن لا شيء من قَبيل دكتور.

قلت له بانفعال، وأنا أبحث عن كلمات تناسب لُطْفَه:

ـ شكرًا.

ثم وجدت نفسي أدعو له:

ـ الله يحفظك، ويزيد من نعمته عليك، ويهَب لك كل الخير. لطْفك هذا يا دكتور... يا عمُّو محمد... يغمرني.

تسارعت الحياة، وكنت قد نسيت سرعة إيقاعها هنا. في غضون أسبوعين كنت قد تدرَّبت على العمل؛ زرتُ طبيب التوليد، وذهبت خمس مرات إلى مكتب الهجرة. حصلت لزَوجي على الموافَقة كي يأتي إلى الولايات

المتحدة، لكنَّ الحصول على تأشيرة دخول لفاطمة سيتطلَّب ما لا يقل عن شهر آخر.

السيدة المسئولة في دائرة الهجرة، ذات خُصلات الضفائر الإفريقية المشدودة، قالت وعلى وجهها ابتسامة لطيفة:

ـ أعلم أنَّ الفوضى تسود هناك. سأفعل كل ما في وسعي لتسريع الأمر.

ـ شكرًا لكِ. فلتبتسم لكِ السماءُ بكمالها ومحبَّتها.

* * *

بدت المدينة كأنما قد تغيَّرت في أثناء غيابي؛ فقد أصبحت «فيلادلفيا» الغربية مستنقعًا من الفقر يغرق في المخدرات. رأيت هناك الآن اليأس بدلًا من النفوذ الذي كانت تعكسه وجوه الأُمهات المُسنات الصريحة، واللواتي لا زلن يقضين الأيام كعادتهن على شرُفاتهن.

الأصدقاء القدامى: «أنجيلا حداد» و«بوبو» و«جيمي». «إنه لشيء جميل أن أراكِ مرة أخرى، يا آمال». شقة في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، رغبة في تجنُّب أن أصبح عبئًا على عائلة محمد ماهر.

في انتظار وصول عائلتي، واجهتُ الوقت بالأمل والمحادثات الهاتفية المتقطِّعة مع زوجي أو مع فاطمة، قام عمُّو محمد وزوجتُه «إليزابيث»، بتكييف نفسَيهما ليُصبحا أسرة بديلة لي. كان عمُّو و«إليزابيث» قد تزوَّجا منذ خمسين سنة تقريبًا. وعملا في تقديم الخدمات الطبية؛ هو طبيب وهي ممرِّضة، وعاشا ـ بعد أن تركا «أُكسفورد» ـ على رواتب صغيرة تقاضياها من منظمات الإغاثة التي تعمل في سهول إفريقيا. أمَّا الآن ـ في الولايات المتحدة، ومع التعويضات الكبيرة للأمريكيين الشماليين ـ أصبحت حياتهما

تدور في جوٍّ من الملل، والرغبة في الأبناء. وعلى الرغم من أنَّ جسدَيهما تحمَّلا جيدًا عبء السبعين سنة، فقد تسبَّبت السنون في تأكُّل العظام والحدِّ من نشاطهما، مما اضطرهما إلى خفض وتيرة عملهما، وإلى تجنيد مهارات طبية شابة كلما أمكن، لتحمل عنهما إرثَ عملِهما. الطب بلا حدود. عملٌ ينبع من الحنان، لكنه لم يكن كافيًا لهما. وصولي، وبطني تنتفخ بالحياة، أثار رواسب سنوات عمرِهما المتقدِّم. التقارُب الغريزي الكامن، الذي لا يمكن إنكاره بين المُسنين والأطفال الرُّضع، أبهَجهُما الآن، وقاما بحماية وضعي الجديد.

تولَّت «إليزابيث» مهمة التثبُّت من أنني آكل جيدًا، وأتناول الفيتامينات، وأذهب بانتظام لإجراء الفحوص الطبية. جلسَت بقربي كل يوم وأنا أتصل وأعيد الاتصال بلبنان ودائرة الهجرة والتجنيس، وكانت موجودة دائمًا لتشاركني خيبة أملي من فشلي في أن أتصل بزوجي أو بفاطمة بسبب الخطوط المشلولة.

شعرُها الأشقر الباهت قصير، ويكاد لا يصل إلى عنقها، ويتجمَّع وراء أذنيها بطريقة متواضعة. تخوض الأيامَ بقامتها المنتصبة المستقيمة، وأصابعها الطويلة التي كانت تعاني التهابًا طفيفًا في المفاصل؛ قليلًا ما ترتاح من عزمها على إنقاذ العالم، وفي الوقت نفسه تحافظ على النظام في حياة زوجها. كانت تبدأ صباحها بالقهوة، بعد أن تخلَّت عنها أربعين سنة مضت. تعدِّل ربطة عنق عمُّو الحمراء التي تشكِّل جزءًا منه، كعينيه تمامًا اللتين بِلون البُندق. يفترقان بكيس الغداء البُني وقبلةٍ؛ عادةٌ لم تتزعزع طول سنوات زواجهما.

كانت «إليزابيث» قد تقاعدت عندما حصل عمُّو على منصب أستاذ في جامعة «بنسلفانيا». وأصبحت تقضي وقتها في الخدمة الطبية الخيرية،

وفي علاجات الدلال الحديثة في حمَّامات المياه المعدنية، وفي التمارين الرياضية المائية. أحْدثَ وصولي تغييرًا في عاداتها، وكلما اقترب موعد الولادة، استثمرت وقتها فيه وفي توطيد علاقة الأم ـ الابنة التي بيننا. كنت لا أزال أقضي عددًا من الليالي في غرفة الضيوف عند «إليزابيث»، أكبر مما أقضيه في شقتي.

* * *

تراكمت الأيام من دون أن أسمع شيئًا من ماجد أو يوسف أو فاطمة أو دائرة الهجرة والتجنيس. تكدَّس الوقت من حولي، وانتهيت بين الفراغ وشؤم نشرات الأخبار المسائية، حتى انهار كل شيء في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٢.

إسرائيل هاجمت لبنان.

لم أكن منتبهة إلى الشاشة الصغيرة على طاولة المطبخ، لكن عمُّو كان متابعًا، ولاحظت تغيُّر وجهه قبل أن أسمع الأنباء. كنا جميعًا نحبس أنفاسنا منذ أسابيع، والآن، ما كنا نخشاه تحرَّك بوَهن مثل سحابة، عبْر تعبير عمُّو، واختطف اللون من وجهه، فأخذ يشحُب.

سمعت البث الصاخب في اللحظة التي التقيت فيها عينَيه الحزينتين.

«غزو شامل». «قصف جوي مكثَّف». «قوة مُشكَّلة من تسعين ألف جندي تتقدم على طول ساحل لبنان». التلفزيون يُبرز عنوان: «عملية سلام الجليل»، كان هذا اسمًا للتاريخ.

عملية؛ كيف تُنتهك الكلمات! ماجد ينفِّذ العمليات لإنقاذ الأرواح.

مدة خمس ساعات بدت بلا نهاية، اتصلتُ وأعدتُ الاتصال، ولكن تكدست خطوط الهاتف اللبنانية بفعل الأقرباء الذين يحاولون الاتصال

بعضهم ببعض، في حين بدأت إسرائيل بتدمير ممنهَج للاتصالات في البلاد. وأخيرًا، انفتح باب السماوات. بريقٌ عذب من الرحمة لمس عالمي عندما سمعت صوت زوجي على الطرف الآخر:

ـ حبيبتي. يا الله، صوتك هو كل ما أحتاجه لأقدر على تحمُّل هذا الجحيم.

قال كما لو أنه يقرأ من أسطُر في قلبي. كنت قد تمكَّنت من الوصول إليه في المستشفى، والحرب تمزِّق كل شيء من حوله. تمكَّنت من سماع هدير القنابل المكتوم بسبب المسافة، ودوي صفَّارات إنذار سيارات الإسعاف. وصرخات الرعب بعيدة هناك، حيث أردت أن أكون. توسَّلت:

ـ ماجد، أرجوك، تعالَ الآن!

ـ حبيبتي، الجرحى يتدفَّقون بالمئات، والمستشفى تعاني بالفعل نقصًا في عدد العاملين. إنهم بحاجة إليَّ؛ فقد تخلَّى عنهم كثير من الأطباء. أرجوكِ، ابقَي حيث أنتِ هناك، وقومي برعاية طفلنا. سآتي... أعِدك بأننا سنكون معًا في وقت قريب.

لأننا لم نكن نعرف متى سيُمكننا أن نتكلم مرة أخرى، بقينا على الهاتف نملأ كل ثانية بالحب الذي تواعَدنا على ألا يموت أبدًا، ووعدني بأن يبقى في المستشفى.

ـ حلمت أنكِ وَلدت طفلة، سارَة الصغيرة، وكنا نتنزه على شاطئ صيدا. هل تتذكَّرين عندما كتبنا اسمَينا على الرمال؟

بالكدِّ استطعت أن أتكلَّم. قلت وأنا أنشج:

ـ طبعًا أتذكَّر. لقد رأيتُها على جهاز تصوير الموجات الصوتية.

ـ هي؟ رأيتِها؟

ـ نعم، إنها بنت. ابنتنا. سنلد سارة.

وصمَتنا طويلًا.

ـ في النهاية، أنتِ الأهم. أنتِ مَن أنا ملتزِم تجاهها أكثر من أي شخص هنا. أليس كذلك يا عزيزتي؟ أحبُّك أكثر مما تتخيلين. ربما أكون قد فعلت كل ما في وسعي هنا.

سارة الصغيرة.

بعد فترة وجيزة، حان الوقت لإنهاء المكالمة، مهمة بدت كطرد الهواء من رئتيَّ، ولكنَّ ماجدًا سيأتيني الآن. إنها مسألة أيام فقط. أسبوع على الأكثر.

دعوت الله بكل ما في قلبي من إيمان: «يا رب، أبقِ عائلتي آمنة، وسوف أكرِّس حياتي لأستحقَّ رحمتك». صلَّيت وصلَّيت، تمامًا كما صلَّت داليا في زمن آخر ومكان آخر. في حرب أخرى.

* * *

ظلَّت خطوطهم الهاتفية مقطوعة.

كل يوم، كنت أتفادى شِراكَ هواجسي الليلية المظلمة، جررتُ نفسي عبر أيامي، وأصبح عقلي مهووسًا بالأنباء. اتصلت وعاودت الاتصال وأنا مسكونة بالفزع. زحف «آرييل شارون» بجيشه داخل لبنان، وأحكَم الحصار على بيروت طوال شهرين قاسيين، حارمًا سكانَها الماءَ والكهرباء والرعاية الطبية.

قلبي صار علبة معدنية، مغلَّفةً برصاص حبر الصحف ونبرة المذيعين

الفارغة. في صالة المكتب، يقول مراسل على التلفزيون: «تحذِّر المنظمات الإنسانية من...» لا أقدر على الاستماع.

يقول أحد زملائي:

ـ على الإدارة أن تفعل شيئًا ما بخصوص الطعام في هذا المكان.

ويستكمل آخرون حديثهم عن الحالة المزْرية لموقف السيارات:

ـ إنه بعيد جدًّا، وخصوصًا عندما تمطر.

لم يعد مُتاحًا الاتصال بماجد، وشعرت أنني أفقد الاتصال بالحياة نفسِها.

مزيد من القنابل ومزيد من الأجساد لاستقبالها. صلَّيت واتصلت بالصليب الأحمر. اتصلت بدائرة الهجرة والتجنيس. أرجوكم. يبذلون أقصى جهدهم، يفعلون أفضل ما يمكنهم فعله. ولا، لا يمكنني الذهاب إلى هناك. لقد تم تعليق جميع الرحلات الجوية. كيف ستأتي أسرتي إلى هنا؟ عرض تلفزيون الـ«بي بي سي» مبانيَ شاهقة تنهار مثل الطين المجفَّف، مع كل مَن كان بداخلها، مهشَّمًا أيضًا.

«تقوم إسرائيل بردِّ الضربة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وهي منظمة إرهابية تهدف إلى ذبح اليهود كما فعلوا بالرياضيين في ميونيخ». كان الهدف المعلَن لإسرائيل هو الدفاع عن النفس؛ لإخراج منظمة التحرير الفلسطينية، مقاومة مكوَّنة من ستة آلاف عنصر.

بحلول شهر آب (أغسطس)، كانت محصِّلة الاجتياح: ١٧,٥٠٠ قتيل من المدنيين، ٤٠,٠٠٠ جريح، ٤٠٠,٠٠٠ من دون مأوى، ١٠٠,٠٠٠ مشرَّد. رقد لبنان مدمَّرًا ومنتهَكًا، بلا بِنية تحتية، بلا طعام أو ماء. وإسرائيل تزعم أنها أُجبرت على الغزو من أجل السلام: «نحن هنا من أجل السلام. هذه مهمة لحفظ السلام».

لاحقًا، بعد عقود، وأنا ما زلت أبحث عن المصير الذي نسيَني، تفحَّصت تفسيرات السلام. المُراسِل البريطاني «روبرت فيسك»، في مذكِّراته الملحمية بعنوان «رثاء الأُمة: اختطاف لبنان»، يصف القذائف الفُسفورية الإسرائيلية:

> كانت قصَّة الدكتورة الشمَّاع مروِّعة، وانكسر صوتها وهي ترويها: «اضطُررت إلى أخذ الأطفال ووضعِهم في أحواض من المياه لإخماد النيران». وأضافت: «عندما أخرجتُهم لاحقًا، بعد نصف ساعة من الوقت، كانوا لا يزالون مشتعلين. حتى في المشرحة، ظل يتصاعد منهم الدخان عِدة ساعات». وفي صباح اليوم التالي، أخذتِ الدكتورة أمل الشماع الجثثَ الصغيرة خارج المشرحة لدفنها. وما أفزعها أنَّ الجثث اشتعلت بالنيران مرة أخرى.

أرسل «رونالد ريغان» «فيليب حبيب» الذي قام بالوساطة لإبرام اتفاق لوقف إطلاق النار، يتم من خلاله إجلاءُ منظمة التحرير الفلسطينية عن لبنان. كان على يوسف إمَّا المغادَرة وإمَّا الموت. وغادر، لأن المغادَرة كانت السبيل الوحيد للحفاظ على سلامة فاطمة والأطفال. هكذا قالوا.

خرجت منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، بعد الحصول فقط على ضمانات صريحة من المبعوث الأمريكي «فيليب حبيب»، ووزير الخارجية الأمريكي «ألكسندر هيج»، أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية، بسُلطة رئيسها «رونالد ريغان» وتعَهُّده، ستكفل سلامة النساء والأطفال العُزَّل الذين تُركوا في مخيمات اللاجئين. وقَّع «فيليب حبيب» الوثيقةَ شخصيًّا.

وهكذا، نُفي مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس، حاملين تعهُّدًا خطيًّا من الولايات المتحدة. ومصير أولئك الذين أحببتُ، يكمن في طيَّات ذلك التعهُّد من «رونالد ريغان».

(٣٢)

حكاية أبدية، لم تُروَ قطُّ

١٩٨٢

في العاشر من أيلول (سبتمبر)، استيقظتُ في رعب فظيع، أحاول أن أميِّز الليل من الكابوس. كانت الساعة ٣:٠٢ صباحًا، بينما جرس الهاتف يقرع في زاوية من ذهني.

يوسف!

كان قد وصل إلى مكانه في المنفى مع منظمة التحرير الفلسطينية. كانت تونس وجْهتَهم في النهاية المؤلمة بعد رحيلهم من لبنان، حيث أُجبر يوسف ورفاقه على ترك زوجاتهم وأطفالهم وأمهاتهم وآبائهم وراءهم. كانت هذه التضحيات أجزاءً صغيرة من صفقات رثَّة يعقدها ياسر عرفات باسم شعبه.

والآن، يواجه يوسف المسؤولية السوريالية البغيضة عن إيصال أخبار إلى أُخته الوحيدة، أخبارٍ تمنى ألا يكون مضطرًّا إلى النطق بها مطلقًا.

كان ماجد قد أوفى بوعده لي، وبقي في حماية مبنى المستشفى، الذي يتميز برمز الصليب الأحمر المرسوم بوضوح على جوانبه وسطحه، لكنه

استجاب إلى إلحاح زملائه، فعاد إلى شقّتنا ليرتاح قليلًا من دوي صفارات الإنذار المتواصل. نام بعمق وهدوء في سريرنا، المكان الذي حرَّرنا فيه الحب وحيث حملتُ بطفلتنا. وعندما عاد إلى عمله وجد في مكان المستشفى دمارًا وجثثًا ودماء. وكان أخي هناك، يبحث عن ماجد، تعاونا معًا لإنقاذ أكبر عدد يمكنهم إنقاذه من الناس.

قال يوسف بارتياح عندما رأى ماجدًا على قيد الحياة:

ـ ليست سوى رحمة الله التي حمَتك يا أخي!

لم يكن يوسف يعرف ما الذي يجيش في داخل زوجي حينها، إلا أنه شيء ملأه بالإصرار اللازم لقضاء الستة والعشرين ساعة المقبلة، وهو يحرث الدمار في تلك الساحة الممتلئة بالجثث المقطَّعة الأوصال، والنفوسِ التي لقيَت حتفها. حلَّق الرماد الجسدي في الهواء الضئيل، ومن ثَمَّ تكثَّف وتخثَّر في قصبتَيهما الهوائيتين وهُما يمشيان بصعوبة في بِرك من الدم نحو صرخات الاستغاثة. سحبا جثثَ من كانوا مرضى ماجد من تحت الأنقاض. أمَّا زملاؤه ـ أو مَن بقي منهم على قيد الحياة ـ والذين حثوه على الذهاب للراحة، فقد حوَّلهم الإرهاق إلى قطع قرمزية.

تبلَّدت أحاسيس ماجد ويوسف من الإرهاق، وضعُف جسداهما، وأخيرًا غادرا المكان.

كانا يجرَّان نفسيهما بطاقة مستعارة من العدم، عندما اصطدما بامرأة ميتة يجثم جسمُها المتيبس على جثة طفلتِها ذات الشريط الملفوف بعناية حول شعرها، وكان جسمها بدَورِه متشبثًا بجسد والدتها. كانا قد شاهدا ما هو أسوأ، لكن رؤية تلك الأم وطفلتها بعثت قليلًا من الطاقة في كِليهما، ما يكفي لاحتضان واحدِهما الآخر. وينشجان.

التفت ماجد إلى يوسف وسأل:

ـ هل تمكَّنت من الاتصال بآمال؟

لم يكن يوسف قد تمكَّن. قال ماجد بهدوء، كما لو أنَّ كل شيء حول كلماته قد تجمَّد:

ـ ستلد آمال طفلة صغيرة. سوف أصبح أبًا يا أخي. أنا ذاهب إلى لندن في الصباح، ومن هناك سوف أنضمُّ إلى آمال أو ستأتي هي إلى إنجلترا. انظُر ماذا فعل هؤلاء الخنازير! لا أستطيع أن أجازف بأن تصبح آمالُ أرملةً وسارَةُ يتيمة.

ـ الله معكَ يا أخي.

عانق يوسف رفيقه مرة أخرى وافترقا بصمْت، توجَّه ماجد إلى شقَّتنا في الطابق الخامس من مبنى التعمرية السكَني، وعاد يوسف إلى مخيم شاتيلا.

بعد خمس ساعات، أُلقيت قنبلة إسرائيلية فسوَّت مبنى التعمرية بالأرض، وقنبلة أخرى فعلت الشيء نفسه بالمبنى المجاور.

ـ بحثتُ في كل مكان يا آمال، لكنني على يقينٍ أنه كان داخل البناية. لم ينجُ أحد!

بكى أخي على الهاتف، كلماته ممزَّقة ومشوَّهة بين الحب والعجز الشامل للضحايا الأبديين.

ـ أنا آسف يا آمال!

كان صوت شقيقي الكئيب ثقيلًا في أذني. مليئًا بالحزن.

ـ كان ينبغي أن أُصرَّ على أن يأتي معي. لقد كنت أحاول الاتصال بكِ منذ

ذلك الحين، لكنني لم أتمكَّن من ذلك، حتى وصلنا إلى تونس.

أصغيت... ثقل الكلمات يسحق إحساسي بالواقع. جسدي يهتز فأُسند نفسي إلى الأرض بذراعيَّ، وضغطت على أذني بسماعة الهاتف. لم أكن أفيض بالحزن أو بالغضب أو حتى بالحب. لا شيء دخل كياني، لكن كل شيء خرج منه بسرعة. تسري كلمات يوسف الآن في داخلي مثل تيَّار يسحب الحياة من خلايا جسدي ويجمعها تحتي. ذكريات المطر وهو يضرب زجاج سيارة ماجد، صلابة قدميه وخشونتهما حين تفركان ساقَيَّ العاريتين، الشعر على صدره عندما وضعتُ رأسي عليه، الخطوط حول فمه عندما يضحك، القوس في حاجبه الذي كان ابتسامة في حد ذاتها، التجاعيد الصغيرة تحت أذنيه، بشَرة ظهرِه الناعمة عندما كان يجلس في السرير، لمْسته، قبْلته، نزاهته، حُبُّه...

كل هذا تكوَّم على الأرض من حولي، مثل جوف البطن المظلم. في النهاية، جلست أسيرة الفراغ، مخدَّرة، أتأرجح على الأرض، ما زلت أحمل السمَّاعة بينما صوت أخي، بحزن لا يطاق، يتلاشى في هذا الفراغ.

ماجد. حُبي.

تبخَّرت الأحلام تحت وطأة الواقع الجديد... الأحلام التي حلمناها، أنا وهو. الأطفال الذين كان يمكننا أن ننجبهم، الأماكن التي كنا سنذهب إليها، البيت الذي كنا سنَبنيه، الضحك والأغاني والحياة التي كنا سنتشارك فيها. والحب... آاااه!! الحب الذي كنا سنحبه، كلُّها رقصت في دائرة رقصٍ صوفية حول حقيقة أنَّ ماجدًا مات. قُتل. رماد، رماد. تهاوى كلُّ شيء!

تحدَّيت الطقس خارج شقَّتي، مشيت ذاهلة على طول الرصيف المفروش بالأوراق المتساقطة. استعراض خريفي ملتهب من البرتقالي والأخضر

والأصفر والأحمر على جانبَي شارع سُكناي في «فيلادلفيا». أومأتْ إليَّ بالتحية امرأة عجوز تتمشى مع كلبها. مررت بقرب عشّاق شباب يجلسون على مقعد في الحديقة، بينما واصلت عبر الرياح الباردة، مخدَّرة، مُهلوِسة، مستسلمة للقدر، حتى وصلت باب «إليزابيث»، بعد عشرة أميال. شقَّ محمد الباب برَيبة بعد أن جفل من نومه، ثم فتحه على مصراعَيه لكي يتَّسع لجسدي الضخم. قلت بنبرة أمر واقع:

ـ قتلوا ماجدًا.

أحبُّك إلى ما لا نهاية. ما بيننا خُلق ليبقى، وسيبقى إلى الأبد.

ماجد. حكاية حبي الأبدية التي أبدًا لم تُروَ.

الحب. لانهائي. إلى الأبد.

كلمات زوجي في المطار، في اليوم الذي غادرت فيه بيروت.

لا تزال راسخة في ذهني، مثل الرماد في جرَّة. الحب الذي تألَّق كالحياة، تحوَّل ببساطة إلى تراب.

«يا الله!» ساعَدني محمد على الدخول. في تلك اللحظة، شعرت بالركلة الحميمة للطفلة في داخلي، ولاحظتُ أنَّ الشمس قد أشرقت.

(٣٣)

رِثاء الأُمَّة

١٩٨٢

صبرا تنام، وخنجرُ الفاشيِّ يصحو

صبرا تُنادي.. مَن تُنادي

كلُّ هذا الليلِ لي، والليلُ مِلْح

يقطع الفاشيُّ ثَديَيْها ونصفَ ذراعِها الباقي

يرقُصُ حولَ خنجرِهِ ويلعقُه. يغنِّي لانتصارِ الأرزِ موَّالًا

ويَمحو..

في هدوءٍ.. في هدوءٍ لحمَها عن عظمِها

ويُمَدِّدُ الأعضاءَ فوقَ الطاولةْ

ويواصلُ الفاشيُّ رقْصتَه ويضحك للعيونِ المائلةْ

ويُجَنُّ من فرحٍ ومن طربٍ

ويسرِق خاتمًا من لحمِها، ويعود من دمِها إلى تلمودِهِ

...

صبرا ـ تقاطُعُ شارعَينِ على جسدْ

صبرا ـ نزولُ الروحِ في حجرٍ

وصبرا ـ لا أحدْ

صبرا ـ هُوِية عصرِنا حتى الأبدْ

ـ محمود درويش، من قصيدة «مديح الظلِّ العالي».

ذلك الأسبوع من أيلول (سبتمبر)، الذي بدأ بمكالَمة يوسف الهاتفية، أصبح الرفَّ الذي أودعتُ فوقه حياتي كتَذكار قديم. مركز ثقلي. النقطة التي دارت حولها كلُّ نقاط التحوُّل في حياتي في آنٍ واحد. ذروة تصعيدية لغناء نسلٍ يتصاعد منذ ألفَي عام. عرشٌ لإلهٍ شَيطاني.

في ١٦ أيلول (سبتمبر)، في تحدٍّ لوقف إطلاق النار، حاصر جيشُ «آرييل شارون» مخيَّمَي اللاجئين صبرا وشاتيلا؛ حيث كانت فاطمة وفلسطين تنامان في سلام من دون يوسف. نصب جنود إسرائيليون حواجز تفتيش تمنع خروج اللاجئين، وسمحوا لحُلفائهم من أفراد قوات الكتائب اللبنانية بدخول المخيم. الجنود الإسرائيليون جاثمون على سطوح المباني، راقبوا ما يحدث من خلال مناظيرهم في النهار، وفي الليل أناروا السماء بقنابل ضوئية، لمساعدة مُقاتلي الكتائب الذين مضَوا من بيت إلى بيت في مخيَّمَي اللاجئين. بعد ذلك بيَومين، دخل أول الصحافيين الغربيين المخيم وأدلى بشهادته. كتب «روبرت فيسْك» في كتابه «رثاء الأُمَّة»:

كانوا في كل مكان، في الطريق، في الأزقَّة، في الساحات الخلفية وفي الغرف المدمَّرة، تحت المباني المنهارة، وعلى جوانب تجمُّع النفايات. توقَّفنا عن عدِّ الجثث عندما وصلنا إلى الرقم مائة. في أسفل كلِّ زقاق، كانت هناك أكوام ساكنة ورهيبة من جثث ـ نساء وشُبان، رُضَّع وشيوخ ـ ممدَّدة حيث تم ذبحها أو رميها بالرصاص. كل ممرٍّ عبر الأنقاض أفصحَ عن مزيد من الجثث. اختفى المرضى من المستشفى بعد أن أمر الرجال المسلَّحون الأطباءَ بالمغادرة. في كل مكان، وجدنا علامات

على مقابر جماعية حُفرت على عجل. حتى حين كنا هناك، وسط الأدلة على وحشية كهذه، كان يمكننا رؤية الإسرائيليين يراقبوننا. كانوا واقفين على قمة مبنى البرج إلى الغرب. أمكننا مشاهدتهم يحدِّقون إلينا من خلال مناظير ميدانية يمسحون بها المنطقة ذَهابًا وإيابًا عبر شوارع الجثث، وعدساتُ المناظير تومض أحيانًا في الشمس، بينما تجوَّلتْ نظراتهم المحدِّقة عبر المخيم. أطلق «لورين جنكينز» (من «الواشنطن بوست») كثيرًا من الشتائم. أدرك «جنكينز» على الفور أنه سيكون على وزير الدفاع الإسرائيلي أن يتحمَّل بعض المسؤولية عن هذا الشيء المرعِب. «شارون!» صرخ قائلًا: «ذلك العاهر «آرييل شارون»! إنها دَير ياسين جديدة».

ما وجدناه داخل مخيم شاتيلا الفلسطيني في الساعة العاشرة من صباح يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢، لم يكن يجل عن الوصف تمامًا، مع أنه قد يكون من الأسهل وصفه باللغة الرتيبة للتقارير الطبية. وقعت مذابح مِن قبل في لبنان، لكن نادرًا ما كانت على هذا النطاق، ولم يحدث قطُّ أن خضعت لرقابة جيش نظامي يُفترَض أنه منضبط. في هلع المعارك وضغائنها، قُتل عشرات الآلاف في هذا البلد، لكنَّ هؤلاء الناس هنا، وهم بالمئات، أُطلقت عليهم النار وقُتلوا وهم عُزَّل. كان هذا قتلًا جماعيًّا، حادثةً ـ كم استسهلنا استعمال كلمة «حادثة» في لبنان ـ وحشية أيضًا؛ حتى تجاوزت ما كان سيسمِّيه الإسرائيليون في ظروف أخرى عملًا وحشيًّا إرهابيًّا. لقد كانت جريمةَ حرب.

أنا و«جنكينز»، كنا مشدوهَين مما وجدناه في شاتيلا؛ إلى درجة أننا في البداية لم نكن قادرين على التعبير عن صدمتنا. ربما كنا نقبل أدلةً على وجود بضعِ جرائم قتل، أو حتى عشرات من الجثث لأشخاص قُتلوا في خضم القتال، لكنْ

كانت هناك نساء ممدَّدات في المنازل وتنانيرُهن ممزَّقة حتى خصورهن وقد تباعدت أرجلهن، أطفال حناجرهم ممزَّقة، صفوف من الشبَّان أُطلِقت النار على ظهورهم أمام جدران الإعدام. كان هناك أطفال رُضَّع - رُضَّع لونُهم مسودٌّ؛ لأنهم كانوا قد ذُبحوا قبل أكثر من ٢٤ ساعة، فتحلَّلت أجسادهم الصغيرة - تم إلقاؤهم على أكوام النفايات إلى جانب عُلب مرمية من المواد التموينية لجيش الولايات المتحدة، ومعدات طبية للجيش الإسرائيلي، وزجاجات ويسكي فارغة.

هل عرِفتُ أولئك النسوة، أو أولئك الأطفالَ الرضَّع؟ كم من الأطفال كانوا من طلابي؟ طوال ثمانٍ وأربعين ساعة راقب جنودٌ إسرائيليون - وهم يتناولون المشروبات الغازية ورقائق البطاطس - ذلك الصخبَ الخبيث. كيف لجنديٍّ إسرائيليٍّ، يهوديٍّ مؤمِن، أن يراقب مخيَّمًا للَّاجئين يتمُّ تحويلُه إلى مذبح؟ فاطمة. فلسطين!

تحتُ، في زُقاقٍ إلى يميننا، على بُعد لا يزيد على ٥٠ ياردة من المدخل، تمدَّدت كومة من الجثث. أكثر من اثنتي عشرة جثة، شبَّان التفَّت أذرعهم وسيقانهم بعضها حول بعض في نزع الموت. كلهم أُطلقت عليهم الأعيرة النارية من مسافة صفرٍ عبر الخد، ومزَّقت الرصاصةُ خطًّا من اللحم صاعدةً إلى الأُذن وداخلةً في الدماغ. بعضهم كانت به ندوبٌ قرمزية شديدة، أو سودٌ أسفل الجانب الأيسر من حناجرهم. أحدهم كان مَخصيًّا، وسرواله ممزَّق ومكشوفٌ ومستعمَرةٌ من الذباب تحوم فوق أمعائه الممزَّقة. عيونهم كانت كلها مفتوحة. أصغَرُهم كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العُمر.

في الفقرة التالية من كتاب «روبرت فيسك»، وجدت مصير فاطمة

وصديقاتها؛ هؤلاء الصديقات اللواتي كن إلى جانبها يوم أنجبت فلسطين. النساء اللواتي قبَّلْنني، لأن فاطمة كانت قد حدَّثتهن كثيرًا جدًّا عني. النساء اللواتي تناقَلن القيل والقال عني عندما وقعتُ في حب ماجد، واللواتي غنَّين ورقصن وبكَين في حفل زفافي.

> على الجانب الآخر من الطريق الرئيسة، في أعلى مسار يمر عبر الأنقاض، وجدنا أجساد خمس نساء وعِدة أطفال. كانت النساء في منتصَف العمر، وتمدَّدت جثثهن متدلِّية فوق كومة من الأنقاض؛ واحدة مستلقية على ظهرها وثوبُها ممزَّق ومفتوح، ورأسُ طفلة صغيرة يبرز من خلفها. كان للطفلة شعر قصير، داكنٌ مجعَّد، عيناها كانتا تحدِّقان إلينا في تجهُّم. كانت ميتة. شخصٌ ما كان قد شقَّ بطنَ المرأة وفتَحه بالعرض ثم إلى الأعلى، ربما في محاولة لقتل طفلها الذي لم يولد بعد. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، وجهُها الداكن متجمِّد رعبًا.

مصوِّر من وكالة «أسوشييتد برس» ضغط بإصبعه وأرسل ذلك المشهد القرمزي الداكن إلى جميع أنحاء العالم. شاهدتُ الصورة في الصحافة العربية، وأول ما ميَّزت فيها هو ثوبُ المرأة الأزرق الباهت. دشداشة فاطمة المفضَّلة التي أَوهَنها قُرابة عقدين من الاستعمال. الطفلة الصغيرة ذات الشعر المجعَّد خلفها كانت ابنةَ أخي؛ فلسطين!!

هاتفَني يوسف صارخًا. صارخًا.

حتى عبْر أسلاك الهاتف، كان الحزن في صوته يكفي لشقِّ عَنان السماء. لا أزال أسمعه يحطِّم الريح كلَّما مشيت:

ـ كم يجب علينا أن نتحمَّل؟ وكم يجب علينا أن نقدِّم؟

انتحَب مثل طفل:

ـ فاطمة! حبيبتي، فاطمة! هل رأيتِ ماذا فعلوا؟

سأل، صرخ، وأجاب نفسه:

ـ لقد شقُّوا بطنها، آمال!

لم يكن لديَّ أي كلمات.

صرخ أكثر:

ـ لقد شقُّوا بطن فاطمتي بسكين! قتلوا أطفالي... قتلوا أطفالي يا آمال. يا الله! يا الله...

هز نشيجه الأرض تحت قدمَي، وظننت أنَّ قوة حزنه سوف تمزِّق الشمس أشلاءً. قذف بأشياء في متناول يده، ووقفت في «بنسلفانيا» متسمِّرة من صوت زجاج يتهشَّم في الطرف الآخر من العالم. بكى من دون أي حدود للسيطرة، ارتجف كفَريسة في نوبة الوجع. كمريض كُزاز. كصوت الرعد.

لعن يوسفُ إسرائيلَ والأمريكيين، و«رونالد ريغان»، وعرفات، والعالم. لم يوفِّر زعيمًا ولا إلهًا ولا شيطانًا:

ـ يلعن أبوهم جميعًا. يلعن أبوهم من هنا إلى جهنَّم التي رمَونا فيها!

في قاع صوته سمعت الوَلوَلة الصامتة للحنق والغيظ المتناميَين بسرعة في داخله. المادة الخام لليأس والغضب الشديد تتركَّز لتتحوَّل إلى قرار. قطعَ على نفسه عهدًا بالانتقام. أقْسم أن يمزِّق حناجرهم كالخنازير. ضرب برأسه الحائطَ بلا رحمة، وهو لا يزال يحمل الهاتف على أذنه، ما زال يلعن. ما زال يبكي، يُطلِق صرخات احتضار روحه.

نوبة الألم تلك فتَّتت يوسف. تحطَّم بشكل يتعذَّر ترميمُه. لقد قتلوا أخي الحبيب غيابيًّا عندما قتلوا فاطمة. والغضبُ وحدَه هو الذي يجعل قلبه ينبض.

ـ ذبحوا زوجتي وأطفالي مثل النعاج!

انقطع خطُّ الهاتف. وقفتُ محاصَرة بخِداع القدَر. بسَرقة المستقبل. بالأسى غيرِ المحتمَل على حُبٍّ ذبيح.

ومجدَّدًا، مشيت إلى الخارج، وأوراقُ شجر ساقطةٌ حديثًا تطقطِق تحت خطواتي. تغلَّبت على دموعي بإطباق محْكَم لفَكي. كنت خائفة أن أبكي، لئلا تنفجر داخلي عاصفة أخي.

أيًّا كان شعورِكِ، اكْبتيه في داخلك!

آه يا داليا، يا أُمي! أفهمُكِ!

نزعت حذائي، خلعت جواربي وسُترتي، لعل البرد القارس يُجمِّد قلبي.

وتخيَّلت نفسي أصرخ في أهالي «فيلادلفيا»، الذين استمروا قُدمًا في حياتهم الأمريكية اليومية.

بعد عشر كتلٍ من المباني، انهرتُ في ميدان «ريتنهاوس»، وقيل لي إنني أمسكت بامرأة، وتوسَّلت إليها أن تخبرني ما الذي تجده مضحكًا في العالم إلى ذلك الحد؟ وكيف يمكنها أن تضحك هكذا، مع صديقتها على مقعد في حديقة؟

اندفع ماء الولادة من داخلي، وحملت سيارةُ إسعاف جسديَ المبتل، الحامل، حافيَ القدمين، بعيدًا عن حشد المتفرِّجين الذين حدَّقوا بشفقة إلى المرأة الصغيرة المشوَّشة؛ التي على وشك الولادة.

طبيبة التوليد المشرِفة على حالتي ـ التي استدعتها المستشفى بناء على أمر من الأطباء ـ أخبرَت محمدًا الذي استدعى «إليزابيث» على الفور. كلاهما سمع الأخبار، واحتاجا إلى نظرة واحدة فقط إلى وجهي، ليعرفا أنْ لا فاطمة نجت ولا فلسطين. لكنني نظرت بعيدًا عن أعينهما، خوفًا من أن يحرِّر حزنُهما الدموع التي جاهدتُ لاحتوائها.

انتفض جسدي بالانقباضات عشرَ ساعات. أردت أن يستمر المخاض إلى ما لا نهاية. تحوَّلت عيناي إلى زجاج، وقلبي إلى جليد، ولم يترك أيُّ نفَس جسدي من دون أن يُتِمَّ تجريدَه؛ أولًا مِن صوته. احتفظت بكل شيء في الداخل، قبضتُ عليه بأظافري. حبستُه كلَّه بإطباق فكي بإحكام لا يمكن وصفُه.

أيًا كان شعوركِ، اكْبتيه في داخلك!

أردت أن يدوم الألم فترة أطول، ليصبح أشدَّ، ليقتلني أنا أيضًا. الحاجة إلى الإيلام كانت أكبر بكثير من الحاجة إلى الدفع، ورأيت الارتباكَ، حتى الخوفَ ـ أو الرعب ـ لدى الممرِّضات اللواتي جئن واحدة تِلو الأخرى «للاطمئنان إليَّ».

الأناقة الناضجة لوَجه «إليزابيث» كانت ملطَّفة بالحنان وبرغبة في أن تُخرجني من مصيري. لكن، بحكمتها، لم تقلِ شيئًا، بل تمسك فقط بيَدي من دون أن تتركها أبدًا، بينما أحدِّق بالفراغ وأُطْبق فكي بشدة على مَفاصله التي ترتجف، أندبُ الدموع القليلة التي ـ في رحلة صامتة ـ فرَّت من عينَيَّ.

في آخر الأمر، تغلَّبتْ عليَّ غريزةُ طفلي للحياة وأطلقتُ نفسي. دفعتُ، مبلِّلةً القماش تحتي بلُباب الولادة، وبالدموع التي تحرَّرت أخيرًا.

بدأ الرأس بالخروج ممزِّقًا لحمي، وفكَّرت في بطن فاطمة ينشقُّ بشفرة

قاتل. صرختُ منادية اسمَها مثل صيحة معركةً ـ فاطمة! ـ دافعةً أكثر وأكثر لأشقَّ جسدي كما شقُّوا جسدها. أردت أن أنزف للتكفير عن ذنْبِ كَوني ما زلت على قيد الحياة. لماذا يحقُّ لي أن أعيش، في حين ترقد فاطمة ممدَّدة متعفِّنة في مقبرة جماعية مجهولة؟ لماذا ينبغي أن يولد طفلي، بينما يتمُّ تمزيق طفلِها في رحمِها؟ لقد دفعتُ بقلبٍ أحبَّ ماجدًا واشتاق إليه. دفعتُ مرة أخرى، بالقوة المصمِّمة على عِقاب الذات، على الأسف العميق، والاعتذار من كَوني على قيد الحياة.

أخيرًا، استلقت طفلتي ملفوفة بين ذراعيَّ، مثلَ بُرعمِ زهرة. وطَّنتُ وجودي على إيقاع فكِّها يرضع على صدري، تغرف الحياة من قلبي المتصلِّب، مثل برعم يتوسد حجرًا. لكنني أبقَيت مسافة ما بيننا، أؤدي فقط واجب رعاية طفلة حديثة الولادة. فرضَت عليَّ هذه الرضيعةُ الرقيقة إرادةَ الحياة، وأنا استأتُ منها لأجل ذلك، لأن كل ما رغبتُه حقًّا في ذلك الوقت، هو أن أموت!

(٣٤)

عاجـزة

١٩٨٢ - ١٩٨٣

ولَكنكُم لا تَنظُرونَ ولا تَسمَعونَ، وحَسنًا تَفعلونَ..
فإنَّ الحِجابَ المَسدولَ على عُيونِكُم سَترفعُهُ
اليَدُ التي حاكتْهُ..
والطينَ الذي يسُدُّ آذانَكُم سَتنتزِعُهُ
الأصابعُ التي جَلبَتهُ..
وحينَئذٍ تُبصِرون
وحينَئذٍ تَسمَعون..
بَيدَ أنكُم لن تتَحسَّروا على أنكُم عرَفتُمُ العَمى
ولَن تأسَفوا على أنكُم كُنتُم صُما..
لأنكُم في ذلكَ اليومِ ستَعرِفونَ المَقاصِدَ الخَفية في كلِّ شَيءٍ
وستُبارِكونَ الظُّلمةَ كما تُبارِكونَ النور.

ـ جُبران خليل جُبران، «الوَداع».

باشرتُ الأمومةَ من دون ماجد، وبخَيط واحد فقط من الإرادة. كان محمد و«إليزابيث» هناك؛ ثابتَين، شفيقَين. انتقلت للسكن عندهما بناءً على إصرارهما. من نَواحٍ كثيرة، أنقذانا، أنا وسارة.

تأمّلت طفلتي بفُضول، وغذَّيت جسدها من باب الواجب. حبست عواطفي في قبضة مُحكَمة وبفكٍّ صارم. لكن رائحة سارة لا تقاوَم، وعدٌ صامتٌ يُسكر ويُضعِفني. لذلك، تسلَّلت في بعض الأحيان خارج حِصن قلبي، لأستنشق رائحتها الطفولية المتغلِّلة في المناطق العميقة من داخلي، والتي لا تزال تشتهي الحب. وكان ممكِنًا أن أفقد نفسي في إيقاع فكها وهي ترضع، ودفءِ عجزها، وإصرارِ احتياجاتها التي لا تنتهي.

بعد أسبوع من مجزرة صبرا وشاتيلا، قرَّرَت مجلة «نيوزويك» الأمريكية أنَّ القصة الأهم في الأيام السبعة السابقة كانت وفاة الأميرة «غريس».

في الأسبوع التالي، كانت قصة الغلاف «إسرائيل تُعاني». إسرائيل هي الضحية!

«تقارير» الصحافة الأمريكية هيَّجت الأشباح التي تتزاحم في ذهني. يبتسم وجهُ عائشةَ الحلوُ أمام عينَيَّ، تبدو متضايقة. فاطمة وفلسطين تأتيان أيضًا وتطرُقان مخيِّلتي بحثًا عن قبر لائق، عن اعتراف نزيهٍ بما حدث لهما. أفكارٌ عن ماما وبابا ويوسف، وطوفانٌ من الشوق لمعانقة ماجد، تراكُمٌ ثقيل مستبِد ينهار فوق قلبي، مثل خرسانة بنايتنا التي سحقت زوجي في نومه. السبيل الوحيد لوقف عاصفة الأسى عن التجمُّع أكثر، كان رشَّ الماء البارد على نفسي. حرفيًّا، كنتُ بحاجة إلى البرودة الجسدية، لكي أقدر على كتم كل شيء، وإلا جُنِنت؛ أنا على يقين من ذلك. ولكن العاصفة كانت دائمًا هناك، كامنة، تترصَّد في القبضة المُطْبَقة لفَكي الحديدي. وهكذا، توقَّفت عن قراءة الأخبار أو مشاهدتها، وكنت أخاف أن ألمس سارة، خشية أن أنقل إليها لَعنتي! خشية أن تدفئ قلبي وتذيب الغضب والجنون والأشباح التي تعيش في داخلي!

أغلقتُ عليَّ نفسي. دفاعاتي الذاتية وخَزت كلَّ إنسان تجرَّأ على الاقتراب مني، بما في ذلك سارة، على الرغم من أنني واصلت سرًّا التهام رائحتها في الليل وهي نائمة، من أجل ملءِ رئتي بالسبب الذي أحتاج إليه للتنفس. أحببتُها على الرغم من نفسي. أحببتها بطريقة لا يمكن قياسها. بلا حدود. وخشيتُ ذلك الحب على قدر ما خشيت ضراوة غضبي من العالم.

بقي «آرييل شارون» حرًّا ليتابع سياسة العنف، حتى وصل في نهاية المطاف إلى أعلى منصب في السلطة في إسرائيل، ليصبح رئيس وزراء الدولة اليهودية. انتخبه مواطنو إسرائيل في السادس من شباط (فبراير)، عام ٢٠٠١، بعد مرور أكثر من سنة على بدء الانتفاضة الفلسطينية الثانية، ووصفتْه الصحافة الأمريكية بأنه «المحارِب القديم البدين» و«المخضرَم الخشِن في حروب إسرائيل المتعدِّدة». وتحدَّث عنه الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة، «جورج دبليو بوش»، بوصْفه «رجُل سلام!».

كيف تم قهرُ ذاكرة صبرا وشاتيلا وفظائعهما؟

* * *

آخِر مرة تحادثنا فيها، أنا ويوسف، كانت في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٣، على الرغم من قوله إنه سيحاول الاتصال ثانيةً قبل «أن ينتهي كل هذا». سألتُ:

ـ ما الذي ينتهي؟

ـ ياسر عرفات الجبان يشنقُ شعبَه بحبْل الأكاذيب الأمريكية!

ـ يا أخي، يبدو صوتك كأنَّك مريض. هل أنت بخير؟ أين أنت؟

ـ لقد تركتُ منظمة التحرير!

كان قد اتصل بي بعد فترة وجيزة من نفيهم إلى تونس، وهو الآن يتحدث إليَّ من لبنان. قلت لاهثة:

ـ لبنان؟ كيف تمكَّنت من العودة إلى هناك؟

كنت واثقة بأنَّ الأمريكيين لا يعرفون ذلك. لا بُد أنه تسلَّل إلى هناك. ولكن كيف؟ مع مَن يعمل هناك؟ و... يا إلهي! لماذا هو هناك؟

لم يُجب عن أسئلتي. تحدَّث بصَوت جليدي:

ـ لا تطرحي الأسئلة يا آمال... اتصلت للاطمئنان فقط إلى أنك بخير وفي أمان.

قال ذلك، وكلُّ كلمة تخرج منه كانت متصلِّبة ومنعزلة يقشعر منها البدن!

ـ يوسف، أُحبُّك. أرجوك! غادِر لبنان. أرجوك يا أخي الحبيب! نستطيع أن نجتمع معًا مرة أخرى وأن نجد حياة جديدة، ربما في فرنسا.

لم يُجب!

ـ سمَّيت ابنتي سارة. يجب أن تراها. إنها تشبه ماجدًا. هل أنت هناك؟ ألو! يوسف! أرجوك!... يوسف! يوسف! أرجوك أن تردَّ عليَّ، يمكنني سماع نفَسِك!

صمْت.

ـ يوسف، أخي. أنت لست وحدَك. هناك الآلاف من المقاتلين الذين خسروا كما خسرت أنت. كما حصل لنا جميعًا. أنا وأنت، ما زال واحدُنا للآخَر. أعرِف الامك يا يوسف. أنت تعرف وأنا أعرف ذلك. لديَّ غضب مثلك تمامًا. ولكن أرجوك... فقط... يا أخي. لا تجعلهم يقتلونك! لن أستطيع تحمُّل ذلك! أنا بحاجة إليك يا يوسف!

انقطع الاتصال الهاتفي. ذهب أخي إلى غير رجعة. اجتاز الهاوية الملتهبة التي ما زلت أجثم أمامها، وهبط على شاطئ الانتقام الهادئ الطليق. لقد ترك روحه تهيم في صبرا وشاتيلا، حيث تمدَّدت زوجته وابنته في مقبرة جماعية تحت أكوام القمامة، في ظلِّ حصانة قاتليهم، في إطار الوعود الزائفة للقوى العظمى، وتحت لامبالاة العالم تجاه الدم العربي المسفوك.

(٣٥)

شهر الزهور

١٩٨٣

جاء شهر نيسان (إبريل) من العام ١٩٨٣ . في يومه الثامن عشر، شَهِد شهر الزهور حَصاد عُصارات المرارة المبذورة في لبنان. اندلعت النار من أحشاء أمعاء الانتقام والظلم والتاريخ... نعم، التاريخ؛ مُرسِلة أعمدةً من الدخان على كل شاشة تلفزيون مُضاءة.

أجبرَتني أحلامي في الليلة السابقة على النهوض من السرير في الثالثة صباحًا، لكنني لا أستطيع أن أتذكَّر تلك الأحلام الآن. تناولت القهوة قبل أن أستقبل شروق الشمس، بينما كانت سارة آخِذة صدري إلى نومها الجائع. هززتُها في حضني؛ شفتاها الصغيرتان الطمَّاعتان ترضَعان حلَمتي، وتمكنتُ من تناول كتاب «النبي» المُلقى على الأرض بين أكوامٍ فوضوية من كتُبي. قرأت هذه الكلمات، آخر كلمات قرأها لي والدي عندماً كنت أكثر براءة من أن أفهمها:

فلن يمرَّ زمن قليل حتى يَشرعَ حنيني في جمع الطين والزبَد لجسَدٍ آخر.

قليلًا، لحظة من الراحة في الريح، وستَحمِلني امرأة أخرى في أحشائها.

أودِّعُكم وأودِّع الشبابَ الذي قضيتُه بَينكم.
فبالأمسِ اجتمَعنا كما في حُلم.
أنشدتُم لي في وَحْدتي، وبنَيتُ لكم من أشواقكم بُرجًا في السماء.
ولكنَّ عهدَ النوم قد انقضى، والحلمَ قد مضى، ولسْنا الآن عند بزوغ الفجر.
لأن الظهيرة ترقُص فوق رؤوسنا، ويقْظتَنا الناقصة تحوَّلت إلى نهارٍ كامل.
فالأجدرُ بنا أن نفترق.
فإذا جمَعَنا شفَقُ الذكرى مرة أُخرى فإنَّنا حينئذٍ ستتكلم معًا.
وحينئذٍ تُنشِدون لي أُنشودةً، أَوْقَعَ في النفس من أنشودةِ اليوم.
وإن اجتمعَت أَيدينا في حلمٍ ثانٍ، فهُنالك سنَبني بُرجًا آخرَ في السماء.

لم أقرأ الصحف في ذلك اليوم. كان هناك دائمًا عذرٌ لتجنُّب الأخبار، ودائمًا اتخذتُه. لكن الأخبار جاءت إليَّ في كل الأحوال، في ذلك اليوم الثامن عشر من شهر الزهور.

كان رجلٌ قد اقتحم بشاحنةٍ محمَّلة بالمتفجرات مجمَّع السفارة الأمريكية في لبنان، فتسبَّب في مقتل ثلاثة وستِّين شخصًا وإصابةِ عشرات آخرين. كان المجمَّعُ المثلَّث الشكل مكانًا رهيبًا، تناثرت فيه أجزاء الأجساد. عرضت لقطات ناجينَ وهم في حالة ذهول بفعل الانفجار، يمشون على غير هُدى في ما كان أشبه بالجحيم. رجلٌ كان يبكي مستندًا إلى حائط، وقد غمره حمَّام دَم. رجل آخر وامرأة، كان كلٌّ منهما قد ظن أنَّ الآخَر لم ينجُ، طوَّق واحدهما الآخر بذراعيه. أبراج من الدخان الأسود ارتفعت من الأنقاض، وأخذت تشحُب في السماء، بينما اختنق مُراسِل الـ«إيه بي سي» في ضباب

الموت. اعتذر عن تحشْرُجه، بينما كنت أعرف الرائحة التي كان يتنفسها في تلك اللحظة. قال: «ضرب الإرهابيون السفارة الأمريكية هنا».

جلسنا، أنا و«إليزابيث»، ساعات مذهولتين ونحدِّق إلى التلفزيون بأعيُنٍ محمرَّة. قدَّم أفراد عائلات الضحايا، والدموع في عيونهم، مقابلات عاطفية. ووصل صمْت قلبي إليهم عبر الفضاء ليُطارِحهم ألمَهم.

بعد فترة من الزمن، وجدَني النهارُ أختبئُ تحت وسائد الأريكة، أُشاهد «إليزابيث» تُطعم ابنتي بمحبة من مرْطبان غذاء الأطفال اللين. كان التلفزيون مطفأ. رفع نسيمٌ مثابِرٌ الستائر الخفيفة، باعثًا لحظات قليلة من السكينة في ذلك اليوم الهائج. كانت ورود الجيران قد نمت عالية وجميلة خارج النافذة. في الجانب الآخر من الغرفة، كانت «إليزابيث» تُغوي سارة لتَضحك، بافتعال مِلعَقة محلِّقة وبُمحاكاة صوت الطائرة. وفكَّرت، كما فعلتُ دائمًا، أني أنا مَن كان يجب إطعام طفلتي. ولِذا أحْكمتُ إطباقَ فكي؛ لأمنع ضِحكتَها الطفولية من إخراج الحب المدفون في الصمت الرمادي بداخلي. لكنني، على كل حال، ابتسمتُ للمشهد، وبتكتُّم ملأت سكوني الداخلي بابتهاج لا يقاوَم، لكنه سريٌّ. وفي تلك اللحظة، كانوا يُحاصِرون بيتَنا: مكتبُ التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي)، ووكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه)، والشرطة المحلية.

* * *

استجبتُ لجرَس الباب، آمِلة أن أجد يوسف واقفًا هناك، لكن قلبي هوى لرؤية شاراتهم.

ـ هل أنتِ آمال أبو الهيجا؟

ـ نعم، هل يمكنني مساعدتك؟

قال رجل وسيمٌ أزرق العينين يرتدي بدلة داكنة:

ـ نودُّ أن نتحدث إليكِ.

أضاف بأدب وبمِهنية:

ـ إن لم يكن لدَيكِ مانِع.

في الحقيقة، كانوا جميعًا مُهذَّبين ومِهنيين. فجأة صار الرجال الستة داخل منزلي.

ـ اسمي «جاك أومالي».

بدأ العميل كلامَه، لكنني قاطعتُه لأن هذا الاسم ابتسم في ذهني:

ـ كنت أعرف شخصًا باسم «جاك أومالي» ذات يوم. كان من «دبلن». عملَ لحساب الأمم المتحدة في مخيم فلسطيني للَّاجئين.

قال بطريقة جافة، وبنبرة لا تلائم اسمه:

ـ نحتاج إلى أن تأتي معنا.

تركتُ سارة في رعاية «إليزابيث»، مذعِنة طوعًا للذهاب مع «أومالي» لمزيد من الاستجواب.

هناك، على كرسي معدني قابل للطي تَوسَّط غرفة بوليس صغيرة خالية من الأثاث، جلست خاضعة للفُضول وهواجسِ الشر.

قال رجلٌ بَدين بوجهٍ غاضِب:

ـ اسمي «جاكسون». «توم جاكسون» يا سيدتي. لديَّ بعض الأسئلة. هل تعرفين هذا الرجل؟

سأل، دافعًا صورة في اتجاهي على الطاولة التي تفصل بيننا.

أخذتُ صورة يوسف بيَدين مرتعِشتين. أظهرت وجهه فقط، بتفاصيل قاسية لم يسبق لي أن شاهدتُها قطُّ. الخطوط العميقة حول عينيه حملت العزيمة العديمة الرحمة التي سمعتُها في صوته في اتصالنا الأخير. الطرَفان المشمَّعان المفتولان إلى الأعلى من شارب يوسف ـ حيث كان يحمل ذكرى جِدُّو يحيى ـ كانا مقصوصَين.

لقد كان وجه يوسف، لكني لم أعثر في ملامحه على الشقيق الذي كنت أعرفه طوال حياتي. قلت:

ـ هذا أخي!

وخشيتُ من إجابة السؤال الذي لم أستطع أن أنطق به: «**لماذا تسأل؟**».

خطا «أومالي»، الذي كان يقف بصمْت أمام الجدار الأبيض العاري، خُطوتين إلى الأمام، راكزًا ببطءٍ وزنه على الطاولة، ليُقابل عينيَّ بالبريق البادي في عينيه:

ـ نعتقد أنه الإرهابي الذي فجَّر السفارة في بيروت. ماذا يمكنكِ أن تخبرينا؟

ضغط على مَخارج ألفاظه بازدراء عميق.

أغلقت فكَّيَّ ورميت المفاتيح. لم أصدقهم. وتقهقر قلبي إلى سهوله الجُرد الداخلية، لكنَّ حواسي تفجَّرت بالإدراك، وأبرزت بقوةٍ تفاصيلَ غير مترابطة في الغرفة؛ التأرجُح الخفيف وغيرُ المحسوس تقريبًا للمصباح الكهربائي المتدلِّي، الرائحة الرخيصة لكولونيا أحدِهم، النشق المتكرر للمُخاط من شخصٍ ما مُصاب بالزكام، انتقال موضِع وزنِ شخصٍ آخر،

وذرات التراب التي تُطحن على البلاط تحت حذائه. هبطَت أمامي رسالة مجعَّدة، مقطوعة من دفتر ملاحظات مدرسي. كان يوسف قد كتبها وكانت قد مرَّت عبر أيادي كثيرين، مِن بينهم أحدُ الواشين للـ«سي آي إيه»، لتشق طريقها إليَّ، لكَوني الشخصَ الذي كُتبتْ لأجله:

ساحِيني، آمال. لقد حان الوقتُ ليتذوَّقوا جرعة صغيرة من الأكوام التي أطعمونا منها طوال حياتنا!

يوسف

طوال الساعات العشر اللاحقة أجبتُ عن أسئلتهم واتهاماتهم. ربما يكونون قد استُنزفوا بمثلِ استنزافي، لكنهم ظلوا غير مقتنعين بإجاباتي: «نعم، أنا أعلم أنه ترك منظمة التحرير الفلسطينية»، «لا أعرف لماذا»، «لأنه اتصل بي وأخبرني»، «هذا كل ما قاله لي»، «أنا لا أعرف شيئًا عن جماعة الجهاد الإسلامي»، «أُقسم...».

هو فعل كل ذلك، هكذا اعتقدوا: التخطيط، والتجهيز، والتفجير. قلت:

ـ أنا لا أصدِّقكم!

ـ نحن أيضًا لا نصدِّقكِ!

وصل عمُّو محمد مع محاميه، وبعد يوم، أفرَجوا عني.

ظللتُ في ظلامي الداخلي المطلَق، لكنَّ الشياطين تبِعتني هناك أيضًا، تزحم الأزقَّة الخلفية لأيامي بماضٍ كثيف جدًّا. تركت محمدًا يذهب من دوني، بينما تجوَّلت في شوارع «فيلادلفيا»، يتبعني عملاء حكوميون لم يحاولوا أن يُخفوا وجودهم. ومنذ ذلك الحين، وطوال سنوات، لم يفارقوني إلا نادرًا.

هطل المطر، وسرُرت بالتلهي بخبطات حذائي على الرصيف المغطَّى

بماء المطر. احتمى العملاء خلفي تحت مظلات سودٍ، محافظين على مسافة خطوات قليلة مني إلى أن توقَّفت عند حانة. كانت غرفة مستطيلة مبتذلة، ذات إضاءة حمراء مع جدران من الطوب، ترتفع عليها صورٌ بالحجم الطبيعي لـ«همفري بوغارت» و«مارلين مونرو». كان هذا البار في شارع «ساوث»، وفيه كنت قد تذوَّقت الكحول أول مرة في خلال سِني دراستي بجامعة «تمبل». دخلت وأنا مبلَّلة بالمطر، ووجدت كرسيًّا فارغًا في الركن البعيد من البار، فاستقررت هناك. كان شَعري مبلَّلًا بالمطر، وقميصي القطني الأصفر ذو الكُمَّين القصيرين قد التصق بجلدي، كاشفًا عن ملامح أنثوية جميلة من جهة، وتَرِكَةٍ قبيحة من جندي إسرائيلي من الجهة الأخرى. سلسلة من كؤوس مشروب «شاي لونغ آيلاند» الكحولي والمثلَّج، نسجَت شرنقةَ ضباب من حولي، حيث الصوتُ الوحيد كان الموعظةَ المُمِلَّة لمكعَّبات الثلج المتصادمة داخل كأسي الممتلئة بالخمر، والتي رفعتُها مرة لأشرب نخْب العميلَين اللذين يرتديان معطفين للمطر، ويشربان ماء الصودا في الطرف الآخر من البار. في مكان ما من حالتي التي يلفُّها الضباب، سمعتُ صوتًا يسأل باندهاش:

ـ هيه... ألستِ أنتِ تلك الفتاة التي كانت تعيش مع «أنجيلا»؟ ما اسمكِ... «أومار» أو شيء من هذا القبيل. «إيمي»؟ لا، «أومار»، صحيح؟

كان هذا «ميلتون دوبز». ميَّزتُه على الفور. الزوج السابق لـ«أنجيلا حداد». من دون أن أنبِس بكلمة واحدة، عدتُ إلى عزاء مشروبي. تمتم بشيء إلى أصدقائه وضحكوا جميعًا.

فجأة، حطَّمتْ حالةٌ من الوضوح النسيانَ الذي كان يعتريني. تحوَّل الانتباه في الحانة إلى شاشة التلفزيون. خفضوا صوت الموسيقى.

بدا أنَّ كل شيء يفسح المجال لصوت مراسل صِحافي يقف وسط حطام السفارة الأمريكية قائلًا: «فِرق الإنقاذ لا تزال تعثر على أشلاء أجساد». شاهدتُ المنظر التعِس، خائفة من احتمال أن يكون الـ«إف بي آي» على حقٍّ؛ أن يكون الشقيق الذي أحببت بكل جوارحي قد فعلَ ذلك، لكنني حينها فكَّرت في الأخ الذي عرفت، وكنت موقنةً أنه لا يمكن أن يكون هو.

العميلان صاحِبا الوجهين الجامدين راقباني أنا، لا المُراسل الصحافي.

قال «ميلتون» بصوت عالٍ، خارقًا استياءً متقيِّحًا بداخلي:

ـ إرهابيون قذِرون!

من زاوية عَيني رأيتُه يستدير نحوي حين صرخ:

ـ أعتقد أننا يجب أن نفرش المكان كله بالقنابل. نتخلَّص من كل زنوج الصحراء.

استدعاني الغيظ الشديد إلى الجحيم!

نهضت، وقد أعماني الغضب. الحقيقة التي أعرفها اندفعت فوقي مثل الجَراد، وصرخَت النار في عروقي. لم يبقَ شقٌّ واحد في كَينونتي إلا لسَعني، بينما أرى ذراعي توجِّه لكَماتٍ عنيفة ومتكررة إلى «ميلتون» الذي يتخبَّط تحتي في صدمة، والدمُ يسيل من أنفه، والفستانُ الأبيض المتطاير لـ«مارلين مونرو» يرفرف على الصورة الجدارية فوقنا.

كنتُ امرأة صغيرة الحجم، بجسم لا يحمل أكثر من ٤٨ كغم. وفي وقت قصير جدًّا كنت مكبَّلة اليدين، أسمع شهادة واحدٍ ممن تفرَّجوا على ما حدث؛ قال لضابط الشرطة، متوقفًا فترات قصيرة بين الأفكار ليضحك ويتعجَّب مما شاهد، بينما وقفتُ هناك ألهث:

ـ... لقد طارت مثل... أنا أعني ذلك، أيها الضابط. حرفيًّا، لقد طارت من كرسي البار ذاك هناك، ولكمَته بكل بساطة. يا للخرا! لم يسبق أن رأيت امرأة تفعل ذلك.

تجمَّع حشدٌ، لكنَّ الرجلين اللذين كانا يتبعانني طوال الليل ظلا يجلسان عند البار. خلف الوجوه التي تكوَّمت حَول «ميلتون» وحَولي، رأيت «جاك أومالي».

«ميلتون» الذليل. لقد رفض توجيهَ شكوى ضدي، آذنًا لي في الانصراف زاعمًا أنني «عاهرة مخبولة».

فكَّ الشرطيُّ القيود عن يدي وغادر. تناقص الحشد. لا أعرف السبب، لكنني مشيت حتى وصلت إلى «جاك أومالي»، وأسندت رأسي إلى كتفه.

ناظرًا إلى يدي المنتفِخة، نادى نادل البار:

ـ هل يمكننا الحصول على كيس من الثلج من أجل السيدة؟

* * *

كان أخي صبيًّا مشى على تلال طولكرم، وشرب من ينابيع الماء في قلقيلية!

لعب كرة القدم بحماسة الصبا في سهول حيفا، وتغذَّى من حضن نسبٍ عتيق في أرض أجداده!

لعبنا النرد، أنا وهو!

كان رجلًا ذا ابتسامة تشبه البحر. هي حقًّا أجملُ ابتسامة رأيتها في حياتي على الإطلاق!

لقد حُرم، وسُجن، وعُذِّب، وأُهين، ونُفي؛ بسبب الرغبة في أن يتملَّك نفسه، وأن يرث الميراث الذي ورَّثه إياه التاريخ!

كرَّس قلبه لامرأة واحدة فقط. والحزنُ الذي أُحس به من أجلها، هزَّ الأرض ونثر دماء الواقفين عليها!

شقَّت الصورة طريقَها من جَيب «أومالي» إلى شاشات التلفزيون في جميع أنحاء البلاد، وأصبح أخي يوسف فتى الملصَقات لكل الأشياء الوضيعة والشريرة في العالم.

ذات مرة، عندما كنت في الرابعة من عمري، دغدغني يوسف إلى درجة أني تبوَّلت في سروالي!

عندما كنت في السادسة، قضى أيامًا بعد أيام يعلِّمني كيف أنفخ فقاعة بالعلكة!

بالصبر عينِه، علَّمني أن أُصْفر!

في عذوبة صباي سِرنا، أنا وهو، أميالًا لا حصر لها إلى الأسواق. التُقِطت لنا صورة؛ كِلانا يشرع في أكل برتقالة أمام باب العمود في البلدة القديمة، قبل أن تحتلها إسرائيل!

أكلْنا التين والزيتون واللوز الأخضر والخوخ مباشرة من أشجارها!

تجسَّست عليه وهو يطالع المجلات البذيئة مع أصدقائه في مخيمنا!

قرأت رسائل غرامِه لفاطمة، وفي غيابه سخرت من عاطفيته، مثلما كانت كلُّ أخت صغيرة مُزعجة تفعل!

بينما أطلَّ وجهه القاسي على العالم من على شاشات التلفزيون، وجدتُ

الصورة التي التقطتُها ليوسف وفاطمة وفلسطين الرضيعة في مخيم شاتيلا، المخيم الذي أصبح الآن ميادين قتل منسية ومقابر جماعية. الخطوط حول عينَي يوسف كانت كلُّها مرسومة بالحب. ابتسامته الواسعة معلَّقة من طرفَي شاربِه؛ الميراث المعتنى به من حنان جدِّنا يحيى، والذي كان أخي يشمِّعه يوميًّا ليحافظ على مظهره. بدا يوسف بسيطًا في تلك الصورة، متجمدًا في ابتسامته العريضة التي تُبرِز أسنانه، وفلسطينُ المولودة حديثًا تستلقي على إحدى ذراعيه، وفاطمة، حبُّ حياته، تتكئ برِقَّة على كتِفه الأخرى.

(٣٦)

يوسف، المنتقِم

١٩٨٣

أرى وجهها في كل ما أفعله. كلٍّ ما ألمسُه. دشداشتها الزرقاء البالية. أشتري لها غيرها، لكنها تحب الزرقاء. أحيانًا أراقبها وهي تخلعها. أحيانًا أخرى أنزعها عنها بنفسي. وأراها ترتديها مرة أخرى في الصباح. لا تعرف حتى أنني أراقبها. زوجتي الجميلة. أُم فلسطينتي وطفلٍ آخر من صُلبي، لن أعرف اسمه أبدًا.

تسحب دشداشتها الزرقاء من أعلى إلى أسفل لتُرضع ابنتنا من صدرها، وأنا أسحبها من أسفل إلى أعلى كي أقبِّل ساقَيها. تُذكِّرني:

ـ الأمريكيون وقَّعوا الوثيقة. سنكون في أمان. اليهود لن يجازفوا بإظهار حليفهم الوحيد في صورة الكاذب.

أقبِّل فخذها وأنظر إلى طفلنا الثاني ينمو بداخلها. أستطيع القول إنني أحبُّها، لكن تلك الكلمة الطائشة المستهلَكة كانت ستحطُّ من قدر ما أشعر به. فاطمة هي الهواء الذي أتنفَّس. هي المبرِّر لكل الوعود. هي تجسُّد الحنان. هي الحب.

أُستدعى للذهاب فتضمُّني طويلًا، وتقول وعيناها البُنيَّتان تمتلئان بالدموع:

- لا يهم كم من الوقت يقتضي الأمر لكي يلتئم شملُنا مجدَّدًا، سوف أنتظر. سوف أنتظرك حتى نهاية الزمان.

تُقبلني فلسطين:

- بابا!

أرى فاطمة تقف هناك، تلوِّح وَداعًا. فلسطين تتشبَّث بدشداشة أمِّها الزرقاء.

أُغادر.

ثم تلك الصورة. الدشداشة مشقوقة وغارقة في الدم. يا الله، أتوسَّل إليك، ضعني داخل تلك الصورة! لكي أدفنها على الأقلِّ باحترام، مع أطفالنا.

أنا لا أمتلك نفسي بعد الآن. أنا غارق في حزن لا يمكنكم استيعابه، يعتصر قلبي غضبٌ لا يمكنكم تخيُّله.

أنا ابنُ عربي. ولِدتُ لِداليا وحسن. جَدِّي يحيى أبو الهيجا، وجَدَّتي باسمة. أنا زوج فاطمة، أبٌ لاثنين. أنا رجل مسكون، تمتلكني الآن جثثُهم. العاصفة تتكوَّن في داخلي. لا أنام ولا أستطيع رؤية الشمس. حنقٌ شيطانيٌّ يفور في عروقي، لعله يكمن بعد رحيلي. لعلكم تتذوَّقون مرارَته.

أسعى للانتقام، لا أكثر. لا أقل. وسوف أحصل عليه. ولن ترَوا أيَّ رحمة.



الذي بَيننَـا



(٣٧)

امرأة من جُدران

١٩٨٣ - ١٩٨٧

الحركة الدائبة لجسمي وعقلي أبقَت حياتي في طَنينٍ مطَّرد. عاودتُ الانضمام إلى المجتمع العامل، وخطَوت بلا تطفُّل داخل التيار الأمريكي المنتظم. عدتُ إلى العمل في صناعة الأدوية، تاركةً سارة معظم الوقت في رعاية «إليزابيث».

قضيت ساعات طويلة كل نهار في المكتب، أُنتِج بمِهنية ونجاعة كلَّ ما تطلبه مني الشركة. الغريب أنني استوعبت كل تفاصيل النظام الرأسمالي بسهولة. لم أشعر بالضغط حيث كان يتخبَّط الآخرون لإنجاز العمل في المواعيد المحدَّدة. وراء عينَيَّ الجليديتَين، كانت تكمن سخريةٌ من انعدام قيمة جوهرِ ما يرجونه، ومن الاندفاع المُزري نحو المنفعة المادية. أدَّيت مَهماتي بِدقَّة وسهولة.

كنت امرأة قليلة الكلام وبلا أصدقاء. كنت «إيمي». اسم بلا معنى. آمال مفرَغة من الأمل. اللغة العملية فقط كان بإمكانها اجتيازُ الغصَّة التي صنعها الحب الذي يتلوى في رماد القصة التي كادت أن تكون. وعلى كل حال، هل ثمة أي كلمات يمكنها استعادة مستقبَل حُرم زمنَه؟

كانت حياتي بلا طعم، وكنت أعيش في الصمت الأبدي لأُغنية بلا لحن، ووسط مرارتي وخوفي، كنت وحيدة إلى أقصى ما يمكن أن تكون الوحدة.

عدد قليل من زملائي كانوا يحبونني، ويرَون بُرودتي تكبُّرًا. كان هؤلاء هم الناس الذين بدَوا لي واثقين بأنفسهم وشامخين، عندما وطئت قدماي الولايات المتحدة أول مرة منذ بضع سنوات. أحكُم عليهم الآن بقسوة، وهم يُطْلقون عليَّ ألقابًا مُهينة ونابية من وراء ظهري: «ملكة الثلج» و«السوبر عاهرة». لقد تجاهلتُهم، لكني كنت أحسدهم على نعيم مَخاوِفِهم الصغيرة وأمنِهم المتيسر.

واجهتُ العالم من خلف طبقة رقيقة من الازدراء. شكَّلتْ سارة التهديدَ الوحيد لِصلابتي. كانت مثل لبلاب يزحف بموَدَّة على صخرة كياني. كانت الجمرةَ الدافئة المتَّقدة إلى الأبد في أعماقي. من تحت ظلال قلب يخاف الحب أكثر مما يخاف الموت، راقبتُ جسدها الجميل وهو ينمو على هيئة جسد امرأة شابة. كانت اللونَ المُشرق وسط خراب عالمي، النقطة التي يتجمع فيها كل حبي وتاريخي وألمي في إزهارٍ بالغ الكمال، كوَردة تنمو في تربة قاحلة. ليسامحني الله، كلما كبُرَت زادت خشيتي من أن أكون بالقرب منها، أو أن ألمسها. كنت أخشى أن أنقل لها صقيعي المتخَم، أو أن تؤذي لمستي الخشنةُ نعومةَ حنانها غير المشروط. ومن ثَمَّ فقد مارستُ الأمومة وأنا أكبح ذلك الحبَّ الملتهب وراء الجدران الباردة للخوف وساعات العمل الطويلة.

بقيَت سارة حتى الرابعة من عمرها تقريبًا تتوجَّه إليَّ، وتكاد تقطُر منها حاجتها إلى الحنان. تتمايل بجسدها الصغير في حضني، وتتشبث بي من أجل قصة أو أغنية، فأُجبِر على ذلك فكَّيَّ المطْبقين. كانت رائحتها تتسرَّب من خلال جلدي لتؤجج لهيب الأمومة. في نهاية القصة أو الأغنية، كانَ ينهكني

الكفاح لاحتواء القلب الذي لا يريد في العالم شيئًا أكثر من أن يضمَّ بعواطفه هذا المخلوقَ المثاليَّ الذي وُلد من جسدي. حلمت بذلك، وتخيَّلت كيف أرفعها بين ذراعيَّ في لهوٍ محبَّب. وكيف أدغدغها بلا رحمة كما تفعل لها «إليزابيث»، من أجل ضحكتها التي تملأ القلب بالسرور. تخيَّلت القبلات التي لا نهاية لها، والتي أتوق إلى زرعها في ذكرياتها. لم أفعل ذلك قطُّ، وفي نهاية المطاف توقَّفَتْ هي عن التوجُّه نحوي، وقامت ببناء جدرانها الخاصة لإبقائي خارجها. وهكذا عشنا، نحن الاثنتين، وراء حواجزنا الصلبة، بينما كل واحدة منا تتوق بشدة إلى حُب الأخرى.

لقد فكَّكني فقدانُ كلٍّ مَن احتضنهم قلبي في أي وقت مضى، ولم أكن لأسمح للأنفاس البذيئة لقدري أن تُفسد حياتها الواعدة.

يُمكنني شرحُ ذلك، لكنْ قد ينكسرُ الزجاجُ

الذي يغطِّي قلبَك

ولا شيءَ يُصلِح ذلك.

من ثَمَّ، فقد قبعتُ أُشاهدها بوجَع مزمن، بينما يتجلَّى ذكاؤها وجمالها مع كل خطوة تخطوها عبر الزمن، بفتنة لا يمكن مسُّها.

* * *

كنت أمًّا أفضل في خلال السنوات القليلة الأولى من حياة ابنتي، وعندما أعود بالزمن إلى الوراء، أعتقد أن لمنزلنا علاقة بذلك.

عندما كانت سارة لا تزال صغيرة، اشتريت بيتًا متهالكًا وقديمًا من العصر الفيكتوري في إحدى الضواحي الشمالية لـ«فيلادلفيا». قمت، بنفسي، بترميم البيت على مدى ثلاث سنوات، مالئة كلَّ لحظة خمولٍ محتمَلة بالعمل والحركة.

كان هناك شيء مهدِّئ، أو ربما مخدِّر، في الضربات غير الواعية لطلاء الجدران والحركات المتكررة لتلميع الأرضيات الخشبية بالسنفرة. جرَّدتُ الأبواب والجدران من معالم الإهمال، كاشفة عن روعة عروق البلوط الخام، والحُب الذي سكبه فيها نجّار ماهر رحل عن عالمنا منذ فترة طويلة. أزلتُ الأوساخ المتخثِّرة بين الشقوق، وكشفت عن التفاصيل المزخرَفة التي أبدعَتها رؤيةٌ مِعمارية ذكية لشخص ما. نظَّفت وفركتُ ومسحتُ. وضعت بلاطًا جديدًا ولمَّعت أرضيات قديمة. علَّقت ستائر جديدة وبدَّلت الزجاج المكسور. أضَفتُ إضاءة وأعدت أربع مدافئ حطبٍ إلى حالة صالحة للاستعمال. في حُمَّى الترميم، تخفَّفتُ بلا قصد من طبقات الفقدان، مما أزال الخوف عن رقعة صغيرة من قلبي. عندها انقضَضتُ على طفلتي الصغيرة، وهزَزتُها على صدري، وأنا أقرأ لها عند الفجر، كما كان يقرأ لي والدي في أيام الحب التي ولَّت منذ زمن بعيد.

كنت أستقر كل صباح على كرسيٍّ هزَّاز بالقرب من الأبواب الزجاجية ذات الواجهة الشرقية، وأقرأ بينما تشق الشمسُ طريقها عبر السماء البرتقالية، وترتفع في الفناء الخلفي لبَيتنا، من وراء شجرة القيقب بنت الأعوام المائة. لست على يقين أنَّ سارة كانت ـ في أي وقت من الأوقات ـ تعي أنني أحملها من السرير كل فجر وهي مستغرقة في نوم عميق؛ لأنني بعدما كنت أقرأ لها وأنتهي من احتساء قهوتي، كنت أعيدها إلى دفء فراشها وأتَّجه إلى العمل، تاركة «إليزابيث» لساعات استيقاظها.

أتذكَّر بوضوح المرَّة الأخيرة التي قرأت لها فيها عند الفجر. كان ذلك في منتصف السنة الثالثة من عمرها. كانت ملفوفة ببطانية على رُكبتيَّ، بينما وصلتُ إلى كومة من الكتب، وتناولت بشكل عشوائيٍّ كتاب «النبي» لجُبران خليل جُبران. وبشكل عشوائي فتحت الكتاب على المقطع الذي كنا قد قرأناه، أنا وماجد، ليلةَ علِمنا أنَّ طفلنا ينمو في بطني:

أولادُكم ليسوا لكم.
أولادُكم أبناءُ وبناتُ الحياةِ المشتاقةِ إلى نفسِها، بِكُم يأتون إلى العالم، ولكن ليس منكم.
ومع أنهم يعيشون معكم، فهم ليسوا مِلكًا لكم.
يُمكنُكم أن تمنحوهم محبّتكم، ولكن لا يُمكنُكم غرس بذورِ أفكارِكم فيهم، لأنَّ لهم أفكارًا خاصةً بهم.
وفي مقدوركم أن تصنعوا المَساكن لأجسادِهم، ولكنَّ نفوسهم لا تسكن مساكنكم.
فهي تقطنُ في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولو في أحلامكم.
وإنَّ لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم، ولكن عبثًا تحاولون أن تجعلوهم مثلكم.
لأنَّ الحياة لا تعود إلى الوراء، ولا تلَذُّ لها الإقامة في منزل الأمس.
أنتم الأقــواسُ وأولادُكــم سهامٌ حية رمت بها الحياة عن أقواسِكم.
فإنَّ راميَ السهام ينظرُ إلى العلامةِ المنصوبةِ على طريق اللانهاية، فيَلويكُم بقُدرته لتكونَ سهامُه سريعةً بعيدة المدى.
لذلك، فليكُنِ التواؤكم بين يدَي رامي السهام الحكيمِ لأجل المَسرَّة والغِبطة.
لأنه، كما يحبُّ السهمَ الذي يطير من قوسِه، هكذا يحبُّ القوسَ الذي يثبُتُ بين يدَيه.

في أثناء شروق الشمس، وأنا أقرأ هذه الكلمات لطفلتي النائمة، سمعت صوت والدها في صوتي، وشعرت بأصابعه تداعب شعري ليلة قرأنا جبران معًا. انحنى وقبَّل شفتيَّ. أشباح قصة حبٍّ انتهت. لا يزال ماجد هنا، يجري

تحت سطح جلدي مثل النهر السحري الذي لا يُمكنني أبدًا أن أشرب منه، أو أن أسبح فيه مرة أخرى. ماجد هو الحلم الذي لم يتركني. البلد الذي أخذوه بعيدًا. الوطن الذي أراه ولكن يستحيل بلوغُه.

أشبعَتني اللحظة بالحنين، وهزمَتني الرغبةُ في إعادة الزمن إلى الوراء والرجوع إلى الأيام الكريمة. حبستُ أنفاسي وأطبقتُ فكي لكي لا أتذكَّر الحب أو أرغب فيه مرة أخرى، ووضعت سارة في سريرها برِفق، ثم استدرت لأجهِّز نفسي في صقيع «إيمي»، مرتديةً بدلةً سوداءَ أنيقة، قبل مغادرتي متوجِّهة إلى وظيفتي.

(٣٨)

هُنا، هُناكَ، وأبْعَد
١٩٨٧ - ١٩٩٤

سرعان ما انبثقت انتفاضةُ الأرض، وتسلَّقت إلى أيدي الفلسطينيين. الحجارة التي قذفوها صدَّعت هالة المجد المرَضي للنصر الاستعماري. إنها انتفاضة، اشتعال عفويٌّ بعد عشرين عامًا من الاحتلال الإسرائيلي. كانت نقضًا للاضطهاد، وسرعان ما انتشرت عبر قلوب الفلسطينيين في كل مكان، لخرَجوا إلى الشوارع بالعِصي والحجارة. ردَّت إسرائيل بكسر عظامهم «بقوة وعنف وضرب شديد» تنفيذًا لأوامر «إسحق رابين» رئيس وزراء إسرائيل.

هنا قرأتْ آمال. من كتاب «صعود فلسطين وسقوطها» للكاتب «نورمان فِنكِلشتاي»:

> أضْفت الصحافة الإسرائيلية وتقارير حقوق الإنسان لحمًا ودمًا على البيانات. العددُ الصادر في ١ نيسان (إبريل) ١٩٨٨ من «حوتام»: ذكر حالةَ طفل في العاشرة من عمره تعرَّض لضرب شديد جعل لونَه أسود وأزرق في خلال استجواب الجيش له إلى درجة أنهم تركوه «أشْبه بشريحة لحم». الجنود «لم ينزعجوا» حتى عندما علموا في وقت لاحقٍ أنَّ الصبي كان أصمَّ وأبْكم

ومتخلِّفًا عقليًّا. العدد الصادر في ١٣ تموز (يوليو) ١٩٨٨ من «كوتيرت راشيت»: ذكر «اختفاء ٢٥ طفلًا» والتهديدات بالسجن لآبائهم بسبب «إزعاج» الجيش بالسؤال عن مكان الأطفال. العدد الصادر في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٨٨ من «حداشوت»: أبرزَ ثلاثَ صوَر لصبيٍّ ذي ستة أعوام، معصوب العينَين في سيارة جيب عسكرية. ذكر التعليق المُرافِق للصوَر أنَّ عديدًا من الأطفال في سِنه يبقون رهن الاحتجاز لحين دفع «فدية» بقيمة عِدة مئات من الدولارات عن كلٍّ منهم؛ وأنهم في أثناء اقتيادهم بعيدًا، كثيرًا ما يبول الأطفال في سراويلهم «من الخوف». تحت العنوان «قتْل متعمَّد»، أوردت نشرة آب (أغسطس) ١٩٨٩ الصادرة عن «الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان والحقوق المدنية»، أنَّ الجيش الإسرائيلي (على ما يبدو «قنَّاصة» من وحَدات خاصة) قد استهدف عددًا «متزايدًا» من الأطفال الفلسطينيين الذين يلعبون أدوارًا قيادية. الضحية التي «يتم اختيارها بعناية»، تُطلَق عليها النار عادةً في الرأس أو في القلب، وتموت على الفور تقريبًا. دكتور «حاييم غوردون» من «الجمعية الإسرائيلية لحقوق الإنسان»، ذكر حالةَ طفل يبلغ ثماني سنوات، جرى تعذيبه بأيدي الجنود، بعد أن رفض الكشف عن هوية أصدقائه الذين ألقَوا حجارة. بعد تجريده من ملابسه، عُلِّق من رجليه وضُرب بوحشية، ثم دُفع الصبي إلى حافة سطح أحد المنازل قبل أن يُطلَق سراحه (مذكورة في نشرة كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٠ للرابطة الإسرائيلية). أورد عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ من «حداشوت»، قضية صبيٍّ في الثالثة عشرة من عمره، أُلقي به في الحجز بعد تكسير أصابعه عمدًا، ثم تُرك بعد ذلك من دون أي علاج طبي أو طعام؛ لأن والده لم يكن قادرًا على دفع فِدية قدرُها ٧٥٠ دولارًا.

ذكر عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ من «دافار»، حالة فتاة في السادسة عشرة، تعرَّضت للضرب على يد شرطيٍّ يستعمل الهراوة بمهارة («لقد حاول حتى دفْع الهراوة بين ساقيَّ») ثم تعرَّضت للجَلد في السجن لرفضها توقيعَ اعتراف. أورَد العدد ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٩٠ من «حوتام»، حالة معتقَل يبلغ ثلاثة عشر عامًا رفض تقديم دليل اتهام على أخيه، ما أدى إلى «تهشيم» وجهه، وظهرَت «علاماتُ الكدمات على كل أنحاء جسده»، ولم يُسمح له بالشرب أو الأكل «ساعات»، وأُجبر على «التبوُّل والتبرُّز في سرواله».

راويًا المصير المروِّع لفلسطينيين لا تزيد أعمارهم عن أربعة عشر عامًا اعتُقلوا «للاشتباه في إلقائهم الحجارة»، نَقلَ العددُ ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٩٢ من «حداشوت» عن مصدر داخل مركز الاحتجاز في الخليل: «ما حدث هناك... كان رعبًا صِرفًا: كانوا يكسرون هراواتِهم على أجساد السجناء، ويضربونهم على الأعضاء التناسلية. يربطون سجينًا على الأرض الباردة ويلعبون به كرة قدم؛ يركلونه ويدحرجونه في أنحاء المكان فعليًّا، ثم يُصيبونه بصدمات كهربائية من مولِّد الهاتف اللاسلكي، وبعد ذلك يُجبرونه على الوقوف ساعات في البرد والمطر... كانوا يسحقون السجناء... فيحوِّلونهم إلى كتلٍ من اللحم.

قرأت آمال هذه البيانات، ولم تعلم قطُّ أنَّ الصبي ذا الأعوام الستة والمعصوب العَينين، هو منصور، أصغر أطفال صديقتها هدى من أسامة.

كان منصور صعب المِراس وساذَجًا. وكثيرًا ما كان إخوته يضايقونه بوصْفه «طفل ماما المدلَّل»، وقد قبِل هو هذه التسمية بلا خجل بين ذراعَي هدى المبتسمتَين. عندما التقط مصوِّرٌ صورتَه ـ وهو يجهش بالبكاء تحت

عصابة العينين في الجزء الخلفي من سيارة جيب عسكرية ـ كان منصور يدعو الله أن تُنقذه أمُّه، أما هي، هدى، فكادت تفقد عقلها من دون طفلها. احتجزه الجيش أسبوعًا، وهو الوقت الذي استغرقه أسامة وهدى لجمع فديةِ الخمسمائة دولار، ولتحديد مكان منصور. لم يعرف أحد مُطلقًا ما حدث بالضبط لمنصور الصغير على مدار ذلك الأسبوع، ولكن عندما أعيد أخيرًا إلى عائلته، لم ينظر في عينَي أحد، وكان قد فقدَ النطق.

* * *

منذ ذلك الحين، اعتادت هدى وابنها الغناء على عتبة النوم، ملاطفَين الليل بأنغام لفتح أبواب الأحلام السارة. في غرفة العائلة نفسِها كان أسامة، وآمال ـ ابنتُهما البكر ـ والتوأمان جميل وجمال، يستمعون إليهما سامحين لإغراء صوت هدى بأن يجذبهم هم أيضًا إلى سُبات هادئ وعميق. طوال سنوات الانتفاضة الأولى، ووقتٍ ما بعد ذلك، اعتاد أبناء هدى أن يغفوا على صوتها يدندن «الدلعونا»:

يا طير الطاير في الجو العالي   عُمري ما نسيتك دايم عَ بالي
جِبلي من حيفا تفَّاح الغالي   هاتْلي من القدس حَبة زيتونا
نسِّم تَلانا يا هوا بلادي   سلِّم ع الجبلْ سلِّم ع الوادي
مِشتاق اشوفِك يا أرض جدادي   طالتِ الفُرقة عللي حَبُّونا
يا ولدْ عمِّي المزروع ببيتَكْ   بَلْكي على الله جيتِ ولاقيتَكْ
يا زهر النرجِسْ عُمري ما نسيتَكْ   عُمري ما بَنسى زِهْر الليمونا
يا طيرِ الطاير وصِّلْ هالباقة   لاهِل فلسطين وقُللن مشتاقة
ورودي ع غيابون دبْلاني وْراقا   والله راجعينْ مهما صدُّونا

على الرغم من أنهم عاشوا في ظل إهانات الطرد والاحتلال العسكري، ظلّت هدى بحُرية لا يمكن النيل منها؛ الحرية التي لا يتمتَّع بها سوى من يمتلكون إيمانًا لا يتزعزع. هدى وأسامة لا يزالان يحب أحدهما الآخر برهبة الشباب الملحة وبرأفة القِططة الصغيرة. كانت ابنتُهما آمالُ أميرةَ أبيها وصديقةَ أمها. بعدما كبرت تزوَّجت شابًّا سوريًّا وانتقلت إلى دمشق معه. أمَّا التوأمان، اللذان ولدا عام ١٩٧٨، فكانا قويَّين وعنيدَين، رفيقَين متلازمَين، وحاميًا كلٌّ منهما للآخَر وللأسرة.

في الجانب الآخر من العالم، احتضنت آمال همومَها بدلًا من طفلتها. عاشت في سجن ذاتي؛ سجنٍ صُنع من الجليد لإبقاء العالم بعيدًا. صرَفت بأسنانها فترة طويلة من حياتها، وحبست أنفاسها وهي تتحرَّك عبر سحابة من الصمت. طافت على خنادق ذلك الصمت، ذلك الخوف، وضلَّت طريقها، ففقدت جزءًا جوهريًّا من تكوينها، لكنها لم تكن تعلم ماهيَّته، ولا أين تستعيده أو كيف. بعد زمن من تجنُّب كل أخبار فلسطين، وجدت نفسها الآن تقرأ كل شيء متاح عن موطنها وأهلها، لكنها لم تُمسك بقلمٍ لتكتب رسالة إلى هدى، ولا إلى أي شخص آخر. قرأت كما لو كان كلُّ كتاب قطعة من اللغز المحيِّر الذي احتاجت إلى أن تحلَّه. قرأت لكي تتذكَّر. ولكن في المقام الأول، قرأت لتُعاقب نفسها بإحساس عميق بالذنب لأنَّها نجَت.

أما هدى فغنَّت. وصلَّت.

توسَّلت هدى إلى جمال وجميل، توأمَيها البالغَين عشرة أعوام:

ـ أرجوكما لا تقذِفا حجارة، يُما! لا تحطِّما قلبي. لا تكسرا قلب أبيكما الأسيرِ في سجونهم. لقد أخذوه هكذا بكل بساطة. لا أريدهم أن يأخذوكما أيضًا!

لكنهما ألقَيا الحجارة على الدبابات الإسرائيلية على الرغم من توسُّلاتها؛ فالأولاد يظلُّون دائمًا أولادًا، والصغار لا يقدِّرون مطلقًا النفَس الهشَّ الذي يُبقيهم على قيد الحياة. لم يفعَلا ذلك من أجل الحرية، لأنَّ مفهومًا كهذا كان مراوِغًا بالنسبة إليهم. فعَلا ذلك نتيجة ضغطِ أقرانِهما من الصبية الصغار التوَّاقين إلى مغامرات الرجال وتجارِبهم. رمَيا الحجارة تحت مِظلة السياسة المجرَّدة التي لم يفهماها، ولأنهما ضجِرا عندما لم يتبقَّ شيء يفعلانِه بعد أن أغلقت إسرائيل مدارسهم.

نبَض قلباهُما بالإثارة، بالصخب الذي شعرا به عندما كانا يخلِّصان حياتهما بخفَّة من بين فكَّي الموت الذي تعقَّبهما عن قرب شديد، وكأنهما يلعبان. كان بعض أصدقائهما قد سقط فعلًا بالرصاص الإسرائيلي، وكانت المَخاطر كبيرة، الأمر الذي جعل النجاةَ بشق الأنفُس في كل يوم شيئًا يُشبه النشوة. استمرت هذه الحال طوال سنتَي الانتفاضة، وانتهى الأمر عندما قُتل جمال في سِنه الثانية عشرة.

رأى جميل توأمه يتلاشى من الحياة، بينما ركض الصبية الآخرون باحثين عن مكان يحتمون به. لقد صُدم من افتقار الموت إلى الدراما. من كَونه أمرًا واقعيًّا. من سلطته الهادئة. أغلق جمال عينيه الغضَّتين بشكل يخلو من كل تعبير، ببساطة كما لو كان يستغرق في النوم، ولم يفتحهما مرة أخرى إلى الأبد.

بالنسبة إلى جميل، جاء فقدانُ شقيقه التوأم ليحدِّد شخصيته؛ فقد تصلَّب مزاجُه منعزلًا عن كل بقعة فيها رِقة، مُحجِّرًا قلبَه ومعتصِرًا النكد منه. تشرَّبت بصيرتُه بغضب غلَّف أفكاره ونفى الضحك، نفى حتى الشهوةَ من مراهَقته.

وما فتِئت هدى تغني في الليل، تتناقص ألحانها تدريجيًّا إلى همهمة، بينما

للفحَّص المتبقِّين من عائلتها: آمال ومنصور وجميل. حين كانت تستوثق من نومهم، تصلِّي ركعتين أُخريَين كتوسُّل إضافيٍّ إلى الله ليَحميَ أطفالها، ويُنعم عليهم بالثبات والرحمة والحكمة.

* * *

كانت هذه هي الساعات التي تفكر في أثنائها هدى في آمال، تتساءل عما جرى لصديقتها الضائعة.

مضت آمال عبر الزمن في الولايات المتحدة؛ كلُّ يوم كالذي سبقه، كل شيء حتميٌّ وغير حقيقي. تأرجحت في المفترقات الضيقة بين الجنون والاكتئاب والحب والغضب الشديد. توقَّفت حياتها ساكنة في غرفة من الخوف، ذات جدران هامسة تضحك من أوهام داليا، وتشتعل من غضب يوسف، أم هو غضبي أنا؟ وتبكي من ألم يوسف، وتهتز من ألمِها هي، جدرانٌ لم تكن آمال لتنظرُ إلى ما وراءها؛ إذ كانت تدور في داخلها كالدوَّامة تلك الأصواتُ الغاضبة والمكروبة. كرِهت نفسَها، أفرغت عالمها على قدر المستطاع، وكسَت ذلك الفراغ بطبقة من الخوف، لتحترِس من ألمٍ أو غضب أو حبٍّ قد يقتحم حِصنها ويملأ الفراغ. لقد تجنَّبت ابنتَها، في محاولة لإخماد ذلك الحب المتَّقد، ذلك الحنانِ الراقص بوُعوده البراقة. ذلك الصوتُ العذب يناديها:

ـ مامي، هل تقرئين لي كما كنتِ تفعلين عندما كنتُ طفلة؟

ذلك الخيال الجامح، لطفلة في الصف الأول، يُذيب القلب:

ـ مامي، هذا حقيقي. سمعتُه في الأخبار. جِنِّية علاج الأسنان سترفع أسعارها.

استقبلت آمال كلَّ ذلك في داخلها، غير قادرة على مقاومة الدلال العذب، لكنها نادرًا ما أعطت شيئًا مقابله؛ ليس بسبب الأنانية، ولكن بسبب الخوف من أنَّ حُطام حياتها قد يُلطِّخ نقاء طفلتها. لذا، وبسبب نوع من أنواع نُكران الذات المختل، حرَمت ابنتَها ونفسَها جذَلَ ذلك الحب العظيم الذي أحسَّت به في صميم حياتها. في الليل فقط، حين كانت سارة تنام، كانت تسمح لنفسها ببعض من الرحمة أو بنفحة من الحب. تحت ستار الظلام، كانت تلفُّ ذراعيها حول سارة، مستنشقة العبير المعسول للحُب الأُمومي، إلى أن يبدو العالم قابلًا للاحتمال مرة أخرى.

يُمكنني شرحُ ذلك، لكنْ قد ينكسرُ الزجاجُ

الذي يغطِّي قلبَك

ولا شيءَ يُصلِح ذلك.

حين كانت آمال تفكر في فلسطين، كانت تفكر في هدى، تفكر في عمِّها درويش، في الخالة بهية، والحاج سالم، وأولاد عمِّها، و«جاك أومالي». وكثيرًا ما فكَّرت في ذلك الاحتمال الآخَر، إسماعيل، الشقيقِ الذي أقسم يوسف مرةً إنه ما انفك على قيد الحياة. يهودي اسمه «دافيد».

* * *

وازداد تفكير «دافيد» في آمال أكثر فأكثر؛ فهي كلُّ ما تبقَّى من عائلته الشبحية. كان «موشيه» هو الشخص الذي أخبره أخيرًا، في اعتراف رجل على حافة الموت. دعتْه صدمةُ معرفةِ حقيقةِ أُصولِه في هذه المرحلة المتأخرة من حياته، إلى التشكيك في كل فكرة، وفي كل حب، وفي كل قناعة جعلت من «دافيد» الرجلَ الذي هو عليه. الحقيقة التي أراحت «موشيه» أخيرًا، كانت

هي الحقيقة التي فكَّكَت «دافيد»؛ إذ علم أن وجوده نفسَه كان ثمرة حبٍّ عربي، وأنَّ أنفاسه الأولى كانت تنتظره في جوفِ رحِم امرأةٍ عربية، وأنَّ حليبه الأول أتى من ثدييَها، وأنَّ أول من أحبُّوه كانوا عربًا. ألقت هذه المعرفة بـ«دافيد» في هوَّة واسعة بين الحقيقة والأكاذيب، بين العربي والإسرائيلي، بين المُسلم واليهودي.

استدعى «موشيه» الذكريات قائلًا:

ـ كنتَ ملفوفًا ببطانية بيضاء نظيفة، قريبًا من صدر والدتك، عندما رأيتُك أول مرة.

ثم قال:

ـ قدَّمت لنا المرأة العربية الطعام في ذلك اليوم، والتَقت عيناي عَينيها بُرهة وجيزة قبل أن تنظر بسرعة إلى الجهة الأخرى. لقد كرِهتني. كرهتنا جميعًا. كنا فجأة سادة الأرض... أرضها، سادةً لمصير عائلتها، وكِلانا عرف ذلك.

سأل «دافيد» أباه:

ـ كيف كان شكلُها؟

ـ كانت جميلة. لم أرَ ذلك حينها لأنني احتقرتُ العرب، لكن عقلي لم يكن ليتخلَّى قطُّ عن تلك اللمحة عندما التقت أعيُننا. عذَّبني وجهها طوال حياتي يا بُني.

اعترافُ «موشيه» ترك «دافيد» متسائلًا: هل كنتُ قد قتلتُ أقربائي بنفسي في الحروب التي خضتُها من أجل إسرائيل؟ تجاوزَت الحقيقةُ حياتَه اليومية، وتدفَّقت إلى انعدام الثقة المتأصِّل في نفسه؛ الانعدام الذي يصل حد الكراهية نحو العرب. حقيقتان لرجُلٍ واحد، حقيقتان متساويتان ومتعاكستان تصد

الواحدة منهما الأخرى في صراع غير نهائي على روح «دافيد». هز الاعترافُ أعماقَ «دافيد»، وفكَّك أعمق معتقداته.

تغيَّر «دافيد» تحت وطأة إلحاح جذوره عليه كي يعرف المزيد. واستَوفت الحقيقةُ ضريبة أخرى منه عندما أخبر زوجتَه. لم تستطع الزوجة احتمالَ سره؛ فكَونُ زوجها لم يولد يهوديًّا أصليًّا لم يتناسب مع تربيتها، ولا مع مفهوم عائلتها عن اللياقة الاجتماعية.

انفصلا في النهاية، وانشطرت أسرة «دافيد» نِصفَين بسَيف الأيديولوجيا: ابنُهما البِكر، «يوري»، وهو صهيوني متحمِّس، لم يُرد أي علاقة من أي نوع بوالده، وسانَد والدتَه بشِدة؛ في حين طلب يعقوبُ أن يعيش مع والده، فهو لم يكن يميل إلى الديماغوجية أو الصراع، ووجد سرَّ أبيه مُستساغًا، بل مثيرًا للاهتمام.

«يولانتا» منحَت «دافيد» مباركتها ليفعل كلَّ ما يرشده إليه قلبُه. وسَواءٌ أكان يهوديًّا أم مِن غير اليهود، فقد أحبَّت «يولانتا» ذلك الفتى. الله وحدَه يعلم كم أحبَّته! أنقذها ذلك الحبُّ في يوم من الأيام. فعلت «يولانتا» ما لم تستطع داليا ولا آمال فِعلَه: لقد حوَّلت طاقة ألمِها إلى تعبير عن الحب، وكان «دافيد» المستفيدَ الوحيد.

شعرت «يولانتا» بالندم، واستعدَّت لمساعدة ابنها في العثور على العائلة التي وِلِد فيها. كانت دائمًا تجد أعذارًا كلما برز الشعور بالذنب، ولكنَّ الحقيقة كانت دائمًا تعود، متحدية إياها لمواجهتها. الآن باتت تستطيع، وأرادت أن تضع الأمور في نِصابها؛ أن تتقبَّل بسُرور المرأةَ التي أنجبت دافيدَها، وأن تجد التصالُح في الحقيقة، لأنها إذا كانت قد تعلَّمت من الحياة أيَّ شيء، فهو أنَّ التعافي والسلام لا يمكن أن يبدأ إلا مع الاعتراف

بالأخطاء التي ارتُكبت. وعندئذ فقط تيقَّنت «يولانتا» حقًّا أنَّ «دافيد» هو بالفعل ابنها. حرَّرَتها الحقيقة، وعثرت هي على مسار السلام المُلِح، حيث انحنى الدين والتاريخ أمام تشارُك وِجدانَي والدتين اتحدتا إلى الأبد في حبِّهما لصبي واحد.

رجَت ابنها، وفي عينَيها وميضُ الندم والاستسلام والحرية:

ـ أنا أيضًا أرغب في لقائهم. دعني أساعدك في البحث عن عائلتك الفلسطينية.

لكنْ بحلول ذلك الوقت كانت داليا قد تُوفِّيت. وكان يوسف قد ذهب إلى الخارج للنضال مع منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت آمال تعيش في أمريكا. بحث «دافيد» و«يولانتا» معًا، غير أنه لم يكن قد تبقَّى أحد هناك ليَجِداه. لكنَّ «دافيد» تابَع البحث بهدوء، مُجريًا عِدة مكالمات هاتفية قادته؛ من هُدى إلى دار الأيتام إلى الأخوات الكولومبيات إلى مُنى جلايطة وآخَرين، إلى أن تمكَّن من تحديد مكان وجود «آمال حسن يحيى أبو الهيجا» في إحدى ضواحي «فيلادلفيا».

عرفَت آمال باحتمال وجود «دافيد». كان يوسف موقِنًا أنَّ الجندي اليهودي هو إسماعيل. وتساءلت آمال هل كانا سيلتقيان في أي وقت من الأوقات؟ وبعد عقدين من الزمن، عندما اتصل بها «دافيد» أخيرًا، شعرَت بأنها كانت تنتظر اتصالَه طوال كلِّ تلك السنين.

(٣٩)

مكالمة «دافيد»

٢٠٠١

كانت آمال تُعدُّ السلَطة، تُقطِّع الخُضر وتتفحَّص الساعة من حين إلى آخر، في انتظار ابنتها سارة التي ستعود إلى المنزل لتناوُل طعام العشاء. لم يتبقَّ لسارة إلا بضعة أيام قبل أن تعود إلى الجامعة بعد انتهاء العطلة الشتوية، وستكون هذه أول ليلة لهما معًا منذ عودتها من الجامعة. لقد انشغلت سارة بالتطوع مع جماعة منظمة العفو الدولية المحلية، ومجموعة ناشطة تُدعى «طلاب من أجل العدالة في فلسطين»، وشغلت الوقت المتبقِّي من عطلتها بلِقاء الأصدقاء القدامى والتواصل معهم. ولكن في قلبها، فهِمت آمال الحقيقة المؤلمة؛ أنَّ ابنتها أرادت تجنُّب الرفقة الجامدة الصامتة لوالدتها الصارمة، حتى بعد ابتعادٍ عنها دام قُرابة خمسة أشهر، مدة دراستها في الجامعة.

ولكن، هذا المساءُ كان لهما وحدَهما فقط لتَقضياه معًا، وتساءلت آمال: هل كانت ابنتها تشعر بالقلق أو الرهبة، أو ربما يتَّفق أن تشعر بالسعادة نفسها التي ملأت قلبها وهي تجهِّز العشاء لكِلتَيهما؟ كانت قد أعدَّت طبق سارة

المفضَّل ـ المقلوبة ـ وهو الطبق الفلسطيني الذي لم يُخفِق قطُّ في تذكيرها بيوسف. دفعَت تلك الأفكار جانبًا، وتعجَّبت بدلًا من ذلك، من أنَّ نداء فلسطين وجد مكانًا داخل ابنتها الأمريكية.

ثم رنَّ جرس الهاتف. وضعت آمال السكين على لوح التقطيع، ثم مسحت يديها، ونظرت إلى الساعة. كانت السادسة مساء. رفعت سماعة الهاتف وهي واثقة أنها سارة التي ستخبرها أنها في طريقها إلى البيت.

ـ مرحبًا سارة.

قالتها، لكنَّ الصمت الذي تلا ذلك، سرعان ما جعلها تُدرك أنَّ مَن على الطرف الآخر من الخط ليس ابنتَها. أضافت:

ـ هالو!

أجاب صوتٌ ذُكوري بإنجليزية ذات لكنة أجنبية:

ـ هالو. هل هذه آمال؟

ـ نعم، مَن المُتكلم؟

قال الصوت:

ـ أنا «دافيد أبرام».

لم تتعرَّف إلى الاسم، لكنَّ لفظ الاسم «دافيد» لا «ديفد» جعلها تشتبه في أن يكون هذا الغريب إسرائيليًّا. سألت:

ـ هل أعرفك؟

ـ كلا... أعني نعم. حسنًا، لا، أنتِ لا تعرفينني، لكن...

كانت على وشك أن تغلق الهاتف، منزعجة من المقاطَعة، لأنَّ سارة ستصل إلى البيت في أي لحظة الآن.

قال وكأنه يقرأ أفكارها:

ـ انتظري، من فضلك لا تقفلي الخط! أعتقد أنني لم أكن مستعدًّا، كما ظننتُ، لأتمكَّن من إجراء هذه المكالمة.

اندفعت إلى ذهن آمال ذكرى من ماضٍ مدفون. إنَّه يهوديٌّ يسمُّونه «دافيد».

هل من الممكن أن يكون؟ بدأت يداها ترتجفان، وكادت سماعة الهاتف تسقط من يديها. قال:

ـ أعتقد أنك قد تعرفينني باسْم إسماعيل!

لكنَّ عاصفة الماضي التي أخذت تتصاعد في عقل آمال منعَتها من التفوُّه بأي كلمة. تلعثم، وهو يحاول العثور على الكلمات التي كان قد تدرَّب عليها عِدة أيام قبل أن يتَّصل بها أخيرًا:

ـ أنا آسِف لاتصالي بهذه الطريقة. إنه مجرَّد أن... لقد كنتُ أبحث عنك منذ فترة طويلة.. وأنا... الآن، أعني إنني سوف...

حتى الآن لم تتمكَّن آمال من صياغة أي عبارات.

ـ ربما كان من الخطأ أن أتصل بهذه الطريقة. أنا آسف يا آمال. سأذهب الآن!

قالها، وأُصيبت آمال بالذعر. قالت بصوت أعلى مما كانت تقصد:

ـ لا! لا تذهب!

ردَّ:

ـ شكرًا لكِ.

ثم قال:

ـ أعرف أنَّ هذه صدمة لك، لكنني سأكون في الولايات المتحدة في غضون يومين، وكنت أتساءل عن...

* * *

سمعَت آمال الهدير العالي لمحرِّك سيارة سارة «الفولكس فاجن» المسمَّاة «بيتَل» موديل ١٩٧٠ وهي تصل المدخل، ووجدت نفسها تخطِّط بسرعة للاجتماع إلى شقيقها المفقود منذ زمن طويل، كما لو أنها تضع الخطط لتناوُل الغداء مع أحد الجيران. كلاهما كان غير مرتاح بسبب التفاصيل العملية المُربِكة التي تحدَّثا عنها في تلك اللحظات الأخيرة على الهاتف: معلومات الطيران، والتاريخ، والوقت، وعنوانها، ورقم هاتفه الخَلَوي، ورقم هاتفها الخَلَوي. قال لها:

ـ شكرًا لكِ يا آمال. وَداعًا الآن.

أجابته، غير مدرِكةٍ كيف تناديه:

ـ وَداعًا.

أبْقت الهاتف على أذنها، استمعت إلى صوت إنهاء المكالمة، سمعت الباب الأمامي لمنزلها ينفتح، وشاهدت جسم سارة النحيل وهي تدخل، وتقرأ على هاتفها الخلوي شيئًا ما يجعلها تبتسم.

ـ أمي، آسفة لتأخُّري!

نادت سارة، في اتجاه المطبخ، من المدخل الذي وقفت فيه لإرسال رسالة نَصية. وقفت تنظر إلى غرفة الجلوس عندما سمعت صوت إقفال الهاتف، وأبعدت هاتفها الخَلَوي عندما رأت آمال. قالت وهي تسرع نحو غرفة الجلوس:

ـ أُمي، هل أنتِ بخير؟ إنَّ وجهكِ شاحب حقًّا!

عندما اقتربت بما فيه الكفاية لرؤية الدموع على وجه والدتها، أدركت سارة أنها لا تستطيع أن تتذكَّر أبدًا، أنها شاهدت والدتها تبكي في أي وقت مضى.

ـ أُمي. ما المشكلة؟

نظرت آمال إلى ابنتها، ابتسمت بكثير من الحب، أمسكت بيَد سارة، وسحبَتها بلطف لتجعلها تجلس. قالت لها:

ـ هناك شيء ما لا بُد أن أخبركِ به.

ذُهِلت سارة عندما عرفت عن «دافيد»، وتألَّمت لأن والدتها أخْفت عنها كثيرًا سنين جمة؛ غير أنها كانت تشعر بالفُضول أكثر من شعورها بأي شيء آخر. وأعربت عن اغتباطها لأنها عرفت، ولو متأخرًا، شيئًا ما عن عائلتها. دعْوتُها بطريقة ما لسبر غموض والدتها، جعلتْها تشعر في المقام الأول بتقارُب نادر مع والدتها؛ هذه المرأة الحديدية التي بدت لها فجأةً حساسةً، هشة تقريبًا.

ـ لدَيكِ خالٌ إسرائيلي لم يسبِق لكِ أن التقَيتِه قطُّ. وهو قادم إلى هنا!

ـ واااووووو! أنا في التاسعة عشرة من العمر، وأعلم بذلك الآن فقط!

قالت سارة ذلك من دون إلقاء أيِّ لوم.

ـ أنا آسفة يا سارة. اعتقدتُ أنه يمكنني أن أُبقي الماضي وراءنا. أنا كنت أعرف، أو على الأقل كنت أشك في أنه على قيد الحياة. عندما كنتُ صغيرة سمعت يوسف يتحدث عن إسماعيل وعن رجل يُدعَى «دافيد»، لكن لم أفكر قط في معرفة المزيد أو في البحث عنه.

ـ خالي يوسف عرف أيضًا؟ ربما كان يحاول العثور عليه قبل وفاته في حادث السيارة.

في حادث سيارة. كيف كذبتْ آمال على ابنتها. يا الله، كيف ستغفِرُ لي لو أخبرتُها بكلِّ شيء أخفَيتُه عنها؟

ـ أُمي؟ هل أنتِ بخير؟ فيمَ تفكِّرين؟

ـ حبيبتي. لديَّ الكثير الذي لا بُد أن أخبركِ به.

لكنَّ سارة سمعت فقط الكلمة «حبيبتي». متى كفَّت والدتُها عن مناداتها «حبيبتي»؟ قالت لها آمال:

ـ عندما رأى يوسفُ إسماعيلَ، كان مسجونًا يتعرَّض للتعذيب.

سألتها سارة:

ـ هل قام إسماعيل بتعذيبه؟

ـ لا أعرف. وأعتقد أننا يجب أن ندعوه «دافيد».

كان تحمُّلُ فكرة أنَّ «إسماعيل» قام بتعذيب يوسف، أصعبَ بكثير من أن يكون «دافيد» هو الذي فعل ذلك.

ـ ثم وقع حادثٌ آخر عندما تعرَّض يوسف للضرب المبرِّح على حاجز تفتيش، قبل أن يتركني في جِنين بوقت قصير. أعتقد أنَّ «دافيد» هو الذي ضربه.

صمتت سارة لحظة، في محاولة لاستيعاب كلمات والدتها. إسماعيل كان «دافيد»، و«دافيد» ضرب وربما عذَّب يوسف؛ وفي وقت ما، غادر يوسف وترك والدتي في جنين. مع مَن تركها؟ هل بقيَت وحدها؟

ـ أُمي، نحن لا نعرف هذا الرجل. إذا كان هو من تسبَّب في الأذى لخالي يوسف، فمَن يدري ما يمكن أن يفعله؟

استدارت آمال نحو ابنتها سارة. وضعت يدها على رأسها، وداعبت شعرها.

ـ عليَّ أن أقابله، حبيبتي. لا يمكنُني ألا أفعل.

(٤٠)

أنا و«دافيد»

٢٠٠١

كانت أمامي ساعة واحدة لتنظيف المنزل قبل أن يصل «دافيد». بعد جدال قصير، قرَّرَت سارة أنها لا تريد أن تكون في البيت عندما يأتي. قالت:

ـ أعتقد أنه ينبغي أن يتوافر لكِلَيكما بعضُ الوقت وحدَكما في لقائكما الأول.

قلت ممازحة:

ـ إذًا أنت مقتنعة الآن بأنه لن يقوم بخطفي أو تعذيبي؟

قالت، وهي تغمز لي:

ـ ليس تمامًا. فقد أخبرتُ جارتنا الفضولية بأن لديك اليوم ليلة ساخنة. بتلك الطريقة يمكنني الاطمئنان إلى أن شخصًا ما سوف يراقبك باستمرار من النافذة.

ابتسمتُ مستحوِذة على شيءٍ جديد وعزيز بيننا. قالت:

ـ مع ذلك، أنا أريد فعلًا أن أقابله. لذا، سأعود إلى البيت في الخامسة تقريبًا.

وسحبَت الباب مغلقة إياه وهي تغادر.

بعد لحظات، بينما استدرْت لأشرع في أعمال التنظيف، اندفعَتْ مرة أخرى عبر الباب:

ـ ماما، أرجوكِ، هل يمكنكِ أن توصليني بسيارتك؟

كان محرِّك سيارتها الـ«بيتل» معطَّلًا.

حين عدت إلى البيت، كان «دافيد» قد وصل بالفعل. جاء مبكرًا. كان المنزل لا يزال في حالة فوضى. خفق قلبي، وسمعت نفسي أُطلق زفيرًا قبل أن أخطو خارجة من السيارة إلى برد الشتاء. وقف «دافيد» بجانب «شجرة القيقب الصغيرة»، الشجرة التي غرسْتها في الفناء الأمامي قبل نحو ثمانية عشر عامًا، لتكون رفيقة لـ«شجرة القيقب العجوز»، العملاقة الجميلة التي نمت في الخلف.

حدَّق كلٌّ منا بالآخر قبل أن أقترب منه، كلانا مرتبِك وملتبِس. بدا أكبر سنًّا مما تخيَّلته. كان يُشبه يوسف.

ـ مرحبًا، آمال.

ـ مرحبًا... «دافيد».

لم يكُن إسماعيلَ طَوالَ ثلاثةٍ وخمسينَ عامًا.

في المنزل الآن، أبعدتُ المِكنسة عن الطريق، واعتذرت عن الفوضى، كما أفعل دائمًا مع الضيوف، حتى لو كنت قد قضيت ساعات وأنا أنظِّف المنزل. ابتسَم قليلًا:

ـ لا بأس. ليس لديَّ كثير من الوقت. سوف تصل سيارة في غضون بضع ساعات لتُقِلَّني.

أجبت، كارهة نبرة صوتي غير المبالية:

ـ لم أكن أدرك أنك سوف تغادر بهذه السرعة!

لكنني كنت غير واثقة بالطريقة التي يجب أن أتحدَّث أو أتصرَّف بها، أو ماذا أقول. دارت بيننا الأحاديث المرتبِكة، العقيمة، لترقيع ما أحسسنا بأنه ثقوب وتوقُّعات غير مكشوفة. كانت رحلته بالطائرة إلى هنا خالية من الأحداث المهمة، باستثناء الرجل الذي جلس بجانبه وظل يشخر. كان هذا «غير مريح بعض الشيء». والتوجيهات التي كنت قد أعطيته إياها للوصول إلى منزلي كانت مفصَّلة بما يكفي. قال إنه جاء إلى نيويورك عِدة مرات في سفرات عملٍ، لكن هذه هي رحلته الأولى إلى «فيلادلفيا». لقد أحبَّ ما شاهده حتى الآن. سألته ماذا يشتغل لكسب العيش. «مهندس». أمور مملَّة. أين أعمل أنا؟ «شركة أدوية». أمور مملَّة. كلانا كان له أولاد. ماذا عن ذلك؟ «ابنة واحدة، سارة». له ولدان: «يوري» و«يعقوب». مُطلِّق. «آسفة لسماع ذلك». سألني: «ماذا عنكِ؟»، ماذا عني؟ «دع ذلك إلى وقت آخر. «هل أعجبتكَ «فيلادلفيا»؟» اللعنة، لقد سألته هذا قبل قليل!

مرَّر يده ببطء فوق شعره، كما لو كان يريد أن يمحو واجهة اللامبالاة التي كان كلانا يصطنعها. لم يكن هذا النوعُ من التبادُل الرتيب الخالي من الحماسة موضع توقُّعه، ولا توقُّعي.

متأمِّلًا أنحاءَ منزلي، وقعت عينا «دافيد» على رسم مُرمَّم يضمُّ مؤسِّسي عين حوض الذين كانوا أول من استقر هناك في عهد صلاح الدين الأيوبي. تروي الحكايةُ المتناقَلة أنَّ صلاح الدين نفسَه قد وهَب الأرضَ لأحد قادتِه،

مكافأةً على بَسالته في المعركة. كان هذا القائدُ جَدِّي الأكبر قبل قرون بعيدة، وقد تزوَّج ثلاثَ نساء، وكان أبًا لمُعظم أبناء البلدة.

مشيرةً إلى صورة داكنة لامرأة شابة تتحلَّى بابتسامة خجولٍ وثوبٍ مطرزٍ مع وِشاح أبيض يؤطِّر، على نحوٍ فَضفاض، وجهَها الفاتِن، قلتُ:

ـ تلك جَدَّتنا الكبرى. كان اسمها سلمى أبو الهيجا. جمالُها كان أسطوريًّا في عين حوض، لذلك سمَّوا كثيراتٍ من فتيات القرية «سلمى».

نظر بصمْت إلى الدليل على ما يعرفه الإسرائيليون بالفعل؛ أنَّ تاريخهم مصنوع من عظامِ الفلسطينيين ومن تقاليدهم. الأوروبيون الذين جاؤوا لم يعرفوا الحِمَّص، ولا عرفوا الفلافل ولكنَّهم، في وقتٍ لاحقٍ، سمَّوها «طعامًا يهوديًّا أصيلًا». ادَّعَوا أنَّ بيوت حي القَطَمون في القدس «بيوت يهودية قديمة». لم تكن لديهم صوَر قديمة أو رسومٌ عتيقة لأسلافهم وهم يعيشون على هذه الأرض، وهم يحبونها ويزرعونها. وصَلوا من دوَل أجنبية، وكشفوا عن عُملات نقدية معدنية في أرض فلسطين، من عصور الكنعانيين والرومان والعرب والعثمانيين، ثم باعوها على أنها «تُحَفٌ يهودية عتيقة». جاؤوا إلى يافا ووجدوا برتقالًا بحجم البطيخ، وقالوا: «انظُروا! اليهود مشهورون ببُرتقالهم»، لكنَّ تلك البرتقالاتِ كانت تتويجًا لقُرون من إتقان المزارِعين الفلسطينيين لفن زراعة الحمضيات.

عدَّل «دافيد» الارتخاءَ في كتِفَيه وتنحنح منظِّفًا حَنجرتَه. كان يعرف أنَّ التاريخ المرتجَل لإسرائيل المعاصِرة، لم يكن تاريخَه حقًّا. الإرثُ الذي يجري في دمه كان معتَّقًا ولكن، بطريقة ما، لم يكن ذلك إرثَه أيضًا. كان القدَر قد وضعه في مكان ما بين الاثنين، حيث لا ينتمي إلى أيٍّ منهما.

عرضتُ عليه:

ـ هل يمكنني أن أُحضر لك شيئًا تشربُه؟ هل تحب القهوة؟

ـ آه... قهوة عربية. نعم، أحبُّ أن أتناول بعضًا منها.

مغتبِطةً لِوجود شيءٍ أفعله، اندفعت نحو المطبخ.

هناك، وضعت يدَي برفقٍ على المنضدة، وببطءٍ دفعتُ ثقلي عليهما. فَكِّي كان مشدودًا. إسماعيل، الرضيع الذي لا حَول له ولا قوة، والذي ضاع وسكَن فينا، هنا معي، راشد. لم أكن قد أعددتُ قهوة منذ فترة. أين هي تلك الفناجينُ الفضِّية الصغيرة؟ وجدتُ كلَّ شيء. ماذا يفعل؟ وقفت أغلي القهوة، وأحرِّكها إلى أن أصبحت باللزوجة المناسبة. داليا علَّمتني كيف أصنعها بالطريقة المضبوطة تمامًا. سكبت قليلًا من رغوة القهوة ذات اللون البُني الفاتح في الفنجانَين، ثم ملأْتُهما بالقهوة.

ـ تفضَّل.

قدَّمت له القهوة بقرب المدفأة، حيث كان واقفًا يحدِّق إلى الصورة التي كنت قد التقطتُها في شاتيلا عام ١٩٨١. داخل الإطار، يوسف يبتسم ابتسامة عريضة كشفَت عن أسنانِه. ابتسامةُ فاطمة الخَجول متشكِّلةٌ من أعمقِ حب. وفلسطين ملفوفة بسَكينة بين ذراعَي أبيها.

تحوَّل «دافيد» عن تلك الصورة، عيناه مبتلَّتان. عمَّ حولنا هدوءٌ كأنه لوح زجاجي، ووراءه تستطيع أن ترى الهواء يلتفُّ كالدوَّامة بثلاثٍ وخمسين سنة قد أزيحت من مكانها. داليا منحَت كلَّ أطفالها عيونًا داكنة، مستديرة، ويمكن أن تمتلئ إلى ما لا نهاية بالحزن.

قال، محطِّمًا زجاجَ الصمت:

ـ أُشبِهُه تمامًا!

تلوَّتِ الندبةُ في مسار متعرِّج أسفلَ عين «دافيد» وحَولها. تخيَّلتُه رضيعًا ـ الندبة في طريقها إلى الشفاء، ولكنها لا تزال حمراء ـ مضمومًا بعناية إلى صدر داليا. قال «دافيد»:

ـ ذلك ما فعلَه شقيقُكِ عندما رآني أول مرة. حدَّق في نَدبتي فقط.

قلت بهدوء وبسخط:

ـ كان اسمه يوسف. هل آذيتَه؟

سؤالي أثار أشباح أُناسٍ لم يُلطَّف من عذابهم عدالةٌ أو تَذكارٌ؛ أراهم بجانبي كشريط أفلام بالأسود والأبيض: صوَر أبي وهو يحملني ويقرأ لي شعرًا بصَوته العميق، أحذية الجنود، عربة اليد ذات الدولاب الواحد، وجْه عائشة الصغيرة البالغ الرقَّة، الأخت «ماريان» وكل الأيتام، الانفجارات والصرَخات، الابتلاءات والوَلوَلة المتواصِلة لشعبٍ قُضي عليه. خضعتُ لذكريات ماضٍ مزدحم ملأني بحزنٍ، فتمنَّيت لو كان غضبًا بدلًا من ذلك.

أحنى رأسه، كما لو أنه فهِم أوجاع الظلم المألوف ونبْذَ المنفى المزمِن. قال، وذقنُه ترتعش:

ـ نعم!

أردتُ أن أكره «دافيد»؛ لأنني أحببت يوسف، ولكن في وجهه رأيت عينَي ماما، وأنفَ بابا، وهوية «دافيد» الخاطئة.

ـ آمال، هل لديك شيءٌ أقوى من القهوة؟ مشروبات روحية؟

ـ بيرة؟

ـ وهو كذلك.

راقبتُه وهو يشرب. طريقتُه تردِّد صدى وَحدةٍ عميقة. عُزلةٍ يخفِّفها «شيء الوى من القهوة». كان يمتلك الكرامة الحزينة لرجلٍ أذعنَ لتناوُل الطعام وحدَه إلى طاولة أُعِدَّت لخمسة أشخاص. ليس جديرًا بالشفقة، ليس قويًّا، مجرد رجل بالكدِّ عرفتُه، بقدرة لا يمكن قصْرُها على الخطأ والخير والحب والكراهية. إنَّه أخي.

غُصتُ في أريكتي، متكئة إلى الخلف، لاحظتُ طبقة الغبار على طاولة القهوة. وبيأس جريء، تُقتُ إلى رؤية يوسف، مرة واحدة فقط. ماذا كان سيفعل هنا مع إسماعيل، ومعي؟ ثلاثة أشقاء ظهروا من مهد مأساة لا حدود لها. كلٌّ منهم فُصل عن الآخرين، لكنه مُلاحَق إلى الأبد بهَمسات منتزعة من وعي الآخرين.

«دافيد» كان شقيقي، وكان إسرائيليًّا خاض حروب إسرائيل. تناقُضٌ لا يمكن تسويَته إلا بالندم. ولكن ما أردتُ أن أعرفه، قد يغيِّر كل شيء.

ضغطتُ بكفي على ندبتي، أحسست بأخاديد الجلد المتصلِّب والثلوم القاسية، وتذكَّرت أزيز الرصاصة التي شقَّت بطني. احتجتُ إلى أن أكون في جَوف ذكرياتي، لأسمع ما يمكن أن يكشف «دافيد» عنه.

* * *

سألَتْ آمال:

ـ هل كنتَ أنتَ مَن عذَّبه عندما كان في السجن؟

أجاب بسرعة، كما لو أنه فوجئ بأنها تظن شيئًا من هذا القبيل:

ـ كلا!

ـ إذًا، كنتَ أنتَ مَن ضربَه على حاجز برطعة، أليس كذلك؟

همس:

ـ أجل!

ـ لماذا؟

خفض «دافيد» عينَيه، وحاول أن يشرح إلحاح السلطة على فرْض نفسها لفرض نفسِها فقط؛ إكسير القوة التي لا يعترضها شيء، والإثارة المتهورة للحصانة:

ـ لا يوجد سبب أو منطِق. كنتُ ابنَ عشرين سنة، ومنحوني سُلطة كاملة على بشر آخرين، يا آمال. كنت غاضبًا. بطريقة أو بأخرى، عرفتُ أن لي صِلة ما بالسِّر الذي عرفتُ أنَّ والديَّ يُخفيانه. وفي مكان ما في داخلي، خشيت من احتمال أن أكون عربيًّا. نبَضَ الغضبُ الشديد، والحصانةُ التي عرفت أنني أمتلكها في ذراعي حين كنت أُمسك بالبندقية.

نظر إلى كأسه الفارغة:

ـ هل أستطيع الحصول على كأس أخرى؟

صبَّت البيرة وهي تراقبها تتدفق في الكأس، وتذكَّرت الماء الذي صبَّته في ذلك اليوم ليوسف، عندما عاد ملطَّخًا بالدم يحملُه صديقُه أمين.

بدأت آمال:

ـ كنت واحدة من بين عدد قليل من الناس الذين عرفوا، لماذا كان يوسف على حاجز التفتيش في ذلك اليوم، على الرغم من أنه يكون عادةً في عمله في ذلك الوقت.

رفع «دافيد» بصرَه.

ـ كان يتولَّى مَهمة من مهمات العُشاق. أعرِف، لأني كنت الساعي الذي يحمل رسائل حُبِّ يوسف وفاطمة بين جنين وبرطعة.

* * *

كان قد مضى على قصة حب يوسف وفاطمة سنواتٌ، أطولُ بكثير من قصص العِشق العادية. الافتتانُ الأوليُّ للملل الدافئ، استسلم لإصرار يوسف على أن يصبح رجلًا جديرًا بفاطمة. لقد أخَّر الزواج حتى يُصبح قادرًا على تحمُّل مسؤولية الإنفاق عليها بالصورة الملائمة. حين أتمَّ دراسته، وكان قد ادَّخر مبلغًا صغيرًا من عمله مدرِّسًا، طلب يوسف إلى عمِّه درويش أن يقوم مقام أبيه في تقاليد الزواج. في اليوم الذي واجَه يوسفُ فيه «دافيد» على حاجز برطعة، كان قد رتَّب لإعداد فاطمة للجاهَة التي كانت ستأتي لاحقًا لطلَب يدها.

تابعت آمال حديثها:

ـ رافقَتني هدى دائمًا في توصيل الرسائل إلى منزل فاطمة، وتقاسمْنا الأرباح. يوسف كان يدفع لنا قرشَين، لكل واحدة منا قرش في كل مهمة توصيل، وفاطمة كانت دائمًا تعيدنا إلى البيت مع حلوى وحلويات مصنوعة في البيت.

كان طريقهما إلى برطعة ممرَّ مشاة في منطقة خارج النطاق الشجري، حيث نباتات الصبَّار البري، الياسمين المُسْكِر، والأريج البري، تمتد على طول الممر. وفي واحدة من هذه الرحلات وجدت آمال وهدى وردةَ، الدمية ذاتَ الذراعِ الواحدة صاحبة «منزل وردة».

كانت الفتاتان تثِبان في الطريق، تتوقفان لقطف الفاكهة والبلح من كرومها، تثبّتان الزهور في حزامَيهما، تنهمكان في النميمة، وتتجادلان كما تفعل البنات الصغيرات. في منتصف الطريق تقريبًا، كانتا تستريحان تحت «الشجرتين التوأمَين»، هما شجرتا أرزٍ لهما جذعان ضخمان، والناجيَتان الوحيدتان من عائلة من الشتلات المستورَدة من لبنان، منذ نحوِ ثلاثمائة سنة مضت.

تحت «الشجرتين التوأمين»، أو تحت أشجار الزيتون خلف «منزل وردة»، انتهكت آمال ثقةَ شقيقها وثقةَ فاطمة بقراءة رسائلهما.

مثّلَت، هي وهدى، مَشاهد الحب، كما تخيَّلتاها تكون.

آمال: آه، فاطمة، أنا أحبُّك.

هدى: آه، يوسف، أنا أحبُّك أكثر.

آمال: لا، فاطمة، أنا أعبُدك.

هذا الكلام العاطفي جعلهما تضحكان، إلى أن أصبحت الرسائل مثقَلة بالرغبة المتعذر فهمُها، وبالحميمية التي لم تجرؤ أي منهما على تخيُّلها. ذات مرة، وقد ملأهما الفضول، غامرت آمال وهدى لتمثيل مضمون رسالة معيَّنة. أجْفلَهما المشهد، بحيث انفصلتا متباعدتَين بأسرع مما كانتا قد أقحمتا لسانَيهما؛ كلٌّ في فم الأخرى.

اندفعت آمال وهدى في نفور متبادَل:

ـ قرف!

ـ بذيء!

توقَّفتا عن قراءة الرسائل بعد ذلك، معتقدتَين أنهما قد تعرَّضتا للخداع، وأنَّ الرسالة التي مثَّلتا المشهد منها كانت قد كُتبت لمعاقبتِهما على فضولهما. وهكذا، حوَّلت آمال وهدى اهتمامهما إلى أمور أكثر إلحاحًا، بترتيب تفاصيل منزل وردة الذي حظيَ بشعبية كبيرة، واستيفاء الأجر مقابل توصيلهما للرسائل.

* * *

بعد أن حُمل يوسف المضروب والمكسَّر من نقطة التفتيش، بقيَ أمين معه حتى وقت متأخِّر جدًّا من المساء. جلست داليا بالقرب منهما، هائمة في المتاهات المجهولة لواقع مفكَّك، وهي تطرِّز مع أُم عبد الله على الشرفة التي انحنت تحت ثقلِهما وظلَّلت المدخل الأمامي لِبَيتهم.

مع أنَّ عالَمَ آمال وهدى صار محاصَرًا بالجنود، فإنهما كانتا قد أبْقتا على عادات مرحلة الصبا، بلَعب الحجلة في الأزقَّة، والانغماس في ألعاب الشَّدة التي اخترعَتاها في فترات حظر التجوال الخانقة، ومحاولة إتقان تلك الشقلبة المحيِّرة. كما أن مَيلهما إلى التطفُّل قد عاد. ويومَ استلقى يوسف يتعافى من الضرب على الحاجز، توقَّفت آمال وهدى بشكل متقطِّع عن اللعب، للتجسُّس عليه هو وأمين من النافذة الجنوبية. أمْكنهما أن ترَيا بوُضوح المجلة الخليعة داخل غلافٍ عاديٍّ مقوًّى بين يدَي أمين.

ادعت آمال وهدى الاشمئزاز، وكلٌّ منهما تعلم تمامًا تشوُّق الأخرى، وتناوَبتا على النافذة، متظاهرتَين بالاطمئنان إلى يوسف الذي نام في سُبات الألم.

عادت هدى مشدوهة من دَورها على النافذة لتُبلغ عن تطوُّر جديد:

ـ أخوكِ مستيقظ. أعتقد أنهما يتحدَّثان عن المجلة البذيئة.

عادتا إلى وضع التجسُّس، وجَهِدتا لسماع الحديث المتبادَل بين يوسف وأمين، لكنهما لم تستطيعا سوى فكِّ غموض عبارات قليلة فقط. كان هناك حديث عن «ذلك اليهودي»، وسمعتا يوسف يقول لأمين الذي لا يصدِّق، وينتابه الذعر:

ـ إنه شقيقي، إسماعيل.

سمعَت هدى كلَّ شيء وبكت عندما حذَّرتها آمال، بصرامة، من أن تكشف عن سرِّ يوسف، حتى لو كانت أيٌّ منهما لا تعرف يقينًا ماهية السِّر، لكنهما احتفظتا به لنفسَيهما، ليس انطلاقًا من وفاء، بل لأنهما بالأحرى لم تكونا تعرفان ما الذي يمكن أن تُفْشياه. إسماعيل كان ميتًا. الجميع كان يعلم ذلك!

أنْصت «دافيد»، وهو يتوق إلى العودة بالزمن إلى الوراء. كان سيفعل الأشياء بشكل مختلف. كان سيأخذ يوسف بين ذراعيه ويدعوه «أخي». هل كان ذلك سيصنع الفرق؟ هل كان يوسف سيتزوَّج فاطمة في فلسطين ويبقيان هناك؟ أسئلة كثيرة جدًّا. في نهاية كل سؤال كان «دافيد» يتريَّث. الآن وجَّه أساه الكبير بحجم حياته، نحو شقيقته، آمال. سألها:

ـ هل كانت تلك المرة الأولى التي علِمْت فيها بوُجودي، عندما سمعتِ يوسف وأمين مصادَفة؟

حاولت التفسير أنه، بالنسبة إليها، كان قد عاش في سديم ذاكرات الآخرين:

ـ نعم ولا. لقد ولدتُ بعد اختفائك بسنوات. بالنسبة إليَّ، لم تبدُ قطُّ حقيقيًّا، حتى بعد أن علمْت بما اكتشفه يوسف.

أخذ «دافيد» نفسًا عميقًا، وابتلع كلماتٍ كانت قلةُ حَصانته لا تسمح له بالنطق بها، فتنهَّد بدلًا منها، ثم سألها بتركيز رقيق:

ـ والآن؟

ـ والآن، ماذا؟

ـ هل لا أزال فكرة مجرَّدة؟

لا، هذا ما خطر لها.

بالطبع لا. أنا وأنتَ مَن تبقَّى من إرثٍ لم يتحقَّق، وريثان لمَملكة من الهُويات المسروقة والتشوُّش المُربِك. بتَواطؤ الأُخوة والوَحدة والاجتثاث من الجذور، أحبَّت آمال «دافيد» غريزيًّا، على الرغم منها، وعلى الرغم مما كان قد فعل، أو عمَّن كان قد أصبح. لقد تاقت بشدَّة إلى أن تضمَّه في عناق يخلصه من وخزات الضمير المعذِّب. أرادت أن تشغل مقعدًا إلى مائدته الملتهِبة وتُشاركه وحدته، لكن كل ما تبقَّى على شفتيها كان تعبيرًا قاحلًا:

ـ لا أعرف.

(٤١)

هدية «دافيد»

٢٠٠١

في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠١، كان «دافيد» ذاهلًا ومُرتابًا، يُنعم النظر في الرسالة التي لم أفتحها ثانيةً منذ سلَّمتني إياها هدى قبل ثلاثٍ وثلاثين سنة، عندما كنت أتعافى في سرير المستشفى من إصابتي بالرصاص. لم أعرض قطُّ تلك الرسالة على أي شخص حتى الآن. حتى في عام ١٩٨٣، عندما كان وكَلاء مكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة الاستخبارات المركزية يقتحمون حياتي مطالبين بالمعلومات، لم أكشف عن وجود هذه الرسالة؛ ليس لأنها أخْفت أدلة ذات أهمية - باستثناء إنسانية أخي - بل ببساطة، لأنها كانت لي.

الآن، أظهرتُها من أجل أخي «دافيد» الذي بدا أنه ينظر إليها وكأنها وثيقة تاريخية، أو شيء أكاديمي للدراسة، أو لعلم الطب الشرعي، أو للمتاحف وجامعي الآثار. أمام نظرة «دافيد» المجرَّدة نحو حزمتي من المخلَّفات الأثرية العائلية، كنت على وشك إعادة الرسالة إلى عُلبتها. لكنَّ الصفحة المطوية الظاهرة منها كشفت عن تاريخها، فكانت مصادَفةً شبه مستحيلة أن أجتمع

إلى «دافيد»، وأن أفتح رسالة يوسف في اليوم نفسه تمامًا من السنة؛ اليومِ الذي قام فيه يوسف بكتابتها قبل ثلاث وثلاثين سنة.

في تلك اللحظة اللامعقولة، سمعتُ صوت والدي:

وهكذا انهمَرت الدموعُ وسقطَت على صَدري،

تذكيرًا بأيام الحُب؛

ورطَّبت الدموعُ حتى حزامَ سَيفي،

إلى هذا الحد كانت رِقة حُبي.

انبعث الشوق من هواء الغرفة الساكن، حيث جلست في منزلي في «بنسلفانيا» أمام شقيقي الذي نشأ في عالَم مختلف نقيضٍ لعالَمي، لكن على بُعد أميال جغرافية قليلة من جِنين. شاهدت ذراعي تمد الرسالة نحو «دافيد»، ورأيت الزمن يتقاطع مع نفسه في هذه الحركة، عندما مدَّت هدى ذراعها المتردِّدة قبل ثلاثٍ وثلاثين سنة، بقطعة الورق عينِها، المطوية على السطور المأسوية نفسها.

فتح «دافيد» الرسالة وشرع يقرأ كلمات يوسف. تحولت دهشتُه الأولية إلى شيء شخصي، وأجهش للبُكاء. فلمحتُ في دموعه ـ ولكن من دون أن أفهم تمامًا ـ المعاناةَ الرهيبة لهُوية خاطئة. سألتُه:

ـ هل شككَت في ذلك في أي وقت مضى؟ أعني قبل أن يقول لك «موشيه»؟

ـ كنتُ دائمًا أعرف أنَّ شيئًا ما لم يكن صحيحًا.

ابتسم ابتسامة صغيرة ارتفعت لها شفَتُه على الجانب الأيسر فقط، مثل

يوسف. تمايَل القيقبُ العجوز في الخارج، وفي ذروة هبوب الرياح بصفيرها، لمسَت أغصانُها النافذةَ. وأردف:

ـ أعتقد أنَّ هذا الشعور بدأ عندما كنت في الثانية عشرة، ذات يوم قبل «بارمتسفاتي» (البلوغ اليهودي)، عندما قال لي ابنُ عمِّي «إيلان» في خضم شجارٍ إنني لست «يهوديًّا حقيقيًّا»، وإنه سمع والديه خلال نقاش دار بينهما، يقولان إنني «جوي» أي لست من أمَّة اليهود، ما يعني أني لن أكون أبدًا منهم.

متأثرًا من جراء الحادث، نقل «دافيد» المسألة إلى والدته التي كانت ردةُ فعلها بالحنان المعتاد، محتضِنة مخاوفَه في الدفء الواسع لحمايتها، ومضيفةً بصرامةٍ لاذعة أنَّ «إيلان غبي، وطالما كان كذلك». وكانت تلك هي نهاية الموضوع فترة من الزمن. لكنَّ «دافيد» علِم بعد سنوات أنَّ والدته ذهبت ذلك اليوم إلى والدَي «إيلان»، وأطلقت العنان لغَضبها على عتبة بابهم، في سلسلة من الإهانات والشتائم التي جعلت عمَّ «دافيد» وزوجة عمِّه غيرَ قادرَين على الكلام.

ابتسم «دافيد» أمامي وهو يتخيل منظر وجهيهما، حين كانت والدته تصب نار غضبها عليهما. وقال ضاحكًا:

ـ أعتقد أنها تركت لدَيهما انطباعًا قويًّا، لأنَّ عمِّي تكفَّل بدفع كلِّ تكاليف حفلة «البار متسفا».

ـ ماذا كان اسمها؟ أُمك؟

ـ «يولانتا»، أي البنفسج باللغة البولندية.

أضاف مبتسمًا:

ـ وكان هذا هو لونها المفضَّل.

رسم «دافيد» صورة لـ«يولانتا»، كامرأة دافئة وفاتنة، كان يمكن الالتباسُ بين خزانة ثيابها وحقلٍ من الزهور البرية. كانت قصيرة القامة، وأصبحت ممتلئة الجسم مع تقدُّمها في السِّن، وكان لعَينيها «أكثفُ رموش يمكن أن تكوني قد شاهدتِها في حياتك». ترتدي دائمًا فساتين حتى منتصف الركبة، قصيرة الأكمام في الصيف، وبأكمام طويلة في فصل الشتاء، ودائمًا مع حذاءٍ وحقيبة يدٍ ملائمَين للِباسها. وإذا لم يحوِ طرازُ الألوان المنمَّقة لفستانها اللونَ الأرجواني أو الوردي، كانت تشبك عليه بالدبابيس حزمةً صغيرة من ورد البنفسج الحي الذي كانت تزرعه في الداخل.

أحبَّت الطهي وتقديم الطعام لكل مَن يدخل بيتنا. مهما بدا ذلك نمطيًّا، كان البسكويت دائمًا جاهزًا على الطاولة عندما أعود مع أصدقائي من المدرسة. في أيام العُطل كانت تقوم بإعداد ولائم ضخمة، وتدعو أكبر عدد من الناس يمكن أن يستوعبه بيتنا، وتضيف عددًا قليلًا إلى ذلك. كانت تقوم بترتيب تلك التجمُّعات، وتطهو بكثير من الحماسة والحُب.

تحدَّث «دافيد» عن «يولانتا» بإخلاص ملموس. كانت في ذهني كلَّ ما كنت أريد أن تكون ماما عليه: مُحبَّة ولطيفة وحنونًا. كانت شابة في السابعة عشرة من عمرها، خائفة وضعيفة، عندما حرَّر جنود الحلفاء المعسكر الذي كانت فيه، وقد قُتلت عائلتها جميعًا بالمحْرقة في الحرب العالمية الثانية. وكانت المفارَقة التي أنشبت مخالبَها المريرة في ذهني، أنَّ ماما ـ الأمَّ التي أنجبت «دافيد» ـ نجت أيضًا من مذبحةٍ أَودَت بحياة عائلتها كلِّها تقريبًا. الفارق الوحيد هو أنَّ المذبحة الأخيرة وقعت بسبب الأولى، مما يؤكِّد لي الحقيقة التي لا مفر منها؛ وهي أنَّ الفلسطينيين دفعوا ثمن المحرقة اليهودية. قتل اليهودُ عائلة أُمي، لأن الألمان قتلوا عائلة «يولانتا».

سأل «دافيد»:

ـ وماذا عن أُمكِ؟ كيف كانت تبدو؟

نهضَت مِن داخلي روحٌ معتِمة، وأحاطتني مثل سُترة وقاية هزيلة، مستعدة لمقاومة كلِّ تفحُّص يمكن أن يسيء إلى ذكرى ماما. الحركةُ المستمرة ليَد ماما التي كانت تعيش بصورة مستقلة عن إرادتها، شِدةُ إطباق فكِّها، وعزلتُها المنيعة، وكفاءتها كقابلة، وطبعُها الرائق، هذه كلُّها لا يمكن أن تُقارَن إيجابيًّا برعاية «يولانتا» المنمَّقة والمتمَّمة بالبسكويت والحلويات عند عودة ابنها من المدرسة.

سؤال «دافيد» كان دعوة لحمل السلاح. كنا، أنا وداليا، ضد «يولانتا» و«دافيد». أنا وداليا ضد العالم. فكشفتُ الحقيقة الجوهرية العارية لقلب ماما، والتي توصَّلتُ إليها في أثناء تأملاتي اللانهائية في صباحات المنفى الباكرة، من خلال تقشير طبقات الحِصن الذي تآمرت هي والقدر لبنائه حول نفسها. قلتُ:

ـ أحبَّت بلا حدود، وفوق كل اعتبار.

تدحرَج ذلك التصريح من تلقاء نفسه على شفتَي، كما تتدفق الحقيقة كأمر مسلَّم به عندما يُنطق بها، كما يندفع الهواء من رئتَي غريق تم إنقاذُه. وأضفتُ:

ـ عندما كنت صغيرة، ظننتها باردة. ولكن مع الوقت، أصبحت أفهم أنها كانت رقيقة جدًّا تجاه العالم الذي ولِدت فيه.

أعطى الحزن داليا موهبة صُلبة؛ فمِن وَراء ذلك الدرع القاسي، أحبَّت بلا حدود من خلف عُزلتِها الخاصة والبعيدة، في مأمنٍ من المآسي التي أمطرها بها مصيرُها.

استمع «دافيد» بانتباه، شاكرًا لرسم صورة المرأة التي أنجبَته. فأردفتُ:

ـ لقد فقدَت شيئًا أساسيًّا في ذلك اليوم من عام ١٩٦٧، عندما ظنَّت أنّني قُتلت في الانفجار الذي دمَّر المطبخ، حيث كنت أجثم في الحفرة مع صديقتي هدى وابنة خالتي الرضيعة، عائشة!

توقَّفَت لتستمع أولًا إلى كلماتها، ثم تابعت:

ـ أفترِض أنها كانت القشَّة التي قصمت ظهرَها. على مدى سنوات، ظللت أتساءل دائمًا بشعور هائل بالذنب: «هل كان بيَدي أن أنقذها آنذاك؟». لَيتني لم أذهب مع الأخت «ماريان» إلى بيت لحم تاركة إياها ـ في تلك الخيمة التي جُهِّزت كمستشفى ـ وحدَها مع الشياطين التي كانت قد بدأت بالتهامها! لَيتني بقيت واحتضنتُها! هل كان من الممكن أن يختلف الوضع؟

مِن علبة القصدير التي كنت أحتفظ فيها برسالة يوسف، أخرجتُ وِشاح ماما الحريري، وقطعةَ الصدر المطرَّزة لثَوبها المفضَّل، البقايا الجامدة لسَنوات حياتها القصيرة على الأرض. كنتُ قد غلَّفتها بقطعة من البلاستيك، واحتفظت برائحتها على مدى العقود. قرَّب «دافيد» ملابس ماما من وجهه واستنشق:

ـ لم تكن تستحمُّ بكثرة.

ابتسمتُ. وفجأة تغلَّب عليَّ، أول مرة، ما بدا كأنه سحرُ روعة العادات الشخصية غيرِ المستحبَّة لماما. في هذه اللحظة اللطيفة، أدركتُ أنَّ داليا، أُم يوسف، الأمَّ التي لا تكِلُّ، وأعطت أكثر بكثير مما أخذت، كانت اليَنبوعَ الساكن، الكادح بهدوء، والذي كنت أستمدُّ منه القوة طوال حياتي. اضطُررت إلى السفر إلى الطرف الآخر من العالم، والارتجال مثلَ كلب، والاستحمام في حُزني وعدم كفاءاتي، لكي أفهم كيف أنَّ الروح المثابِرة لدى ماما قد منحَتني العزمَ والإرادة. سألني «دافيد»:

ـ ماذا حدث لها؟

ـ غرقتْ في الخرَف بعد حرب السبعة والستين بوقت قصير.

ولكن لم أتمكَّن من أن أشرح لـ«دافيد» أنَّ حالتها لم تكن سوى رحمة من الله.

نضِجَت داليا في شبابها، وهي تبحث في ظلام لياليها عن الابن الذي فقدَته، وتؤنِّب نفسها لعدم معرفة المكان الذي يمكنها العثور عليه فيه. لم تحب من أجل متعة الوفاء أو عِرفان الجميل. أحبَّت على الرغم من إرادتها. كانت تأخذ قسطًا قليلًا من النوم في الليل، وهي ممدَّدة على حصيرتها حتى يرجع بابا، تبقى مستيقظة، تتصنع النوم، حتى يتأكد لها أنه يأكل الطعام الذي تكون قد تركته له. اندفعت بطاقةٍ خيالية إلى القيام بأعمالها اليومية من التنظيف والطبخ والتطريز والغسل والطي والتوليد والزراعة، وكانت تؤدي بخشوعٍ الصلوات الخمس. عندما احتاج عمِّي درويش إلى كرسي متحرك، قامت في السِّر ببيع القطعة الثانية التوأم من خَلخالها، ووضعت المال على عتبة عمِّي. وقد سمحَت لي بأن أشاركها هذا السِّر. سهرَت علينا جميعًا في الظل، بعناية فائقة ومن دون تطفُّل. كانت تتصلَّب أو ترتد إلى غموضها إذا اقترب أيُّ شخص منها ليَشكرها بحنان. وللأسف، لم يكن قلبُها من الجليد قطُّ، بل من الحِمم الهائجة المضبوطة بفعل إرادتها، وبإطباق فكِّها الحديدي، وارتعاشِ يدها التي لا تعرف الكلل، ونادرًا ما خانت ما احتوى عليه ذلك القلب. ربما لم تكن السلسلة التي لا نهاية لها من المآسي التي حلَّت على الفلسطينيين، هي ما جعل الواقع يتلاشى من عقلها، لكنْ على الأرجح، كان الحبَّ الذي لا حدود له، والذي لم يتمكن من العثور على الراحة.

ـ كنت أتمنى لو كانت ماما مختلفة. ربَّما أشْبه بـ«يولانتا».

قلت ذلك وأنا أتذكَّر داليا، وأتذكَّر كيف اعتقدتُ مرة أنها أُمٌّ أنانية، وقاسية، وذات كفاءة؛ قامت بتربيَتي من مسافة بعيدة. علَّق «دافيد»:

ـ لقد أحببتُ «يولانتا». كانت الأمَّ الوحيدة التي عرفتُها في حياتي، لكنها سمحت لي أن أعيش في كذبة عميقة تسبَّبت في ضرر شخصيٍّ كبير، من أجل أُمومة بلا مُنازع.

اعترف «دافيد»، كما لو أراد حماية داليا من مقارَنةٍ غير مؤاتية. توقَّف بُرهة وأخذ يشرب، ثم أضاف:

ـ «يولانتا» أحبَّتني أيضًا. لا يُساورني أدنى شكٍّ في ذلك، ولكن لا يمكن أن يتصالح الحُبُّ مع الخداع.

جمع جروحَه في نظْرته المحدِّقة بعيدًا، وركزها في القبضة حول كأسه، واضعًا إياها على الطاولة كما لو كان يريد تعليم البقعة التي تقع فيها الخيانة.

لا يمكن أن يتصالح الحُبُّ مع الخداع. ولا يمكن أن يصبح معتادًا كينونةً تم دفعُ ثمنها سلفًا من بؤس الآخرين ـ بؤس والدتي. اعترفتُ له:

ـ عندما كنتَ تتحدث عن «يولانتا»، عن عشقها المبرهَن، شعرتُ بالغيرة منك. لكن أعتقد الآن، على عكس ما كنت أعتقد في حماقة الشباب، أن ليس ثمة امرأة أخرى غير داليا، كان يمكن أن تكون أمًّا أفضل بالنسبة إليَّ.

(٤٢)

أخي، «دافيد»

٢٠٠١

قال «دافيد» وهو يومئ من أجل بيرة أخرى:

ـ أنتِ، على الأقلّ، تعرفين مَن تكونين، والمكانَ الذي أتيتِ منه!

قلتُ:

ـ عليَّ الذهاب إلى الدكان لإحضار المزيد. هل تريد أن تأتي؟

ـ طبعًا.

كان المشوار في السيارة صعبًا؛ بيئة جديدة يجب التغلُّب عليها معًا، قبل أن نتمكَّن من الوصول إلى المستوى نفسِه من الراحة التي حقَّقناها في بيتي، لكنه كان مشوارًا قصيرًا، ولذلك ملأناه بالمُجاملات. قال «دافيد»:

ـ بلدة جميلة.

ـ هذا هو نهر «الديلاوير».

ـ في إسرائيل لا يتراكم الثلج بهذه الطريقة.

إسرائيل.

ـ في لبنان يتراكم.

لبنان.

بعد عودتنا إلى المنزل، واحتساء بيرة أخرى، أصبح أخي المفقود منذ زمن طويل مرتاحًا بما فيه الكفاية، ليتذكر الرحلة الصعبة التي قام بها مع يولانتا» إلى مسقط رأسها في بولندا. قال:

ـ باستثناء يوم وفاتها، فإنَّ رؤية معسكر الموت، حيث خسرَت كلَّ شيء، كانت أتعس وقت في حياتي.

عرضتُ عليه:

ـ أنا ذاهبة لإحضار كوب آخر من القهوة. هل ترغب في بيرة أخرى؟

ـ نعم، شكرًا.

ونظر إليَّ، وبادلتُه النظرة بلا أحكام.

حكى لي عن اعتراف «موشيه» له، عندما انكشف كلُّ شيء أمامه.

ها هو الآن، بعد عقود من الزمن، يربط الأمور معًا، بشيء أقوى من القهوة.

قال «دافيد» وهو يرتشف المزيد من الكأس:

ـ حاولتُ أن أُقنعَ نفسي بأنَّ والدي قد أخذ سرَّه إلى قبره.

لكنَّ كلماته كانت تُغرِق كلَّ لحظة صمتٍ وكلَّ ساعة أرَق.

ـ و«يولانتا»؟

ـ شعرتُ أنها خانتني.

كانت تلك بقعةً تركَت أثرها في كنف العواطف العميقة التي يكنُّها لها. مع «موشيه» كان الأمر مختلفًا:

ـ لم نكن، أنا ووالدي، متقاربَين إلى هذا الحد.

ثم أردف:

ـ عِلاوةً على أنه أخبرني، وهذا مكَّنني من أن أدع الأمر يخرج مني. فقد أخبرَني بكل شيء، حتى بأمور لم يكن واجبًا عليه أن يبوح بها. في يوم اعترافه لي، شعرت أني أقربُ إلى والدي مما في أي وقت آخر طول حياتي.

استغلَّ «موشيه» أنفاسَه الأخيرة للكشف عن الماضي وطلبِ مغفرة ابنه. تحدَّث عن أحلامه، عن تطلُّعات الشعب اليهودي من أجل وطن. وكشف النقاب عن أسرار عصابات «الإرغون»، والفظائع التي ارتكبَتها لإجبار الفلسطينيين على الخروج من بيوتهم. قال «موشيه»: «كانت الرحمة ترَفًا لا يُمكننا منحُه». ووصَف الوجوه التي تطارده: «كثير منها يا ابني». المرأة العربية التي جَلجل الخَلخال في كاحلها وهي تقدِّم له اللحم. كيف تعلَّم هو أن يحب طفلها العربي، وكيف لجأ إلى شُرب الكحول لإخماد صرخاتها وهي تقول: «ابني! ابني!»؛ الصرخات التي ظلَّت ترن في أذنيه بوُضوحها نفسِه في ذلك اليوم الذي سَلب فيه ابنَها من ذراعَيها. همسَ لـ«دافيد»: «سمعتُها وأكملتُ المشي». لم يدَّخر «موشيه» أيَّ ذكرى، حلوة كانت أو بشعة، قبل أن تُوافيه المنية أخيرًا في جوف الليل.

* * *

إذًا، ها قد تكشَّفت أخيرًا القصة الكاملة لتلك الأيام المشؤومة في زمن النكبة ـ عندما فقدَت عائلتي طفلَها وأرضَها معًا ـ هنا في غرفة الجلوس

ببيتي في «بنسلفانيا»، بعد ثلاثة وخمسين عامًا؛ ولكنني كنت الوحيدة التي نجت لتعيش تلك اللحظة مع إسماعيل، رابِطِنا المفقود، وشعرتُ أنَّ جراح الآخرين قد استنزفَتني.

مِلتُ على الأريكة، وأغلقت عينَي كما أُغلق كتابًا بعد قراءة صفحته الأخيرة، ولكن كان لدى «دافيد» شيء آخر سيُضيفه. قال:

ـ أعلم أنَّ الأشياء التي فعلها والدي تجعله إرهابيًّا، بالنسبة إليك وإلى آخرين. فعلَ بعض الأشياء الشريرة، لكنه لم يكن شِريرًا. كان طيِّبًا بالنسبة إليَّ. كان والدي يا آمال.

لم أُجب. احتجزتُ كلمات «دافيد»، شعرتُ بثِقلها على راحة يدي، وشعرتُ بعينَي تمتلئان دموعًا.

ـ هل تفهمين ما أقول يا آمال؟

أفهم.

ـ هناك أشياءُ سأقولها لكَ. في الوقت المناسب.

فقال:

ـ إذا كان هذا عن يوسف، فأنا أعلم.

في تلك اللحظة دوَّى بوقٌ في درب مدخل بيتي. كانت سيارة الأجرة التي قدِمت لنقل «دافيد» إلى المطار. توسَّلتُ بشكل غريزي:

ـ لا تذهب!

أجاب على الفور:

ـ لا أريد أن أذهب.

احتجز واحدُنا الآخر في نظرة يائسة، وكلٌّ منا يبحث في عينَي الآخر عن دليل لحاجةٍ متبادَلة من أجل استعادة مصيرٍ ممزَّق. وفي تلك اللحظة من التأمل، شيء ما تشكَّل بيننا. شيء لطيف.

أجَّل «دافيد» رحلته إلى صباح اليوم التالي. قال:

ـ هذا لأجل البدايات الجديدة.

قبل أن أتمكَّن من رفع كأسي إلى مستوى كأسه، دخلَت سارَة من الباب. استطعت أن أرى، من الترقُّب البادي على وجهها، أنها كانت تنتظر العودة إلى البيت منذ اللحظة التي غادرت فيها، فشعرتُ بسعادة غامرة لرؤيتها في تلك اللحظة.

ـ حبيبتي، أُريدك أن تتعرَّفي إلى أخي «دافيد».

بِـلادي



(٤٣)

دكتور «آري بيرلشتاين»

٢٠٠٢

بدا الماضي مثل حلمٍ الآن. لا أعرف متى توقّفت أشباحُه عن مطاردتي، أو متى أصبحتٌ طفلتي الصغيرةُ امرأةً، أو متى كبرتُ حاملةً إرثَ داليا كأُمٍّ غير وثيقة الصلة بابنتي.

كنت قبل بضعة أشهر قد اكتشفت أنني هرِمتُ بلا رجعة. حدَّقت إلى صورتي العارية في المرآة؛ الشبحِ القبيحِ لجسدٍ أعادت تشكيلَه أيادي الدهر الشَّرسة. زادت السنون محيط خصري ورهَّلت جلدي. ثديايَ متدلِّيان مثل زهرتين ذابلتين، وتحوَّل شعري إلى لون فصل الشتاء.

وحْدَها الندبةُ على بطني لم تهرم. الجلدُ المشبَّك، شابًّا ومشدودًا كما كان دائمًا، ومحنَّطًا بفعل الوحشية، كان الحبرَ الذي يتعذر محوُه من الذاكرة، والحافظَ لآثار الزمن. مرَّرت يدي على رقعة صباي الجريح كما فعلت مرات لا تُحصى في حياتي، ولكنني فعلتُها الآن بحَنين موهنٍ إلى آثار للماضي، وكلماتُ سارة تحوِّم في أفكاري كطائر فوق المياه:

ـ ماما، أنا ذاهبة إلى فلسطين. أريدُكِ أن تأتي أنت أيضًا.

وكانت هناك الأصوات الأخرى أيضًا. تنفَّسي يا ابنتي. وكنت أزفرها خارجًا لأُبعدها، لكنها كانت تعود. قالت سارة، وحَوافُّ عينيها تتحوَّل داكنة إلى اللون الأحمر وتتجمع فيهما الدموعُ:

ـ ليس السبب فقط هذه السياسات القذِرة والظلم، يا ماما. أريد أن أعرف مَن أنا.

هو ذا الأمر، محنةُ حياتها؛ لأنها لم تملِك سوى ذلك القدْر القليل جدًّا من أُسرة. القليل جدًّا من الشعور بالانتماء. القليل جدًّا من الأُم. لكن هذا «القليل جدًّا» ظل هو النبضَ الكبير والقوي الذي حرَّك قرارها للذهاب إلى فلسطين. إنها ابنة أمِّها، لذا رأيتُها تجذب صراعَها إلى الداخل، تغطِّيه بعزم، وتركِّزُه كلَّه في التحدِّي المتَّقد لنَظراتها. أيًّا كان شعورُكِ، اكْبتيه في داخلِك!

قلت وأنا أتهرَّب من رغبة ملحة في ضمِّها بين ذراعَي:

ـ سوف أفكِّر في الأمر.

فكَّرت فعلًا في الأمر. في الواقع، لم أفكِّر في سواه تقريبًا، إلى أن وقفتُ أمام نفسي في تلك المرآة، واتخذت قرارَ العودة إلى جنين، بعد ثلاثة عقود من المنفى.

بعد أربعِ ساعات من الاستجواب ومن التفتيش الذي يصعبُ وصفُه في مطار اللِد، أُخلِي سبيل سارة وسبيلي، لنَمضي في طريقنا.

ـ سارة! صرخ صَوت ذُكوري.

اندفعَت ابنتي بسرعة وتخطَّتني، لتهبِط بين ذراعَي شابٍّ وسيم. أدركتُ مَن هو عندما رأيت «دافيد» يقف خلفه. كانت هي ويعقوب ابن خالها يتراسلان منذ أن دخل «دافيد» حياتنا.

كان يعقوب في الثالثة والعشرين من العمر، وهو الأصغر من بين ابنَي «دافيد»، والأكثر شبهًا بوالده.

ـ شالوم، عمَّتي آمال.

قالها وهو يكشف عن ابتسامة ترحيبٍ نَضِرة، لم أكن مستعدة لها. عمَّتي أمال. شالوم.

ـ مرحبًا يعقوب.

أجبتُه، وتحولتُ لتفادي الارتباك تجاه «دافيد» الذي ضمَّني في عناقه الضخم. وقفت هناك، وقد ذاب حجمي الصغيرِ في حجمه الهائل، شعرتُ بأنني بين ذراعَي يوسف، بل ربما شممتُ رائحتَه. كنت في الثانية عشرة من عمري مجدَّدًا، بلا حراك في حضن يوسف، بعد أن عاد عاريًا مع الموتى عام ١٩٦٧، وقد هيَّج الملمسُ الخشِن لملابسه الخُضر المستعارة جِلدي ـ تمامًا كما يحتك الآن شعارُ «أديداس» على قميص «دافيد» بخدي ـ قال:

ـ تسرُّني رؤيتُكِ يا أختي.

ـ وأنا أيضًا يا «دافيد». وأنا أيضًا.

* * *

أردت أن أرى القدس قبل التوجُّه إلى منزل «دافيد» في «نتانيا». أن أتوقَّف للمرور بدار الأيتام، وأن أجد مكتب «آري بيرلشتاين». قال «دافيد» بإصرار:

ـ لكنَّ القدس في الاتجاه المُعاكس.

لم أُعاند. كان لديه الأسى نفسُه القليلُ جدًّا والمرتسِم على وجهه. ذلك الوجعُ من عدم الانتماءِ واهتزازِ الهوية المعكوسة.

على «آري بيرلشتاين» أن ينتظر، فكَّرت، حتى لو لم يكن لدى «آري» أيُّ فكرة عن زيارتي. قبل مغادرة «فيلادلفيا»، كنت قد تتبَّعت أثرَه عبر الإنترنت، لكنني خجلتُ من أن أُهاتِفه؛ فعلى الرغم من كل شيء، ماذا كنت سأقول؟ أنا ابنة حسن، هل تذكره؟ أو مرحبًا، أتُخمِّن مَن يتكلم؟ سأُعطيك تلميحًا: عُد إلى الوراء خمسين، ستين، سبعين سنة أو أكثر. تلميحًا آخر: عين حوض، هل تُذكِّرك بشيء؟ ها ها. في الحقيقة، كلا.

* * *

ـ دكتور «بيرلشتاين»؟

ـ نعم.

أطلَّ رأسٌ صغير رفع نفسَه من بحر الكتب التي تتدافع حتى على حدود جدران غرفة المكتب الصغيرة للبروفيسور.

ـ هل لي بلحظة من وقتكَ؟ لقد قطعتُ مسافة طويلة للقائكَ.

سأل بسلوك كريم، مثلما تصوَّرت تمامًا:

ـ سامحيني، ففي مثل سنِّي تخذلني ذاكرتي أحيانًا. هل أعرفكِ؟

ـ كلا، ولكن أعتقد أنك تعرف والدي، حسن. حسن يحيى أبو الهيجا.

الغرفة بكامِلها ـ بجُدرانها من الكتب، والأطنان من الغبار، والبروفيسور العجوز شاردُ الذهن ـ لهثتْ وحبسَت أنفاسها لحظة طويلة، إلى أن تمدَّدت عينا «آري» باتساع وراء النظارة على أنفه، وقفزَت تحت الخصلة الكَثّة لحاجبَيه. ناوَر متشنِّجا بجسمه الصغير، ليمرِّره من حول المكتب الخشبي الذي يعجُّ بالفوضى، مقبِلًا نحوي، وعرَجُه الآن مصحوب بمِشية متثاقلة.

ـ يا الله!

همسَها بالعربية حتى وصل إليَّ. يداه المرتعشتان والمبقَّعتان بفعل السِّن تُكفكِفان الدموع التي سالت من عينيه المكبَّرتين بِعدستَي نظارتِه.

ـ هل حسَن هنا؟

سأل وصوتُه محبوس الأنفاس، مستنفَدٌ من اليأس المفاجئ للماضي المسروق، من الإلحاح الكبير ليَعرف، ليَرى صديقَه القديم.

ـ لا، نعتقد أنه قُتل في ١٩٦٧.

نعتقد أنه قُتل في ١٩٦٧. لم يحدُث قطُّ أن نطقت بهذه الكلمات من قبل. ولم يحدُث أيضًا أن عرفت أنني اعتقدتُ أنه قُتل في ١٩٦٧.

بعد صمتٍ يكاد لا ينتهي، قال لي:

ـ أنتِ تُشبهين داليا.

وابتسم ابتسامة دمِثة وكريمة، كما يبتسم الأجداد.

ـ تفضَّلي. تفضَّلي.

ـ هناك آخرون في الخارج يوَدُّون أيضًا لقاءكَ يا سيدي. ابنتي سارة، وأخي «دافيد أبرام»، ومعه...

قاطَعني، مشوَّشًا بشكل واضح من الاسم اليهودي:

ـ «دافيد أبرام»... أبو الهيجا؟

ـ كلا، «دافيد أبرام» فقط. إنها قصة طويلة... إن كان لديكَ متَّسعٌ من الوقت.

ـ لديَّ كلُّ الوقت.

أعلنَها ببهجة المنتصِر، وبابتسامة عريضة. غيَّر وضْع طَقم الأسنان الصناعية السيئ التركيب في فمه.

لم يتزوَّج «آري» قطُّ، وكرَّس نفسه للدراسة، وظهرت للعِيان وحدتُه الرشيقة والجميلة، حين نسج قصة حياته بحكمة رجلٍ قرأ كتبًا أكثر بكثير من المئات التي تحتشد من حولنا وسط مكتبه.

كان «آري» قاصًّا رائعًا، يذكِّرني بالحاج سالم الذي لا شكَّ أنه رحل منذ أمد. جلسنا جميعًا مسحورين بحكايات مغامرات صباه مع بابا؛ منذ اليوم الأول الذي التقيا فيه عند باب العمود، إلى اليوم الذي ساعدهم فيه والدي على الفرار إلى الجانب الغربي من القدس، بعد فترة وجيزة من استيلاء إسرائيل عليه. تحدَّث عن خلاخيل كاحل داليا التي تطقطِق. عن شاربِ جِدُّو يحيى المفتول إلى الأعلى بتماثلٍ تام، والذي يتسلق إلى عينيه تقريبًا عندما كان يبتسم. عن طبْخ تيتا باسمة وعنايتها بالحديقة. عن أشجار عين حوض وبساتينها. عن وحشية الحرب التي لا ترحم. عن العنف البالغ وصداقةٍ أنقذت حياته. وكلما تثاقلت ذاكرتُه في تتبُّع أمر ما أنعشتُها بذاكرتي.

كنا، في مكتب «آري»، ثلاثةَ أجيال تجاذبت معًا بفعل شبكة متصلة لقِصة محبوسة أرْبَكها القدَر، ولكنها تجمَّعت في تلك اللحظة لتُطالب بأن تُحكى. قصة عائلة في قرية مغمورة، زارها ذات يوم تاريخٌ لم يكن تاريخها، وعلِقت إلى الأبد في ذلك الشوق الرابط بين الجذور والتربة. كانت حكايةَ حرب، ونارَها المثيرة للقُشَعريرة، والحارقة، والمثيرة للقشعريرة مجدَّدًا. حكاية حبٍّ صاخب، وانتحاريٍّ يفجِّر نفسَه. حكاية فتاة فرَّت من مصيرها لتصبح كلمة، اسمًا تلاشى معناه. حكاية أطفال كبروا يغربلون الجنون ليعثروا على

مغزاهم. حكاية حقيقةٍ شقَّت طريقها عبر الأكاذيب لكي تبرز من شقٍّ، من ندبةٍ في وجه رجل ما.

غمرَتنا العاطفة جميعًا في ذلك المكتب الصغير، حيث كان ضوء النهار يسقط من خلال نافذة منفردة صغيرة وعالية في الحائط، ومثَّلت التلميحَ الوحيد إلى وجود عالم خارجي. كان الضوءُ الرقيق الدليلَ الوحيد على أنَّ الزمن لم يتوقَّف، بينما تخيَّلتُ «آري» الصبيَّ وحسن الصبيَّ يتقاسمان حبة بندورة خلف عربة السوق، تلك الإيماءة لإرساء أُسس صداقة أبدية. كنت قد حكَيت لـ«دافيد» عديدًا من القصص عن بابا، وكان هذا جانبًا إضافيًّا محببًا لبابا يجدر بـ«دافيد» أن يعرفه.

قال «آري» وهو يستحضر، بلا شكٍّ، صورة لأبي وكان هو الوحيد الذي يمكنه استدعاءها:

ـ كان والدكِ سعيدًا جدًّا عندما ولِد يوسف. أظن أني لم أره أسعد أو أكثر فخرًا قطُّ.

فجأة ومجدَّدًا عدتُ طفلة، متسائلة هل شعرَ بابا بالقدْر نفسِه من السعادة عند ولادتي؛ ربما أعظم سعادة؟ ربما ليس سعيدًا على الإطلاق؛ لوجود فمٍ آخر عليه إطعامُه في مخيم للَّاجئين؟

أعادني «آري» من الزمن. سألني:

ـ أين هو الآن، شقيقُكِ يوسف؟

في ذلك الوقت بالضبط، بدأ الأذان يملأ الآفاق، متسللًا إلى داخل جلدي.

«اللـــاااااااه أكبر... اللـــاااااااه أكبر...» رُفِع الأذان من عِدة مآذن في آنٍ واحد. ذلك الترتيل الذي لم أكن قد سمعته فترة طويلة جدًّا، تدفَّق من

دون عائق إلى الزوايا التي أكلتْها العُتة فيَّ، مارًّا في خلالي مثل نهرٍ، مثل ماء المعمودية.

«أشهد أن لا إله إلا اللـاااااااااه، أشهد أنَّ محمدًا رسول الله...» جلست هناك، عيناي مغلَقتان، فاتحةً الأبواب لحَنينٍ جارح وتَوق إلى عائلتي المفقودة، وإلى نفسي الضائعة، وسمحتُ لموسيقى النداء بأن تزيد تأثير الصمت الذي توَّج نهاية سؤال «آري». أين هو الآن، شقيقُكِ يوسف؟

«حَيَّ على الصلاة... حَيَّ على الفلاح...» وقُرعت أجراسُ كنيسة القيامة، تغني بمرح على إيقاع أكثر ذكرياتي عذوبة وأكثرها مرارة. وقفتُ على رجليَّ ـ بينما أعاد إيقاعُ الأذان إحياءَ الغمازة في ابتسامة فاطمة بدَشداشتها الزرقاء السماوية ـ لامُبالية بالآلاف من قطرات الدموع المكبوتة. أجبتُ «آري»، مفاجأةً بلُيونة صوتي:

ـ لا أعرف.

ولكي لا يكون هناك أيُّ سوء فَهمٍ، ولا مزيد من الأسئلة، تابعتُ بالقول:

ـ يقولون إنَّه كان الرجلَ الذي قاد الشاحنة المُفخَّخة إلى داخل مجمَّع السفارة الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣.

لهثَت سارة. لم تكن تعرف ذلك قطُّ.

هوى وجهُ يعقوبَ كما تهوي الصخور من أعالي الجبال. لم يتخيل قطُّ شيئًا كهذا.

تَمالَك «دافيد» نفسَه بصمتٍ، تحت وطأة كلماتي التي لا يريدها أن تسقط قريبًا جدًّا من ابنه، وتحوَّلت عيناه إلى صرخةِ توسُّل: ولكن من المفروض أن يكونوا طيبين. العرب طيبون. أقاربُنا الفلسطينيون مُسالِمون، وليسوا إرهابيين!

انفتح وجهُ سارة مثل الجرح. غير مصدِّقة، ومخدوعة، متعطشة إلى القصة الكاملة لحياتها، متألمة بسبب الأُم التي أخْفت عنها كثيرًا.

كنتُ متعَبة ومستنزَفة إلى درجة أني لم أكن قادرة على مواجهة ردِّ فعلها.

الدشداشة الزرقاء زُرقة السماء، والمشقوقة من وسطها، سبَحت في الهواء من زوايا عقلي، حيث كنت منذ فترة طويلة قد أطفأتُ عنه الأضواء، وانتشرتْ فوقي مثل سحابة. التفتُّ فرأيت ماجدًا في ملامح ابنتي، فأغلقت عينَي فورًا، أضعف بكثير من أن أشعر بأي شيء أكثر من ذلك؛ خائفةً من أني قد أجد ضراوة أخي تنسلُّ إلى أعماقي. خائفة من أنَّ غضبه الشديد قد يكون أيضًا غضبي. خائفة. دائمًا خائفة.

ولكن في هذه المرَّة، لم تكن دفاعاتي ندًّا للذكريات، ولمشاعر الحب المكبوتة التي نهضت من وراء جليدي تحمل مشاعل تتَّقد وتطالِب. تطالِب بأن أبكي لأجلها، أن أفيَها أخيرًا حقَّها بالدموع التي تستحقُّها، أن أُفرِج عن مستحَقاتها من الغضب والحزن. أمنحها الإقرار الذي فات موعدُ استحقاقه منذ أمد بعيد، بالتذكر والألم.

«لاااااا إلـاااااه إلا الله» اختُتم الأذان، ورأيت الفهمَ الهادئ يواجهني من خلف عينَي «آري».

«آري»؛ الصبيُّ الذي تضرَّرت طفولته ومعها ساقُه اليمنى على نحوٍ لا يمكن إصلاحه بفعل التعصُّب النازي الأعمى. الولدُ الأعرج ذو الصديق الواحد فقط، الذي يؤخذ إلى قرية عربية ليستنشق هواء نقيًّا، غيرُ ملوَّث بذكريات والديه المروِّعة، المسحوقة إلى الأبد بوحشية معسكرات الاعتقال، مهما كانت محاولاتُهما لتجميع حُطام حياتهما. «آري»؛ الصبيُّ المطارَد، يختنق ويتشنج في مَخبزٍ بينما يلاحق العربُ اليهودَ ـ كلَّ يهوديٍّ ـ لكي

ينتقموا بعد ١٩٤٨. «آري»؛ الشابُّ الذي رأى والدَيه يتلاشيان مثل شبحَين في الكرب المُهلِك لذِكرياتهما، ليترُكاه مع تذكارات من حياتهما، دبوسَ زينةٍ فيه ثماني عشرة لؤلؤة، ورفوفٌ من الكتب.

«ها هو دبوسها». أراني إياه. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ستٌّ... ثماني عشرة لؤلؤة رقيقة قديمة.

«آري»؛ الرجل الذي لم يستطع الزواج لأنه، مثلي، خشي من الحب أكثر من خشيته الموتَ، لأن الشخص المكروه والمطارَد يعرف أنَّ الوجه الآخر للحب هو الفقدانُ الذي لا يمكن تحمُّله.

«آري»؛ «اليهوديُّ الذي يكره ذاتَه»، كما كان يدعوه أبناء بلدِه؛ «صديقي»، كما دعاه بابا، فهِم وسحب غطاءً من الشفقة فوق كلماتي. قاد الشاحنة الملغومة إلى داخل السفارة الأمريكية في ١٩٨٣. لكي يحمي كلماتي، لكي يحميني ويحمي ذكرى يوسف من برودة حقيقة تلك الكلمات. رأيتُ ذلك في وجهه. التقت أعيُننا وتشابكت، إلى أن سقطت دمعتان ثقيلتان مثل مِرساتين، جذبني وزنُهما بعنف إلى مقعدي بينما اختفتا على البلاط الحجري الأحمر المَقدسي.

قادني «آري»؛ الشاب اليهودي في صورة زَفاف والدي، عبر ذكرياته الأخيرة عن أبي. أخذني على عربة يجرُّها ثور وكان والدي قد استعارها ليخبِّئ عائلة «بيرلشتاين» في رحلتهم المتأرجِحة إلى الجانب الآخر من الخطِّ الفاصل في القدس، قبل أن تُحتَلَّ القدس الشرقية. العلَم المرسوم باليد وعليه نجمةُ داود ـ والذي صنعه والدي من ملاءة سرير لأجل أسرة «بيرلشتاين»، ليلوِّحوا به للجانب الإسرائيلي عندما يَعبرون الحد الفاصل، لكي لا يظنوهم عربًا بالخطأ، فيُطلقوا عليهم النار ـ كان مخبأً تحت ثياب

بابا، بينما اجتاز المسارَ الخطِر. سافروا في ظلمة الليل، حين قام رجال ذوو عزيمة وتصميم بدَوريات عِمادُها الغضب، يحرسون بقايا السنين في وجه اليهود الذين بدَورهم كانوا يقومون بدوريات، مُرتدين الزي الرسمي لدولة ظهرت فجأة على الجانب الآخر، واكتملت بعزمهم وغضبهم.

بدأ «آري» حديثه:

ـ كان والداي خائفَين جدًّا من مجرد الحركة، حتى من أن يفتحا أعيُنَهما، لكنني واصلت المراقبة من خلال شقٍّ في جانب العربة. عندما نادى جنديٌّ أُردني، ملوِّحًا لأبيكِ، اعتقدت في لحظة عابرة أن حسنًا قد أعد فخًّا ليَخوننا في اللحظة الأخيرة. تحوَّل الخوف إلى شكٍّ داخل تلك العربة التي لا تختلف كثيرًا عن تلك التي تم تخزينُ كثير من صِبانا تحت ألواحها الخشبية وعجلاتها المتفاوتة. خطرت لي خطةُ خيانةٍ مضادة أقوم بها قبل أن تتم خيانتنا؛ بدأت أحاول الوصول إلى الخنجر الذي كان حسن قد أخفاه تحت بطانية في أعلى العربة، وقال لي: «فقط في حال احتجنا إليه».

توقَّف «آري». استنشق الذكرى اللاذعة قبل أن يُخرجها في كلماته، بينما امتدَّت يدا «دافيد» المرتعِشتان إلى حقيبته ليُخرج المشروب الذي يرافقه في كل وقت. أضاف «آري»:

ـ ولكن قبل أن أتمكَّن من مغادرة العربة، كنا نتحرك مرة أخرى. وغرقتُ في الخِزي لأنني فكَّرت فيما فكرت.

قابَلني «آري» وجهًا لوَجه بثبات. اتسعت عيناه وراء نظارته السميكة، وتابع حديثه:

ـ طوال بقية الرحلة ارتعدتُ من الخطأ الذي ارتكبتُه، خيانتي لصديق يجازف بحياته لإنقاذ حياتي. خيانة مني قبل أن تتم خيانتي. لا أتذكَّر الساعات

التي تلت، أو هل كانت دقائق. لكن سرعان ما توقَّف حسن ودلَّنا على مسار نسلكُه زحفًا إلى الجانب الآخر، وسلَّمني العلَم الذي بذل الجهد ليرسم عليه بنفسه النجمة اليهودية، النجمةَ الزرقاء نفسَها التي رفرفت فوق زوال بلاده.
لفَّ حسن ذراعَيه حولي قائلًا:

ـ أدعو الله أن نلتقي ثانيةً يا أخي.

كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي سمعتُه يقولها. أجبته:

ـ سامِحني.

ثم زحفت في طريقي مع والدَيَّ.

توقَّف «آري»، كما لو أنه يقول «هذا كلُّ شيء». في فراغ تلك الوقفة المجوَّفة كنت طفلة بين ذراعَي بابا أسأل عن «آري بيرلشتاين»، وأشاهد الصمت الحزين ليَدَي بابا تغلِقان الكتاب مغلِقتَين معه ذلك الفجر بالتحديد.
لا. ليس هذا كل شيء.

ـ بعد أن فقدَ بيتَه، وأرضه، وابنه، وهُويَّته بسبب الدولة اليهودية، جازف أبوكِ بحياته لإنقاذ حياتي وحياة عائلتي.

ذلك كان كلَّ شيء.

من زاوية عيني، كنت أستطيع رؤية وجه يعقوب يعود إلى موضعه بارتياح؛ فقد كان يقيس مدى قَبول أقربائه العرب من خلال مآثرهم تجاه اليهود. لقد وجدتُ الفتى مزعجًا، على الرغم من أنَّ سارة بدت ميَّالة إليه بصدق.

كنا منهكَين حين غادرنا مكتب «آري». كنت متعَبة من القصة. متعَبة من الماضي.

في أثناء الرحلة إلى «نتانيا»، طلبت إلى «دافيد» أن ينعطف انعطافًا طفيفًا. «إنه خارج قليلًا عن مسارنا»، قلت بلهجة أيرلندية، وأنا أقلِّد «جاك أومالي» الذي كان قد قال لي هذه الكلمات بالضبط، عندما أخذني إلى دار الأيتام قبل زمن طويل. لم يفهم أحد مغزى اللهجة، ولم أكلِّف نفسي عَناء الشرح. في وقت لاحق، سأخبر سارة كلَّ شيء عن «أومالي»، ودار الأيتام، والأخوات الكولومبيات، وحَيدر المديرة. سنحدثها، أنا وهدى، عن منزل وردة وراء شجرة الزيتون الثالثة بعد الأرزتَين التوأمَين على الطريق إلى الطَّيبة، وسوف ننام ليلة على السطح مع أولادنا كما فعلنا في مرحلة الصبا.

أحسستُ بطَيش وثقة. تَراءى لي أنَّ الأرض ترحِّب بعَودتي. وعلى الرغم من الاضطراب، شعرتُ أنه من الصواب أن نكون في بلادي. كان يمكنني أن أشعر بالمعنى يعود إلى تلك الكلمة التي أُفرغت من الأمل، وتُركت مثل أحرف مشدوهة. كنت هنا «آمال»، وليست «إيمي». قالت لي سارة، عندما كنا في جنين في اليوم التالي:

ـ كم سرَّني أن أسمع الناس ينادونك «آمال»، يا ماما!

وفي الخَلوة، الانعطافِ «الخارج قليلًا عن مسارنا»، حيث جدار حجريٌّ قديم قِدَمَ التاريخ يقسم جبل الزيتون مثل ستارة، وقفتُ على أرض أسطورية أُطل على القدس، تمامًا كما فعلت مع «جاك أومالي» في اليوم الذي قلت فيه: وَداعًا لِجنين. الآن أنا عائدة إلى جنين. كان الزمن يدور إلى الوراء.

تلك المدينة العتيقة بجدران مصنوعة من أسرار وأشجار مزروعة في الدم، بدتِ الآن فاقدةً للحياة. حول القدس وفي الضفة الغربية، تجد المستوطنات على قمَّة كل تلٍّ ـ بمروجها الخُضر المشذَّبة، وسقوفها الحُمر التي تنتشر نحو الوُديان مثل طفْح جلدي للأرض ـ تتناقض بقسوة مع البيوت العربية المتهالكة

في أسفل التل، حيث تفيض عليها مياه المَجاري من تلك المستوطنات، وحيث يقذف المستوطنون نفاياتهم في كثير من الأحيان على رؤوس الناس في تلك البيوت.

ارتفعَت فوق المدينة بنايات عالية شاهقة العلو أكثر مما ينبغي. مبانٍ تضم وحدات سكنية لليهود فقط، مستوطنات محصَّنة، وفنادق حادَّة الزوايا، وشُجيرات مستورَدة تُشرف مثل حراس سجنٍ على النوافذ والأبواب المقوَّسة لمبانٍ حجرية أصيلة.

ولكن، بغض النظر عن عملية «تهويد القدس» المسعورة، بدت البلدة القديمة باردة، بل حتى قاسية. وفي نهاية الأمر، غيرَ جديرة بشيء.

قالت سارة:

ـ واو!! إنها جميلة.

لا ليست كذلك، أردت أن أقول. إنها مجرد حجر.

لماذا تتوقف الكرامة والشرف على الحجر والتراب؟ جيلٌ، بعد جيلٍ، يَنزع أحشاءَ الأرض، ويبني منها صُروحًا تذكارية تدل على زمنهم، ليُقَولِبوا حلمًا فيه دلالةٌ ما على صلةٍ ما في هذا الكون الهائل، لتصنيع أهمية من عشوائية مطلَقة، لبلوغ الخلود من طريق الاستيلاء والسحق والاختلاس لأرض خالدة.

أفلتَت مني أفكاري:

ـ إنها مجرد حجر يا سارة.

قالت، ملتفتة إليَّ غيرَ مصدِّقة أنني كنت أقلِّل من شأن ما بدا مَهيبًا للغاية:

ـ حجارة تمثِّل التاريخ يا ماما. إنها رائعة!

ـ سوف أُريكِ شجرة زيتون في جنين ـ اسمُها السيدة العجوز ـ تتمتع بتاريخ أقدمَ من أسوار البلدة القديمة. إنها أبهى جمالًا، وأكثر تواضعًا، وأكثر أصالة من الحجر المنحوت هنا.

هكذا قلت وأنا أومِن فقط بهذه الكلمات وهي في طريقها إلى خارج فمي. ثم تابعتُ حديثي وأنا مجروحة بالحب لهذه المخلوقة الكاملة التي ولدتُها من جسدي:

ـ بل إنكِ أنتِ الرائعة يا سارة!

(٤٤)

أُحضُنيني يا جِنين

٢٠٠٢

كانت جنين في أخبار الآونة الأخيرة: «وَكْرًا للإرهاب»، «أرضًا تؤوي الإرهابيين»، «أرضًا مُنجِبة للإرهاب».

كانت جنين أعلى بناءً وأكثرَ ازدحامًا من تلك التي كنت قد غادرتُها قبل ما يقرُب من ثلاثين عامًا.

أكواخ مبنية فوق أكواخ. الحجر بدلًا من طوب اللبِن ـ «النمو العمودي» هو المصطلَح التقْني. كيلو متر مربع واحدٌ من إعانات الأمم المتحدة، حيث يعيش خمسة وأربعون ألفًا من السكان، أربعةُ أجيال من اللاجئين يُحشَرون عموديًا.

كان الجو مُفعمًا بالنشاط عندما وصلت. بدا كل شيء يتحرك وينطلق بسرعة، حتى الأطفالُ كانوا يلعبون بعصبية. لم يكن هناك ـ كما كان في صباي ـ رجال كبار في السِّن يجلسون على دِلاءٍ مقلوبة، يلعبون طاولة النرد بشيءٍ من الخمول والتكاسل. شبابٌ غسلوا أنفسَهم من الأحلام، ركضوا في الأزقَّة ببنادق مثبَّتة إلى أجسادهم. كانوا يستعدُّون لما هو حتمي، فيخزنون المواد الغذائية، وينصبون دفاعاتٍ، وشِراكًا مفخَّخة، وأكياسَ رمل في

وجه العاصفة المقبِلة. جعل الغضب والتحدي أيديَهم مترابطة، يسيرون في خطوات عسكرية يسار، يسار ـ يمين ـ يسار، من دون أي مكان يذهبون إليه إلا حدود تلك الرقعة ذاتِ الكيلو متر المربع الواحد من المساحة المتاحة داخل مخيم لاجئين أصبح أكثر ارتفاعًا. الاستشهاديون يُقفلون أحزمتهم، والعشاق يلفون أذرعهم، والفتيات الصغيرات يضمُمن رُكبهن، والأمهات يحشدن أطفالهن في أكثرِ الغرف انخفاضًا وأبعدِها عن الخطر.

كان اليوم ٣١ آذار (مارس) ٢٠٠٢.

في ٢٠ آذار (مارس) قَتل استشهاديٌّ سبعةَ إسرائيليين في الجليل، انتقامًا لقتل إسرائيلَ واحدًا وثلاثين فلسطينيًّا في ١٢ آذار (مارس)، فكان انتقامًا لمقتل أحد عشر إسرائيليًّا في ١١ آذار (مارس)، والذي جاء انتقامًا لقتل إسرائيل أربعين فلسطينيًّا في ٨ آذار (مارس)... وهلمَّ جرًّا.

بينما كنا نزور الماضي في مكتب «آري»، كانت دبابات الحاضر الإسرائيلية تقصف المقاطعة، مقرَّ قيادة ياسر عرفات في رام الله. وبينما كان ياسر عرفات محتجَزًا في غرفة داخل أنقاض مقرِّ قيادته السابق، حيث كانت نافذته تطلُّ على ماسورة دبابة إسرائيلية، أعلن السيد الرئيس «جورج دبليو بوش» أنَّ على عرفات أن «يوقف الإرهاب».

في وقت لاحقٍ بمنزل «دافيد»، طلبت سارة إلى خالها إسكاتَ التلفزيون الذي يبث صورةَ «تلك الأنا الضخمة المصحوبة بدماغٍ أصغرَ ما يكون»، على حدِّ تعبيرها، وقالت في إحباط مهتاج جدًّا:

ـ يمكن المرءَ أن يظن أنَّ المتطلِّبات اللوجستية لـ«وقْف الإرهاب» ـ مثل مبنًى سليم وقوة شرطة ـ قد تخطر على بال رئيس الولايات المتحدة. لكن لاااااا. ليس لرئيسنا. إنه يكرِّر كلمة «الإرهاب» كثيرًا حتى بدأتُ أظن أنها

حالة مرَضية؛ نوعًا من التشنُّج اللاإرادي اللفظي غير القابل للشفاء. إرهاب إرهاب إرهاب إرهاب!

ابنتي.

* * *

في اليوم التالي، كنا ندخل جنين، جنين المشغولة، عاقدة العزم والغاضبة. ليست جنين السلبية، المنتظِرة، التي تسلِّم أمرها لله، كما كانت في أيام صباي. أمسكنا، أنا وابنتي، كلٌّ بيَد الأخرى ماشيتَين في الأزقَّة المتلوية، والشمسُ ترتجف فوق جداول مياه الصرف. الموسيقى المنبعثة من داخل البيوت تناثرت على طريقنا وسمعتُ فيروز، صوتها يتسلَّق مثل الحرية نحو السماء ثم يدخلها:

لأجْلكِ يا مدينةَ الصلاة، أُصلِّي.

لأجْلكِ يا بهية المَساكن. يا زهرةَ المَدائن،

يا قدسُ، يا مدينةَ الصلاة، أُصلِّي.

عيونُنا إليكِ ترحل كلَّ يوم... تدورُ في أروِقة المَعابد.

تُعانِق الكنائسَ القديمة، وتمسحُ الحزنَ عن المَساجد...

توقَّفت، وبسطتُ ذراعَي لألمس جدارَي الزُّقاق على الجانبين، ومرَّرت راحتَي كفَّي على حجارة تلك البيوت الأشدِّ علوًّا، والأشدِّ قربًا بعضُها من بعض. قلت لابنتي:

ـ هكذا كنا نمشي دائمًا، أنا وهدى، عبر هذه الممرات.

كان الانفعال يبدو بكل وضوحٍ على سارة حين قالت:

ـ ليست لديكِ أدنى فكرة كم هو مثير بالنسبة إليَّ أن أكون هنا، في المكان الذي نشأتِ فيه. لا أستطيع الانتظار لأُقابل هدى وأسمع قصَصكما أنتما الاثنتين.

أُغنية أخرى الآن. أغنية ولَجت القلب، أولًا مع نحيب نايها، ثم بكلماتها لتوفيق زياد:

أُناديكم. أشُدُّ على أياديكم

وأبوسُ الأرضَ تحت نِعالكم...

وأقولُ: أفديكمْ

وأُهديكم ضِيا عَينَي...

ودِفءَ القلبِ أُعطيكم

فمأساتي التي أحيا نَصيبي من مآسيكم.

أنا ما هُنْتُ في وطني... ولا صَغَّرتُ أكتافي

وقفتُ بوَجه ظُلامي، يتيمًا، عاريًا حافي.

أُناديكم. أشُدُّ على أياديكم.

حملتُ دَمي على كَفي...

وما نكَّستُ أعلامي

وصُنْتُ العشبَ فوقَ قبورِ أسْلافي...

أمامنا قهقهَ بعضُ الأطفال لرؤية امرأتين ناضجتين تمرِّران أكُفَّهما على الجدران في أثناء سيرهما، وكأنهما بنتان صغيرتان. اندفاعٌ من دجاجات

منقِنقة محتجَّة تضرب بأجنحتها العديمةِ الفائدة، في محاولة للفرار من الأطفال الصغار الذين يطاردونها. بعض الأشياء ما زالت على حالها.

توفِّي كبارُ السِّن، وأصبح الشباب كهولًا، وصارت البيوت أعلى، والأزقَّة الضيقة ضاقت أكثر. وُلد أطفال رُضَّع، وذهب أطفال إلى المدرسة وطاردوا الدجاج، وانحنت أغصان الزيتون بالثمار. ومع ذلك، فقد ظل مخيم جنين للّاجئين كما كان، رقعةً من الأرض مساحتها كيلو متر مربع واحد، مستأصَل من الزمن ومحبوس في ذلك العام الذي لا نهاية له؛ عام ١٩٤٨.

صوتٌ من ماضيَّ زحف من ورائي. «أنتِ في جنين». صوتٌ جعل قلبي يتفجَّر بذكرى الحب. بذكرى الحياة. قلت، ملتفتةً إلى عينَي النمر في وجه هدى:

ـ هل ينبغي دائمًا أن تقولي ما هو واضح؟

تعانقْنا بكل جزء من جسدَينا، ونحن نضحك من خلال الدموع. قالت:

ـ لقد أصبحتِ بدينة.

ـ وكذلك أنتِ.

قالت، وهي تقلِّدني:

ـ هل ينبغي أن تقولي ما هو واضح؟

وجذبتُ سارة إلى عناقنا، ومضَينا، نحن الثلاثةَ، بمرحٍ في طريقنا إلى منزلها.

ونحن نمشي مُجهَدات صعودًا في الزقاق المائل نحو الكوخ الصغير الذي لا يبعُد كثيرًا عن المنزل الذي أمضَينا فيه صِبانا، قالت لاهثة:

ـ أنا فقط وأصغرُ أولادي، منصور، في المنزل الآن. اليهود أخذوا أسامة

الشهر الماضي. أمَّا جميل، أحدُ التوأمَين، فكثيرًا ما يأتينا للاطمئنان، ولكننا لا نعرف في معظم الوقت أين هو.

توقَّفَت، تنهَّدت تنهُّدًا عميقًا، وتابعَت:

ـ إنه مع المقاومة.

ثم أضافت وهي تفتح بابَ بَيتِها المَعدِني:

ـ اليهود قتلوا تَوأمَه، جمال، عندما كان في الثانية عشرة من العمر. لم يتعافَ جميل قطُّ من أثر موت شقيقه بين ذراعَيه على هذا النحو. تفضَّلوا، اجلِسوا، سوف أُعِدُّ بعض الشاي.

لمعَت عَينا هدى الجميلتان في وجهٍ انطَبعت عليه تأثيرات السنين وفُقدان طفلها. أيام الأمس التي تشاركناها مكثَت في عينيها الآن جنبًا إلى جنب جِنينَ الحاضر الأعلى والأكثر كثافة. كانت استمرارية صداقتنا مختزَنة في تَينك العينَين، وأنا بحثت فيهما لأجد الإحساس بالوطن الذي كنت أتوقَّع أنْ أشعر به في جنين؛ لكنَّ ذلك لم يحدث. هل تغيَّرتُ إلى ذلك الحد؟ كم كان غريبًا الإحساسُ بالتقاط خيوطِ ماضٍ هجرتُه منذ فترة طويلة.

نادت هدى أصغرَ أبنائها:

ـ منصوووووور!

في غضون دقائق، أحْنى شابٌّ طويل القامة وفاترُ الهمَّة ظهرَه ليدخل المنزل. تقبَّل وجودنا بنظرة عابرة؛ ليست جِلفة وليست مهذَّبة. ذراعاه تدلَّتا، كما لو كانتا مثقَلتين بيدَيه اللتين صبغهما طلاءٌ تناثر عليهما في كل مكان. قالت له:

ـ حبيبي، هذه عمتو آمال. لقد عادت أخيرًا. وهذه ابنتها سارة.

صافحَنا باليد، وهو ينظر عبْرنا، وغادر كما دخل، بالصمت الفاتر عينِه، حانيًا جسده ليُغادر من المدخل.

قالت هدى، خارجة من مطبخها الصغير مع صينية تحمل ثلاثة أكواب من الشاي الساخن وبعض البسكويت:

ـ هذا صغيري، منصور. إنه فنان. لكن لا تشعُرا بالاستياء؛ فمنصور لا يتكلم. لقد توقَّف عن الكلام عندما كان في السادسة.

في وقت لاحقٍ من ذلك اليوم شاهدنا، أنا وسارة، منصور يرسم لوحة جدارية لشهيد سقط مؤخَّرًا، ذلك الذي فجَّر المقهى في القدس. حرَّك ذراعيه بضربات طويلة ورشيقة بالفرشاة على طول جدار سيستقبل الغزوَ الإسرائيلي الوشيك. سرعان ما ظهر من الرسم وجهٌ لا ينطفئ، عيناه الواسعتان اللتان تبدوان أكبر من الحياة، تحدِّقان من تحت كوفية ملفوفة بإحكام حول العام ١٩٤٨ الذي توقَّف عنده المستقبل، نحو حرية الموت المتحدِّي الذي ينفجر في كَومة قذِرة من المجد.

مع أنه لم يتحدَّث إلى أي شخص، ولم يقدِّم أكثر من نظرة عابرة، كان منصور محبوبًا كثيرًا في المخيم. بدا أنَّ الجميع يعرفون اسمَه. توقَّف المارة لإبداء الإعجاب بعمله وترْبيتِ ظهرِه، والتمتمةِ بكلمات شُكر وأدعية خاصة للفتى ومَوهِبته. قالت سارة:

ـ إنه موهوب جدًّا، أليس كذلك؟

ولكنْ كان الأمر أكثر من مهارة فنية. إنَّه يكمن في صمْته. سكونٌ كثيف وسميك يوشك أن يتجسَّد. كان يرسم من أعماق صمْت هدوئه الذي يحوم حوله كقوة غير مرئية. وأضافت سارة:

ـ تُغضبني معرفةُ ما فعلوه به. كيف أمكنهم أن يُفلِتوا بهذا؟

في أثناء احتسائنا الشاي، كانت هدى قد قدَّمت لنا رواية موجَزة عن اختطافه وهو في السادسة من عمره، عندما اصطحبوه معصوب العَينين في الجزء الخلفي من سيارة جيب تابعة للجيش الإسرائيلي، وعاد بعد أسبوع مُقابل فِدية قدرُها خمسمائة دولار. قالت هدى من قبل:

ـ من بين جميع أطفالي، كان هو دائمًا الأكثر حساسية. الأكثر احتياجًا إليَّ.

كان عمِّي درويش قد أصبح أبًا محبوبًا في المخيم. أمكنني رؤية ذلك من عدد الناس في بيته؛ تعرَّف معظمُهم إليَّ عندما خطَوت عبر بابه. هتف أحد أبناء عمِّي متعجِّبًا وهو قادم ليُعانقني:

ـ هل أنتِ مَن أظنُّ أنها هي؟

قال آخر:

ـ الحمد لله الذي يجلب أحباءنا إلى الوطن من الغربة.

ـ الحمد لله.

ونهضوا جميعًا بانفعال للترحيب بي، لكنهم انتظروا باحترامٍ ليَراني عمِّي أولًا.

تقدَّمتُ نحو عمِّي درويش، وارتكزتُ على كرسيه المتحرك لأستقبل ذراعَيه الممدودتَين. أخذ عمِّي يبكي:

ـ يا حبيبتي يا آمال! أنتِ تحملين رائحة حسن وداليا إلى هذا البيت، حبيبتي! أنتِ تجلبين لي السعادة يا ابنتي الجميلة!

قبَّلتُ يده ثلاث مرات، ولمستُ بها جبهتي بين كلِّ قُبلة وأخرى.

امتلأ قلبي بالمزيد والمزيد من الحب والذكريات عندما قضينا، أنا وسارة، المساء هناك. كان عمِّي درويش قد أصبح عجوزًا وضعيفًا، لكنه استرد حيويته في تلك الساعات التي قضاها معنا. همس لي ابن عمِّي:

ـ لم أرَ والدي بمثل هذه السعادة منذ وقت طويل يا آمال.

لم أكن قد عرفتُ حتى ليلتِنا الثالثة في جنين، في ٢ حزيران (يونيو)، أن الحاج سالمًا كان لا يزال على قيد الحياة. قالت هدى:

ـ نحن نتناوب حمْلَ الطعام إليه كل يوم، تمامًا مثلما اعتادت أُمهاتنا أن تفعل. الأطفال هنا لا يعرفونه على النحو الذي عرفناه نحن. أنا لست على يقينٍ متى توقَّف عن سرد القصص. كان الأمر تدريجيًّا على ما أظن. يقضي معظم وقته الآن في تقطيع عِصيٍّ خشبية إلى رقائقَ بسكين جَيبٍ صغير، وهو السكين الذي نُبقيه عمدًا غيرَ حاد.

سأبدأ يومي غدًا بزيارته.

* * *

كنا داخلَ الأبواب في أثناء الليل. الأنوار في جميع أنحاء البلدة كانت مطفأة أو مَخفية بالستائر التي تغطِّي النوافذ. كانت إسرائيل قد شنَّت حملة قصفٍ على بلدة بيت لحم الصغيرة والقريبة، وحرَّكت مئات الجنود إلى بلْدات حول جنين.

ونحن مستكينون في ضوء الشموع وخلْفَ أكياس الرمل، استحضرْنا، أنا وهدى، الذكريات. كنا نُفرغ أعباءَ الذاكرة ومسرَّاتها لأولادنا، ونكتشف جواهر كنا قد نسيناها تقريبًا. صيَّرْنا بيتَ هدى في تلك الليلة، كوخًا من السعادة الصغيرة، في بحرِ قلَقٍ صامتٍ مساحتُه كيلو متر مربع واحد.

جالسًا مستريحًا على كَوم من أكياس الرمل، كان منصور يرسم على دفتر في الجانب الآخر من مكاننا، ويبتسم بين الحين والآخر. اختُزِلت مفرَداتُ سارة ثلاثَ كلماتٍ أساسية: «قولوا لي المزيد»، بينما قلَّبنا، أنا وهدى، أحداثَ حياتنا المشتركة، متذوِّقتَين طعمَها الآن عبر أطفالنا الذين كبروا: مَنزل وردة، وبَيت دُمْيتنا ذات الذراع الواحدة، وتسلُّق الأشجار، ولعبة الحجلة، ومجلات يوسف القذِرة، وعزلة بابا، والفجر، وماما، والحاج سالم، ومسابقات خَيط البصق، والحرب. دفعَتنا غريزة الأخوَّة الكامنة إلى شبْك أيدينا بعضها ببعض، كما كنا نفعل منذ أصبح لدينا الوعي، وسِرنا يدًا بيَد حتى نهاية ذكرياتنا. تضع سارة رأسها على زاوية كتفي، تلف ذراعَيها حَولي، كما لم تفعل منذ كانت أصغر من أن تتذكر. وبينما كان الجو في الخارج يُنذر وينبض بالموت القادم، اشتعلَت فيَّ جذوة الحب الذي أنكرتُه على نفسي وعلى هذه الصغيرة المثالية التي تستريح بين ذراعَيّ. خطر لي حينها أنني قد وجدت الوطن؛ فقد كانت سارة موجودة دائمًا. إلى أن قالت هدى:

ـ لنتوكَّل على الله ونحاول الحصول على قسط من الراحة. ليحفظنا الله ويحمِ ابني جميلًا أينما كان في هذه اللحظة.

وأغمضْنا أعيُننا في مكاننا حيث كنا نجلس، متَّكئين على الوسائد الأرضية وبعضُنا على بعض. مرت ساعات، ولكن بدا كأننا قد أغمضنا أعيُننا توًّا عندما صاح وابِلٌ من الأصوات في أنحاء المخيم المعتِمة:

ـ اليهود قادمون! اليهود قادمون!

اليهود قادمون.

في لحظة، دخل متعجِّلًا مخلوق فاتنٌ، وهو يحني جذعه العاري بلا قميص

ليتمكَّن من عبور المدخل. أضاء فانوسٌ في يده الخطوطَ الخارجية لعضلات صُلبة تحت جلدِه البُني. همس لهُدى:

ـ يُما، هل أنتِ مستيقظة؟ منصور، أخي، أين أنتَ؟

ونقر بإصبعه على مفتاح النور وهو يقول:

ـ لا بأس. اليهود لن يأتوا إلى هنا قبل ساعة أُخرى.

ساعة.

وعيناها ممتلئتان بالدموع، احتضنَت أعزُّ صديقاتي ابنَها. قبَّلته بحب محموم، قبَّلت كل جزء من وجهه الوسيم، لم تترك سنتيمترًا واحدًا من دون أن تمسَّه بمحبَّتها. عرفَت هدى أنَّ جميلًا قد لا يعود أبدًا بعد تلك الساعة. دفعني مشهدُ الوداع إلى الإمساك بابنتي؛ كِلانا يسحب نفسَه ودموعَه بعيدًا عن لحظة لم يكن لدينا أيُّ حقٍّ أن نكون فيها.

ـ منصور، أخي، إن حدث أيُّ شيء، فعَليك أن تعتني بماما.

قالها جميل، فاهمًا الردَّ الصامت من منصور.

عندما همَّ جميل بالمغادرة، حدث شيء استثنائي دام أقلَّ من لحظة خالدة أظنُّني كنت الشاهدة الوحيدة عليها. حين استدار ـ وعصابةُ رأس ذاتُ مربَّعات سودٍ وبيضٍ مربوطةٌ خلف رأسه، وعصابتا يدٍ حمراوان شيوعيتان تُبرِزان ذراعين في منتهى المثالية ـ وقعت عيناه الجامحتان المستديرتان السوداوان بالمصادَفة على سارة؛ نظرة محدِّقة احتجزت كلًّا منهما في مكانه. إلحاح غير متوقَّع، استرحام، حبٌّ مفاجئ يريد أن يكون، رغبة خيالية ما، لم يكن باستطاعة أيٍّ منهما تحمُّل تبِعاتها. واحة مألوفة بين غريبين تُلحُّ على كلٍّ منهما.

«اليهود! اليهود!» سمعنا، ونُفيت تلك اللحظة بفعل ذلك النداء للبحث عن ملجأ في مخيم اللاجئين. أطفأ منصور الأضواء ثم أشعل فانوسًا آخر، وعانق شقيقه. قبَّل جميل جبينَ هدى، فصرخت متضرِّعة:

ـ الله يحميك يا ابني!

ـ خالتي آمال، التي سُمِّيَت شقيقتي باسمها.

قالها جميل ببساطة مصرِّحًا بما هو واضح. لم تُتح لعَينيه لمحة أخرى لتلك الواحة التي تقف بجانبي.

بدلًا من ذلك شاهدتُ طيفَه يمر فوق جلد ابنتي، مثل ملاطَفة، مثل اعتذار، أسَفٌ قبل النهاية، أو طقسٌ للموتى.

مدَّ جميل يدَه إلى اللوحة الوحيدة المعلَّقة إلى الحائط، حمل الإطار قريبًا من وجهه، قبَّل الزجاج، وأعاد صورة جمال شقيقه التوأم، الذي ظلَّ إلى الأبد في الثانية عشرة من العمر.

ثم ذهب.

* * *

في الثانية بعد منتصف الليل، وصلَ هدير الدبابات المتدحرِجة، مثل خرخرة قِطٍّ وحشي. أمسكنا بعضُنا ببعض. إبريقُ الشاي المعدنيُّ الذي أصبح باردًا الآن بقيَ حيث ترَكناه. احتمى منصور بأحضان صمتِه. ظل يرسم. وجَّهت هدى حصيرتها نحو القِبلة وصلَّت بهدوء.

مع الوقت، جاءت أصوات أخرى: القصفُ الصاعق من الدبابات، صخبُ صواريخ المروحيات، رعدُ قنابل الطائرات، قعقعةُ الانفجارات.

اختلطت الأصوات المتناثرة للقوة العسكرية بالصمت المراوِغ، حيث يمكن سماع صرصرة تيـ تيـ تيـ تي من حشرات تركَت جحورها، وبكاءِ الأطفال الصغار، بينما ينتقل الجنود من بيت إلى بيت. علت وانخفضت أصوات الموت والدمار، واستمرت طوال الأيام التسعة التي أمضيناها في أكثر الغرف انخفاضًا وأبعدها عن الخطر. حفرة مثل حفرة المطبخ ولكن أكبر حجمًا.

التفتت إليَّ هدى:

ـ أتذكُرين؟

ـ أذكر.

عرفنا أنَّ البيوت والمباني التي بجوارنا قد سوِّيت بالأرض. هدير الجرَّافات زلزلَ الأرض تحتنا، فدبَّرنا خطة للخروج إذا أتَوا نحونا. لفَّت هدى رزمة صغيرة من الصور العائلية إلى جانب بطاقات هُويات عائلتها الصادرة عن وكالة الأمم المتحدة «الأونروا»، ودسَّتها في جَيب الصدر من ثوبها. أنا وسارة احتفظنا بجوازات سفرِنا الأمريكية؛ كلٌّ في حمَّالة صدرها. وظللنا جميعًا منتعِلين أحذيَتنا.

في خلال كل ذلك، احتفظتُ بابنتي قريبة مني في حلمٍ خاص، واقعةً في حبها وكأنني أنجبتُها هذه اللحظة ثانيةً. تحدثنا مدة تسعةً أيام، فككنا في أثنائها الكلام غير المنطوق على مدى عمر كامل. وفيما السماء تُمطر موتًا والرصاص يترشَّشُ على الجدران الخارجية لبَيت هدى، نزعتُ أنا وسارة ـ بالعودة إلى الوراء ـ الألمَ والمرارةَ اللذَين كانت كلٌّ منا متمسكة بهما، واكتشفنا تَوقنا المشترَك إلى ماجد على الرغم من، أو ربما، بسبب الرعب الذي أحسسناه.

ـ أردتُ كثيرًا جدًّا أن أعرف. أن أتحدث عنه إليكِ. لماذا حتى اليوم لم تتحدَّثي عنه؟

ارتجفَت دموع في حوافِّ عينَيها... عينَي ماجد، كُرَتَين سوداوين لا نهاية لهما، قوس كسول في الزوايا، وحاجب أمكنه أن يرفع نفسه عاليًا، مثل ابتسامة. النسخة المؤنَّثة من ماجد سكنت وجْه ابنتنا. في غبار الذاكرة، لم أتمكَّن من أن أجد شيئًا كاملًا، أجزاء منه فقط. تجعيدة معيَّنة، أو ندبة، أو خصلات شعرٍ في قاعدة رقبتِه. السماء والبحر يمتزجان ليصنعا شكلًا واحدًا. لكن ما استحضرتُه بالفعل كان رائحته. ندى عرَقِه بعد العمل وبعد الحب. بعد السنوات المتعددة، ظل ماجد عطرَ اللونِ الأزرق.

ـ أنا آسفة يا سارة.

فتحتُ يدي وأرخَيت فكي:

ـ كنت خائفة... خائفة جدًّا مما قد أشعر به.

وضَعتُ قلبي في يدَي المفتوحتَين:

ـ هل تذكُرين كيف كان عليه الحال عندما وقعت هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)؟

رفعَت حاجبها:

ـ أجل! أذكر أنكِ بقيت في غرفتك طوال اليوم التالي ولم تذهبي إلى العمل. اعتقدتُ أنَّ وقْعها عليك كان قاسيًا جدًّا وسوف أعترف بأنني لم أفهم السبب. ما علاقة ذلك بوالدي؟

من هناك جاء صوت يوسف، مظلومًا وحزينًا وغاضبًا وعاجزًا يعْبر أسلاك الهاتف قبل عشرين عامًا:

ـ كان والدك قد قُتل بالطريقة نفسها. قصفَت إسرائيل المبنى السكني الذي كان يضم شقَّتنا، عشية اليوم الذي كان سيغادر فيه بيروت للانضمام إلينا.

ها هو، جاء الكلام عبر قلبي وشفتَيَّ. لم تكن هناك روح انتقامٍ أو غضب أو يأس؛ مجرد ألمٍ عذبٍ، حزنٍ يمكنني طيُّه فوق قلبي، في يدَيَّ المفتوحتين، لإبقائه دافئًا.

احتضنَتني بحب وبإحكام:

ـ آه، يا إلهي!

ـ يوم هجمات أيلول (سبتمبر) حزنتُ ثلاثة آلاف مرة بعدد الضحايا. ثم حزنت على نفسي، امرأةً وحيدة ليس لها الإجلال الذي يُمنح لزوجات أولئك الذين سقطوا. وتوقير فقدهن، فقدان أطفالهن. كان شيئًا بليغًا ومَهيبًا، مثيرًا جدًّا للمشاعر ومشحونًا بالتضامن. وهناك كنت أنا، في المرآة مع القيمة المتباينة لحياة زوجي، والاستهتار بخسارتي. جهاز الـ«إف بي آي» حاضر دائمًا في مكان ما، الماضي يلوح في الأفق دائمًا. ولكن في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، واجهتُ اللحظات الأخيرة من حياة والدكِ. لقد رأيتُه في كل شخص حاول القفز من البناية، وفي كل جسد انتشَلوه من تحت الأنقاض. ورأيت نفسي كما لم يكن مسموحًا لي أن أكون قطُّ، أشعر بالعزاء، ومقدَّرة، ومحبوبة.

كانت سارة تبكي. تشعر بالذنب لأنَّ سلوكي في ذلك الوقت كان مثيرًا لحفيظتها.

ـ آه يا ماما. أنا آسفة جدًّا. لم تكن لديَّ أدنى فكرة. كنت عديمة الإحساس جدًّا. لم أفهم.

نظرتُ إلى ابنتي فتأكَّد لي، كالتأكُّد من شروق الشمس بعد غيابها، أنَّني أحببتُها بتَوقٍ وبعمقٍ أعمقَ من الزمن.

ـ اششششش، حبيبتي. لست بحاجة إلى أن تفسِّري أي شيء. لم أكن أمًّا جيدة. كان يجب عليَّ أن أخبرك. كان ينبغي أن نتحدَّث هكذا منذ سنوات. عليَّ أنا أن أتأسَّف.

جعلتنا الحركة في الخارج نقفز جميعًا. هدى قفزت من نومها. عدت إلى الحادية عشرة من عمري مجدَّدًا أختبئ في حفرة المطبخ. مرة أخرى نتكوَّم ونصلِّي، ومنصور يرسم. انتظرنا، تحقَّقنا وجودَ أوراقنا، جوازات السفر. الأحذية مُحكَمةُ الربط. جاهزون للهرب. مددنا أرجلنا؛ كلُّ تشنُّج عضلي بإمكانه أن يكون مهلِكًا. لكننا لم نقف؛ فالرصاص قد يأتي من خلال النوافذ. نتكوَّم، نتكوَّم في الغرف الأكثر انخفاضًا والأبعد عن الخطر. خوفٌ يتطاير من القلوب مثل الطيور الصغيرة في الهواء. صَو صَو، صَو صَو.

سارة كانت خائفة خوفًا فاقت به كلَّ شيء كنت قد رأيته على وجهها على الإطلاق. لونُ وجهها انسلَّ واختفى. ملَّستُ الشعر عن جبينها إلى الوراء، قبَّلتُهُ. قبَّلتُ وجهها، قبَّلت الخوف لأُبعِده. إلى أن خيَّم الهدوء مرة أخرى.

مضى الرصاص وعادت الدبابات والمروحيات إلى عالمها الخاص. هدوء، يشملنا كذلك. صرخة أو بكاء بين الفَينة والأخرى. ربما نتيجة جنود يتفقدون عملهم. هدوء، لولا زقزقة طيور الخوف في القلوب.

الآن استمر الهدوء فترة كافية. تنهَّدْنا في زفير مشحون، نافخين الطيور الصغيرة إلى زاوية، وبدأنا نهمس. ثم نتكلَّم. سألتني سارة:

ـ هل كان حبًّا من أول نظرة؟ متى وقعتِ في حب أبي؟

لكنني لم أستطع تحديد لحظة. كنت أُحس بأنني أحببت ماجدًا دائمًا. كيف للمرء أن يعرف اللحظة الأولى من الحب؟ متى؟ وفي أي لحظة، تصبح سماء الليل المظلمة زرقاء؟

ـ لا أعرف يا حبيبتي.

أجبتُ بصدق، لكنَّ تعابيرها طالبت بشيء آخر. بقصة.

ـ حسنًا، في أثناء ذلك المشوار من المطار. بعد أن وصلنا إلى المخيم، خرج أبوكِ من سيارته «الفيات» وقِطَعُ الحلوى تتساقط من قبضته لعشرات الأطفال المتجمعين حوله. لقد كان ذلك منظرًا آسِرًا...

واستقرت ذكرى زوجي، من الزُّرقة والحب والفقدان، بلطفٍ في حَنجرتي. سقطتِ الدموع من عيني. سقطَت رأفة بي.

ـ أخبريني المزيد يا ماما.

لم يدمِ الهدوء. سمِعنا الآن انفجارات أخرى يتبعها إطلاق نار متقطِّع.

الإرهابُ المستعِر حول جدران كوخ هدى الصغير، دفعَنا معًا نحو الروابط الرائعة للأم والابنة والصداقة. بدأت هدى:

ـ أتعلَمين؟ فاطمة كتبت لي عنك وعن ماجد. بدت سعيدة للغاية.

ثم سمحت هدى لعينَيها بالانخفاض نحو الأرض:

ـ لكنني لم أتسلَّم هذه الرسالة إلا بعد ذلك بعِدة أشهر، إلا... بعد...

ـ ألا زلتِ تحتفظين بالرسالة؟

ـ طبعًا! ها هي هنا، مع كل أوراقي المهمة.

قالت ذلك، وجذبت الرزمة من جَيب صدرها. أخرجَت قطعة مطوية من الورق البرتقالي، فذكَّرتني بالدفتر البرتقالي الذي احتفظَت به فاطمة في خزانة مطبخها؛ تفصيلةٌ ثابتةٌ في ذكرياتي عن لبنان.

فضَضت ثنايا الورقة، وقرأت كيف كانت فلسطين تنمو بسرعة، وكيف كان يوسف يعمل ويقلق كثيرًا، وكم كانوا سعداء بأنني معهم في لبنان! تحدَّثت الرسالة عنا، أنا وماجد، وأشادت فاطمة بمهاراتها في التوفيق، ناسبة إلى نفسها في رسالتها كاملَ الفضل في زواجنا. كانت قد تلقَّت توًّا نبأ حمْلها الثاني وكتبت تقول: «لن تصدِّقي هذا، ولكنَّ آمال حامل أيضًا. متوقَّع أن تلد في أيلول (سبتمبر)، أيضًا». وكتبَت عن اشتياقها إلى هدى، وشوقِها إلى عائلتها في فلسطين. «يومًا ما»، قالت، مختتِمة رسالتها:

> إن شاء الله. يا رب، سنكون معًا يومًا ما. جميعُنا. يوسف، أنا والأطفال، آمال وماجد مع أطفالها، أنت وأسامة مع أطفالكما. أنا أحلم بهذا اليوم.
>
> مع حبي...
>
> فاطمة

في اليوم السابع أخذوا منصورًا. فجَّر جنودٌ قُفلَ البابِ المعدني واقتحموه، ودخلوا كنزيفٍ غزيرٍ بأعداد كبيرة. بينما نهب اثنان من الجنود المنزلَ، أجبَر أحدُهم منصورًا على خلع ملابسه باستثناء الداخلية. نظرْنا بعيدًا في محاولة غير مجْدية لإنقاذ بعضٍ من كرامته. عصَبوا عينَيه وقيَّدوا يدَيه. ثنى صمتَه فوقَه ليكسوه مثل معطفٍ وهم يأخذونه، تاركًا رسومَه تتناثر في منزله.

قالت هدى من دون بكاء:

ـ الله معك، يا بني!

لقد نفدَت منها الدموع على ما أعتقد.

ـ منصور سوف يرجع. سوف يضربونه. إنهم يفعلون ذلك دائمًا. ويعود دائمًا.

قالت ذلك لنفسِها، في الغالب.

دائمًا. كلمة من المفيد أن نؤمن بها.

جمعنا فنَّ منصور في كومة صغيرة من الأوراق. كومةٍ كان فيها العالم كما رآه هو: هُدى تصلِّي، سارة تستريح بين ذراعَيَّ، جميل منتصِر في المعركة، صورة جانبية لسارة، جميعنا مُكِبون على وجبة صغيرة بينما ملاكٌ يحلِّق فوقنا ليحرُسنا.

بقيَ القليل من الماء الثمين، وأَوشك الخبز لدينا أن ينفد. ماذا يحدث؟ لم نجرؤ على إزالة أكياس الرمل عن النافذة لننظر إلى الخارج، وكنا خائفين جدًّا من الاقتراب من الباب المعدني المشوَّه، الذي وفَّر لنا ثقبًا للمراقَبة.

ولكنَّ الوضع كان هادئًا الآن بعض الوقت. قريبًا، سوف يتجوَّلون مع مكبِّرات الصوت سامحين لنا بمغادرة منازلنا. لكنهم لم يفعلوا وقد نفد الماء لدينا وأتينا على الخبز. علمنا أنه لا بُد أن يأتي أحدٌ قريبًا، لإخلاء المكان من الموتى الذين أجبرتنا جثُثهم غير المرئية على التنفُّس من خلال قطَع قماش مغموسة في ماء الورد.

أصبحَت الرائحة لا تطاق. كانت العلامات التي أحْدثناها على الحائط تشير إلى مرور يومين منذ توقُّف القصف، لكننا لم نستطع رؤية أي شيء من خلال الثقب في الباب المعدني. حامت في الجو سحابة لا نهاية لها من الغبار ومن حُطام البيوت المدمَّرة.

لعقْنا آخِر قطرات من ماء الورد، وكسرنا الزجاجة لنحصل على آخر نقطة، ونمنا. قلت لهدى:

ـ لا يمكن أن يسمح العالم باستمرار هذا.

سألَت هدى بسُخرية، وبطريقة بلاغية، وبمرارة غير معهودة:

ـ «العالم؟» منذ متى يهتم هذا «العالم» الملعون بشأننا؟ لقد كنتِ بعيدة فترة طويلة يا آمال. اخلُدي إلى النوم. تبدين إلى حدٍّ بعيد مثل أمريكية.

بتلك الكلمات، سحبت هي وحكمتُها الغطاءَ على أنفها وأغمضت عينَيها. في الفجر التالي، ارتفعت الشمس فوق ضباب مخيمٍ لاجئين تم تدميرُ القسم الأعظم منه. سمعتُ صوت سيارة كبيرة. سيارة إسعاف للهلال الأحمر. تركت رسالة بأنني سأعود مع مواد تموينية من شاحنة المساعدات، وخطوت إلى الخارج مغطِّية وجهي من هجوم الضوء والغبار. واصلتُ سَيري وسط سكون مخيف كصمْت المقابر، حيث الأصواتُ الضئيلة لأرواح تلاشت، وحكاياتُ صغيرة نُفيَت، زحفت من الأرض صاعدة على قدمَيَّ كالنمل.

ظننت أنَّ الأمر قد انتهى. اعتقدتُ أنَّ الإسرائيليين قد ذهبوا. كان الهدوء سائدًا. ظننت أنَّ السيارة التي سمعت صوتها هي سيارة إنقاذ، شاحنة إعانات.

كنتُ مخطئة.

لقد كانت شاحنةً عسكرية إسرائيلية. رأيتها تتوقَّف في المقدِّمة وسط مرجٍ من الركام حيث كانت مئات المنازل عامرةً قبل أيام فقط. كانت أرضية الشاحنة مثقَلة بأجساد لا حياة فيها ومكدَّسة واحدًا فوق آخر، مثل ألواح الخشب. كانت الشاحنة متوقِّفة لرفع جثة مشوَّهة لفلسطيني، كان معلَّقًا

ميتًا على وتدٍ معدني ناتئ على جانب مبنى مهدَّم جزئيًا. كانت عصابةُ رأسٍ ذاتُ تربيعات سودٍ وبيضٍ لا تزال تتشبَّث برأسه، وحَول ذراعَيه عصابتا يدٍ حمراوان شيوعيتان، وهي رموز جوَّفها الموت المصطفُّ كألواح الخشب فوق الشاحنة.

وفهمتُ مدى خطئي. بحذرٍ، حرَّكت عينَي فقط، نظرت إلى الأعلى فرأيت القنَّاصة. لا يزال اليهود هنا.

كليكْ. كليكْ.

التفتُّ برعب شديد صوب التكتكة المعدنية، فشعرتُ بفوهة بندقية على جبهتي قبل أن أرى الوجه الشاب للجندي الواقف أمامي.

صنعت اللحظةُ لنا فضاءً، دافعةً الغبار بعيدًا، ووضعَتنا معًا.

* * *

ها نحن هنا الآن. أرى عدستَيه اللاصقتين تسبحان في عينيه، والعرق يتدفق على جبينه.

أشعرُ بصفاءٍ لا يمكن تفسيره. الموت يغمرني في يقينه واحترامه وسكينته المستحقة قبل أن يأخذ بيدي.

لكنه لا يطلق النار.

عيناه تَطْرِفان بشِدة. وقطرة عرقٍ وحيدة تنتقل من حاجبه نزولًا على صفحة وجهه. أُراقِبها تسقط وأُلاحظ بشَرته الملساء، لا يزال أصغر بكثير من أن يحتاج إلى حِلاقة منتظِمة.

هذا النفوذ على الحياة عبءٌ صاعق على شابٍّ بهذا الصغر. يعرف ذلك

ويريد أن يتخلص من ذلك العبء. إنه أكثر وسامةً من أن لا تكون له صديقة تنتظر عَودته بقَلق. كان سيفضِّل أن يكون معها بدلًا من أن يكون مع ضميره. مع عبئه أو معي.

أنا أعرف أنه قد قَتل سابقًا، وهو يعرف أني أعرف، لكن لم يسبق له أن رأى وجهَ ضحيَّته قطُّ. عَيناي الرقيقتان بحُب الأُم وبهدوء امرأة ميتة تُثقِلان نفوذه وأظن أنه سوف يبكي. ليس الآن. لاحقًا. عندما يكون وجهًا لوجه مع أحلامه ومستقبله.

أشعر بالحزن لأجله. الحزن لأجل الصبي المكبَّل إلى القاتل. أنا حزينة لأجل الشباب الذين يخونهم قادتُهم من أجل رموز وأعلام وحرب ونفوذ. فكَّرت لحظةً أنه قد يكون ابن أخي. ولكن لا. لا توجد لدى «يوري» شكوك في شأن واجبِه في القتل من أجل إسرائيل. هذا الجندي ليس ابن أخي.

غريب، غريب، هو وسيم وأنا مُحِبة.

أهكذا رأى يوسف «دافيد»؟ بحبٍّ لا يمكن تفسيره؟

آه، «دافيد»! أخي. أراك بوضوح الآن. لقد عشتَ غريبًا داخل ذاتِك. بحثتَ سنوات لتعثر عليَّ، من دون أن تستسلم قطُّ كلما أوصَلك دليل على عائلتك إلى قبرٍ أو إلى عُنوان أسود. ليس في أي مكان؛ بل في التحرر الموَقَّت للكحول، أمكن أن يجد قلبُك السكينة. بحثتَ لأجل الأمل الوحيد الأخير أنني أنا، شقيقتك، قد أجتازُ الهاوية إلى أعماق عُزلتك بالإرادة الفريدة لأولئك الذين لا يمكنهم أن يجدوا مكانًا ينتمون إليه. وعندما عثرتَ عليَّ، لم أقترب منك بما يكفي. اعترفتَ أنت بعارك وبذنوبك، ولكنني أبقيتُ نفسي فقط جاثمة على ألمي الخاص وجلستُ في صمْت. آه، يا أخي! أشعر بتجدُّد، باقتراب ميلاد جديد. سوف تبدأ بصفْحك عني. سوف أذهب إليك

عندما ينتهي هذا الأمر. سوف ينتهي الأمر عاجلًا. العالم لا يمكن أن يسمح باستمرار هذا. الخراب هنا يستعصي على الإدراك. إسرائيل لا تستطيع التستّر على جرائمها بأي شكل. هذا لن يحدث. العالم سوف يعرف في نهاية المطاف. الأمور ستتغير. سوف أرجع إليك قريبًا وأتوسَّل لأجل عفوك. أنتَ لحمي ودمي. أنت ابن حسن وداليا. حفيد يحيى وباسمة. أبٌ لاثنَين. أريد أن أتحدَّث إلى هذا الجندي الذي لا تزال بندقيتُه مصوَّبة نحوي. ولكن ماذا لديَّ لأقوله؟ وهل للكلمات أن تُلغي ضخامة الحياة والموت لتُقرِّبهما، الواحدَ من نقيضِه، إلى هذه الدرجة؟

أُغمض عينَيَّ، حياتي كلُّها تومِض بشكل متقطِّع، تتوهَّج وتتَّخذ شكلًا. لقد ارتكبتُ كثيرًا من الأخطاء. أنا لم أُحِبَّ بما يكفي! أنا لم أُحِبَّ بما يكفي!

يصرخ صوت:

ـ لاااااااااااا!

أعرف أنها هدى، بينما أشعر بعينَي تَجحظان في رعبٍ لرؤية ابنتي التائهة مكشوفة للقنَّاصة.

أنسى أمرَ الجندي والبندقية على رأسي.

أستطيع الطيران. أُقسم بذلك. أطير إليها.

أُلقي بنفسي فوقها، سعيدةً ببَدانتي لأن وزني دفعها إلى الأسفل.

أنا سعيدة بشكل لا يصدَّق. مبتهجة لأن القنَّاصة لم يرَوها، ولأننا بأمان على الأرض. منخفضتَين تحت غيوم الغبار.

في مكان ما في البعد، ينبثق الأذان في السماء مثل باقة من الزنابق الحزينة. «الله أكبر» يتردَّد إيقاعها في أنحاء المكان وفي الرائحة العفِنة لهذا الدمار.

في صداها يمكنني سماع الأغنية المشرِقية المقيَّدة بالأغلال. أنظر إلى عينَي ابنتي الخائفتَين تحتي، وينهِكني الدفء. أنا أهذي بحبي لابنتي. فتاتي الصغيرة النفيسة.

سارة. أجمل أغنية في حياتي.

سارة هي وطني.

أنا منهَكة جدًّا إلى حدِّ عدم الحركة. أهمسُ لها: «أُحبُّك». أحلمُ بأن أكبر في السِّن مستمتِعة بصخب حفيدَينا، أنا وماجد، اللذينِ قد تُنجبهما يومًا ما.



نهاية وبداية



(٤٥)

فداء ابنتي

٢٠٠٢

رصاصة قتلت آمال.

حتى عندما فاضت آمال خارج جسدها، وتجرَّدت عيناها منها، ماتت من دون أن تعرف الموت. ماتت بفرحة أنها أنقذت حياة ابنتها. بأفكار من الرضا وبحب. ماتت كهمسة؛ كأنَّ الموت نفسَه خجِل إزاء انكشاف قلب جريح فلم يشأ أن يُفسد تلك الرقة بإعلان وجوده. فغنَّى لها ليُهدهِدها.

ذلك اليوم هو اليوم الذي تتجمَّع فيه سنواتُ سارة العشرون، منقِّبة في لحظاته بحثًا عن أجوبة، عن هدف، أو عن الإرادة لتعزيز ذِكراه، أو لتحصين الذهن من تذكُّره.

ذلك الضباب المتكاسل لذلك اليوم.

عمْقُ عطشهن.

الغبار الغامض والمروِّع العالق في الجو مثل طحالب.

لم تعرف سارة لماذا خرجت أمُّها في ذلك اليوم. هل كانت هناك حقًّا سيارة إسعاف؟

حين خطَت سارة عبر الباب للوصول إلى والدتها، كانت عيناها قد تفتَّحتا توًّا من داخل حلم. كانت تحلم بحفلتها الموسيقية التي عزفت فيها على الكمان قبل عيد ميلادها العاشر. عندما نظرت إلى الجمهور رأت وجه أمِّها رقيقًا في هالة من الفخر. هل تذكرين يا ماما؟

ولكن في حلمها، عزفت لجمهور من اثنين فقط؛ آمال وماجد، اللذَين صدر عنهما تصفيقٌ مدوٍّ ضخَّم مسرح حُلمها. كان وجهُ ماجد هو وجهها. حاولت سارة طوال حياتها إعادة تكوين ملامح والدها من انعكاس صورتها هي. «إنكِ تُشبهينه إلى حدٍّ كبير»، قالت آمال ذات مرة لابنَتها. هل تذكُرين عندما قلتِ لي ذلك يا ماما؟ أنا أذكُر. كان لي من العمر خمس سنوات.

في حلمها انحنت لكِلَيهما. فجأة، ظهر جدَّاها، داليا وحسن، وخالها يوسف، وفاطمة، وابنةُ خالها فلسطين، وجَدُّ والدتها يحيى، وجَدَّة والدتها باسمة، عين حوض وخيولُ عمٍّ والدتها درويش، وكلُّ الوجوه والقصص التي أشبَعت أوقات سارة مع أُمها في تلك الأيام في جنين. انضم أسلافها في التصفيق لها، ثمرة نسْلِهم. لعْلعَت القاعة بثنائهم، ثم سقط المنظر الطبيعي الخصب لعين حوض في خلفية المسرح. يتصاعد التصفيق إلى صوت مثل الرعد هل كانت تلك سيارة إسعاف الهلال الأحمر؟ ـ وتَصدَّع قلبُ حُلمها، حين رأت مشهدًا جانبيًّا لوالدتها تقف في الخارج، في الواقع الذي يتسرَّب ويقترب. وهكذا، واصلت مشيها وهي تغادر المسرح، في اتجاه آمال وماجد الذي لم يعد وجهُه بعد الآن وجهَها، بل وجهَ إسرائيليٍّ تحت

خوذة جندي. سارت نحو أُمها بين الأناقة المسترخية لحفْلها الموسيقي لعزف الكمان، والدمارِ الفظيع لجنين. كانت تقترب من آمال وسط ترنُّح حلمٍ يقظة.

ثم جاءت الصرخة، ووجدت نفسَها مستيقظة تحت ثِقل والدتها.

أنتِ أجمل الأمهات.

لا تستطيع سارة أبدًا أن تنسى تلك الدقائقَ الأخيرة من حياة أُمها. عشرَ دقائق على الأقل، ربما ساعة، في أبدية ليست طويلة بما فيه الكفاية. إنها تتكرَّر في ذِهنها وهي تسجِّلها في الرسائل التي تكتبها إلى أُمها الراحلة؛ على موقع على الإنترنت ليَراها العالم:

> وجهُكِ ينظر إليَّ. كلمةُ «أُحبُّك» متشكِّلة داخل شفتَيك شبهِ المتباعدتَين، المتشققتَين من العطش. ولكنْ لا يصدر عنك أيُّ صَوت. أريدُ أن أقول لكِ إنني أعلمُ أنك كنت تأتين إلى غُرفتي ليلًا، عندما كنتِ تظنين أنني نائمة، لتضَعي ذراعَيك حَولي. أعرف أنكِ أحببتِني. أريدُ أن أقول لك هذا. كانت أنفاسُك دائمًا مليئة بالحُب، وكانت مليئةً بالأسى. أريدُ أن أقول لكِ هذا، لكنني مذعورة، لأن لديَّ الآن الدليلَ المطلَق على أنكِ أحببتِني أكثر مما أحببتِ الحياة. أتساءَل ما الذي تفكِّرين فيه. أنا محتاجةٌ إلى عفوك. أنا بحاجةٍ إليكِ، وأتوسل إلى الله ألا يأخذَك. ليس الآن. ليس على هذا النحو.

* * *

رصاصةُ القنَّاص التي كانت تستهدف سارة، اتَّخذَت لها ملجأ في جسد آمال، وأفرغت الحياةَ من أحشائها في بِركة دمٍ دافئة وداكنة غطَّت حلمَ سارة،

وكلَّ حلم رأته منذ تلك اللحظة فصاعدًا. وإلى أن انتهى الحصار بعد ذلك بأسبوع، كانت سارة مغطَّاة بدِماء أُمها. الجنديُّ الذي رفع بندقيَّته في وجه آمال، سحب سارةَ من بين ذراعَي أمِّهَا الخاليَتين من الروح. قاومته لكي تبقى. طلبَت إليه أن يطلق النار عليها. في حالة الصدمة التي انتابتها، رأته مفاجأً لكونها تتحدث الإنجليزية. بينما كان الجندي يجرُّ سارة ليُعيدها إلى منزل هدى، قال وكأنه يتحدث إلى نفسه بإنجليزية مرتعشة ومكسَّرة، إنه «لا يستطيعُ إطلاقَ النار بعد الآن».

أعطى الجنديُّ سارة وهدى قِرْبةَ الماء التي له، وبعد يومين جلب لهما أُخرى، وأرشدهما إلى المكان الذي سيعثُران فيه على جثة «المرأة» عندما «يُفتح» المخيم. كان قد أخفى جثة آمال تحت شُجيرة زيتون مقتلَعة. قدَّم لهما الطعام، وما يكفي من الماء لتَشرباه في أثناء الحصار، ولكن ليس ما يكفي لغسل دماء أُمٍّ عن جِلد ابنتها.

عندما رُفع الحصار، اندفع المراسِلون الصحافيون بأعداد كبيرة إلى المخيم. تبع ذلك دخولُ الطعام والماء، وبدأ الناجون يبحثون بعضُهم عن بعض، وعن موتاهم، وعن ممتلكاتهم، وعن إرادتهم. كتبٌ مدرسية، فرْدات أحذية، أوانٍ تبعثرت بين البيوت المدمَّرة. الحاج سالم لم ينجُ. كان جيرانٌ فارُّون قد حاولوا إخراجَه، لكنَّ الجرَّافة المتقدِّمة لم تكن لتتوقف، وبوَزنها الهائل دمَّرت القسم الأعظم من منزل الرجل العجوز وهو لا يزال في داخلِه. عندما سمعَت سارة هذا، بكت وكتبت إلى أُمها الراحلة:

هل تعرفينَ يا أمي أنَّ الحاج سالمًا قد دُفن حيًّا في بيته؟ هل يروي لكِ الآن قصَصًا في الجنة؟ أتمنى لو كانت لديَّ فرصة لمقابلَته؛ لأرى ابتسامته العريضة الخالية من الأسنان، ولألمس بشرتَه الجافة، ولأتوسَّل إليه، كما فعلتِ في صِباك، من أجل

قصة من فِلسطينِنا. كان قد عُمِّر أكثرَ من مائة سنة، يا أمي. أن يعيشَ المرءُ هذه الفترة الطويلة، لكي يُسحَق فقط حتى الموت بواسطة جرَّافة؛ هل هذا ما يَعنيه أن يكونَ الإنسانُ فِلَسطينيًّا؟

* * *

نيسان (إبريل)، شهرُ الزهور، أبقى سارة إلى الأبد بين ذراعَي والدتها. هو الشهر الذي وقعت فيه أُمٌّ وابنتُها في الحب مجدَّدًا، وظلَّتا مستيقظتَين طوال الليل تتحادثان، بينما حام الحقد بضَراوَته خارج الجدران التي تحميهما. هو الشهرُ الذي عثرت فيه آمال أخيرًا على الوطن في عينَي ابنتها. موقعُها على شبكة الإنترنت هو المكان الذي تسجِّل سارة عليه ذكرياتها عن ذلك الشهر، الشهر الذي تأتي منه كلُّ الأشياء وإليه كلُّها تعود. الشهر الذي عبْره تحبُّ سارة وتكره.

سوف تعود سارة إلى «بنسلفانيا». هذا مؤكَّد؛ فهي قد كتبت كثيرًا جدًّا في موقعها على الشبكة، لذا وضع الإسرائيليون اسمها على قائمة ضمن مَن يمثِّلون «تهديدات أمنية». لا يوجد مكان للاختباء في هذه الأرض، حيث يتم اقتلاع كلِّ شيءٍ حتى الظلال. ولكن قلب سارة لن يغادر جنين أبدًا.

جالت هدى في المخيم في حالة من الذهول. ذلك المكانُ: حيث ولِدت، حيث تعرَّضت للإيذاء والترويع، ووجدت الحبَّ والدلال، قد دُمِّر مرة أخرى. ما تبقَّى من حياة الناس يبرز من بين أمواج من الخراب. هامت هدى، باحثة عن شيء تجده. بُرنُس حمَّام لامرأة لا يزال معلقًا إلى حائط الحمَّام الذي لا يزال قائمًا بين الأنقاض. كان هذا البُرنس لصديقتها وجارتها. هو الآن محضُ ذكرى ثمينة، لكنها تركته في مكانه. يدُ إنسان، لا يظهر منها للعِيان إلا أصابعُها ناتئةً من الأرض. شخصٌ ما دُفن حيًّا. سارت هدى بحذر شديد

حول اليَد، وهي تُتمتم بالفاتحة لروح صاحب اليد وروح المدفون حيًّا. حذاء فتاة صغيرة. كتُب مدرسية في كل مكان، ممزَّقة ومطبوعة عليها آثارُ جنازير الدبابات. دُمية. التقطَتها هدى. كانت لها ذراعٌ واحدة فقط. جلست هدى ببطء على الأرض، والدمية ذات الذراع الواحدة في يدَيها. نظرت إليها. حدَّقت إليها طويلًا. شعرت بدَوران الزمن في قلبها، ورأت نفسها فتاة صغيرة مجدَّدًا. جعلها ذلك تبتسم بحزن لا مثيل له. مرَّرت يدها على رأس الدمية، وهي تملِّس شعرها المتلبد بحركة متكررة جدَّدت تدفُّق دموعها. بكت بنشيج خفيض، كأنه صوت قلب ما زال ينكسر وينكسر. أغلقت هدى عينَيها وتمتمت بلا صوت: آه، يا الله، ساعِدنا جميعًا على اجتياز هذه الحياة!

عند الدفن فقط صرخَت هدى. انتحبت فوق جُثمان صديقة طفولتها. كان الجثمانَ الوحيد الذي أمْكنها دفنُه. لم يُعثر على جميل مُطلَقًا. عرفَت، كما تعرف الأمهات، أنه كان مقدَّرًا لابنِها أن يُقتل. ولكن كيف يمكن قلبَ الأُم أن يستعدَّ حقًّا لذلك؟ صرخَت فقط. صيحة بدائية في السماء الصافية. قسَمات وجهِها تتجعَّد وتتلوَّى بحبِّ الأطفال وبموتهم. غرست هدى أصابعَها في الأرض فوق القبور، تجبل التراب كما لو كانت تداعب المصير نفسَه، قابضةً على حفنات من ألمها وقاذفةً إياها في الهواء وعلى وجهها. جلست في مكانها مغطاة بالتراب، باكية.

«دافيد» أيضًا كان هناك. وقف بهدوءٍ بالقرب من هدى إلى جانب الصفوف السبعة الطويلة من القبور. كانا واحدهما يعرف الآخَر جيدًا، لأن هدى هي من أعطت «دافيد» الأسماء والإشاعات عندما جاء يبحث عن عائلته. ولكنهما الآن لم يتكلما. لم يتكلم أحد.

الرجال القلائل المتبقُّون في جنين حفروا القبور. الأطفال راقبوا بفُضولٍ

بينما أُنزلت الأجساد المكفَّنة في الأرض. النساء رفعنَ التراب عن القبور وقذفْنه بقوة على وجوههنَّ، ندَبن بأصوات بدائية مرتعِشة لم يشهدها العالم.

بكى «دافيد» بصمْتٍ. وقف إلى جانب جسد شقيقته، برَزانة معذَّبة، تفوح منه رائحة الرغبة في الكحول. على الرغم من أنه لم يُصدر أيَّ صوت، فقد كانت قوة حزنه الشديد تحوم فوق القبور كمطر لا يستطيع الهطْل. نبعَت دموعُه من داخل عزلة لم يكن من الممكن غمرُها، ولا زعزعتُها، أو لمسُها.

«آري» لم يقف. جثَمَ تحت وطأة الأسى فوق قبر آمال، وتكلَّم معها برفقٍ هامسًا لجسدها:

ـ خذي هذا. أنا مَدينٌ لوالدكِ بحياتي. قولي له، لم يكن لي صديق أفضل منه بتاتًا.

وشاهدَت سارة «آري» وهو يُسقط دبوسَ الزينة ذا الثماني عشرة لؤلؤة فوق جسد أُمها المكفَّن.

دبوسُ الزينة الخاص بالسيدة «بيرلشتاين» دُفن معكِ يا أُمي.

عندما أنْهكَتهم الساعات وزادتهم عطشًا، أفسح النحيبُ الطريقَ للصمت الكئيب والحزن المتعَب. سار «آري» وهو يعرُج بين حشد المشيِّعين وصلَّى مع المسلمين صلاة الجنازة. تلَوا الفاتحة، وغمروا وجوهَهم بأياديهم المرفوعة مثل الكؤوس، وهم يزفرون «آمين».

قال «آري» لسارة في وقت لاحِق:

ـ جَدُّك هو الذي علَّمني الصلاة.

قالت:

ـ أتمنى لو كنتُ قد عرفتُه.

ـ سوف أُخبركِ كلَّ ما أتذكَّر. لقد عرفتُ جَدَّك منذ كان صبيًّا، وكنت إلى جانبه عندما تزوَّج جَدَّتك داليا. أستطيع أن أحدِّثك حتى عن والدَيْ جَدِّك، الحاج يحيى والحاجة باسمة. إن شئتِ، يمكنني أن آخذك إلى عين حوض وأرتِّب جولة لتعريفك إلى جذورك. لم أعُد إلى هناك منذ كنت صبيًّا. ستكون شاعرية العودةُ إلى هناك الآن مع حفيدة حسن. ستكون كذلك حقًّا. سوف تُسْدين إليَّ خدمة كبيرة بأن تأتي. هذا الأمر سوف يُسعد جَدَّك حسنًا، أينما كان. أنا مَدينٌ له.

* * *

قصصٌ من جنين أخذت ترْشح خارجًا إلى البلدات المجاورة. مشهدُ شابٍّ متدلٍّ من عمود معدني، عليه عصابةُ رأس وعصابتا ذراعين تشيران إلى أنه مُقاتل. قصة رجل عجوزٍ، حاجٍّ ابن مائة سنة سُحق حتى الموت داخل منزله الذي دمَّرته الجرافات. تلك القصة عن الفلسطينية ـ الأمريكية التي قُتلت وهي تحمي ابنتها. هذه المرأة كانت قد نجَت من رصاصة إسرائيلية في صباها، وماتت بالرصاصة التي استهدفَت صغيرتَها. وصلَت قصتُها إلى كل مكان. حكايتُها جعلت منى جلايطة تتصل بالأخوات الكولومبيات، وهي تبكي:

ـ لقد قُتلت آمال في جنين.

الحكاية سافرت إلى الخارج وزرَعت الوجع في قلب «إليزابيث» التي بكت على كتفَي زوجها، لأجل المرأة وابنتها اللتين ساعَداهما وأحبَّاهما. لقد جعلَت «أنجيلا حداد» و«بوبو» يَحدَّان على وفاة صديقتهما القديمة.

لكن، على الرغم من ذلك كله، فإنَّ المشهد الإعلامي جعل تلك القصة تمرُّ بهدوء.

عندما فتحت إسرائيلُ المخيم أخيرًا، لم تأتِ الأمم المتحدة قطُّ. أعضاء الكونجرس الأمريكي ـ الذين يتجوَّلون في مواقع التفجيرات الانتحارية ويعبِّرون عن إخلاصهم الأبدي لإسرائيل ـ لم يأتوا قطُّ. لقد دَفنت جنينُ ثلاثًا وخمسين جثة في مقبرة جماعية، من بينها آمال، مع بقاء المئات في عِداد المفقودين.

التقرير الرسمي للأمم المتحدة ـ الذي أعدَّه رجالٌ لم يزوروا جنين قطُّ، ولم يتحدثوا إلى الضحية ولا إلى المعتدي ـ خلَص إلى أنه لم تحْدُث أي مذبحة. وقد تردَّد هذا الاستنتاج في عناوين الصحف الأمريكية: «لا مذبحة في جنين». «مسلَّحون فقط هم من قُتلوا في جنين، وَفقًا لإسرائيل».

لقد قتلوكِ ودفنوكِ في عناوينهم الرئيسَة، يا أُمي.

كيف يمكنُني أن أصفح يا أُمي؟ كيف لِجنين أن تنسى؟ كيف يمكن أن يحمل المرءُ عبئًا كهذا؟ كيف للمرءِ أن يعيش في عالَم يتجاهل مثلَ هذا الظلم كل هذه السنين؟ هل هذا ما يَعنيه أن يكون المرءُ فِلَسطينيًّا، يا أُمي؟

كالضبابِ أحاطت بقلب سارة صرخةٌ صامتة. خاليةٌ من الكلمات والتعريفات. ظنَّت أحيانًا أنها ضرورة لوضع الأمور في نِصابها إنسانيًّا أو سياسيًّا. في أحيان أخرى كانت تشعر بها كغضَب. ولكنْ في ظلال العزلة، كانت محض همسة صامتة من أعماقها، تَوقٍ جليٍّ إلى مجرد لحظة واحدة أخرى مع آمال، لكي تُجيب كلماتِ أُمها الأخيرة وتقول: «أنا أيضًا أُحبُّك».

(٤٦)

ما تَبقَّى على تِلال اللّه

٢٠٠٢ - ٢٠٠٣

وفَّى «آري» بوَعده بعد أسابيع، وأخذ سارة إلى عين حوض. طلب كلاهما إلى «دافيد» أن يرافقهما، وتمشَّى الثلاثة معًا عبر القرية. انتشرَت منحوتاتُ الفنِّ الحديث في المنطقة. يعمل بعضُ الفنانين، ومعظمُهم من اليهود الفرنسيين، في الهواء الطلق، على رسم لوحات للمناظر الطبيعية، بينما يتجول السكان بالسراويل والفساتين الصيفية. قال «آري»، وهو يشير إلى منزل حجريٍّ رائع بحدائق جميلة وأشجار مثمرة:

ـ هذا هو منزل عائلتكِ!

سألت سارة:

ـ هل نستطيع أن ندخل؟

ـ دعونا نسأل.

وطرَق «آري» الباب.

ظهرَت امرأة يهودية جميلة في الثلاثينيات من العمر. وعندما أدركَت

أنَّ هؤلاء الغُرباء الواقفين أمام باب منزلها يتجولون في رحلة من الحنين الفلسطيني، رفضت أن تُدخِلهم.

ـ أنا أعرف ما هو الموضوع. عليكم أن تفهموا أنَّ هذا البيت هو ملْكنا الآن...

وشدَّدت على كلمة «ملْكنا».

ـ علاوة على ذلك، فإنَّ طفلي نائم.

بذلك، أغلقتِ الباب ورحل من كانوا من المحتمَل أن يكونوا ضيوفًا.

التقطَت سارة صوَرًا للإسطبلات، حيث عاش غنُّوش وفطُّومة ذات يوم. كانت قد وعَدت عمَّ أمِّها درويشًا بزيارة ذلك البناء الحجري العزيز على ذكرياته. ثلاثة من أبنائه، أبناء عمِّ آمال، فقَدوا حياتهم في المقاومة. بينما سُجن الباقون، وتمنى درويش أن يزوره الموتُ آنذاك، لكنه نجا على كرسيه المتحرك ـ أكثر الغرَف انخفاضًا وأبعدها عن الخطر.

عثر «دافيد» و«آري» على قبر باسمة حيث كانت المقبرة، فوق القرية تمامًا. كانت معظم شواهد القبور قد أُزيلت، لكنَّ مجموعة من الورود الحمر المقلَّمة بالأبيض أطلَّت بين الحشائش الطويلة. قال «آري»:

ـ هذا هو تقريبًا المكان الذي دفنَّاها فيه. زرعَت داليا هذه الورود.

لحِقت سارة بـ«آري» و«دافيد». في أيامهما الأخيرة معًا، كانت آمال قد حدَّثت ابنتها عن القبر والورود. كانت القصة لا تزال ماثلة في ذهنها، وعرفت على الفور ما الذي ينظر إليه الرجال. طلبَت:

ـ ألا ينبغي لنا قراءة الفاتحة لِروح جَدَّتي باسمة؟

قال «آري»:

ـ طبعًا.

طلب «دافيد» في النهاية:

ـ هلا تُعلِّموني إياها؟ الفاتحة؟

ـ بكل تأكيد.

قبل أن ينتهي النهار، قادت سارة السيارة إلى مكان أبعد قليلًا، إلى شاطئ حيفا. كانت قد وعدت هدى بأن تلتقط صورًا للبحر. لم تتمكَّن هدى طوال حياتها من أن تحقِّق حلمها الطفولي بالذهاب إلى البحر، «مجرد الجلوس لأنني لا أستطيع السباحة».

في جنين، وجدَت سارة أخيرًا الأُسرةَ الموسَّعة التي تاقت إليها. أصبحت هدى صديقةً تبثُّ فيها من روح الأمومة. وكان عمٌّ والدتها درويش قد أنتج فرقة كبيرة من أبناء العمومة من الدرجة الأولى، والثانية، والثالثة، لكنَّ منصورًا كان الأحَبَّ إليها من الجميع.

بعد عامٍ من وفاة والدتها، كانت سارة لا تزال في جنين، تُسهِم في جهود إعادة الإعمار البطيئة التي تتم بأموال متفرقة من دول الخليج. شغَلت وظيفةً لدى إحدى المنظَّمات الفرنسية غير الحكومية، وعاشت مع هدى. كان كثيرًا ما يحضر خالُها «دافيد»، ويعقوبُ كذلك. كانوا أناسًا مختلفين جدًّا بعضهم عن بعض، ووجد كلُّ واحد فيهم الآخرَ في ذاكرة الفقدان وأمل الراحة، فأصبحوا أشبه بأُسرة.

بعد وفاة شقيقتِه، توقَّف «دافيد» عن شرب الكحول. وهذا ما كتبه على موقع سارة على الشبكة:

أنا لا أشربُ بعد الآنَ يا شقيقتي. بطريقةٍ ما منحتِني هذه

الهدية. لن أكونَ يهوديًّا كاملًا ولا مُسلمًا كاملًا. لن أكونَ فلسطينيًّا تمامًا ولا إسرائيليًّا تمامًا. قَبولُكِ لي جعلني أكتفي بأن أكونَ مجرد إنسان. لقد فهمتِ أنني على الرغم من قُدرتي على القسوة الشديدة، فإنني قادرٌ أيضًا على الحب العميق.

لاحقًا، تم ترحيل سارة إلى الولايات المتحدة، حيث حصلت على وظيفة لدى وكالة أنباء الجزيرة. ذهب يعقوب، ابنُ خالها، معها للدراسة في جامعة «تمبل»، حيث تخرَّجت آمال. ويبدو أنه كان ميالًا إلى الرياضيات، مثل عمِّه يوسف.

في أثناء إقامتها في جنين، كانت سارة قد تمكنت من استخراج تأشيرة على كفالتها لمنصور الذي أحبَّته كالشقيق الذي لم تحظَ به مطلقًا. وكان قد أُطلق سراحُ أسامة من المعتقَلات الإسرائيلية. هو وهُدى على حدٍّ سواءٍ شجَّعا ابنَهما على الذهاب. وهكذا، بعد فترة وجيزة من عودة سارة إلى منزلها في «بنسلفانيا»، أرسلَت إليه تذكرة للانضمام إليهما، هي ويعقوب، ليعيش معهما في البيت الفيكتوري القديم الذي أعادت والدتُها إعمارَه، وحيث ترعرعت سارة.

كتب «دافيد» عن هذا الموضوع على الموقع:

هُدى وأسامة يقولان لي إنَّ منصورًا يدرس الفنَّ ويعمل بدَوام جزئي مع سارة. قالت هدى: «إنه على ما يرام... أتلقَّى منه الرسائل طول الوقت. انظُر». أرَتني كومة منها. «انظُر ما كتب هنا»، قالت وهي تقرأ مقطعًا يصف فيه ذهولَه إزاء عالمٍ يخلو من الاحتلال العسكري. لم يتصور قطُّ كم هو مثير للروح أن يعيش المرء بحسب شروطه الخاصة، وأن يتجوَّل بحُرية!

كثيرًا ما أزور هدى وأسامة. إنها تحضِّر طعامًا رائعًا، كما أنهما يساعدانني كثيرًا على البقاء صامدًا عندما أفتقد الشراب.

«تناولْ نارجيلةً بدلًا من ذلك». يصرُّ عليَّ أسامة، وندخِّن معًا المعسَّل. تبْغ التفاح المعسل هو الألذُّ إلى حدٍّ بعيد.

بالأمس كنتُ هناك، وعلَّق أسامة على كيفية عَيشِ أولادنا معًا مثل الأشقاء في بيتكِ في «بنسلفانيا». أمريكية وإسرائيلي وفلسطيني. قالت هدى: «كم هو رائع ذلك!». عَيناها ـ عَينا النمر ـ من أجمل ما رأيت في حياتي.

قلتُ، وأنا أستنشق دخان تبغ التفاح المعسل: «نعم! حقًّا».

المُحِب «دافيد»

المُحِب إسماعيل

(٤٧)

يوسُف، في سبيل فِلَسطين

٢٠٠٢

أنا أخطِّط له. أنا أعيشه. أنا أراه. أنا سأحقِّق ذلك. سوف أقتُلُ. سأفعل. ولكنني لا أستطيع. أنا أعلم أني لا أستطيع. لقد زارَني الحبُّ في المنام، ووضع شفتَيه على جبيني.

تقول لي: «الحبُّ هو كَينونتُنا، يا حبيبي... حتى في الموت لم يتلاشَ حبُّنا، لأنني أعيش في عروقِك».

زوجتي الحبيبة. فاطمة الجميلة.

وأصارع لكي أستغرق في حلمي مجدَّدًا، لكي أعثر عليها مرة أخرى.

أعلم أنه لا يمكنني تدنيس حب فاطمة بالانتقام. وعلى قدر ما أريدهم أن ينزفوا، لن ألطِّخ اسمَ والدي بالأكاذيب التي سوف يقولونها. لا أستطيع أن أترك آمال وحيدة في العالم. لم أفِ بوُعودي. حاولتُ؛ أن أحمي زوجتي وأطفالي، أن أوجِّه حياة أختي تجاه الأُسرة والحب. حاولتُ، يا أبي.

الآن، وقد ذهبتُ إلى هذا الحد. هل يمكنني العودة إلى الوراء؟ لقد بدأتِ العجلاتُ بالدوَران.

أقول: «لن أَمضي قدُمًا بهذا».

يقولون: «لن يَمضي قدُمًا بهذا. الجبان. ولكن «هذا» سيَمضي قدُمًا من خلاله».

وسوف يمضي قدُمًا من خلالي.

سوف أعيش هذا الألم، ولكني لن أتسبب فيه. سوف أبتلع غيظي وأسمح له بحرْق أحشائي، لكنَّ الموت لن يكون إرثي.

يقول لي آخَر: «أنا أفهم، يا أخي».

شخصٌ ما يقود السيارة الحاملة للقنبلة داخل المبنى الأمريكي. إنها تمرُّ من خلالي.

وأرى على شاشات التلفزيون ما رأيتُ في ظلامي. إنه يعيش في داخلي مع السنوات النخِرة التي لن تنتهي. ويتمُّ بثُّ وجهي وطبْعُه في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

«العالم يعرف وجهَك، يوسف»، يقولون، ويتمُّ تسليمي رصاصة. «قُم بالشيء المشرِّف، إذا ما عثروا عليك».

مسدَّسي ورصاصةٌ وحيدة في جيبي. إنني أحمل مَوتي، شرفي، في ملابسي، بينما أبحث أنا «الإرهابي» عن عملٍ في الأركان الرطبة من الحياة. في البصرة أنا عاملٌ. في الكويت أنقلُ الحجارة. في الأردن أكونُ تقريبًا متسوِّلًا. مِن ثَمَّ، أنا بوَّابُ مدرسة. كم عنيد هو المصير! وكم هو متمسِّك بعاداته! أضع رأسي في غرفة تحت المكتبة. كم هو رحيم هذا المصير!

وفي كل مكان، أنا وحيد مع كتُب والدي، ورصاصتي، والحبِّ وذِكراه، والماضي، وذكرياتِ مستقبَل.

أكتبُ كثيرًا من الرسائل إلى آمال. أكوامٌ منها تتراكَم على طول جدراني القذِرة. ولكن أيُّ جحيم سيَفتح أبوابه علينا لو تواصلنا وتم اكتشافي؟ آه يا إسماعيل! لقد حملتُ ندبتَك على كتفي فترة طويلة جدًّا، إلى درجة أنها غرِقت في جِلدي أنا.

ها هي هنا.

أقرأ أخبار نيسان (إبريل) وأبكي الدموع. أبكي الظلامَ والحب. ها هي هنا في الموقع على الشبكة، في المكتبة حيث أسكن:

عزيزتي آمال، بالألف الممدودة الحاملة للأمل.
في بعض الأحيان يعبق الهواءُ بتنهُّدات الذاكرة. بنسيمٍ من ريح الزيتون أو الياسمين من شَعر المحبوبة. في بعض الأحيان يحملُ صمتَ الأحلام الميَتة. في بعض الأحيان يكون الزمنُ جامدًا مثل جثة تستلقي معي في سريري.
وهناك أنام، في انتظار الشيء المشرِّف، كي يأتي من تلقاء ذاتِه.
سأُبقي على إنسانيَّتي، على الرغم من أني لم أفِ بوُعودي.
ولن يُنتزَعَ الحُبُّ من عُروقي.



ملحوظة للمؤلفة

على الرغم من أن الشخصيات في هذا الكتاب وهميَّة، ففلسطين ليست كذلك، ولا الأحداث ولا الشخصيات التاريخية في هذه القصَّة. ولكي ألتزم الدقَّة في تقديم السياق والأحداث التاريخية، اعتمدت على العديد من المصادر المكتوبة التي يَرد ذكرها في قائمة المراجع، أو التي اقتبستها أحيانًا مباشرة داخل المتن. أشعر بعِرفان الجميل نحو أولئك المؤرِّخين الذين وضعوا ـ ولا يزالون ـ الأمورَ في نِصابها، وهو الأمر الذي يكون ثمنه غاليًا عادة على المستويين الشخصي والمِهني.

كانت كتابة هذه القصَّة ونشرها رحلة طويلة بدأت عام ٢٠٠٢. وقد نشرتها أول مرة تحت عنوان «ندبة داود»، لدى مطبعة صغيرة توقَّفت عن العمل بعد ذلك بوقت قصير. لكن في تلك الأثناء، كانت الرواية قد تُرجمت إلى اللغة الفرنسية ونشرتها دار «بوشيه/ شاستل» تحت عنوان «صباحات جِنين». ثم من خلال «مارْك بارِنت» هذا المحرِّر الرائع في «بوشيه/ شاستل»، أصبحت «آنا سولير- بونت»، من «وكالة «بونتاس» للأعمال الأدبية والأفلام» وكيلة أعمالي بعد مرور سنتين على نشر أول طبعة. بدأت «آنا» منذ تلك اللحظة ببثِّ حياة جديدة في هذه الرواية. ونتيجة لجهودها، تُرجمت إلى عشرين لغة، وعَرضت «بلومزبرِي» إعادة نشرها مرة أُخرى باللغة الإنجليزية. أنا ممتنة جدًّا لـ«آنا» ولـ«بلومزبري» لإتاحتهما

هذه الفرصة الثانية لنشر روايتي. وأودُّ أن أشكر، على وجه الخصوص، «ألكسندرا برينغل» التي آمنت بها الإيمان الكافي لاحتضانها في ظلِّ هذه الظروف الاستثنائية. وأودُّ أن أشكر «أنطون مولر» محرِّر الرواية على بصيرته الأدبية وخِبرته (وصبره عليَّ)؛ مما جعل هذه الرواية أفضل بكثير. كما أودُّ أن أشكر لـ«جانيت ماكدونالد» تدقيقَها الممتاز.

جاءت بذور هذا الكتاب من قصَّة قصيرة لغسان كنفاني، حول طفل فلسطيني ربَّته الأسرة اليهودية التي وجدته في مَنزل ذويه الذي استولت عليه عام ١٩٤٨. وفي العام ٢٠٠١، بعثت إليَّ الدكتورة حنان عشراوي (المفاوِضة والنائبة الفلسطينية البارزة) رسالة إلكترونية، بعدما قرأت مقالًا كنت قد كتبتُه عن ذكريات طفولتي في القدس. قالت في رسالتها: «مقالة مؤثِّرة للغاية، شخصية، وفلسطينية، وإنسانية. يبدو أنَّ بإمكانك كتابة سيرة ذاتية من الطراز الأول. نحن بحاجة إلى مثل هذا السرد. هل فكَّرتِ في ذلك؟». لذلك، أدين للدكتورة عشراوي بباكورة مشاعر ثقتي بنفسي في الكتابة. وبعد سنة، سافرتُ إلى مدينة جنين عندما سمعت تقارير تفيد بوقوع مذبحة في ذلك المخيم للَّاجئين؛ والذي كان قد عُزِل عن العالم، وأُغلِق في وجه الصحافيين والعاملين في مجال الإغاثة، بوصفه منطقة عسكرية مُغلَقة. ألْهمتني الأمور المُرعبة التي شاهدتُها الحاجةَ الماسَّة لكي أروي هذه القصة، وقد استقيت إلهامي من صمود أهالي جِنين وشجاعتهم وإنسانيتهم.

الجائزة التي تلقَّيتها من مؤسَّسة «ليواي» منحتني القدرةَ على تحمُّل المصاعب المالية التي واجهتُها في أثناء الكتابة. أشعر بالامتنان لهذه المؤسَّسة الرائعة، ولجميع المنظمات المماثلة التي تُقدِّر التعبير الفني

وتسعى إلى دعمه. أما الحبُّ والتشجيع اللذان تلقَّيتهما من الأصدقاء، فقد خفَّفا عني في أثناء العمل الكثيرَ من حلقات الشك الذاتي التي مررت بها، لا سيما عندما بدأت الديون ورسائل رفض النشر بالتزايد. سأكون دائمًا مَدينة لـ«مارك ميلر» على صداقته ودعمه الذي لم يتزعزع قطُّ، حتى في أحْلكِ أوقات استيائي ويأسي. كما أني ممتنَّة للحبِّ والمساعدة التحريرية اللذين تلقَّيتهما من كثيرين، وخصوصًا «مامي لامبث»؛ التي قرأت مخطوطة الكتاب ثلاث مرات في مراحل مختلفة من تطورها، و«ديفيد موريه»؛ لكونه أقرب صديق على الإطلاق، ومن أجل كل أيام السبت التي وافق مشكورًا فيها على استقبالي، عندما كنت أصل في ساعات مبكِّرة ـ بشكل لا يُطاق ـ لتناوُل الإفطار.

شكرٌ حارٌّ للأشخاص الآتية أسماؤهم ممَّن أثَّروا بأرواحهم السخية ومشورتهم وتشجيعهم في أحداث هذه الرواية أو توجُّهاتها، سواءٌ أكانوا يعلمون ذلك أم لا: «د. أبلين سيغال»، و«جلوريا ديلفيكيو»، و«كارين كوبالتشيك»، و«بيتر سيامبا»، و«ياسمين أديب»، و«بيفرلي بالوتشس»، و«مارثا هيوز»، و«نادر باكدمان»، و«آن باريش»، و«ويليام كوالسكي»، و«د. كريغ مللر»، و«عنان زهر».

على الرغم من أنَّني قابلتُ الراحل الدكتور «إدوارد سعيد» شخصيًّا مرة واحدة فقط فترة وجيزة، فقد أثَّر في صنع هذا الكتاب بطريقة لا يمكن أن توصف بأنها محدودة أبدًا. تحسَّر ذات مرة على أنَّ الأدب يفتقر إلى الرواية الفلسطينية، وقد شحذتْ خيبة أمله هذه عزيمتي. دافع «إدوارد سعيد» عن قضية فلسطين بفكر عظيم، وثبات أخلاقي، وشغف وهَّاجٍ مسَّ الكثيرين منا بأشكال متعددة. كان أكبر من الحياة بالنسبة إليَّ، وعلى الرغم من عِلمنا

جميعًا أنه كان مريضًا، اعتقدتُ أيضًا أنه أكبر من الموت. للأسف، كنت مخطئة. يتردَّد صدى حزنِ فقدانِه، الذي شعر به الآلاف منا، على صفحات هذه الرواية.

أوجِّه امتناني العميق إلى «ناتالي»؛ إذ مثَّلت أمومتي لها أعظمَ فرحة شعرتُ وأشعر بها، ومعجزةَ الحب غير المشروط الذي تعطينيه وتقبله مني؛ هي قوتُ قلبي.

المراجع

Benvenisti, Meron. *Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948*. Berkeley: University of California Press, 2002.

Chomsky, Noam. *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*. Updated edition. Cambridge, MA: South End Press, 1999.

Finkelstein, Norman G. *Image and Reality of the Israel-Palestine Conflict*. New and revised edition. London: Verso, 2003.

——. *The Rise and Fall of Palestine: A Personal Account of the Intifada Years*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1996.

Fisk, Robert. *Pity the Nation: The Abduction of Lebanon*. New York: Nation Books, 2002.

Gibran, Khalil, *The Prophet*. New York: Alfred A. Knopf, 1923.

Imulkais of Kinda. *The Sacred Books and Early Literature of the East*. Vol. 5, *Ancient Arabia*. Edited by Charles Horne, trans. F. E. Johnson with revisions by Sheikh Faizullah-bhai. New York and London: Parke, Austin and Lipscomb, 1917.

Karmi, Ghada. *In Search of Fatima: A Palestinian Story*. London: Verso, 2002.

Khalidi, Walid. *All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948*. Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 2006.

——. *Before Their Diaspora: A Photographic History of the Palestinians, 1876–1948*. Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1991.

Palumbo, Michael. *The Palestinian Catastrophe: The 1948 Expulsion of a People from Their Homeland*. New York: Olive Branch Press, 1991.

Rumi, Jalal al-Din. *The Essential Rumi*. New York: HarperCollins, 1996.

Said, Edward W. *The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-Determination, 1969–1994*. New York: Vintage, 1994.

Slyomovics, Susan. *The Object of Memory: Arab and Jew Narrate the Palestinian Village*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998.



عن المؤلفة

وِلِدت سوزان أبو الهوى لأُسرة فلسطينية من لاجئي نكسة ١٩٦٧، عندما استولت إسرائيل على أراضي أُسرتها ضمن ما ابتلعت من أراضي فلسطين، أو ما تبقَّى من فلسطين بما فيها القدس. انتقلت سوزان للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت آنذاك في سِنِّ المراهقة. وهناك حصلت على شهادة في علم الطب الحيوي، ثم بدأت حياتها المهنية في مجال العلوم الطبِّية. في تموز (يوليو) ٢٠٠١، أسَّست سوزان أبو الهوى «مَلاعب لفلسطين» (www.playgroundsforpalestine.org)؛ وهي مؤسَّسة للأطفال تكرِّس عملها لدعم حق الأطفال الفلسطينيين في اللعب. «بينما ينام العالم» هي روايتها الأولى، ويتمُّ الآن نشرها في تسعة عشر بلدًا. تعيش سوزان حاليًّا مع ابنتها في ولاية «بنسلفانيا».

«رؤية قوية وإنسانية لما اضطر العديد من الفلسطينيين لاحتماله منذ إنشاء دولة إسرائيل. تأخذنا سوزان أبو الهوى عبر الأحداث الدامية المشحونة بالغضب والمليئة بالرقة، بحيث تخلق صورًا لا تُنسى للعالم: حيث تعيش الإنسانية واللاإنسانية، نكران الذات والأنانية، الحب والكراهية، بعضها بجانب بعض.»

مايكل بالين، ممثل وإعلامي ورحالة بريطاني

تتتبع رواية «بينما ينام العالم» أربعة أجيال من عائلة أبو الهيجا، كانوا يعيشون في قرية فلسطينية هادئة، يزرعون الزيتون. وتروي ما تعرَّضوا له من معاناة منذ إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وكيف انهارت حياتهم المسالمة للأبد، وتم ترحيلهم قسرًا عن قريتهم وأرض أجدادهم إلى مخيم للاجئين في جنين لتبدأ مأساة ما زالت مستمرة حتى اليوم.

ومن خلال عيون آمال، حفيدة كبير العائلة، نتعرَّف عليهم وعلى ما حدث، مثلًا، لشقيقيها: الأول، يُضحي بكل ما يملك من أجل القضية الفلسطينية، والآخر، خُطف من عائلته ليصبح جنديًا في الجيش الإسرائيلي وعدوًّا لأخيه. بينما قصة آمال الدرامية تمتد عبر العقود الستة للصراع العربي الإسرائيلي: وقائع حب وفقدان، طفولة وزواج وحياة عائلية، والحاجة إلى مشاركة كل هذا التاريخ مع ابنتها لتحافظ على أعظم حب في حياتها.

هذا الكتاب هو قصة إنسانية ثرية بالتفاصيل الحقيقية المؤثرة. وهو أحد أكثر الكتب مبيعًا في المملكة المتحدة، وقد بيعت حقوق نشر وترجمة هذه الرواية في تسعة عشر بلدًا و جاري حاليًا إنتاجها كفيلم سينمائي.







تصميم: هولي ماكدونالد | صورة الغلاف: ديفيد ساكس/جتي